نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

مشرقيات

في صلات التجارة والفكر

نقولا زيادة

مشرقيات

في صلات التجارة والفكر

18

مشرقيات

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

مشرقيات

في صلات التجارة والفكر

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
© رائد وباسم زيادة
إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

محتويات الكتاب

تصدير ٩
المقدمة ١١
القسم الأول: نبش الماضي ٢٩
١ ـ أسطورة الخليقة البابلية ٣١
٢ ـ المدنيات القديمة ٤٤
٣ ـ قصة اكتشاف المدنيات الأولى ٥٥
القسم الثاني: في البحار الشرقية ٨٥
١ ـ دليل البحر الأرثري ٨٧
٢ ـ تجارة البحار الشرقية في العصور القديمة ١٠٥
٣ ـ تطور الطرق التجارية بين البحر الأحمر والمحيط الهندي ١١٦
القسم الثالث: إلى الصين ١٣٧
١ ـ الأمبراطور مو ١٣٩
٢ ـ السفير تشانغ شين ١٤٣
٣ ـ الكتاب والمكتبات في الصين القديمة ١٤٦
٤ ـ تكنولوجيا الصين تصل أوروبا ١٤٩
القسم الرابع: العرب في المشرق الإسلامي ١٥١
١ ـ العرب في ما وراء النهر/ معركة طلس ١٥٣
القسم الخامس: العرب والصين ١٦٣
١ ـ نوافذ صينية على العرب في العصور الوسطى ١٦٥
٢ ـ العالم العربي في كتاب صيني من العصور الوسطى ١٧٢
٣ ـ الجزيرة العربية وجوارها في مؤلفات صينية ١٧٦
القسم السادس: المشرق الإسلامي في عصر الفارابي ١٨٩
١ ـ مقدمة ١٩١
القسم السابع: ما وراء النهر ٢٢٥
في عصر ابن سينا ٢٢٧

تصدير

تتناول الصفحات التالية فصولاً تتعلق بالماضي الذي نبشه علماء الآثار في بلاد الرافدين وما إلى الشرق منها والصلات التجارية بين المشرق العربي والديار الشرقية، وبعض أخبار بلاد العرب، كما عرفها الصينيون، وتطور الفكر العربي الإسلامي في بلاد الخلافة الشرقية.

ونود أن نعيد هنا ما قلناه قبلاً في غير مجلد من هذه السلسة، وهو أن التكرار أمر لا محالة حاصل، فقد كتبت هذه الفصول في مناسبات مختلفة وأوقات متباعدة. فليعذرنا القارىء على هذا، فإنه من طبيعة الأشياء في مثل هذه الحال.

بيروت صيف ١٩٩٨

المقدمة

تعرف الغرب ـ وأوروبا بالذات ـ إلى الشرق، باعتباره الرقعة التي تمتد من سواحل البحر المتوسط غرباً إلى البحار الشرقية النائية ـ في الهند والصين وأندونيسيا ـ شرقاً، عبر قرون طويلة، وعن طريق عدد كبير من الكتّاب والرحالين والجغرافيين والمؤرخين. وفي تلك الفترات كانت وسائل اتصال الأوروبيين بهذا الشرق تختلف باختلاف الدوافع وتعدد البواعث. ويمكن القول، إجمالاً، بأن الآلاف من الكتب والنشرات التي وضعت عن هذه المنطقة الواسعة لم تكن جميعها تقدم للقراء حقائق ومعلومات. إذ إن الكثير منها، وحتى في القرن الرابع عشر مثلاً، كان يحتوي إلى جانب الحقائق والمعلومات، الكثير من الأساطير والخرافات التي كان الخلف ينقلها عن السلف، لا رغبة في تشويه الواقع، ولكن لأنه كان يعتقد أن هذا هو الواقع.

ولعلَّ خير ما نفعله، لتوضيح تطور هذه المعرفة الأوروبية بهذا الشرق الواسع، هو أن نتابع هذا الأمر في عصوره المختلفة، بدءاً من التقاليد الكلاسيكية اليونانية التي وصلت أوروبا ـ عن طريق البرتغاليين ـ إلى الهند. ثم نقف عند القرن السادس عشر لنلخص ما كانت قد وصلت إليه المعرفة الأوروبية ـ العامة ـ عن هذه الرقعة الواسعة.

التقاليد الغربية والشرق إلى حوالى سنة ١٣٠٠م

لانريد أن نقف عند هوميروس وغيره من الشعراء والكتّاب، ولكننا ننتقل إلى القرن السادس قبل الميلاد. في ذلك الزمن كان اليونان قد تعرفوا الى سواحل البحر المتوسط الشرقية، بحكم وجود جوالي يونانية في آسيا الصغرى ومصر، وبسبب من العلاقات التجارية التي ترجع حتى إلى أيام الكنعانيين. وكانت هذه العلاقات التجارية قوية لا مع سواحل المتوسط فحسب، بل حتى مع سواحل جزيرة العرب الجنوبية. ولكن الوسيط التجاري كان دوماً ذلك التاجر الذي يقيم في الموانىء الشرقية للبحر المتوسط من غزة جنوباً إلى رأس الشمرا (أوغاريت) شمالاً. هذا مع العلم أن المدن البحرية كانت تقوم وتنشط وتتأخر وتتدمر، ولكن كان بعضها يظل هناك نشيطاً، بما يكفي لنقل السلع من الجهة الواحدة إلى الأخرى.

ولنذكر أنه في القرن السادس ق.م. قامت الدولة الفارسية واتسعت رقعتها بحيث امتدت من حوض نهر السند إلى آسيا الصغرى. وقد احتل دارا الأول حوض السند حوالى سنة ٥١٥ ق.م. وأراد هذا الامبراطور أن يتعرف إلى السواحل الممتدة من مصب نهر السند إلى منطقة العاصمة في عيلام (سوسة)، فانتدب لذلك سكايلاكس اليوناني ليقوم بالمهمة. فسار سكايلاكس في نهر السند إلى مصبه ثم حاذى سواحل إيران الجنوبية وعبر خليج عُمان والخليج العربي. والتقرير الذي وضعه سكايلاكس وقدمه إلى الامبراطور هو أول «وثيقة

غربية» عن رقعة شرقية نائية. ويبدو أن الضابط اليوناني كان أكثر اهتماماً بثروة البلاد وإمكاناتها التجارية والاقتصادية منه بالأمور الجغرافية. والباحثون أجمعوا على أن تقرير سكايلاكس فيه حقائق علمية عن الهند والهنود، لكن «التقرير» محشو بقصص سمعها الرجل من رفاقه، وفي الأسواق، وعلى المركب فدوّنها على أنها أمور حقيقية. وقد ضاع التقرير الأصلي، لكن بعد أن تناقل المؤلفون والكتّاب اللاحقون أكثر ما جاء فيه. وهكذا فقد كان أول من تعرف إلى هذا «الشرق» جاء من شرقه.

إلاّ أن الامبراطورية الفارسية اشتبكت في حروب طاحنة مع المدن اليونانية وخاصة أثينا واسبارطة (٤٩٩ ـ ٤٤٩ ق. م). وكانت السنوات الأولى من هذه الحروب (٤٩٩ ـ ٤٧٩) أهمها. وكان القتال فيها مباشراً. وقد انتصر الفرس أولاً واحتلوا أثينا لكن اليونان صدوهم فيما بعد. ويبدو أن هذا النزاع العنيف الطويل الأمد، أثار رغبة البعض في التعرف إلى أجزاء من الامبراطورية، أملاً في توضيح أسباب النزاع، أو في سبيل فهم العدو. وكان الرجل الذي نعرف أنه قام بذلك هو هيرودوتس (٤٨٥ ـ ٤٢٥ق.م)، الذي أصبح يسمى، فيما بعد، أبا التاريخ. فقد وضع المؤلف تاريخه في أواسط القرن الخامس ق.م. بعد أن زار آسيا الصغرى والعراق وبعض إيران(؟) وبلاد الشام ومصر. وجمع هيرودوتس، في رحلته، معلومات كثيرة من الذين عرفهم في المناطق التي زارها، كما جمع معلومات وفيرة أيضاً عن مناطق نائية ممن اتصل بهم، ونقل عن بعض الكتّاب الأقدم عهداً، مثل هقاطايَس (حوالى ٥٠٠ ق.م.).

ثمة أمور ذكرها هيرودوتس ذكراً مفصلاً، وكانت، على ما يبدو، صحيحة. فتحدث، فضلاً عن أرض الرافدين ومصر وبلاد الشام، عن أبعاد جزيرة العرب وسكانها وعادات السكان فيها والمتاجر والسلع التي تنقل منها، سواء في ذلك ما ينتج فيها وما يحمل إليها (ولو أنه لم يفرق تماماً بين الأنواع). هذه الأخبار عن جنوب الجزيرة جاءت سماعاً (أو نقلاً). ومثلها ما دوّنه عن الهند مثلاً، من حيث أن الهند كانت بعد (ولو أن هذا لم يكن وصفاً دقيقاً للوضع) جزءاً من الامبراطورية الفارسية. ومثل ذلك يقال في أخباره عن المنطقة الممتدة من أرض الرافدين إلى الهند. ولم يستطع «أبو التاريخ» أن يتخلص من القصص والأساطير والخرافات المتعلقة بالبلاد والسكان والنباتات والحيوانات، فدوّن منها الكثير. وانجرف مع سكايلاكس، مثلاً،في إشارته إلى الذهب والحفر عنه في المقالع والمحاجر ـ ولكن على أيدي النمل الذي يصل إليه ويخرجه للناس، كي يتمكنوا من دفع الضرائب الكثيرة المطلوبة منهم!..

وفي العقود الأخيرة من القرن الرابع ق.م. قام الإسكندر المقدوني باحتلال آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر وأرض الرافدين (بعد أن قضى على الامبراطورية الفارسية) وإيران وحوض نهر السند وبعض أواسط آسيا. ولما عاد إلى بابل كان يخطط، فيما يرجح، لاحتلال الجزيرة العربية (وسواحلها على الأقل)، لكنه توفي سنة ٣٢٣ق.م. فتوقف كل شيء. إلا أن فتوحات الاسكندر أوجدت اتصالات جديدة بين هذه الأجواء المتباعدة من الشرق، وقوّت الروابط التي كانت قبلاً، وفتحت المجال أمام الخيال الخصب ليضيف دوماً، ما ينتجه

هذا الخيال حول شخصية الاسكندر وبطولاته وشجاعته وحكمته، إلى الحقائق المتعارف عليها.

أما من حيث الوثائق التي نشأت عن هذه الأعمال الكبيرة، والتي كان لها أثر في تعرف الغرب الأوروبي إلى الشرق، فإنه يمكن إجمالها بما يلي:

١ ـ أرسل الإسكندر قائد الأسطول نيارخوس بحراً من مصب نهر السند (بعد أن سار فيه إلى مصبه) إلى شمال الخليج العربي مستطلعاً الأحوال والأوضاع على الشاطىء الآسيوي (الهندي الإيراني). ويبدو أن تقرير نيارخوس كان عملياً ولم ينجرف مع القصص.

٢ ـ أرسل الإسكندر بعد عودته إلى بابل، ثلاث بعثات بحرية متتالية لاكتشاف سواحل الجزيرة العربية. ويبدو أن آخر واحدة منها وصلت إلى خليج عُمان. وضعت تقارير مختصرة عن هذه الاكتشافات، لخصها كاتبان كانا يرافقان الإسكندر. وبذلك حفظت المعلومات.

٣ ـ كان ثمة مرافق للإسكندر يدوّن أعماله اليومية في مفكرة (إلى سنة ٣٢٧ق.م. أي قبل انتهائه من حروبه).

٤ ـ بعيد وفاة الإسكندر وضع اثنان من مرافقيه ـ بطليموس، القائد العسكري، وأرسطوبولس المهندس المعماري ـ كلّ كتاباً عن الإسكندر. ويبدو أنهما اعتمدا على المفكرة من جهة، إلاّ أن كلاً منهما كان يعرف الإسكندر.

هذه الأصول جميعها فقدت. لكن قبل ذلك كان أريان، مؤرخ الإسكندر، قد وضع مؤلفاته عن الإسكندر وخلفائه (ألّف الكتاب حوالى سنة ١٥٠ للميلاد)، وبذلك حفظ الأمور الهامة من هذه الوثائق المذكورة.

وهذه التقارير والكتب التي ذكرنا، زودتنا، بواسطة أريان، بمعلومات عن بعض مناطق هذا الشرق الواسع. من ذلك صور عن شواطىء الجزيرة العربية، والأماكن التي تصلح لإنشاء الموانىء، والجزر الموجودة في البحار المحيطة بها،كما أنها ذكرت الطيوب والتوابل ـ على نحو ما فعل هيرودوتس ـ وأماكن تجميعها. وكانت الصور التي وضعت للهند (وإيران طبعاً) أوضح وأصح مما سبق. ذلك بأن هؤلاء الناس عرفوا المناطق. ومن هنا كان باستطاعة المتعلمين مثلاً، أن يتعرفوا إلى ما تحويه البلاد. لكن القصص والأساطير والهُوَل والحيوانات المختلفة الشكل واللون والأناسي الغريبين ظلت تحتل مكانتها في كثير من هذه الكتب. بل إن أسطورة الإسكندر بالذات طغت، في بعض المؤلفات، حتى على البلاد والعباد.

بعد وفاة الإسكندر تنازع الخلفاء، وتحاربوا، وكان أن حاول سلوقس (الأول) نيكاتور (حكم ٣١٢ ـ ٢٨٠ق.م) استرجاع نفوذه في المشرق. لكنه وجد حاكماً قوياً في شمال غرب الهند، فعقد معه محالفة. وأرسل سلوقس ميغاشينس سفيراً له إلى بلاط تشاندراغوبتا (حكم ٣٢٢ ـ ٢٩٨ق.م) في بثنا. وفي أثناء إقامته هناك جمع السفير أكمل وأدق كتاب وضع باللغة اليونانية عن الهند (فقد هذا الكتاب ـ لكن الكتّاب الذين جاءوا بعده، ومنهم أريان، أفادوا من هذا الكتاب).

والصورة الإجمالية عن الهند (وقد ظلت الهند مدة طويلة الجزء الرئيسي في نظرة الغرب إلى الشرق) التي جاءتنا من المصادر المذكورة تهتم بها على أنها بلاد الذهب والحجارة الكريمة والأنهار الضخمة التي تغير مجاريها، وأرض الموسمين الزراعيين الغنية بقصب السكر والقطن والتوابل والطيوب والعقاقير والفيلة الضخمة والأفاعي القاتلة والطيور الكبيرة الجميلة.

ولما لم يكن لأي من هؤلاء الكتّاب، وميغاشينس على الخصوص، أي معرفة بلغات الهند، فإن كتاباتهم لم تتطرق لا إلى فلسفتهم ولا إلى أديانهم، وإن كان البعض قد وصف العبادة وطقوسها.

والعصر الهلينستي (من الإسكندر إلى المسيح) عرف كتّاباً في الجغرافيا تناولوا أجزاء من الشرق، إما بحكم عملهم العلمي، مثل أراتوشينس (المعروف عند العرب باسم أراتسطين) الذي كان أميناً لمكتبة الإسكندرية (من حوالى ٢٣٤ ـ ١٩٦ق.م)، وإما بحكم اتصالهم بالبيت المالك، البطالمة في مصر، مثل أغاثارخيدس الإسكندري، الذي كان يعنى بالجغرافيا. وقد عالج الأول بلاد العرب معالجة دقيقة، كما أنه كتب عن الهند وجزيرة سرنديب (سيلان، سري لانكه اليوم). ومثل ذلك يقال عن الكاتب الثاني، ولو أنه كان أقل دقة علمية وأكثر عموميات.

ونحن لا نريد، في هذه العجالة، أن نلخص الآراء والأفكار التي جاءت عند مختلف الكتّاب عن الشرق، ولكن الذي ننوي أن نبيّنه هو اتساع آفاق المعرفة الغربية بالشرق تبعاً للتطور التاريخي ـ الحربي والسياسي والاقتصادي ـ الذي كان الطرفان ـ الغرب والشرق ـ يتعرضان له.

والذي نود أن نؤكده هو أن أكثر الكتب ـ الأصلي منها والملخص عنه ـ كانت وقفاً على فئة محدودة، هي فئة النخبة. أما العامة فقد ظلت آراؤهم الجغرافية وصورة البلاد النائية عنهم أموراً غائمة ضبابية.

وكان قيام الامبراطورية الرومانية وتوسعها شرقاً، وازدياد العلاقة التجارية بين أجزائها وبين الشرق (البعيد خصوصاً) مجالاً لازدياد التنقل وانتشار الأخبار عن المتاجر والسلع والأشياء الغربية في بلدان الشرق. فسترابون (حول ٦٣ق.م ـ ٢١م) الجغرافي المؤرخ، نقل بعض معلوماته عن التجار الذين كانوا يترددون على الأماكن القاصية.

ولعله من الطريف أن نعثر على كاتب روماني (كتب باللاتينة) في أواسط القرن الأول للميلاد الذي كان من أوائل من أشار إلى الأرض الذهبية وهي شبه جزيرة الملايو. وهذه ظاهرة من ظواهر اتساع الأفق الجغرافي.

وقد ظهرت، في العصور الأولى للامبراطورية كتب هي أقرب إلى الدليل الجغرافي التجاري. ومن أهمها، بالنسبة إلى تجارة الشرق، دليل البحر الأرثري الذي وضعه مؤلف مجهول حول سنة ٥٠ للميلاد. والبحر الأرثري هنا يقصد به المحيط الهندي. موانىء مصر والجزيرة العربية والقرن الأفريقي وغرب الهند مذكورة فيه مع ما يتجمع في أسواقها من

المتاجر، سواء في ذلك ما ينتج محلياً وما يحمل من جهات أخرى. هذه المعرفة التجارية دقيقة جداً، وإن لم تكن جديدة. إضافة إلى ذلك، فإن المؤلف يشير إلى الصين إشارة عابرة.

والسلع التي كانت تحمل من المناطق النائية زادت كميتها في القرنين الأولين للامبراطورية الرومانية، وتعددت أنواعها عن ذي قبل. ولعل الحرير الصيني كان أكثر هذه البضائع جاذبية، لأنه لم يكن يأتي إلا من هناك. ومن هنا كانت ثمة عناية بالتعرف إلى الطريق البري الذي كان الحرير ينقل عليه. ويُعد بطليموس القلوذي الإسكندري في مقدمة الجغرافيين الذين عاشوا في زمن ازدهار الامبراطورية (حوالى ١٢٧ ـ ١٦٠م).

على أننا يجب أن نذكر أمرين آخرين، هما وجود تجار هنود في الاسكندرية، ووصول بعض السفارات الشرقية ـ من الصين والهند وما إليهما ـ إلى الامبراطورية، وحتى إلى روما بالذات. (وقد كان لوجودالهنود في الإسكندرية أثر على أفلوطين الفيلسوف المصري صاحب فلسفة الأفلاطونية الحديثة أو النظرة الاشراقية).

ومع ذلك، ومع كل ما كتب ونشر، فقد ظل الشرق، بأجزائه القصوى مكاناً قصياً جداً بالنسبة إلى العالم الغربي ـ اليوناني الروماني ـ فلم تتأثر حياته بما كتبه الغرب والعكس صحيح. وظل الشخص العادي اليوناني الروماني يتصور تلك الأصقاع النائية على أنها بلاد العجائب والغرائب، شكلاً وتصرفاً، أناسي وحيوانات. والهند كانت، من حيث حياته، بلاد الطيوب والتوابل والأفاويه. أما الصين فكانت بلد الحرير. لكن المعرفة العامة والصورة المتعلقة ببلاد العرب كانتا أقرب إلى الواقع، ولو أن اليمن، مثلاً، كانت البلاد التي يصنع ملوكها آنيتهم من الذهب!

كان انقسام الامبراطورية الرومانية (٣٩٥م) رسمياً إلى شرقية وغربية تكريساً لواقع قد مر عليه قرابة قرن من الزمان. والدولة الرومانية الشرقية ـ البزنطية ـ التي تدخل في حوزتها مناطق شرق البحر المتوسط، كانت سبيل الاتصال التجاري بين آسيا شرقاً وبقية أصقاع حوض المتوسط الغربي غرباً. وهذه التجارة كانت أقل من أيام الامبراطورية الرومانية في القرنين الأولين من حياتها، لكنها ظلت تتعامل مع الأقطار النائية الشرقية للحصول على الطيوب والأفاويه والتوابل والعطور والحجارة الكريمة والحرير. وقد ظل ثمة تجار ورحّالون يقصدون المناطق الشرقية. ولعل من أهم هؤلاء قوزما البحار الهندي من أهل القرن السادس الميلادي. وهو الذي زوّدنا، في كتابه المسمى «الطوبوغرافية المسيحية العامة (حوالى ٥٤٠م)، بمعلومات اقتصادية هامة عن هذه التجارات. وقد قضى قوزما بعض الوقت في جزيرة سرنديب (سيلان، سري لانكه اليوم) وكتب عنها يقول إنها كانت مستودع المتاجر الشرقية، وإن الحرير الصيني وسلع الهند الصينية كالصبرة والزنجبيل وخشب الصندل وفلفل غرب الهند (ساحل مالابار) ونحاس منطقة بومباي والمسك والخروع من السند والحجارة الكريمة من سيلان: كانت كلها تجمع فيها. وكان الحرير البضاعة التي تأخذها الدولة الساسانية فتنقلها عبر الخليج العربي إلى أرض الرافدين وبلاد الدولة البزنطية، فيما كانت السفن العربية والأثيوبية (الحبشية) تحمل السلع الأخرى، مع سلع أفريقية أيضاً، إلى عدولي

عاصمة مملكة اكسيوم، ثم تحمل السفن الامبراطورية هذه المتاجر جمعاً عبر البحر الأحمر إلى القلزم، ومن هناك تحمل براً إلى مصر وبلاد الشام وبزنطية.

إلا أن قوزما جمع معلومات عن بلاد تقع إلى الشرق من الهند. وقد كان ما نقله عن الصين وموقعها أوضح مما دوّنه سابقوه. وكان ما وضعه قوزما عن المناطق الشرقية النائية آخر ما دوّن من المعلومات ونواحي المعرفة، التي كان يمكن أن تصل إلى الغرب. وأكثر ما كتب ونشر بعد ذلك، وحتى حوالى سنة ١٣٠٠م كان أدباً قصصياً أسطورياً ضخّمته الأيام والأزمنة وعمّقته المعتقدات الدينية الممتزجة بجنة عدن ومكانها. أما مصدر قوته فكان ما نسج حول الإسكندر من أساطير. ولذلك فقد ظلت معرفة الناس العاديين بالشرق النائي معرفة ضبابية، إن لم يكن ضبابها قد أصبح أكثف من ذي قبل.

ويبدو أن توقف تطور المعرفة الغربية عن هذه المناطق يعود إلى العوامل التالية:

أولاً: إن الفتوح العربية وقيام الدولة العربية الإسلامية في القرن السابع، نقل التجارة الشرقية البحرية إلى أيدي العرب، فتناقص الاتصال الغربي المباشر مع تلك البلاد، ومن ثم قلّت التقارير والمؤلفات عن تلك المناطق.

ثانياً: مع أن أوروبا وصلت إلى شرق البحر المتوسط واحتلت المناطق الشامية منه وأنشأت فيه دويلات أوروبية صليبية (١٠٩٩ ــ ١٢٩١)، ومع أن عشرات من الحجاج والرحالين الأوروبيين زاروا فلسطين والبلاد المجاورة وكتبوا عنها الكثير، فإن أياً منهم لم يحاول أن يجمع معلومات عن تلك المناطق الشرقية النائية.

ثالثاً: برغم أن أوروبا القرنين الحادي عشر والثاني عشر نقلت عشرات من الكتب العربية العلمية والفلسفية والطبية وما إليها إلى اللاتينية وغيرها، فإن أحداً لم ينقل أياً من الكتب الجغرافية (ونقل المجسطي لبطليموس كان بسبب اهتمام المؤلف بالفلك لا بالجغرافيا). والكتب الجغرافية التي وضعت في القرن العاشر الميلادي مثلاً، مثل أعمال الاصطخري وابن حوقل والمقدسي، كانت تحتوي على معلومات دقيقة عن الهند وأواسط آسيا مع فوائد عن الصين وغيرها (كما أنها عرضت لبقية أجزاء العالم الإسلامي والسودان الغربي). ولكن هذه لم تترجم. ولم تترجم كتب الرحلات.

من هنا ظلت المعرفة الغربية عن الأقاليم الشرقية النائية ناقصة.

الاتجاه نحو الصين

بعد أن اتضح لأوروبا فشلها في السيطرة على بلاد الشام، وخاصة بعد معركة حطين (١١٨٧) جرّب بعض أهل الحل والعقد أن يتصلوا بالمغول رأساً، أملاً في أن يربحوهم أتباعاً للمسيح أولاً، وحلفاء لهم ضد القوى العربية الإسلامية في المشرق ثانياً. ومن هنا نجد أن البابوية بمعية لويس التاسع ملك فرنسا (حكم من ١٢٢٦ إلى ١٢٧٠) ترسل مبشرين إلى بلاد المغول. وكان أول أولئك المبشرين كاربيني الذي أرسله البابا انوسنت الرابع (١٢٣٤ ــ ١٢٥٤) في سنة ١٢٤٥ في هذه المهمة. ولما عاد وضع كتاباً في تأريخ الصين، الذي يعتبر أن فيه

الكثير من الوصف والخبر الصحيح. وقد أرسل لويس التاسع بعثتين إلى المغول، الأولى كان الشخص البارز فيها اندراوس (١٢٤٩)، الذي لم يضف إلى معرفة أوروبا عن الصين شيئاً يستحق الذكر، والثانية كان قوامها روبروكس (١٢٥٣ ـ ١٢٥٥). وهذا لما عاد إلى إنطاكية (١٢٥٥) بعث إلى لويس بتقرير وافٍ عن دولة المغول، وكان يحتوي على معلومات وافية مفيدة جديدة عن الصين. وفي السنة ١٢٨٩ أرسل البابا يوحنا كورفينو الذي سافر بحراً عن طريق الهند وملقا، لكن الذي جاء به كان ضئيلاً بالنسبة إلى ما كتبه ماركو بولو عن تلك الديار.

وماركو بولو لم يرحل إلى تلك الديار مبشراً. ذلك بأن الأخوين نيكولو ومافيو بولو، وهما تاجران من البندقية، كانا أول الأوروبيين الغربيين الذين ساروا براً من شبه جزيرة القرم إلى كامبلوك (بكين الحالية)، حيث استقبلهما قوبلاي خان، وطلب منهما أن يعودا إلى البابا رسولين من قبله ليطلبا إلى البابا أن يبعث بمئة من أهل العلم، ليقوموا بتوضيح أوروبا لأهل البلاط المغولي وليتعرفوا إلى ما عند المغول. كانت رحلة الأخوين بين سنتي ١٢٦٠ و١٢٦٩. ولما لبى البابا الطلب أرسل الأخوين بولو ومعهما راهبان (١٢٧١). لكن لم يكن المهم هؤلاء الأربعة؛ بل إن المهم هو أن ماركو، وهو ابن نيكولو، رافق البعثة إلى الصين ـ البلاط المغولي، بينما عاد الراهبان من أرمينيا. ولما وصل أفراد أسرة بولو الثلاثة استعملهم الخان في إدارة الحكومة، لأنه كان يحب أن ينوّع الموظفين. وقد قام ماركو برحلات طويلة في الصين فزار البلاد من طرف إلى طرف حاملاً رسائل إلى الحكام من الخان، الأمر الذي يسر له التعرف إلى كثير من أمور البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وليس يهمنا أن نتابع تنقله في البلاد، فنحن لا نكتب عنه وعن زياراته، ولكن الذي نعنى به ما خلّفه كأثر لهذه الرحلة.

عاد ماركو بولو من الصين بحراً من تسوتونغ (وهي زيتون الجغرافيين العرب ومؤرخيهم) على مقربة من أموي، ماراً بسومطره وسيلان وملَبار (الساحل الغربي للهند) والخليج العربي. وقد وصل البندقية أخيراً سنة ١٢٩٥. كان ماركو بولو يسير مفتح العين والأذن، ممعناً في الملاحظة، وكان يدوّن ما يراه. لذلك كتب عن رحلته وصفاً دقيقاً كان أوفى وأدق ما كتب عن الصين إلى سنة ١٥٥٠. ومن كتابات ماركو بولو عرف الأوروبيون أن الصين أوسع بلد في الدنيا وأغناها وأكثرها سكاناً. وقد وصف مدنها وأقنيتها الكبرى التي تربط أحواض الأنهار بعضها بالبعض الآخر، فتكوّن طرقاً للتجارة النهرية، وأنهارها وموانئها وصناعاتها ومواردها الطبيعية ونباتها وحيواناتها وعادات سكانها ونظمها. وكان موقفه من هذا كله موقف المنصف بحيث أنه كان يشير إلى تفوق أهل الصين على الأوروبيين عندما كان يرى ذلك. ولأن كتاب ماركو بولو كتب بلغة شائعة وأسلوب فيه روعة القصة (ماركو بولو أملى كتابه على رفيق له في السجن في جنوى قبل أن يعود إلى البندقية)، فقد شاع الكتاب في حياة صاحبه (توفي ١٣٢٤) وقرىء كثيراً في العقود التي تلت نشره.

كان ثمة عدد من المبشرين والرحّالة والتجار الذين زاروا الصين، لكن أحداً لم ينبه شأنه مثل ماركو بولو. على أننا يجب أن نذكر الراهب أودوِرك، الذي بدأ رحلته إلى الشرق

بحراً بين ١٣١٦ و١٣١٨، وأقام سنتين في الهند، وانتقل منها إلى جنوب شرق آسيا فالصين (بحراً أيضاً) وعاد إلى إيطاليا سنة ١٣٣٠. ثم أملى أخبار رحلته على راهب آخر. وقد قرىء كتابه كثيراً (لا تزال هناك ثلاث وسبعون مخطوطة من الكتاب) وكان متمماً لكتاب ماركو بولو، وإن لم يبلغ مبلغ هذا الأخير من حيث الإحاطة والتجارب الشخصية.

كان ثمة تجار جنويون كثيرون في الهند ـ الصينية، لكن ليس بين أيدي الباحثين شيء هام مما خلّفه هؤلاء عن وصف للبلاد.

والمهم أن الأفق الأوروبي الذي بدأ يدور حول شواطىء البحر المتوسط (في العصور القديمة) أخذ يتسع مع الزمن. وبسبب فتوح الإسكندر وتجارة الامبراطورية الرومانية مع إيران وحوض السند بطريق البر وإلى سواحل الجزيرة العربية وشرق أفريقيا وسيلان والهند بحراً، بلغ اتساعه أن شمل جنوب شرق آسيا والصين براً وبحراً. وكانت كل خطوة تحمل معها معلومات جديدة وقصصاً وأساطير وأخبار مغامرات. والمهم أن المعرفة العلمية ظلت وقفاً على فئات صغيرة، فيما كانت القصص وأخبار الناس العجيبة والحيوانات الغريبة والذهب وما إليها تنتشر بين عامة الناس.

الغرب والشرق ١٣٠٠ ـ ١٥٠٠م

مع مرور الزمن كانت أربعة طرق قد ربطت أوروبا بالشرق، في أجزائه المختلفة، وهي: (١) الطريق البري الشمالي من الصين إلى البحر الأسود (أو جنوب روسيا رأساً). (٢) الطريق البري الأوسط من الصين إلى إيران والعراق وبلاد الشام. (٣) الطريق البحري من البحار الشرقية إلى الخليج العربي ومن ثم إلى بلاد الشام. (٤) الطريق البحري من البحار الشرقية إلى البحر الأحمر ومصر. وكل هذه الطرق كانت لها تفرعاتها (التي لا تعنينا تماماً في هذا المجال). ولكن كلاً منها كانت تلقي، في نهاية المطاف، بمتاجرها على موانىء البحر المتوسط حيث تنقل إلى أوروبا، كما كانت هذه الموانىء تتلقى السلع الأوروبية لتبعث بها، بدورها، إلى الشرق ـ قريبه وبعيده. على أنه من المهم أن نتذكر أن هذه الطرق جميعها لم تكن دوماً مفتوحة أمام التجار، إذ إنها كانت، بطبيعة الحال، تتأثر بقيام الدول المختلفة ونشوب الحروب الكثيرة في هذه الرقعة الواسعة. وإذا أخذنا القرنين الثالث عشر والرابع عشر، على سبيل المثال، وجدنا أن حروب المغول وحملاتهم، ثم قيام دولهم في إيران والعراق، قد أضعفت التجارة على الطريقين البري الأوسط والبحري عن طريق خليج العرب،فترتب على ذلك أن ازداد النشاط التجاري على الطريقين الباقيين. وكان النشاط التجاري الأوروبي في القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر يكاد ينحصر، بالنسبة إلى أوروبا، بالمدن الإيطالية ـ البندقية وجنوى وبيزا وباري في الدرجة الأولى. ولما احتل العثمانيون القسطنطينية (١٤٥٣) تقلصت التجارة الإيطالية عن الطريق البري الشمالي، ولم يبق سوى طريق البحر المتوسط. إلا أن احتلال الأسبان والبرتغال لإسبانيا العربية الإسلامية (بدءاً من الاستيلاء على طليطلة سنة ١٠٨٥) أتاح لقطالونية الإسبانية وللبرتغال أن تدخلا ميدان

المنافسة التجارية، لكنهما لم تستطيعا مزاحمة المدن الإيطالية في البحر المتوسط، فاتجهتا، تدريجاً، إلى غرب أفريقيا. ومنطقة غرب أفريقيا كانت تزود أوروبا، على يد تجار العرب، عبر الصحراء الكبرى وقوافلها، بالذهب والعاج والرقيق والفلفل الأفريقي. وقد كان لقطالونية تجارة واسعة مع شمال أفريقيا، بحيث أنها أصبحت في القرن الرابع عشر، هي المتاجرة الأولى، دافعة بذلك جنوى والبندقية عن تلك المنطقة. لكن الذي كان تجار قطالونية يسعون إليه هو الاتصال البحري مع غرب أفريقيا بحيث يصلون إلى أسواق الذهب والعاج والرقيق والفلفل الأفريقي مباشرة. إلا أنهم فشلوا في ذلك، كما فشل الجنويون والبنادقة من قبل (القرن الثالث عشر). والدولة التجارية التي تمكنت في النهاية من النجاح في هذه المحاولة كانت البرتغال (في القرن الخامس عشر).

اهتمام البرتغال بشمال غرب أفريقيا ومحاولتهم الاستيلاء على موانىء هناك، لم يكن كله تجارياً فحسب، بل كانت تدخل فيه دوافع دينية أيضاً. على أن الذي يعنينا الآن هو أن المحاولة البرتغالية، التي استمرت طوال القرن الخامس عشر، انتهت لا بالاتصال مباشرة بالأسواق الأفريقية فحسب، بل بالدوران حول أفريقيا واكتشاف طريق بحري جديد إلى الشرق البعيد، بحيث كان بمنأى عن الجنويين والبنادقة، من جهة، وعن دولة المماليك المسيطرة على تجارة البحر الأحمر، من الجهة الأخرى. وقد تم هذا للبرتغاليين لما دار دياز برأس الرجاء الصالح (١٤٨٧) وتبعه فاسكو دي غاما (١٤٩٨) الذي وصل إلى الهند. (لنتذكر أن إسبانيا زوّدت كولمبس بحاجته من السفن للسير غرباً لاكتشاف طريق الهند، فاكتشف العالم الجديد سنة ١٤٩٢).

المعروف أن المحرك الأول لاكتشاف غرب أفريقيا على أيدي البرتغاليين هو هنري الملاّح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠)، لذلك فإننا نود أن نذكر هنا أمراً هاماً عن هذا الرجل. ذلك أنه أقام في ساغرس (في جنوب غرب البرتغال) مركزاً للإشراف على تطور سير البرتغال على السواحل الأفريقية. وقد بنى فيه مرصداً وأنشأ «أكاديمية» وزوّدها بمكتبة ضخمة، واستخدم فيها خبراء كانوا يتلقون التقارير عن سير الاكتشاف والتجارة ويدرسونها ويقدمون لهنري الاقتراحات. كما أنه اتخذ من ميناء لاغوس، في المنطقة نفسها في البرتغال، مركزاً للتجارة. ولعل من أهم ما كانت تحويه المكتبة، الخرائط التي رسمت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وأبعدها صيتاً «أطلس قطالونية» الذي صنعه كريزكِز أو (كريسكز) المايورقي لملك فرنسا سنة ١٣٧٥.

وأوروبا كانت في هذه الفترة (١٣٠٠ ـ ١٥٠٠) تنعم بالنهضة. والنهضة الأوروبية، في نواحيها الفكرية كانت، أولاً نتيجة لما نقله الأوروبيون عن العرب في العلوم والطب والفلسفة. وثانياً، جاءها الكثير من إحياء للتراث الكلاسيكي، واليوناني بشكل خاص. وكان هذا التراث لما وصل إلى أوروبا ونقل إليها، إما مباشرة (وهو القليل) أو بواسطة العرب (وهو الأكثر) يحمل الكثير من آثار الحضارات الشرقية ـ الهندية والصينية. وإذا نحن أردنا أن نذكر أمراً

واحداً فقط مما تميزت به النهضة الأوروبية، وجدنا أنه كان «التحرر والانعتاق» من تقاليد العصور الوسطى ـ اللغوية والدينية (إلى درجة ما) والاجتماعية والسياسية.

وفي الفترة التي نتحدث عنها أضيف عدد من الكتب عن الشرق البعيد إلى المكتبة الأوروبية الجغرافية (مؤلفات جغرافية ورحلات) لعل من أهمها، من حيث أثرها في تطوير الفكر الأوروبي عن الشرق، كتاب وضعه راهب فرنسيسكاني إسباني بعنوان: «كتاب معرفة جميع الملوك والبلاد والإمارات في العالم». وضع الكتاب في أواسط القرن الرابع عشر. ومع أن مؤلفه ادعى أنه زار الهند وجزر الهند الشرقية والصين وبعض أواسط آسيا، فإن الباحثين لا يقبلون ادعاءه، لكنهم مجمعون على أن ما جاء في الكتاب كان صحيحاً، على وجه العموم. ومعنى هذا أن الراهب كان واسع الاطلاع، وبذلك وضع كتاباً في الجغرافيا نافعاً مفيداً.

وفي سنة ١٤٤١ وضع نيكولو دي كونتي كتاباً روى فيه أخبار رحلاته في بلاد الشرق التي دامت خمساً وعشرين سنة. وهذا الكتاب، بما فيه من دقة وصف ومعرفة وحيوية في التعبير، كان له أثر كبير في نفوس القراء.

وفي سنة ١٤٥٩ رسم ماورو البندقي خارطة للعالم، كانت تفوق الأطلس القطالوني معرفة ودقة. ويرى بعض الباحثين أن ماورو اعتمد، فيما اعتمد عليه، على كتاب، أو أكثر، من الكتب العربية التي وضعت في المشرق للملاحين لتدلهم على اتجاهاتهم وخططهم وسير المراكب وما إلى ذلك. وهذا ليس غريباً. فهذه الكتب كانت معروفة، وهي تدخل في نطاق البحوث الفلكية التي عرفها الأوروبيون، ونقلوا بعضها إلى اللغات الأوروبية.

وإذا تذكرنا أنه اعتباراً من أواسط القرن الخامس عشر، أصبحت الطباعة معروفة في أوروبا، أدركنا معنى انتشار الكتب بين القراء بالنسبة إلى ما كانت عليه الحال أيام كانت المخطوطة هي الأساس.

وإذا نحن وقفنا قليلاً عند أواخر القرن الخامس عشر لنرى ما الذي أفاده الغرب من هذه الاتصالات والعلاقات التي قامت بينه وبين الأقطار الشرقية، وجدنا أموراً كثيرة حريّة بالعناية.

ويجب ألا يغيب عن البال أولاً أن الأمور والموضوعات والقضايا الفنية والأدبية تنتقل مع الوقت عبر مسافات شاسعة، وليس من الضروري أن يكون انتقالها مباشراً. فالقصة أو القصص المتعلقة بالإسكندر مثلاً فيها العنصر الهندي والعنصر العربي، فضلاً عن العنصر الفارسي. وقد لا يتمكن الباحثون من تتبع الأصل وتنقله، ولكن المهم أن هذه القصص سارت مع الركبان ــ تجاراً ورحالة وشعراء وجنوداً ـ بحيث وصلت إلى أوروبا ودخلت المجال الأدبي الأوروبي.

وإذا نحن أخذنا الفن، وبشكل خاص الفنون المنظورة والتشكيلية وحاولنا تتبع تطورها، فلن نستطيع أن نضع إصبعنا على كل «أصل» لقطعة فنية. فقد يكون الأثر الشرقي البعيد وصل إلى فنان بندقي عن طريق محاولات متعددة تركزت أو تمت في أكثر من بلد واحد، وعلى أيدي عدد من أهل الفن وعبر فترات زمنية طويلة. ومثل ذلك يقال عن الأمور الصناعية.

ومع أننا لا نود أن نتابع هذه الأمور بأي تفصيل، فإننا نرى لزاماً علينا أن نشير إلى بعض الأمثلة لتوضيح ما ذهبنا إليه من تأثر الغرب ببعض نواحي الحضارة الشرقية ـ الهندية والصينية.

إن أوروبا في عصر النهضة، انجذبت نحو ثروة الشرق وأسراره وغرائبه وهوله، بقطع النظر عن المصدر الذي حصلت منه على ذلك. ولعل أهم هذه المصادر هي القصص ورحلات ماركو بولو ووصف كونتي. فالعالم الشرقي بدا لأوروبا عالماً فيه كل شيء غريب وعجيب. ولكن، كما ذكرنا سابقاً، عندما نحاول أن نتقصى الأثر نفسه، في الفن مثلاً، لا يمكن أن نقول بأن هذا الأثر هو صيني أو هندي، لأنه في أغلب الحالات، وصل إلى أوروبا عن طريق المشرق. ومن هنا تختلط، في الأعمال الفنية، هذه الأسس الشرقية البعيدة مع الأسس والتجارب العربية الإسلامية أو مع الأسس البزنطية. ولنذكر في سبيل توضيح هذه الفكرة، أن الحاكة في جنوب أوروبا، وفي المدن الإيطالية بشكل خاص، رسموا على الأقمشة التي حاكوها، موضوعات مختلطة من الفن الإسلامي والفن الصيني. فاستيراد أوروبا للأقمشة الحريرية الصينية وضع أمام صنّاعها نماذج تصلح للتقليد. لكن لما أرادوا التعبير عن أعمالهم واقعياً وجدوا أنفسهم يخلطون بين النماذج الصينية والإسلامية. وحتى لما أرادوا أن تكون أعمالهم «صينية الصبغة»، بتقليد النقوش الصينية الأصلية، وجدوا أنفسهم ينتجون مزيجاً من الفن الصيني والفن القوطي أو الفن الإيطالي. والمهم في كل حال، هو اهتمام أوروبا بهذه الفنون الشرقية ومحاولتهم تقليدها.

وإذا نحن انتقلنا من الفن إلى الأدب وجدنا الأمر متشابهاً في الحالتين. ولسنا نريد أن نطيل. ولذلك نكتفي بمثل من أوائل عصر النهضة هو دانتي (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) في كتابه المشهور «الكوميديا الإلهية» الذي وضعه في الفترة الواقعة بين ١٣٠٠ و١٣٢١. ففيه يتحدث الكاتب عن نهر الكنج والياقوت الشرقي وشجرة التين الهندية و الحيوانات المفترسة التي تشبه ما ورد في الماهبهاراتا الهندية. ولعل من أكبر ما تأثر به دانتي هو أنه يضع الجنة الأرضية (جنة آدم) في جزيرة سيلان (سري لانكه الحالية) بدل أن يتبع الرأي التوراتي الذي يقول إنها كانت في منطقة المشرق (العراق أو غير ذلك من البلاد الأقرب إلى أوروبا). فهذا الموضوع هندي أصلاً. كما أنه يذكر التتار في مواضع من كوميدياه. ونحن نعرف أيضاً أن بلاشينوس المستشرق الأسباني (توفي ١٩٩٤) أشار قبل مدة، إلى أن الكوميديا الإلهية فيها آثار عربية من رسالة الغفران للمعري. وهذا مثل على هذا التأثر الذي يدل على أن الكاتب الأوروبي (أي كاتب) لم يكن بمعزل عن هذه الموضوعات والآثار التي كانت منتشرة من الهند والصين إلى إيران وبلاد الشام. والمهم هو أن الأوروبي كان يشعر بهذا الأثر ويدركه ويعبر عنه.

ولدينا مثل آخر من عصر النهضة هو «أسفار السير جون مندفيل» (من أواخر القرن الرابع عشر). من المرجع عند الباحثين أن الرجل لم يخرج من غرب أوروبا، ولعل حياته

توزعت بين بلجيكا وإنكلترا، مع أنه يدعي أنه زار البقاع التي يصفها. وهذا الكتاب كان قد ترجم إلى أكثر اللغات الأوروبية (وضع أصلاً بالإنكليزية) قبل سنة ١٥٠٠. والكتاب هو رحلة (خيالية) إلى تلك الأصقاع النائية ـ الهند والصين وشرق افريقيا والمشرق. وقد انتزع أخباره وقصصه من الرحالين والجغرافيين السابقين. والذي يعنينا منه هو الأثر الهام الذي كان للشرق في الكتاب والقراء على السواء، رغبة في التعرف إلى تلك البلاد. أما ما هي المادة التي يقدمها الكاتب، فأمر آخر. ذلك أنه كلما أكثر من الأمور الغريبة العجيبة كان رواج الكتاب أكبر.

وإذا انتقلنا إلى الأشياء العملية، ولنستعمل كلمة حديثة فنسميها التكنولوجيا، وجدنا مثلاً أن أموراً كثيرة من الآلات التي عرفت في الصين قد انتقلت إلى أوروبا. ولكن بأيّ طريق؟ المرجح عند الباحثين أنها انتقلت عن طريق المشرق، لا رأساً من الصين إلى أوروبا. ولنذكّر أنفسنا بأنه قبل سنة ١٥٠٠ كان المشرق أقدر صناعياً وتكنولوجياً من أوروبا. ولكن الصين كانت أقدر حتى من بلاد المشرق. ومع انتشار الحرير وتربية دود القز غرباً من الصين، انتقلت معه الصناعات والأدوات اللازمة لذلك ـ أي فن تربية الدودة والآلات اللازمة لحلج الخيوط الحريرية وحياكتها. ومثل ذلك يقال عن الخزف الصيني الذي أثار اهتمام أوروبا. فمن المرجح أن صياغته وتزويقه انتقلا عن طريق المشرق. ونحن نعرف أن الورق (وصناعته) صيني أصلاً، ولكنه انتقل إلى أوروبا عن طريق العرب (من إسبانيا).

والذي نود أن نخلص إليه هو أنه، حتى في القرن الخامس عشر، كانت الصورة التي استطاع الغرب أن يكونها عن الشرق البعيد مزيجاً من الواقع والحقيقة والنظرية والأسطورة والقصة. إن تلك البلاد، التي تقع ما وراء بلاد البحر المتوسط، كانت نائية عنه بعيدة إلى درجة لا يتصورها. ولم يكن الوصول إليها سهلاً ـ فالطرق صعبة محفوفة بالمخاطر المتنوعة. ولم يكن الغرب ـ حتى أهل الفكر منه ـ قد تعرف بعد إلى النواحي الفكرية في تلك البلاد ـ الفلسفة والأديان المختلفة والأدب العميق. هذه أمور تعرّف إليها في القرن السادس عشر وما بعده.

القرن السادس عشر

في سنة ١٤٩٨ دار فاسكو دي غاما برأس الرجال الصالح ثم وصل الهند. وفي العقود القصيرة التي تلت أنشأ البرتغاليون امبراطورية تمتد من ملقا والهند وسيلان، وهي المصادر الأصلية للتوابل والطيوب ومراكز تجمع المتاجر التي قد تحمل من الصين، إلى لشبونة في البرتغال. وكانت غوا في الهند القاعدة البحرية الرئيسة (بدءاً من سنة ١٥١٠). وكان على البرتغاليين أن يؤمنوا محطات على هذا الطريق الطويل تكون مراكز تجارية تجمع فيها الحاصلات المحلية. وقد ضمنوا ذلك من قبل بالنسبة إلى غرب افريقيا. أما بالنسبة إلى المحيط الهندي فقد أرادوا أن يستولوا على المراكز التجارية فيه كأسواق. ثم كانوا يريدون أن يستولوا على موانىء البحر الأحمر والخليج العربي ليتم لهم السيطرة التامة على التجارة.

فاحتلوا هرمز (١٥٠٦) ومسقط (١٥٠٦)، لكنهم فشلوا في الاستيلاء على موانىء البحر الأحمر (حاولوا ذلك في ١٥١٣ و١٥٢٦) فاكتفوا بجزيرة سوقطرى، التي كانوا قد احتلوها سنة ١٥٠٧. إلا أنهم استطاعوا أن يمنعوا المتاجر من الوصول إلى مصر.

تبع الحكامَ البرتغاليين التجار الذين عملوا في إطار الاحتكار الحكومي لتجارة الشرق، ثم جاء المبشرون في أعقابهم. وكان المبشرون الأوائل من البرتغاليين وكانوا، بطبيعة الحال، تحت إشراف الملوك البرتغاليين إن لم يكونوا تحت نفوذهم. لكن لما دخل اليسوعيون الميدان، منذ العقد الرابع للقرن السادس عشر، تحلّل المبشرون من السلطة الملكية، وتنوع العاملون في ميادين التبشير، إذ إن الجمعية (اليسوعية) لم تكن إيبرية فقط، بل كانت تضم أفراداً من أوروبا الغربية وإيطاليا. كما أن فئة من الرحالين زارت الأماكن التي استولى عليها البرتغاليون وغيرها أيضاً. والعمل التبشيري شمل، بالإضافة إلى مناطق في الهند وجنوب شرق آسيا، الصين واليابان وحتى أجزاء من كوريا والفليبين.

والذي يهمنا من هذا كله أن كمية كبيرة، تعد بالآلاف، من التقارير الرسمية والتجارية ورسائل المبشرين والكتب الوصفية والتواريخ العامة، كتبت عن الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا. ومن المهم أن نتذكر أن الطباعة كانت قد انتشرت، كما انتشر صنع الورق في أوروبا، لذلك فقد وجدت هذه النشرات طريقها إلى المطبعة، ومن ثم إلى أيدي عدد أكبر من القراء. (وقد كان لانتشار التعليم نسبياً أن ازداد عدد القراء أيضاً).

وثمة فرق بين التقارير الرسمية، من جهة، والكتب والرسائل التي وضعها المبشرون والرحالة، من جهة ثانية. فالأولى كانت سرّية، ولم يطلع عليها إلا رجال الحل والعقد. ولذلك فلم تصل إلى أيدي القراء عامة. أما النشرات الأخرى ــ أعمال المبشرين والرحالة والتجار بصفتهم الخاصة، فقد كانت ملكاً للجميع.

وهكذا، فإذا نحن وقفنا حول سنة ١٦٠٠ وألقينا نظرة عامة على تطور معرفة أوروبا للشرق بأكمله ـ من المتوسط إلى بحر الصين الكبير ــ وأردنا أن نتعرف إلى الصورة التي أصبحت ماثلة في نفوس أهل الفكر والقراء العاديين، وجدنا بوناً شاسعاً جداً وتطوراً كبيراً بين ما كان عند الغرب حول سنة ٥٠٠ للميلاد وبين ١٦٠٠.

وهذه المعرفة التي كانت قائمة حول سنة ١٦٠٠ ظلت تتصف بأمور مهمة هي:

١ـ ظلت معرفة أوروبا بالأجزاء الغربية من هذا الشرق الواسع (المشرق والعراق والجزيرة العربية) أوفى منها بالنسبة إلى البلاد النائية الواسعة. فالرقعة تلك، التي تمتد من شرق إيران إلى بحر الصين ومن شمال الصين إلى الفليبين وأندونيسيا، كانت بعد بحاجة إلى التقدم العلمي والفني ـ الجغرافي والخُرُطي ــ والكتابة التاريخية الدقيقة والاطلاع على آداب تلك البلاد بلغاتها وترجمة ما كتبه القوم أنفسهم، حتى يتسنى للغربي إدراك الصورة الصحيحة. (هذا على فرض أنه أدركها حتى أواخر القرن السادس عشر).

٢ـ مع كل ما رأى الناس وشاهدوا واختبروا وجربوا، فقد احتفظوا، حتى إلى أواخر

القرن السادس عشر، في كتاباتهم بأمور كثيرة تتعلق بالعجائب والغرائب والحيوانات الأسطورية والقصص الخرافية، التي كان ينقلها بعض الكتّاب عمن سبقهم، ويضمنونها كتبهم ليضمنوا لها الانتشار والرواج. والطريف مثلاً، أن القصة التي شاعت في العصور الوسطى عن وجود مملكة مسيحية في مكان ما في الهند هي مملكة برشتر جون، انتقل مكان وجودها في القرن الخامس عشر إلى أفريقيا لما تأكد بعض الكتّاب أن مثل هذه المملكة لا توجد في الهند. فقد ظل برشتر جون ودولته، جزءاً من الأدب الغربي عن الشرق. ومثل هذا كثير.

٣ـ يلاحظ القارىء الحديث أن بعض الكتّاب كان ينظر إلى هؤلاء الشرقيين نظرة تعصب بسبب اختلاف وجهة النظر الدينية. لا ينطبق هذا حتى على جميع المبشرين، لكن الروح والنظرة موجودان بين المبشرين وبين الحكّام الذين كانوا يتضايقون من المقاومة التي كانوا يلقونها على أيدي الشعوب التي يحاربونها.

٤ـ مع أن البرتغاليين سيطروا على المنطقة واحتكروا تجارتها خلال القرن السادس عشر، فقد تسرب تجار ورحالة كثر من أقطار أوروبية أخرى كالهولنديين والإنكليز. وهذان الشعبان كانا القوتين اللتين تغلبتا على البرتغال في النهاية وأخرجتاه من الخليج العربي وبحر عمان ثم من الهند وبقية الأقطار الشرقية. (وقد كان لفرنسا حصة فيما بعد).

٥ـ مع كثرة ما نقله ودونه هؤلاء الكتّاب عن الأحوال الاجتماعية والسياسية والعادات (سنشير إلى هذا بالنسبة إلى الشرق الأقصى فيما بعد)، فإن الاهتمام الأكبر كان يدور حول النواحي الاقتصادية. وهذا يجيء بشكل خاص في التقارير الرسمية ورحلات التجار وحتى بعض المرسلين.

نحن واثقون من أن القراء كانوا يحبون لو أننا نعرض عليهم الكثير من نماذج الكتابات التي تعود إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر (أو حتى قبل وبعد) مما يوضح موقف الغرب وإفادته مما تعرف إليه في الشرق، إلا أننا مضطرون، بسبب الفسحة الضيقة، أن نكتفي بالقليل مما مر بنا.

لنبدأ بمصر والمشرق ثم ننتقل إلى الخليج وبحر عُمان. وبعد ذلك نجمل الأمر فيما يتعلق بالشرق الأقصى، ذلك أنه يتعذر علينا أن نشير إلى المدن الكثيرة هناك.

في سنة ١٤٨١ زار ميشولم مصر فكتب عن الإسكندرية يقول:

«لما وصلنا الباب (بوابة مدينة الاسكندرية) فُتشنا ووجدت معنا نقود، مع أننا كنا قد خبأناها في نعل الحذاء فأخذوا (المشرفون على الجمرك) ما يقارب العشرة في المائة منها. ورغم أنهم ضبطوا معي نقوداً لم أكن قد صرّحت عن وجودها، فإنهم لم يتقاضوني أكثر من العشر، وأعادوا إليَّ ما تبقى... تبلغ سعة الاسكندرية سعة فلورنسا. لكن قسماً كبيراً منها خرب. ثمارها كثيرة وجيدة ورخيصة، ومثل ذلك يقال عن الخبز واللحم وجميع أصناف الطيور. أما الأخشاب فأسعارها مرتفعة جداً، وكذلك الزيت والعسل والخمر لأنها تستورد وتدفع عنها جمارك باهظة قد تبلغ ٢٤بالمئة. وقنب الاسكندرية جيد، وقماش الكتان بها

جميل ورخيص... ويرجع رخص الفراخ فيها إلى أنهم يفقسونها في أفران خاصة؛ وقد يتسع الفرن الواحد لألف أو ألفين من البيض في الدفعة الواحدة».

ويضيف ميشولم:

«رأيت في الإسكندرية أربعة فنادق: أحدها للفرنجة (الفرنك) وآخر للجنويين وقنصلهم واثنان للبنادقة. وثمة، في مقابل ذلك، فندق كبير خاص بالمسلمين».

ويؤكد عوبديا، الذي زار الإسكندرية سنة ١٤٨٧ ذلك بقوله عن التجار:

«تجد في الاسكندرية تجاراً من جميع أقطار الأرض، ويوجد فيها، في هذا الوقت، أربعة قناصل، واحد لكل من البندقية وجنوة وقطالونيا وانكونا. وبواسطة هؤلاء القناصل تتم المعاملات التجارية... يدفع التجار اثنين بالمئة عن كل ما يرد إلى الاسكندرية أو يصدر عنها، وهذا رسم يتقاضاه السلطان».

لكن ميشولم يضيف بأن كل أجنبي أو غريب يدخل الاسكندرية يدفع ثلاث عشر دوقة (قطعة نقد ذهبية كانت تساوي يومها حول ربع جنيه استرليني) للسلطان. ولا يسمح له بمغادرة المدينة قبل أن يدفع هذا المبلغ.

أما القاهرة فيقول عنها ميشولم:

«شاهدت مصر (القاهرة) وتحريت شؤون سكانها، ولو أنني أردت أن أتحدث عن عظمة المدينة وثروتها وسكانها لما كفاني كتاب كامل. وأقسم أنه لو أمكن ضم روما وميلان وبادوا وفلورنسا في مكان واحد، مع أربع مدن أخرى، لما زاد سكانها وثروتها جميعاً عن نصف ما في مصر (القاهرة) وهذا صدق... فمصر القديمة والحديثة، أي الفسطاط والقاهرة، مقسومة إلى أربعة وعشرين حياً في كل حي نحو ثلاثة آلاف عائلة، وفي كل عائلة ما لا يقل عن ثلاثة أفراد... وفنادق مصر كبيرة، وقد يحتوي الفندق الواحد على ألف دكان يضع فيه الصنّاع والباعة بضائعهم. وليس في العالم شيء لا يمكنك أن تجده في القاهرة».

(الفندق في عرف تلك العصور هو ما يسمى الخان، وهو مكان لإقامة التجار وخزن متاجرهم وعرضها للبيع).

كان بين زوار دمشق وبيروت بروكييه (١٤٣٣). وقد خلّف هذا الرحالة الفرنسي وصفاً للمدينتين. فقد قال عن بيروت:

«ميناء بيروت جيد صالح للتجارة. لقيت في بيروت تاجراً بندقياً اسمه جاك برفيزين الذي نصحني بالسفر إلى دمشق حيث ألتقي الكثيرين من التجار والقناصل الأوروبيين، وهم الذين سيرشدونني إلى خير الطرق للعودة إلى أوروبا براً...»

وقال بروكييه عن دمشق:

«وتحوي دمشق، على ما بلغني، مائة ألف نسمة. وهي غنية ومركز كبير للاتجار، وأهم مدينة في السلطنة (المملوكية) بعد القاهرة... ودمشق مدينة صناعية. فسيوفها من خير ما يصنع وأجمله، وصقلها جيد إلى حد أن المرء يستطيع أن يستعملها كمرآة لإصلاح زينته. ولم

أر في حياتي سيوفاً تقطع مثل السيوف الدمشقية.

وكان من زوار القدس فابري (١٤٨١). وقد قال هذا الراهب الألماني عن القدس:

«زرت صباح اليوم (٢٨ تموز/ يوليو) أسواق المدينة، وشارع الطباخين، حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع وجماعات كبيرة تشتري من المطابخ العديدة، لأن القوم لا يطبخون في بيوتهم كما نفعل نحن في بلادنا. بل إنهم يبتاعون طعامهم جاهزاً من هذه المطابخ».

الواقع أننا أوردنا هذا القول لنظهر جهل فابري بخصوص الطبخ والمطابخ. فالذي نعرفه هو أن سكان المشرق ــ يومها وإلى يوم الناس هذا ـ يطبخون في البيوت، ولا يلجأون إلى المطابخ العامة إلا فيما ندر. والذي نرجحه هو أن فابري كان في القدس في مناسبة موسم ديني أو اجتماعي، حيث يزدحم السكان القادمون إلى المدينة، ومن ثم فإنهم يبتاعون طعامهم من السوق. وبهذه المناسبة فإن سوق خان الزيت في القدس كان يعج بمثل هؤلاء الناس أيام الجمعة، إذ كانوا يفدون لأداء فريضة الجمعة في المسجد الأقصى، وكان من الطبيعي أن يبتاعوا طعام الغداء، قبل أن يتمكنوا من العودة إلى قراهم. وهذا أمر شاهدناه بأنفسنا مراراً في القدس، خاصة قبل دخول وسائل النقل الحديثة والسريعة.

وإذا نحن انتقلنا من المشرق ومصر إلى بحر عمان والخليج العربي أدركنا اهتمام الكتّاب بالناحية التجارية للمكان. وكانت هرمز من المدن التجارية الكبرى في الخليج العربي (منذ القرن الثالث عشر). وقد وصفها الأب رينال (أواسط القرن الرابع عشر) بأنها ملتقى التجار من جميع أنحاء العالم حيث يتبادلون سلعهم...

وفي مطلع القرن السادس عشر زار المغامر الإيطالي لودفيكو دي فارتما، هرمز فقال عنها (سنة ١٥٠٤):

«وقد ترى فيها ثلاثمائة سفينة من مختلف أنواع المراكب، التي تأتيها من جهات عديدة وبلاد مختلفة. وفي المدينة ما لا يقل عن أربعمائة تاجر ووكيل يقيمون فيها بصورة دائمة للاهتمام بالسلع المختلفة التي تنقل إليها والتي تشمل الحرير واللؤلؤ والحجارة الكريمة والأفاويه وما إلى ذلك».

ومسقط، التي احتلها البوكيرك (١٥٠٦) يقول عنها:

«إنها مدينة كبيرة كثيرة السكان... ومسقط هي السوق الرئيسية لمملكة هرمز... وهي منذ القديم ميناء الخيول والتمر».

ونجد أوصافاً لمختلف المدن مثل الشحر.

هذه نتف أوردها بعض الرحالين أثناء روايتهم لأخبار رحلتهم. ولكن الوضع يختلف، بالنسبة إلى الأقطار الشرقية الأخرى. فنحن لا نريد أن نتحدث عن مدن متعددة في الرقعة التي تشمل بعض آسيا الصغرى والصين وبعض اليابان والجزر الهندية الشرقية، إذ إن هذه كثيرة جداً. لذلك سنكتفي بالإشارة إلى أمور عامة أدركها، أو أساء فهمها، الأوروبيون نتيجة لهذه المعاشرة الطويلة زمناً والمباشرة مكاناً مع الشرقيين.

يبدو أن الغرب وضحت له، بصورة عامة، طبيعة المنطقة الجغرافية ـ المنطقة الممتدة من غرب الهند إلى شرق اليابان، غرباً في شرق، ومن جاوا جنوباً إلى جزيرة هو كايدو شمالاً. هذا مع العلم أن المعرفة بالسواحل كانت أوثق منها بالداخل. وأدرك الأوروبيون الكثير عن الأنهار الكبرى في تلك الأصقاع.

[وفي نهاية القرن السابع عشر كانوا قد أكملوا معرفتهم بالنسبة لهذه]. وربطوا بين الأوضاع الجغرافية الطبيعية والأحوال السياسية من حيث تقسيم المنطقة وقيام الدول المتفرقة والحروب التي كانت تقوم بينها. ولما كان الكثيرون من الكتّاب يعنون بالتجارة، فقد تنبهوا، مثلاً إلى ارتباط الحركة التجارية في الموانىء بالمد والجزر فيها والفيضانات التي تسببها الأنهار وأثرها في الموانىء النهرية والبحرية. كما وجهوا اهتمامهم إلى الجزر المرجانية وغيرها من الصخور التي تعترض السفن (من البحر الأحمر إلى ملقّا).

ومواد التجارة وسلعها، الطبيعي منها والمصنوع، النباتي والحيواني والمعدني، شغلت عند هؤلاء الكتّاب الحيز الأكبر. وهنا نلاحظ عنايتهم بأماكن وجودها وتوزعها. فالذهب يأتي من الملايو وسومطرة وكوريا، فيما توجد الفضة في اليابان وكوريا. لكن الفضة كانت كميتها قليلة، لذلك ينصح الكتّاب التجار باستيراد الفضة من أوروبا إلى آسيا. والحجارة الكريمة تعين مواضعها ـ اللؤلؤ من الخليج العربي وبحر الهند مثلاً، والغلات النباتية ـ الحبوب والتوابل والمخدرات ـ مفصلة أخبارها. فالتوابل من الهند وسيلان وأرخبيل أندونيسيا، والأفيون من كامباي. وإذا تذكرنا أن أوروبا كانت في ذلك الوقت، تتاجر مع آسيا بنحو مئتين وخمسين صنفاً من المخدرات والعقاقير والتوابل، أدركنا اهتمام القوم بتعيين المنبت والسوق والمتجر. ووصف المؤلفون الحيوانات البرية والمائية، ولو أن حصة هذه من اهتمامهم كانت صغيرة باستثناء الفيل ووحيد القرن والأفاعي الضخمة.

والمدن والموانىء، بما فيها من أمتعة مصنوعة وأخصها بالذكر الأقمشة: الحرير والقطن والموصلين والدمقس والسجاد. ثم الحلي الذهبية والفضية من سومطرة وغيرها. وقد حرص كل من الكتّاب على بيان ما في المدن من متاجر، وعلى الأنظمة المتبعة للتجارة الخارجية وما يُدفع من رسوم جمركية. وكانوا يقارنون بين المدن الشرقية والمدن الأوروبية مقدرين عدد السكان ـ بسكاي بالبندقية، وكانتون بلشبونة، وكيوتو بروما (وقد مرت بنا مقارنات بين بعض مدن المشرق وبعض مدن أوروبا قبلاً).

وقد صرف البعض من الكتّاب جهدهم في محاولة لفهم المجموعات البشرية من حيث وجودها وتصرفها، والدول وتنظيمها. فالملكية وما يدور حولها من أنظمة في الصين وكمبوجيا وبورما وسيام، جلبت انتباههم، والاحتكار الملكي اهتموا به، وتوزيع الأرضين وارتباط ذلك بالولاء لصاحب السلطان ـ جميع هذه القضايا كانت موضع عناية بكثير من التفصيل. وتحتل الصين المكان الأول والمجال الأوسع في كتاباتهم ـ لاتساعها وتنظيمها وطريقة اختيار الموظفين (بالامتحان).

وعندما ننتقل إلى النظم الاجتماعية، نجد نقداً حاداً لنظام الطبقات الهندي. أما ما هو معروف عن اليابان بقبولهم فكرة الانتحار (التطوعي)، فإنها لم ترق للأوروبيين وكذلك الرق. ولكن الذي نجده موضع احترام عندهم هو النظم المتعلقة بالأسرة في الصين واليابان.

وفي موضع الدين فقد كان الموقف، في غالب الأحيان متعصباً وضيقاً ـ بالنسبة إلى الإسلام والبوذية والهندوكية. لكن البعض منهم حاول التعرف إلى الأسس القويمة في هذه الديانات (الإسلام كان التعرف به قد بدأ حضارياً قبل ذلك بنحو أربعة قرون ترجمة، وقبل ذلك بقرن أو أكثر اقتباساً عملياً مباشراً في أوروبا بالذات). لكن الذي لفت الباحثين أن الكتّاب لم يستطيعوا سبر غور أي من الأديان الشرقية (النائية) أي البوذية والهندوكية والكنفوشية، ولو أنهم كانوا أكثر نجاحاً في التعرف إلى الشنتو (اليابانية) والطاوية (الصينية).

اشترك الأوروبيون في الحروب في آسيا الشرقية. قاتلوا في سبيل السيطرة (البرتغالية أولاً ثم غيرها فيما بعد)، لكن عدداً كبيراً منهم عملوا في الجيوش الآسيوية مرتزقة، وأفادوا من الفنون الشرقية.

ويمكن السير في تعداد الأمثلة بحيث يطول الحديث. لذلك فإننا نكتفي بهذا القدر. ونسأل أنفسنا ما الذي انتهى الغرب إليه في القرن السادس عشر نتيجة لهذه الاتصالات والصلات والعلاقات؟

صحيح أن الغرب أضاف إلى ثروته العلمية والأدبية والجغرافية والقصصية والأسطورية أموراً ذات أهمية. وصحيح أنه أفاد اقتصادياً لأنه «حلب البقرة». ولكن هل أدى هذا التعرف إلى العالم الشرقي الواسع إلى اتساع في أفق الغرب ونظرته؟ نحسب أن الغرب أفاد عقلياً ونفسياً.

فقد اتضح للغرب، قبل كل شيء أنه من الخطأ القول بأن الفضيلة والحق (والحقيقة) كان فهمهما ووجودهما مقصوراً عليه، وأن تقاليده الثقافية والدينية كانت تحتوي كل الفضيلة والحقيقة.

لقد بدأ الغرب يتفحص أطره الثقافية ويزن باهتمام معطياته الفكرية بالنسبة إلى الثقافات الأخرى العالمية التي تعرف إليها.

وفي القرن السادس عشر بدأ الغرب إعادة النظر مبدئياً في نظرته (وفلسفته) إلى العالم والإنسان ومستقبل البشرية.

القسم الاول
نبش الماضي

أسطورة الخليقة البابلية

١ ـ العثور عليها ونشرها

كان القرن التاسع عشر حافلاً بأعمال الحفر والتنقيب عما خلّفته أمم الشرق القديم في وادي النيل وأرض الرافدين. وقد بعث حل رموز الكتابة الهيروغليفية والأسفينية في الناس رغبة وحماسة حملتا المستشرقين على نبش التلال القديمة للعثور على مخلفات تلك الأمم وقراءتها ودرسها للاهتداء إلى تاريخها. وقد كان بين موجودات بين النهرين قطع من الآجر تتعلق بعقائد البابليين القدماء وأساطيرهم فيما يتصل منها بالخليقة. ويعود الفضل في كشف هذه الأسطورة خاصة، إلى لايارد ورسام وسميث. وقد وجدوها بين عامي ١٨٤٨ و١٨٧٦م في أنقاض المكتبة الملكية التي أنشأها آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ق.م). في بلاطه في نينوى. وكان هؤلاء الثلاثة يعملون لحساب المتحف البريطاني. وقد بذل سميث جهداً كبيراً في قراءة ما وجد وترتيبه، ولاحظ أن هناك حوادث تاريخية ثابتة وأسماء ورد ذكرها في العهد القديم (التوراة). واهتدى في أثناء قيامه بعمله هذا، إلى أن هناك أشكالاً عديدة لهذه الأسطورة ـ ولكن الفكرة العامة فيها واحدة.

وقد قصر نشر هذه التحقيقات على أساتذة العاديات وعلمائها والمستشرقين. لكن أمناء المتحف البريطاني، كلفوا المرحوم الاستاذ كنغ في السنة ١٨٩٨ كتابة بحث ضافٍ عن هذه الأساطير البابلية، فأخذ نفسه باستقصاء كل ما عثر عليه المنقبون مما يخص هذا البحث، فاهتدى إلى أشياء كثيرة كانت بعيدة عن أعين العلماء قبله. وأصدر في السنة ١٩٠١ كتاباً كبيراً عنوانه «الكتابات الأسفينية منقولة عن الآجر البابلي في المتحف البريطاني». ثم نشر في السنة التالية كتاباً آخر ضمّنه ترجمة للألواح التي تخص الخليقة وسماه «ألواح الخليقة السبعة، أو الأساطير البابلية والآشورية المتعلقة بخلق الأرض والإنسان». ثم نشر ملحقاً للكتابين ضمّنه ملاحظاته وتحقيقاته. ولما كانت قراءة هذه الكتب وغيرها من المطولات مقصورة على أهل الاختصاص، أخذ أمناء المتحف البريطاني على عاتقهم تكليف المستشرقين إصدار نشرات تبحث في هذه الموضوعات وتشمل خلاصة مجهود العلماء. فنشر الدكتور واليس بدج Budge كتيباً اسمه «أسطورة الخليقة البابلية» هو الذي ترجمت عنه ما أشرت إلى أنه ترجمة فيما يلي. أما ما بقي فهو إيضاحات وتعليقات ومقابلات واستنتاجات، بعضها من مؤلفين وأساتذة أشرت إليهم، وباقيها لي خاصة.

٢ ـ الغرض من الأسطورة

لم يكن الغرض الذي رمى إليه كاتب هذه الأسطورة الأصلي إظهار الطريقة التي تم بها خلق الإنسان ـ فإن هذا الأمر جاء في «أسطورة الألواح السبعة» عرضاً. فالفكرة الأساسية

هي إظهار عظمة مردوخ (الإله) وتغلبه على التنين «تيامات». ولما عدد الكاتب الأمور التي تدل على سلطة مردوخ ذكر فيها خلق الإنسان كمظهر من مظاهر هذه القوة. يؤيد ذلك أن اللوح السابع (وهو الذي يلي قصة الخلق المذكورة في اللوح السادس) لا يخرج عن كونه تعداداً لألقاب الشرف التي خلعها الإنسان على هذا الإله.

كانت كل مدينة بين النهرين تقبل هذه الأسطورة كما هي، أو تعدلها تعديلاً طفيفاً غير جوهري، لكن الأمر الذي يهمنا أن كل مدينة كانت تجعل اسم إلهها القومي مكان اسم الإله الأصلي. ولعل شيوع اسم مردوخ في كثير من نسخ هذه الأسطورة يعود إلى زمن السيادة التي فرضتها بابل على غيرها من مدن تلك البلاد. فقد ظهر من مكتشفات العلماء الألمان وأبحاثهم أن أهل آشور وضعوا اسم إلههم «آشور» مكان «مردوخ». ولعل الاسم الحقيقي الذي كان في الأصل هو اسم «انليل» إله نيبور السومري (الشمّري بحسب رأي الكرملي) ــ وبذلك يكون اسم مردوخ أدخل في القصة حول سنة ٢٣٠٠ق.م.

٣ ـ مصادر القصة

مرَّ بنا أن لهذه الأسطورة القديمة صيغاً مختلفة، وقد كان ذلك طبيعياً لكثرة ما تعاقب على بلاد الرافدين من دول وأمم. وأحرى هذه الصيغ بالبحث ثلاث: الواحدة تعرف «بالأجرة المزدوجة» لأنها كانت مدونة بلغتين، والثانية أسطورة بيروسس، والثالثة «أسطورة الألواح السبعة». وتختلف هذه في بعض التفاصيل وأسماء الآلهة. وسأنقل الأولى والثانية كما هما، أما الثالثة فأكتفي فيها بالبحث العام لأنها طويلة جافة.

٤ ـ الأجرة المزدوجة

١: «البيت المقدس. بيت الآلهة في الموضع المقدس. لم يكن قد صُنع».
٢: «لم تكن قد نبتت قصبة، ولا صنعت شجرة».
٣: «لم تكن قد وضعت لبنة، ولا أقيم بناء من اللبن».
٤: «لم يكن قد صنع بيت ولا بنيت مدينة».
٥: «لم تكن قد صنعت مدينة ولا خلق مخلوق».
٦: «مدينة إنليل (أي نيبور) لم تكن قد صنعت، وإيكور (مدينة) لم تكن قد بنيت».
٧: «أرك لم تكن قد صنعت، أيَانَا لم تكن قد بنيت».
٨: لم يكن الغَمْر قد صنع، ولا إريدُو بنيت».
٩: «لم يكن مسكن المقدس، بيت الآلهة، قد صنع».
١٠: «كانت الأرض بحراً».
١١: «حينما كان البحر الأوسط (على شكل) حوض».
١٢: «حينئذٍ صُنِعَتْ أريدُو، وبُنيت إساجيل».
١٣: «أساجيل في وسط الغمر حيث قطن لوجالدُ لأزاجا».
١٤: «عملت بابل، وأقيمت أساجيل».

١٥: «خلق الآلهة أنُوناكي في وقت واحد».
١٦: أعلنت (الآلهة) قدسية المدينة المقدسة مسكن سعادة قلبهم».
١٧: «وضع مردوخ حصيرة حلفا على وجه المياه».
١٨: «جَبل تراباً، وفرشه على حصيرة الحلفا».
١٩: «ليمكن الآلهة من الإقامة حيث لم يستطيعوا (بدون مساعدته).
٢٠: «خلق الإنسان».
٢١: «الإلهة أورور خَلقت معه البذرة الإنسانية».
٢٢: «خلق حيوان الحقل و(كل) الأحياء في الحقل».
٢٣: «خلق النهر إدجْلات والنهر بوْراتُو. ووضعهما في مكانيهما».
٢٤: «وسماهما باسميهما تماماً».
٢٥: «خلق العشب، ونبات المستنقع، والبذر والأنجم».
٢٦: «خلق نباتات السهل الخضراء».
٢٧: «والأرض والمستنقعات والغدران».
٢٨: «وبقر الوحش وعجلها، والعجل الوحشي، والنعجة وصغيرها وحمل الزريبة».
٢٩: «والنباتات والأنجم».
٣٠: «والماعز وماعز الجبل»...
٣١: «وأقام الرب مردوخ سدّاً في منطقة البحر».
٣٢: «هو... مستنقعاً، وأسس غديراً».
٣٣: «.... صنعه».
٣٤: «خَلق القصب، وخَلق الشجر».
٣٥: «خلق... في موضعه».
٣٦: «وضع لبناً، وأنشأ بناءً من اللبن».
٣٧: «شاد بيوتاً، وأنشأ مدناً».
٣٨: «أقام مدناً، ووضع (فيها) مخلوقات».
٣٩: «صنَع نيبور. وبنى إيكور».
٤٠: «(صنع أرك) وبنى (إينا)».

٥ ـ إيضاحات للأجرة المزدوجة

الكلمات الموضوعة بين أقواس [هكذا] أضيفت في الترجمة الإنكليزية والعربية لتوضح ما حولها. والأرقام المستعملة في الإيضاحات الواردة هنا هي أرقام الأسطر في الترجمة:

(٦) إنليل هو إله «الريح» عند السومريين (الشمريين) وهم قوم مجهولو الأصل كانوا يسكنون سهل شنعار منذ الألف الثالث قبل الميلاد. وكان إنليل إلهاً عاماً يعبده الكل ويقدمون له القرابين رغم وجود آلهة محلية لكل مدينة. ونيبور هي مدينة إنليل، فهي على ذلك، عاصمة

السومريين الدينية. ويسمي الكتّاب العرب هذه المدينة «نوفار» أو «نفار».

(٧) أُرك وغيرها من أسماء المدن المذكورة في الترجمة هي مراكز الدويلات المتعددة التي كانت في أرض ما بين النهرين في فجر التاريخ. وسنكتفي بالإشارة إلى الأهم من هذه المدن.

كانت أرك هذه مركز إحدى هذه الدويلات المشهورة. وشهرتها تعود خاصة إلى ملكها الخرافي جلجامش، الذي يعتبره البابليون اعتبار اليونان لهرقل البطل الخرافي المشهور.

وفي زمن جلجامش حوصرت أرك ثلاث سنوات متوالية حصاراً شديداً حتى قيل في وصف ذلك الحصار «... (في أرك) يصرخون كالوحوش، والفتيات ينحن كالحمام وآلهة أرك الحصينة أصبحت ذباباً يتطاير في الأزقة. وأرواح أرك الحصينة صارت فئراناً تأوي إلى جحورها. قد حاصر العدو أرك ثلاث سنوات فأقفلت النوافذ وسدت الأبواب ولم ترفع أشتار (الإلهة) رأسها في وجه العدو...».

على أثر انتصار جلجامش حكم الناس حكماً قاسياً حتى ملوه، فحاولوا التخلص منه لكنهم فشلوا إذ اكتشفت مؤامرتهم. وتعاقب على أرك ملوك آخرون حتى كان القضاء على سيادتها على يد ملك عيلامي حول السنة ٢٣٥٧ق.م ـ فحمل آلهتها ـ وبقيت هناك حتى أرجعها آشور بنيبال سنة ٦٤٧ق.م: (History of the Ancient, East Hall p. 178).

(٨) الغَمْر ـ استعملت هذه الكلمة ترجمة لكلمة Deep أو Abyss المستعملة في الترجمة الإنكليزية. وقد اتبعت التوراة في الترجمة. ففي سفر التكوين (١:٢) استعملت كلمة غمر لترجمة كلمة Deep. والكلمة الأصلية «أبسو» Apsu. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه ليس من المؤكد فيما إذا كانت هذه الكلمة تعني الغمر أي العمق المتسع المملوء بالمياه، أو أن الكلمة تعني «وعاء» خاصاً كان يستعمل في عبادة الآلهة. ولعل هذا الوعاء حوض كبير أو بحر كالذي استعمله سليمان في صحن هيكله والذي يوجد وصفه في الملوك الأول (٢٣:٧) والملوك الثاني (١٣:٢٥) وقد كان طوله عشرة أذرع. ولعل المعنى الأول الذي استعملت له الكلمة أقرب إلى الحقيقة (راجع التعليق على السطر رقم ١٠).

(١٠) في هذا وبعض السطور التالية، إشارة إلى الزمن الذي كانت فيه بابل خليطاً من الماء والتراب، أو بعبارة أخرى كانت مستنقعاً كبيراً، وكل السكان الأولون متفرقين على جزر كثيرة بارزة. وعلى هذه الجزر قامت المدن الكثيرة المذكورة في الترجمة. ولما كان البابليون يذكرون بابل فقد كانوا يعنون «العالم لأن بابل كانت لهم العالم كله».

(١٣) لوجالدُلأزاجا Lugal-du-azaga وهو الاسم الذي كا مردوخ معروفاً به في أريدُو.

(١٥) خلق ـ وكل الأفعال المفردة المذكرة الواردة في القطعة، تعود ضمائرها الى مردوخ.

(٢٣) ادجلات ـ نهر دجلة وبوراتو نهر الفرات. في هذا السطر والسطر (٣١). وأقام الرب مردوخ سداً في وسط البحر إشارة إلى الزمن الذي بدأ فيه سكان بابل في فجر التاريخ،

يقيمون السدود والحواجز لمنع فيضان النهرين على البقاع المجاورة، وبذلك تسنى لهم استغلال قطع الأرض وإنبات بعض المزروعات وتدجين الحيوانات التي وجدت مكاناً ترعى فيه لوجود العشب وإلى هذه الأمور تشير الأسطر ٢٥ ـ ٣٠.

(٣١) مردوخ ـ كانت بابل إحدى المدن القليلة الشأن من مدن ما بين النهرين، ولما كانت عظمة الآلهة تتبع عظمة المدينة في تلك الأثناء، فقد كان مردوخ أيضاً وضيع الشأن. فلما جاء العموريون من الغرب، من سورية، واحتلوا بابل واتخذوها عاصمة لهم وكانو أقوياء، نشروا سلطانهم على الأرض المجاورة وفرضوا سيادتهم على البلاد القريبة. فصار لمردوخ شأن كبير وصار ملك الآلهة أو رب الأرباب واتخذ شخصية انليل بعل نيبور (أي رب نيبور). وكلمة الرب هي ترجمة Lord الإنكليزية ولعل الأصل فيها «مردوخ».

(٤٠) هذا السطر نهاية ما ترجم من الأجرة المزدوجة، ولكنه ليس نهاية الكتابة الأصلية. فإن الباقي شظايا مهشمة فقط وهو صلاة كانت تتلى في المعابد إكراماً لمردوخ.

٦ ـ أسطورة بروسوس

اتصلت أسطورة الخليقة البابلية باليونان فيما اتصل بهم من آثار هؤلاء القوم، وكتبها بعض كتّاب اليونان فيما كتبوه، ولذا فقد بقيت لنا صور مختلفة منها، وأحق هذه الصور بالعناية أسطورة بروسوس Berosus، وبروسوس هذا كان كاهناً لبعل مردوخ في بابل حوالى السنة ٢٥٠ق.م. وكتب كتاباً سماه «تاريخ بابل» أتى فيه على الحقائق التاريخية والتقاليد والأساطير، كما عرفها من المصادر الأصلية التي كانت في أيامه. ومن هنا كان الشبه الشديد بين ما كتبه وبين ما أظهرته قطع الأجر البابلية التي ظهرت بعد البحث والتنقيب. وفيما يلي ترجمة ما كتبه بروسوس عن خلق الإنسان وبدء الأشياء ـ قال:

«مر دهر لم يكن فيه إلا ظلام دامس وغَمْر مملوء بالماء، تسكنه أحياء مرعبة قبيحة الشكل... كان رجال لكل منهم جناحان، وآخرون أربعة ووجهان. كان لبعضهم جسم واحد ورأسان، الواحدة رأس رجل والأخرى رأس امرأة، وهكذا في بقية أعضائهم ـ الواحد مذكر والآخر مؤنث. وكانت أجسام بشرية لها أرجل الماعز وقرونه، وأخرى لها أقدام الخيل، وبعض الأجسام كان مقدمها بشرياً ومؤخرها حصاناً وتشبه في شكلها القنطورس (حيوان خرافي). وكانت هناك ثيران لها رؤوس بشرية، وكلاب لها أذناب سمك. وخيول لها رؤوس كلبية، وبشر وحيوانات أخرى برؤوس خيل وأجسامها وأذناب سمك. وبالاختصار فقد كانت مخلوقات جمعت أعضاء كل أصناف الحيوان المعروفة. أضف إلى ذلك أسماكاً وزواحف وأفاعي وحيوانات ضخمة أخرى كانت تتخذ أشكال بعضها البعض وحياتها. وقد حُفظت لكل هذه رسوم في هيكل بيلوس في بابل.

«وكانت السيادة على كل هذه تعود إلى امرأة تسمى تلات Thalath أي البحر أو (الغمر). فجاء بيلوس وقسم المرأة إلى قسمين، وصنع من نصفها الواحد الأرض ومن نصفها الآخر السماوات. وفي الوقت نفسه قتل الحيوانات التي كانت فيها [هذا الجزء ترجم بتصرف].

«وكان الكون رطباً، وهناك تولدت الحيوانات، فإن الإله كنجو Kingu فصل رأسه، فجاء الآلهة ومزجوا دمه بالتراب فكان من ذلك الإنسان، ولذلك كان الإنسان عاقلاً مدركاً [بتصرف أيضاً].

«وقام بيلوس بقسمة الظلمة، وفصل السماء عن الأرض، وأوجد النظام في الكون، لكن الحيوانات ماتت لأنها لم تقو على احتمال النور. فلما رأى بيلوس ذلك ورأى أن جزءاً كبيراً من الكون غير مأهول مع أنه خصب جداً أمر أحد الآلهة (كنجو أيضاً) أن يفصل رأسه (رأس كنجو) ويمزج الدم بالتراب ويصنع رجالاً وحيوانات، تقوى على احتمال النور. ثم صنع بيلوس النجوم والشمس والقمر والكواكب الخمسة...».

٧ ـ إيضاحات لهذه الأسطورة

١ ـ قسم المرأة تلات إلى قسمين وصنع السماء والأرض من نصفيها حادثة حاول فيها واضع القصة أن يفسر الطريقة التي تكوّنت منها الأرض. وفي بعض الأساطير القديمة أن السماء والأرض نصفا بيضة..

٢ ـ فصل كنجو رأسه (المرة الأولى) ومزج دمه بالتراب لخلق الإنسان، ومن ثم كان الإنسان عاقلاً مدركاً. هذا شبيه بما في سفر التكوين (١:٢٧) «فخلق الله الإنسان على صورته» والمقصود بذلك: «... أن يكون الإنسان بمنزلة الملائكة بما له من سمو شرف النفس وانفراده دون سائر الحيوانات بقوة العقل والإدراك وروح الفضيلة ـ فهو مادي بأخذه من الأرض وروحاني بنور نفسه وما أراده الله من الولاية والإشراف على كل شيء في الأرض» تفسير التوراة، مراد فرج، ج١، ص ٨٦.

٣ ـ كان بيلوس في منزلة جوبيتر عند الرومان.

٨ ـ خلاصة الآجرات السبع

كل ما كان موجوداً في أول الأمر أبسو، أي الماء الخاوي الخالي المجهول أصله أو زمن وجوده أو موجده. وقد خرج من هذه الكتلة المائية صنفان من الكائنات: الهول demons والآلهة. وكانت هذه الهول مرعبة غريبة الشكل. قسم منها بشري والآخر حيواني، أما الآلهة فكانت كلها صوراً بشرية.

بعد مرور عصور على هذه الحال ظهر إلآهان: «انشار وكيشار». وكان الأول يمثل «قوات السماء»، أما الثاني فيمثل «قوات الأرض». ثم مرت مدة لا يعرف طولها فظهرت الإلهة البابلية فجاء معها «النظام» إلى الكون فاضطرب أبسو سيد «الفوضى والفراغ» لذلك استشار زوجه تيامات Tiamat في الطريقة التي يتمكن بها من القضاء على هذا «النظام» وإعادة الفوضى إلى الكون. وتيامات هذه مخيفة المنظر غريبة الشكل جداً. لها أجنحة ومخالب طويلة، وجسمها يتخذ مرة شكل حية ضخمة ومرة أخرى شكل حيوان كبير. والظاهر أن فكرة القوم عنها أنها كانت تجمع في نفسها كل مظاهر القوة والرعب... وكانت مع ذلك «أم كل شيء».

كان رسول أبسو وتيامات في هذه المخابرات «موّمو». وكانت نتيجتها قيام قتال بين

الآلهة والهول. كانت غايته أن تقضي قوى الظلام على قوى النور فتعيد الفوضى إلى الكون. وفي هذا العراك كانت الآلهة هي الشمس والقمر والنجوم، والهول الظلام والليل والشر. وقام «إيا» الإله بالنيابة عن الآلهة فتغلب على أبسو ومومو. وكان سر تغلبه يعود إلى ما كان معه من التعاويذ التي قرأها فشلّت أيدي الآخرين عن مناجزته. فلما بلغ ذلك مسامع تيامات ثار ثائرها وصممت على الانتقام لموت زوجها أبسو. فأخذت في الاستعدادات الجديدة بزيادة عدد أعوانها. فجاءت بنسل من الشياطين والمردة لنصرتها، وكان نسلها يمثل الضباب والغيم والسحاب والزوابع والأعاصير والبرق وكل بقية العناصر المدمرة، واستدعت قوى الهواء لمعونتها وجعلت لها بين نجوم السماء أعواناً، وسلّمت قيادتها كلها للإله «كنجو» الذي اتخذته زوجاً لها. وقرأت عليه تعويذة وسلّحته بقوى سحرية فسار كنجو مع جيشه لقتال الآلهة.

اضطرب (إيا) لهذا النبأ الذي أزعجه وأقض مضجعه لعلمه بعجزه عن مقاتلة كنجو، وأبلغ «أنشار» حقيقة الحال التي أزعجت الأخير أيضاً لأنه لم يكن يعرف بين الآلهة كفؤاً لكنجو وتيامات. وبعد تفكير ارتأى أنشار ضرورة عقد اجتماع للآلهة وحمل ابنه مردوخ على حضور هذا المؤتمر الإلهي الذي قبل فيه أن يقاتل تيامات بالنيابة عن أهل السماء. وكان مردوخ «إله الشمس» أكبر قوى النور، فجاء المؤتمر ليحصل على تعيين بالإجماع قبل أن يبدأ بعمله ولتسلحه الآلهة بالقوى السحرية التي تقيه وتعينه. وأقيمت هناك (مكان المؤتمر) حفلة كبرى. فلما جاء الآلهة وقبّلوا بعضهم بعضاً وأخذ كل مكانه شربوا الخمر الحلو الدافىء، وأكلوا الخبز فأثرت رائحة الخمر في حواسهم، وعندها عيّنوا مردوخ نائباً مدافعاً عنهم، ثم حيوه مليكاً عليهم وخلعوا عليه شارات الملك وهي العرش والصولجان والبالا [التي لا يعرف عنها شيء]. وأمروه أن يذهب فيقطع تيامات إرباً إرباً ويفرق دمها.

أخذ مردوخ يسلح نفسه فحمل قوساً ورمحاً وهراوة. وملأ نفسه ناراً وسير البرق أمامه. وأخذ معه شبكة لاصطياد تيامات، وأثار العواصف الهوجاء لمعونته وركب الزوبعة التي جرّتها أربعة خيول.

اقترب مردوخ من وسط تيامات ونظر الخطة التي وضعها كنجو المقيم هناك وأدركها، فلما رأى كنجو وبقية أعوانه مردوخ واستعداداته اضطربوا وأسقط في أيديهم حتى إنهم لم يستطيعوا حراكاً. فلما رأت تيامات ذلك منهم حنقت عليهم واشتد غيظها. فلما دعاها مردوخ لمنازلته بدأت التعزيم قصد تقييده برقاها وسحرها، فلم يؤثر ذلك فيه. عندها ألقى مردوخ شبكته عليها ونفخ الريح في وجهها فملأت أحشاءها فطعنها بحربة شقتها شطرين. أراد أعوانها الهرب فهيّج مردوخ الرياح الأربعة عليهم فلم يتمكنوا من التحرك في جهة ما، وبذلك قبض مردوخ على تيامات وأعوانها الأحد عشر وداسهم، ثم فلق رأسها بهراوته، فأثنى عليه الآلهة وأجازوه على حسن صنيعه بتخليصهم من هذا الخصم العنيد.

شق مردوخ جسم تيامات قسمين جعل من الواحد قبة السماوات ومن الآخر الأرض. ثم خلق مساكن الآلهة الأولى، والنجوم كلها، ووضع القوانين والأنظمة لحركتها وسيرها.

لكن الآلهة ضجروا واحتجوا بأن ليس هناك من يعبدهم، وليس من يقدم لهم القرابين والضحايا، فأعلن مردوخ رغبته في خلق الإنسان من الدم والتراب، وبعد استشارة الآلهة وعقد اجتماع لها، قرر المجتمعون أن يكون كنجو، وهو المثير للقتال، الإله الذي يُقتل لمزج دمه بالتراب لخلق الإنسان. وهكذا كان. وصنع الإنسان من مزيج دم كنجو والتراب.

وأراد الآلهة (أنوناكي) أن يعظموا مردوخ فبنوا هيكلاً في بابل. فصنعوا اللُبن بأنفسهم. وبنوا له «أساجيل». فلما تم هذا الهيكل خص مردوخ كل إله بمكان فيه.

هذه خلاصة القصة على ما روتها الآجرات السبع التي يبلغ مجموع سطورها المقروءة فقط ما يزيد على الثمانمائة ـ وفميا يلي ترجمة الأسطر الأخيرة التي ختمت بها القصة.

ونبدأ بالسطر ١٢٥ من الآجرة السابعة:

١٢٥ ـ فليأخذها أول قادم ويقرأها.

١٢٦ ـ فليفكر الرجل العاقل والمتعلم في كل منها.

١٢٧ ـ على الأب أن يقرأها (يعيدها) أمام ابنه حتى يتمكن منها.

١٢٨ ـ فلتفتح أذن الراعي ومراقب الأبقار (أي لتعطه الفهم).

١٢٩ ـ فليتهلل بمردوخ رب الأرباب.

١٣٠ ـ كيما تخصب أرضه، ويعيش آمناً.

١٣١ ـ كلمته كلمة حق، وناموسه لا يتغير.

١٣٢ ـ ليس بين الآلهة من ينطق بما ينطق به هو [مردوخ].

١٣٣ ـ الذي [أي مردوخ] احتقرته الآلهة فلم يولهم ظهره [لم يهرب].

١٣٤ ـ [الذي] ليس لإله أن يقاوم سخطه إذا ما بلغ غايته.

١٣٥ ـ قلبه كبير ـ وأحشاؤه بالرحمة ملأى.

١٣٦ ـ .....

١٣٧ ـ فليتألم أمامه من الذل أول قادم.

أما ضمير المؤنث السالم المستعمل في السطور الأولى فيعود إلى «الأسماء». والأسماء هذه خمسون اسماً مقدسة لمردوخ كانت تدل على قداسته وقدرته وعظمته وجبروته وسطوته الخ....

٩ ـ تعليقات واستنتاجات

١ ـ نرى في هذه القصة اعتماد الآلهة على العواصف والرياح والزوابع اعتماداً كبيراً. وما أظن أن استخدام الرياح والتسلط عليها كانا مجرد مصادفة أو اختراعاً أتى به القصاصون، ولكن الذي يمكن استنتاجه من هذه الحالة أن أصحاب القصة الأصليين كانوا يعبدون «الإله الريح». ومن ثم كان طبيعاً أن يجعلوا الريح رهن إشارته. وإذا عرفنا أن السومريين القدماء الذين سكنوا بين النهرين في فجر التاريخ كانوا يعتبرون إلههم «انليل» إله الريح، فإننا لا نستبعد أن يكون واضعو القصة الأولون من هؤلاء القوم.

على أن هناك أموراً أخرى تثبت هذه الفكرة ـ ذلك أن القصة تعود بنا إلى زمن كانت فيه بلاد ما بين النهرين ماء في ماء. وليس فيها إلا بعض بقع يابسة ظهرت شيئاً فشيئاً كما يدل سياق القصة. ولما كان التاريخ يعرف أن هؤلاء السومريين هم أقدم شعب سكن تلك البلاد ـ فليس من المستبعد أن يكونوا هم أول شعب حاول شرح هذه الظاهرة الطبيعية ـ أي خلق الإنسان ـ فوضعوا هذه القصة ـ ولما كانوا قد شهدوا حالة البلاد الأولى بقيت في أساطيرهم هذه.

من هذه الفكرة نفسها يمكننا أن نثبت أن أصل الأسطورة سومري. ذلك أن القوم الذين نشأت القصة بينهم يتحدثون عن العالم وهم يقصدون أرضهم، بهذا العالم، وهذا دليل على أنهم لم يكونوا يعرفون الشيء الكثير ولا القليل عن البلاد المجاورة، فلم يرد لها ذكر فيما قصوا أو كتبوا. ولو كان البابليون المتأخرون أو الآشوريون أصحاب القصة لكان من الضروري أن يشيروا إلى ذلك إشارة على الأقل...

ولو سلّمنا مع الدكتور هول صاحب كتاب «تاريخ الشرق الأدنى القديم» بأن شعباً سامياً سكن بين النهرين قبل السومريين، لما نقّص ذلك شيئاً من قيمة هذه الحقيقة التي وصلنا إليها. ذلك لأن هذا يعني أن هذه القصة ظهرت بينهم، فلما جاء السومريون أخذوها عنهم ففيروها بحيث توافق عقلهم ومزاجهم حتى ضاع الأصل السامي فيها. ويعود ذلك إلى أن السومريين الدخلاء كانوا على رأي الدكتور هول، على جانب من المدنية كبير إزاء أولئك السكان الأصليين. فكان من الطبيعي أن تقضي الشخصية القوية المتمدنة على تلك الضعيفة وتعطي القصة من روحها شيئاً يكفي لصبغها بالصبغة السومرية.

أما وجود اسم الإله مردوخ في القصة فليس دليلاً على بابليتها أو عموريتها. ذلك لأن هذا الاسم هو عوض أو بدل لاسم أنليل الإله السومري. كما أن هذه القصة كان لها تأثير كبير في أذهان الشعوب التي سكنت بين النهرين بحيث أنها كانت تراثاً أدبياً لكل آت. فكانت الشعوب تقتبسها، سيما وأنها قصة، انتقالها وحفظها أسهل من انتقال أي شيء آخر وحفظه. ثم تأبى عليها كرامتها أن تقر بأفضلية إله غير إلهها، فلا تلبث حتى تدخل اسم إلهها القومي مكان اسم الإله الأول. فلما كانت بابل، وكان ما كان من فرض سيادتها على ما بين النهرين في عصر حمورابي، ذاع اسم إلهها بين كل القاطنين هناك، فقبلوا بمردوخ بطلاً لهذه القصة التي كان القصد منها تفسير هذه الظاهرة الطبيعية.

٢ ـ هذا الاتفاق على اعتبار مردوخ هذا الاعتبار، وإنزاله هذه المنزلة، وإحلاله هذه المكانة بين سائر الآلهة، واعتراف الآلهة بسلطته ورفعته، حمل البعض على الاعتقاد بوجود التوحيد، بين أمم بين النهرين القديمة. ولكن هذه الظاهرة التي قدمنا، تفسر حتى سبب هذه الحال، كما تغنينا عن التدليل على بطلان هذه العقيدة. ولعل سبب عدم وصول هؤلاء الشعوب إلى فكرة التوحيد، فضلاً عن عوامل أخرى هو «أن الشرقيين القدماء لم يكن عندهم فلسفة للبحث عن أصل الأشياء... بل كل ما نجد أساطير ميثولوجية تتعلق بأصل الأشياء ولها صبغة

دينيـة [قـوية] ، إذ لا تشـيـر إلـى كـيـفـيـة التكون إلا بواسطة الـرمـوز، وبذكـر أعـمـال الآلهـة والأبطال...» (الأستاذ جويدي ـ الزهراء ـ ٥: ٣٤٣). فلما لم تكن للشرقيين فلسفة نظرية، لم يحملهم ذلك على التفكير في الكون ودرسه فلم يوفقوا إلى الاهتداء إلى فكرة التوحيد. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الدكتور واليس بدج يعتقد أنه إذا كان هناك شيء من فكرة التوحيد، فلم يكن يتعدى الكهنة، أما الشعب فلم يعرف شيئاً عن الخليقة إلا ما كان يفهمه من هذه الأسطورة الشائعة.

٣ ـ من هذه الأسطورة يمكننا أن نصل إلى أمرين: الأول، أن قوى النور وقوى الظلمة كانت في قتال. والثاني، أن الإله «الخالق» كائناً من كان، اختلف مع بقية الآلهة.

أما الأول فنجد شبيهاً له في آداب الأمم الأخرى الميثولوجية. فهذه قصة النزاع، بل القتال بين «حدود» إله السماء العظيم، و«ست» قائد قوات الظلام، شاهد على ذلك.

بل هناك شاهد أكبر وأبعد أثراً، ذلك هو المذهب الزروستري كله. فإنه لا يخرج عن كونه فكرة اصطدام دائم بين قوى الخير والشر ـ قوى النور والظلمة ـ النور والظلام. وليس المقصود أن هذه الفكرة الآرية أخذت عن تلك، كما أننا لسنا ننكرها فليس هذا أو ذاك في مقدورنا، في هذه الحال.

أما الأمر الثاني فأبعد أثراً، وقد تسرب من الأمم الأولى التي سكنت بين النهرين إلى كل من خلفهم، ثم وجدت لها مرتعاً خصباً في الآداب العبرانية والمسيحية الدينية. فهذه كلها تعترف بأن خصاماً حدث بين الإله وفئة من الملائكة لكنها لا تذكر أسبابه. أما في أساطير الأمم الأولى فتجعله بعد خلق الإنسان، مما قد يحملنا على الاعتقاد بأنهم كانوا يعتقدون أن هذه الخليقة أثارت هذا الخصام. وأما الآداب العبرانية المسيحية فتنسب هذا الخصام ـ وهي تسميه غضب الرب على الشيطان وأعوانه ـ إلى عصيان الشيطان خالقه ومحاولته مخالفته، فعاقبه الله عقاباً شديداً جزاء ما جنت يداه.

٤ ـ كان السامي، في حياته الأولى، يعتقد بأن لكل شيء في الحياة إلهاً خاصاً. فكان يرى ذلك في الشجر والأحجار وينابيع المياه وو... ولم تكن الكواكب لتخرج عن ذلك. فإنه اعتبرها ذات قوى إلهية أو آلهة، وربط أسماءها بأسماء آلهة. فلما كانت بعض هذه الكواكب من أعوان تيامات أي «فئة الشر» والظلام، ارتبطت أسماؤها بالشر وبالأعمال السيئة. ومن هنا أصل ما نراه من تشاؤم عند الأقوام على اختلافها من بعض الكواكب أو النجوم.

١٠ ـ الأسطورة البابلية وقصة التكوين

مقابلات واستنتاجات

لن ننقل إلى القارىء القسم الذي فيه قصة الخليقة من فصل التكوين، فإن قراءته سهلة على كل من أراد. وإنا ندعو كلاً إلى قراءته حتى يتسنى له الحصول على فكرة تامة واضحة عن الأمر الذي نريد أن نبحث فيه الآن. فقد قابلنا الأسطورة البابلية بسفر التكوين فظهرت لنا بعض النتائج التي نعرضها فيما يلي:

١ ـ جاء في العدد الأول من الإصحاح الأول من سفر التكوين «في البدء خلق الله السموات والأرض». والذي يفهم من هذا أن الله موجود قبل كل شيء، وإلا لما استطاع خلق السموات والأرض. أما القصة البابلية فتبدأ بذكر العدم. وتشير إلى وجود «الكتلة المائية» التي تسميها أبسو. والذي يجب أن يفهم من هذا الأمر أن «أبسو» هذا ذو قوة إلهية أو هو إله بنفسه. يؤيد هذا أنه لم يكن لدى الأمم الأولى شيء ليس فيه قوة إلهية أبداً. وهنا نرى الاتفاق الضمني بذكر الإله قبل كل شيء.

٢ ـ الأسطورة البابلية وسفر التكوين يتفقان في الإشارة المزدوجة إلى الجلد (السماء). ففي الأولى أن مردوخ خلق السماء من نصف تيامات، ثم يعود إلى ذكر رفع الجلد أو إقامته. كما أن التكوين يذكر خلق السماء (العدد الأول) ثم يعود إلى ذكر عمل الجلد ورفعه في العدد السابع.

٣ ـ تتفق الروايتان في ترتيب خلقة المواقيت والزمن وخلق الكواكب بالنسبة إلى بقية الحوادث الأخرى. ويرى الأستاذ برستد (العصور القديمة ـ ١١١ من النسخة الإنكليزية) أن اليهود ورثوا التقويم القمري من السومريين. ونحن نرى أنه أسهل جداً أن يرث اليهود قصة خلق النجوم من أن يرثوا التوقيت. ذلك لأن القصة على الألسن أسير وفي النفوس أكثر تأثيراً.

٤ ـ تقول الأسطورة البابلية بأن القمر أُعطي ضياؤه أي نوره وجعل «حارس الليل». وفي التكوين (١:١٤): «وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء». وفيه أيضاً (١:١٦): «وجعل النور الأصغر (أي القمر) لحكم الليل». جاء في «تفسير التوراة ـ الجزء الأول ـ ص ٥٩» في شرح العدد الرابع عشر: «... أنوار هنا تقابل آمارات العبرية ـ فهو غير الأوار، أي النور... ولم يكن بالمآرات نور حين خلقها، فأمده (أي القمر) الله بالنور المخلوق قبلاً...»

لا نستطيع القول بأن هذا الأمر في الراوية كان مصادفة أو اتفاقاً.

٥ ـ «قال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (تكوين ١: ٢٦). جاء في «تفسير التوراة ـ الجزء الأول ـ ص ٨٦» بهذا الخصوص: «... وضمير المتكلم في قوله نعمل، راجع إلى الملائكة. فالخطاب على لسانهم بأمره، كذلك الضمير في قوله كشبهنا. فإن الله عزّ وجلّ منزّه عن التشبيه.. والمراد به أن يكون الإنسان بمنزلة الملائكة من جهة ما له من سمو شرف النفس وانفراده دون سائر الحيوانات بقوة العقل والإدراك».

والذي نفهمه من هذه الفقرة وجود الملائكة في السماء. وهي مخلوقات بين الإله والبشر. وبعبارة أخرى فهي من أعوان الإله وتمثل «فئة الخير». وهنا تتفق الروايتان في أن الآلهة خلقت لها أعواناً. ففي الأسطورة البابلية أن كلاً من مردوخ وتيامات خلق أعواناً له.

٦ ـ في التكوين: (٢: ٧): «... نفخ (أي الله) في أنفه (أي الإنسان) نسمة حياة، يقابلها في الأسطورة البابلية إراقة دم كنجو لمزجه بالتراب الذي جبل منه الإنسان. والعمل واحد من حيث جوهره ويقصد به إفهام الحقيقتين الآتيتين: الأولى أن هذه النفحة وهذا الدم هما الحياة أو الروح التي يحيا بها الإنسان، والثانية أن هذين هما سبب ما في الإنسان من إدراك

وفهم. فنسمة الحياة «الإلهية» «ودم كنجو» شيء واحد، وواسطة واحدة لذلك.

٧ ـ يذكر التكوين خلق أربعة أنهر. أما الأسطورة البابلية فتذكر اثنين فقط. وهذان الاثنان ادجلات وبوراتو هما نفس حداقل والفرات. ومن المنتظر أن يكون اليهود الذين تجولوا في الأرض أقدر على معرفة الأنهار من أهل القصة البابلية الأصليين الذين لم يعرفوا إلا هذين النهرين أو على الأقل لم يتأثروا بغيرهما تأثراً محسوساً.

٨ ـ والذي يجب الانتباه له خاصة هذا الشبه بين المصدرين فيما يتعلق بالحية. فالتكوين يعتبر الحية أحيل الحيوانات وأقدرها على مناهضة الإنسان، بدليل ما جاء فيه: «... وأضع عداوة بينك (الخطاب للحية) وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها (تكوين ٣: ١٥). والأسطورة البابلية تعتبر ضمناً بذلك، إذ تشير إلى أن هذا الشكل هو أحد الأشكال التي اتخذتها تيامات لتلقي الرعب في نفوس أعدائها. ودوام العداء بين تيامات ومردوخ، هو عداء دائم بين الحية وأعوان مردوخ. فالعداء المستحكم متفق عليه في الروايتين، والإنسان من أعوان الله. فكان الأمر عداء بين الحية (ممثلة الشر) وممثل الخير. وهو واحد في طبيعته... وإنما الخلاف في التعبير بالنسبة للقومين.

١١ ـ المشكلة الكبرى والخلاف الجوهري

يمكننا أن نقرر أمرين بعد هذه المقابلات والاستنتاجات. وهما:

أولاً: إن أكثر التفاصيل تتفق في الروايتين إلى درجة بعيدة عن حدود المصادفة والاتفاق من جهة، وأنها في بعض اختلافاتها هي اختلاف عرض لا اختلاف جوهر.

ثانياً: إن نقطة الخلاف الأساسية تدور حول فكرة الإله. ففي البابلية إن الآلهة منذ البدء قسمان أو فئتان ـ فئة الخير وفئة الشر، وكانت الواحدة تناهض الأخرى. أما العبرانيون فقد اعتقدوا أن كل شيء حتى الهول والشياطين هي من مخلوقات الله (يهوه) أي إنه واحد منذ البدء. وهذا ما نريد أن نستجليه الآن.

إن فكرة الإله أو النظرية الإلهية تطورت عند العبرانيين إلى درجة لم تعرفها الأمم السامية الأخرى. وقد قيض لهم أن تحيط بهم أمور خاصة، وأحوال لم تكن لغيرهم، أعانت الفكرة الدينية على ذلك. ومن ثم أتيح لهذا القوم الذي كان يعتقد بوجود إله لكل شيء أو جزء من الأرض أو بئر الخ... والذي كان يعبد هذه الآلهة ـ أتيح له أن يكون أول أمة أخرجت «التوحيد للناس». (وإني أحيل القارىء على الفصل السابع من كتاب العصور القديمة لبرستد وعلى الفصل السابع من كتاب تاريخ حضارة فلسطين للأستاذ مكلستر ليطلع على درجات هذا التطور ومراحله).

فلما أخذ اليهود بكتابة تاريخهم، ليثبتوا فيه أنهم شعب الله الخاص، كان عليهم أن يبدأوا ذلك بالخليقة ليحلوا مشكلة «بدء العالم» لأن ذلك متصل بغرضهم اتصالاً وثيقاً.

وكانت الأسطورة البابلية قد انتقلت إليهم مع ما انتقل من أساطير بابل غرباً، ثم قوي ذلك أثناء إقامتهم بين النهرين، وأصبحت جزءاً من تقاليدهم وعاداتهم، لكنها خضعت لما

خضع له كل ما كان عندهم من آراء دينية من التطور. وكانوا يرون فيها ـ على ما كان يسمح لهم تفكيرهم ـ حلاً لمشكلة الخليقة، فقبلوها في كتابهم. ولكن الكاتب الذي دوّن سفر التكوين ـ ولا فرق في أن يكون موسى على ما يرى البعض أو مؤرخاً مجهولاً على رأي برستد أو يوسف على تحقيق الأستاذ جبر ضومط ـ كتب هذه القصة البابلية الأصل ـ أو السومريّته على الأصح ـ متأثراً بعامل التوحيد الإلهي. فلما أراد أن يشير إلى ما كان في عصيان بعض المخلوقات على الله ـ وهي فكرة النزاع بين مردوخ وتيامات نفسها ـ اضطر إلى القول بأن الشيطان والهول... هي من خلق الله أيضاً. لكنها عصته إذ ليس في استطاعته أن يأتي بغير ذلك لمخالفته لعقيدة قومه وزمنه. وبذلك تمكن من التوفيق بين الأسطورة التي كانت تفسر مظاهر الطبيعة وخلق الكون، وبين عقيدة قومه الدينية.

١٢ ـ النتيجة

يتضح لنا مما تقدم أن أسطورة الخليقة البابلية هي أصل قصة الخليقة العبرانية المدونة في سفر التكوين. والفرق يعود إلى ما مر على العبرانيين من أيام ودهور اختبرت فيها أشياء جديدة، وتطورت على شكل لم يتح لغيرها. وكان طبيعياً أن تظهر آثار هذا التطور في هذه القصة الدينية ـ على النحو الذي نراه في سفر التكوين.

٢ ـ المدنيات القديمة

«لكل شعب في الدنيا تاريخه، ولكل رقعة في الأرض تاريخها.
وحكاية هذا التطور والتبدل هو التأريخ».

١ ـ التاريخ قبل علم الآثار

كان المألوف عند الذين يدونون تاريخ شعب ما أو رقعة من الأرض أن يعتمدوا على نص مدوّن، أو نقش على الحجر أو الآجر، أو رواية تواترت على الألسن وحلّل المؤلفون عناصرها. لذلك لم تكن حكاية التاريخ هذه تعدو الألف الثالث ق.م. إلا فيما ندر. لكن قبل قرن أو يزيد من الزمن، انضم علماء الآثار إلى المؤرخين في اكتشاف مجاهل الماضي في القرون الخوالي. وصار المؤرخ يعتمد على معول الأثري ورفشه في تصور حياة القوم الغابرين. ومن ثم انتقل الزمن الذي يتحدث عنه المؤرخ لمكان ما بضعة آلاف من السنين. وأصبحنا، مثلاً، نتحدث عن تاريخ أريحا في الألف السابع أو السادس ق.م.

على أننا ونحن نعترف لعلماء الآثار بفضلهم على التأريخ والمؤرخين، فإننا، في هذا الحديث نود أن نقتصر على ذكر بعض المصادر التاريخية المدوّنة، تاركين الحديث عن فضل الآثار إلى الفصول التالية.

وحريٌّ بنا، قبل كل شيء، أن نتذكر أن الكثير من أخبار الأمم الخوالي امتزجت فيه الأسطورة بالتاريخ امتزاجاً كبيراً، بحيث أصبح يصعب على الباحث أن يخلّص الواحد من الآخر. وقد ظل الأدب التاريخي فترة طويلة من الزمن محدوداً في طبيعته وآفاقه، بحيث لا يعدو أن يكون ثبتاً بأسماء الملوك أو نقشاً يروي انتصاراً في الحرب. فإذا نحن أخذنا على سبيل المثال المصادر الرئيسة لتاريخ مصر وأرض الرافدين وديار الشام في العصور المتوغلة في القدم، ألفينا أنه يمكن تلخيصها فيما يلي: (بالنسبة لمصر).

١ ـ حجر بلرمو وهو حجر من الديوريت ترجع الكتابة التي عليه إلى أواخر القرن السابع والعشرين ق.م. وفيه بيان السنوات التي حكمها ملوك الأسر الخمس الأولى، والأعمال العظيمة التي قام بها كل من أولئك الملوك. وهو محفوظ بمحتف بلرمو بصقلية.

٢ ـ بردية تورين التي يرجع تاريخها إلى أيام رعمسيس الثاني (حكم من ١٢٩٠ إلى ١٢٢٤ق.م). وفيها لائحة بأسماء ملوك مصر منذ البدء. بل إن البردية تتعدى ذلك إلى الآلهة الذين حكموا الأرض قبل أن يحكمها الملوك. والبردية محفوظة في متحف تورين.

٣ ـ مجموعة من اللوائح والجداول ترجع إلى أيام الامبراطورية (خاصة أيام الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة) ذكرت فيها أسماء الملوك الذين يستحقون أن تقدم لهم القرابين. وهذه اللوائح أربع أهمها ما عثر عليه في أبيدوس إضافة إلى لائحة سقارة.

٤ ـ نقوش تحتمس الثالث وغيره من رجال الامبراطورية الذين تركوا لنا أخبارهم مفصلة، فذكروا حروبهم والضرائب التي جمعوها والمتاجر التي تبادلوها مع جيرانهم. وأهم هذه النقوش ما حفر على جدران الكرنك ومسلاته وجدران الدير البحري.

٥ ـ تاريخ منيتو الكاهن المصري اليوناني الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثالث ق.م. وكتب باليونانية. ومع أن ما كتبه قد تلف أو ضاع أكثره، فإن يوسيفوس وغيره من المؤرخين المتأخرين نقل عنه الكثير، وبذلك وصلت إلينا أخبار كثيرة مما دوّن هذا المؤرخ القديم.

ومصادر التاريخ البابلي المكتوبة هي: النقوش والكتابات التي عثرنا عليها في حفريات ما بين النهرين. بالإضافة إلى ذلك فعندنا بقية من تاريخ بيروسّس وهو كاهن بابلي عاش في بابل في القرن الثالث ق.م.. وما كتبه بيروسس فيه كثير من الأساطير. فهو يقسم تاريخ البلاد إلى (أ) ما قبل الطوفان (ب) ما بعد الطوفان. وعنده أن ملوك ما قبل الطوفان كانوا عشرة حكموا ٤٣٢,٠٠٠ سنة. وملوك ما بعد الطوفان مقسومون إلى أسر يبلغ عددها خمساً وعشرين أسرة حكمت ٣٦٥٢٥ سنة. ويبدو من هذه الأرقام الحد الذي يمكن معه الاعتماد على ما كتبه، وخاصة فيما يتعلق بالأزمنة المتقدمة.

فإذا انتقلنا إلى ديار الشام وجدنا أن تاريخها القديم «الوثائقي» موضح بتفاصيله في كثير من المراسلات التي عثر عليها في أماكن مختلفة. وفي مقدمها ما عثر عليه في تل مرديخ، ويعود إلى أواسط الألف الثالث ق.م. وهناك «محفوظات ماري» التي اكتشفت في مدينة ماري (وهي تل الحريري اليوم) على نهر الفرات في سنة ١٩٣٧، والتي بلغ عددها نحواً من خمسة وعشرين ألف وثيقة. ومحفوظات ماري توضح لنا الأحوال التي سادت في شمال سورية بشكل خاص في العهد الأموري أو العموري. وفيما تتحدث عنه هذه المحفوظات ثلاث مدن كبيرة كانت تقوم في شمال سورية في ذلك الوقت هي: كركميش (أو جرابلس) وحلب وقطّنا. ويبدو أن العلاقات بين ماري وقطنا كانت وثيقة. ويتضح من هذه الوثائق أن ملوك آشور ما كانوا يمتنعون عن مصاهرة حكام قطنا.

وإذا كانت محفوظات ماري قد صورت لنا الأحوال في مطلع الألف الثاني ق.م. فإن «رسائل تل العمارنة» والتي عثر عليها في تلك المحلة بمصر سنة ١٨٨٨، توضح لنا الصورة التاريخية للبنان وسوريا وفلسطين في القرن الرابع ق.م.

وتل العمارنة هوالاسم الحالي للمدينة المصرية القديمة المسماة «أخت آتون». والرسائل، التي يبلغ عددها نحو ٣٥٠ رسالة، مكتوبة كلها بالكتابة المسمارية، وقد أرسلها الحكام والأمراء في بلاد الشام إلى مصر. والفترة كانت فترة أزمة سياسية واضطراب اقتصادي واجتماعي. ولذلك فإن التفاصيل التي نحصل عليها ذات قيمة كبيرة.

أما الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن التالي، فقد أوضحتها لنا المحفوظات السياسية التي عثر عليها في أوغاريت، أي رأس الشمرا اليوم، والتي بدأ الكشف عنها سنة

١٩٢٨. وعلى سبيل المثال فإن المعاهدة التي انعقدت بين شبلوليوما ملك الحثيين ونقمادو ملك أوغاريت، كتبت باللسان الآكدي الذي كان لغة الدبلوماسية في الشرق الأدنى يومئذٍ. لكن المحفوظات الأوغاريتية الأخرى الكثيرة جداً كتبت باللغة الأوغاريتية وبالكتابة الأوغاريتية أيضاً.

على أن الأدب التاريخي ظهر لأول مرة في الشرق القديم وعلى نطاق واسع في أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس. وكانت هذه الأسفار تقبل من قبل أنها تاريخ ثابت واضح، حتى عمل الباحثون والدارسون فيها نقداً وتحليلاً، وبخاصة منذ أواخر القرن الثامن عشر. والذي يجمع عليه الباحثون اليوم أن القسم التاريخي، وهو الذي يعنينا الآن، يشمل الأسفار الأحد عشرة الأولى، بعد أن نضع جانباً الجزء الأول من سفر التكوين الذي يوضح وجهة نظر القوم في الخليقة. وهذا القسم التاريخي يعتمد أربع روايات تحدرت من الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى أواسط القرن الخامس ق.م. ويميز الباحثون هذه الروايات على أساس ما يغلب على كل منها من مادة أو فكرة. وعلى كل فالتفاصيل حررت، أكثر من مرة لتناسب الأفكار الخاصة التي روّج لها الكتاب.

هذه المصادر المكتوبة إنما هي أمثلة على ما كان المؤرخون يعتمدون عليه في درس المدنيات القديمة. ولكن لما أخذ الرفش والمعول طريقهما إلى الأماكن التي سكنها القدماء، وتم الحفر فيها والكشف والتنقيب والترتيب، اتسعت الآفاق واتخذت الأزمنة أبعاداً جديدة.

٢ ـ الكتابات القديمة وحل رموزها

كان المؤرخون، إلى أوائل القرن التاسع عشر، إذا أرادوا الكتابة عن المدنيات القديمة عمدوا إلى ما دوّن عنها في مصنفات القدامى باللغات المقروءة كالعربية واليونانية واللاتينية والآرامية والعبرية. فقد كانوا يرجعون إلى هيرودتس اليوناني، وبليني واسترابون اللذين عاشا في أوائل عهد الامبراطورية الرومانية مثلاً لمعرفة أخبار مصر وبابل وإيران، وإلى الطبري وغيره من المؤلفين العرب الذين تقصوا بعض الأخبار القديمة. ولكن منذ العقد الثالث للقرن التاسع عشر، وخلال المائة سنة التي تلت ذلك، تفتحت أمام المؤرخين آفاق واسعة لما حلت رموز الكتابات القديمة ـ الهيروغليفية المصرية والمسمارية والفينيقية والحثية والأوغاريتية وغيرها. ولما عثر المنقبون على آلاف من الوثائق بتلك اللغات القديمة، أصبح بإمكان المؤرخين أن يرجعوا مصادرهم المكتوبة عقوداً طويلة من السنين، وأن ينقلوا من مصادر معاصرة للأحداث والمدنيات التي يتحدثون عنها.

وقصة حل رموز هذه الكتابات القديمة قصة طريفة. لكن قبل أن نروي طرفاً منها نريد أن نضع أمام القارىء عرضاً سريعاً لبعض هذه الكتابات القديمة. وهذه الكتابات على ثلاثة أنواع: أولها، الكتابات الصورية، أي التي تعتمد الصورة أصلاً لكل كلمة أو فكرة. ومن ثم قد تسمى بعض هذه الكتابات الكتابة المرتبطة بالأفكار. وفي مقدمة هذه الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة الحثية الهيروغليفية. وهاتان قد حلت رموزهما. وفي عداد الكتابات التي لم

تحل رموزها بعد، ما نقشه أهل كريت وسكان حوض السند وكتابات أميركا الوسطى والجنوبية. والنوع الثاني هو الكتابات المقطعية، وهي الكتابات التي تدل كل إشارة فيها على مقطع من مقاطع الكلمة الواحدة.

الكتابة المسمارية هي التي ظهرت في سومر ونقلها فيما بعد البابليون والآشوريون والتي استعملها أمراء بلاد الشام في رسائلهم إلى مصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ومنها الكتابة الصينية. وثمة النوع الثالث وهو الكتابات التي تعتمد الألفباء ومنها، بين الكتابات القديمة، الفينيقية والأوغاريتية واللغة الفارسية القديمة، ومن الطريف أن يذكر الواحد منا أن اللغة الفارسية القديمة مثلاً، وكتابتها تعتمد الحروف الهجائية، كانت تكتب بالخط المسماري، كما أن الكتابة الفينيقية الأولى التي عثر عليها في جبيل كانت فيها رموز هيروغليفية.

كانت أولى الكتابات القديمة التي حلت رموزها الكتابة الهيروغليفية المصرية. وقد كان من حسن حظ المشتغلين بتاريخ المدنية المصرية أنه في أيام حملة نابليون على مصر، عثر قرب مدينة رشيد، على حجر منقوش عليه نص ديني يعود تاريخه إلى سنة ١٩٧ ق.م. والنص الديني، على حجر رشيد، كما أصبح اسمه في عالم التاريخ والآثار، كان منقوشاً باليونانية وبخطين من الكتابات المصرية القديمة: الهيروغليفي والشعبي (الديموطيقي). وكان من اليسير قراءة النص اليوناني، كما أنه كان قد عثر على أسماء بطليموس وكليوباترة باليونانية والهيروغليفية، على مسلة ترجع إلى أيام كليوباترة. فكان من نتيجة ذلك العثور على نقطة انطلاق لبضعة حروف يونانية تقابلها صور صوتية هيروغليفية. وقد عمل أكثر من شخص واحد في سبيل حل رموز الكتابة الهيروغليفية، إلى أن توج العمل بالنجاح على يد شمبليون سنة ١٨٢٢ وبذلك انفتح الباب أمام الباحثين على مصراعيه لمعرفة أسرار هذه النقوش المصرية على جدر المقابر والهياكل والمدونات على البردي.

وكان من المعروف عند الباحثين أن الخط المسماري ظل استعماله شائعاً منذ أن صنعه السومريون في الألف الرابع قبل الميلاد إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وذلك عبر البابليين والآشوريين والكاشيين والحثيين والميتانيين والفرس القدامى. والواقع فإنه يوجد عندنا نقش بالخط المسماري يرجع إلى سنة ٧٥ للميلاد. ولكن بعد أن زال استعمال اللغة البابلية بالذات، في القرن الخامس ق.م. تضاءل استعمال الخط المسماري جملة.

وقصة حل رموز الكتابة المسمارية، وهي التي كانت تكتب على اللبن بقطعة من الخشب، ثم تشوى الآجرات فتظل الكتابة قائمة، ترجع إلى القرن التاسع عشر أيضاً. وقد كان المهتمون بالآثار ووصفها قد نقلوا نقشاً من برسيبوليس (على مقربة من شيراز بإيران) ثم نشروا صورته سنة ١٧٧٨. والنقش كان مكتوباً بالخط المسماري، لكنه كان يمثل ثلاث لغات هي: الفارسية القديمة ولغة سوسة (عيلام) والبابلية. إلا أن النص كان قصيراً بحيث أن المحاولات التي قامت في سبيل حل رموزه لم تكن ناجحة تماماً، ولو أن غروتفند الألماني وصل إلى الحل تقريباً.

لكن هنري رولنصون البريطاني نقل بجهد كبير نقشاً آخر، باللغات الثلاث أيضاً، وبالخط المسماري، إلا أنه كان أطول وأوفى. وهو النقش المعروف بنقش «بهستون» على مقربة من كرمنشاه. ذلك أن دارا الكبير أمر بأن تنقش أخبار فتوحه وتغلبه على الملوك على صخرة كبيرة في وجه جبل عالٍ يرتفع نحو مائة وستين متراً عن الطريق. وكان ذلك سنة ٥١٦ ق.م. فجاء رولنصون ونسخ النص الذي كان، مثل نقش برسيبوليس، بلغات ثلاث، وذلك في سنوات ١٨٣٥ و١٨٣٦ و١٨٤٧. واللغة الفارسية القديمة كانت ألفبائية الأصل. لكن الخط كان مسمارياً. أما اللغتان الأخريان فقد كانتا مقطعيتين. وبالمقابلة والمقارنة والصبر والجهد نجح رولنصون في حل رموز الخط المسماري. وكان ذلك سنة ١٨٥٢. أي أن ذلك جاء بعد ثلاثين سنة من حل رموز الكتابة الهيروغليفية.

وفي القرن العشرين حلت رموز ثلاث كتابات هي: الهيروغليفية الحثية (سنة ١٩٣٩) والفينيقية والأوغاريتية.

ويقول زميلنا الدكتور أنيس فريحة عن حل رموز الكتابة الأوغاريتية ما يلي:

«كانت طريقة الأوغاريتيين في الكتابة طريقة سائر الشعوب السامية، أي الاكتفاء بإدراج الحروف الصامتة وترك الحركة للقارىء، وفي هذا ما فيه من عسر وإبهام وحدس، ولسنا ندري كيف كانوا ينطقون، لأن أدبهم الذي وصل إلينا مكتوب بحروف صامتة، ولا نعلم أن أحداً تجرأ على قراءة هذه النصوص بالحركات، ولكن يقدر أن النطق لم يكن يختلف كثيراً عن العبرية والآرامية.

«لما اكتشفت اللوحات في المكتبة المجاورة للهيكل في أوغاريت، أرسلت فوراً إلى باريس لينظر الأستاذ العلامة «فيرولو» في أمرها، لأنه ثقة بالخط المسماري. وقد لحظ «فيرولو» أن هذه الكتابة، بالرغم من كونها بابلية ـ آشورية في أشكال رموزها وفي شكلها الخارجي، يجب أن تكون هجائية لا صورية أو مقطعية، لأنها تتألف من ٢٦ ـ ٢٧ حرفاً ـ والواقع أنها تتألف من ٣٠ رمزاً. وهذه الملاحظة كان لها أثر بالغ في تسهيل حل الرمز.

«ويعود الفضل في حل رموز الكتابة الأوغاريتية إلى ثلاثة علماء: شارل فيرولو Virol-leaud العالم الثقة في الخط البابلي الآشوري، وإلى الأستاذ إدوار دورم Dhorme، وإلى الأستاذ هانس بَور Bauer الألماني.

«عمل هؤلاء العلماء الأفاضل مستقلين الواحد عن الآخر، وجاءت النتائج واحدة، مما لم يترك مجالاً للشك في صحة الحل. وقد قدر الأستاذ بَور أن النتائج سامية، وذلك لوقوع المدينة في إطار اللغة الآرامية. وفي شهر حزيران/ يونيو ١٩٣٠، أعلن أنه استطاع التوصل إلى معرفة ١٧ حرفاً. وفي كانون الأول/ ديسمبر توصل إلى قراءة تسع كلمات، فأصبح لديه ٢٣ حرفاً من أصل حروف الهجاء. في الوقت ذاته توصل دروم إلى معرفة ١٢ حرفاً واستطاع أن يقرأ ثلاث كلمات. وفي السنة ذاتها أعلن فيرولو أنه استطاع أن يتوصل إلى معرفة جميع الحروف الهجائية الأوغاريتية باستثناء حرف واحد نسب الفضل في اكتشافه لزميله بَور.

«أما الطريقة المتبعة في هذه الحال، حيث لا يوجد لغتان متقابلتان على الأثر الكتابي الواحد كحجر رشيد الذي استعان به شامبليون، فهي طريقة التجربة والخطأ. فإن بَور، مثلاً الذي افترض أن اللغة سامية ـ وكان افتراضاً صحيحاً ـ حاول أن يعزل العناصر اللغوية السامية المشتركة، وهي بعض سوابق [جمع سابقة prefix] ولواحق [جمع لاحقة suffix] ووسائط [واسطة infex] تلحق بالأسماء والأفعال. كذلك بعض حروف العطف التي تتصل بالكلمة بعدها مثل «ب» «ل» «و»... الخ. وقد لحظ أن حرفين دائماً يسبقان الاسم، أو ما ظنه اسماً، وقدر أنهما اللام (ل) والباء (ب). فإذا ما وجد كلمة تتألف من ثلاثة أحرف أولها باء وثالثها ل فإن تقدير الحرف الأوسط أصبح سهلاً: ع، فيصبح لديه «بعل» ولم يكن عسيراً تمييز كلمة «بن» «ملك» «ال» (= ايل) وهكذا حلت رموز الكتابة».

وعندما أصبح العلماء يقرأون النصوص لم يعد من الصعب تفسير المعنى، لأن اللغات السامية متقاربة في المفردات وفي قواعد الاشتقاق والتركيب (النحو).

ولنعد الآن إلى الكتابة الفينيقية، أي إلى الألفباء العالمية.

كان ثمة خلاف بين المشتغلين بتاريخ الكتابة الهجائية عن أصل الألفباء ومكانها وتطورها. ولكن الأستاذ موريس دونان [Dunand] وضع حداً لذلك لأنه اكتشف في جبيل في سنوات ١٩٢٩ و١٩٣٣، وما تلا ذلك، نقوشاً اعتبرها الأم للكتابة الهجائية الفينيقية.

والواقع أننا عندما نود أن نتعرف إلى أصل الألفباء، يتوجب علينا أن نعود إلى النقوش المكتوبة بها وتاريخ تسلسلها. وها نحن نعرضها هنا من أحدثها عهداً إلى أقدمها زمناً، وهي:

١ ـ نقش قناة سلوان في القدس، ويرجع إلى أواخر القرن الثامن ق.م. نقشه ملك القدس لما أتم حفر القناة التي كانت تمكن أهل القدس من الحصول على الماء بواسطة هذا النفق الصخري، واللغة عبرانية لكن الحروف الهجائية فينيقية.

٢ ـ نقش الرويسة قرب النبطية، وهو فينيقي الكتابة يرجع تاريخه إلى القرن الثامن ق.م. اكتشف سنة ١٩٢٦.

٣ ـ حجر مؤاب ويرجع إلى أيام ميشع ملك مؤاب في أواسط القرن التاسع ق.م. نقش هذا الملك أخبار انتصاره على المملكة الشمالية في فلسطين. والحجر الذي عثر عليه في دبيان سنة ١٨٦٨ موجود الآن في متحف اللوفر بباريس، لكن توجد منه نسخة في المتحف الفلسطيني بالقدس. ولغة النقش قريبة من العبرانية جداً وحروفه فينيقية.

٤ ـ كتابة على قطع من الخزف ترجع إلى القرن التاسع ق.م. عثر عليها في نابلس.

٥ ـ نقشان يرجعان إلى أوائل القرن العاشر ق.م. واحد لأبيبعل والثاني لألبيبعل عثر عليهما في جبيل (بيبلوس): الأول سنة ١٩٠٠ والثاني سنة ١٩٢٦ وهما مكتوبان بالحروف الفينيقية المعروفة.

٦ ـ نقش عثر عليه في قبر أحيرام بجبيل يرجع إلى أواسط القرن الثاني عشر اكتشف سنة ١٩٢٢، ولغته وحروفه فينيقية.

يتضح من هذا أن الألفباء الفينيقية نشأت في جبيل وما إليها، وأنها هي التي انتشرت شرقاً وغرباً، أما الكتابة الأوغاريتية فلم يكتب لها أن تصبح «حرف المدنية».

٣ ـ الوصف الأثري والمسح الأثري

كان الرحالة، على اختلاف العصور، أول من لفت إلى الآثار التي خلّفها القدماء. فليس ثمة زائر مر بمصر ولم يكتب عن أهرامها. وهذا ابن بطوطة يزور القسطنطينية فيحدثنا عن كنائسها مثلاً. وهذه العناية كانت مقصورة على الظاهر من الآثار، أي الأبنية أو ما تبقى منها. وقد جاء وقت على عدد كبير من الرحالة الأوروبيين كانت الآثار الكلاسيكية، يونانية ورومانية، موضع اهتمامهم، وخاصة أولئك الذين كانوا يعنون بالناحية الفنية من تلك الآثار، لما فيها من روعة، ولارتباطها بعصر النهضة الأوروبية وما حملته تلك النهضة من العناية بالناحية الجمالية من إبداع الأوائل.

على أن الشرق، بسبب ارتباطه بالكتاب المقدس بشكل خاص، لم يلبث أن جذب إليه السياح المعنيين بالآثار. ولما توغل هؤلاء الرحالون في نواح مختلفة من ديار الشام والعراق ومصر وتركيا والسودان، لفتت أنظارهم أماكن وآثار لم تكن متصلة بالكتاب المقدس، ولكنها فرضت نفسها عليهم. فدوّنوا ما شاهدوه في تلك البقاع.

وليس من الممكن أن نتحدث في هذه العجالة عن أولئك الرحالين الذين وصفوا الآثار جميعاً، ولكننا نود أن نضع بين يدي القراء نماذج من هؤلاء الرحالين الأوروبيين الوصّافين للآثار في ديارنا.

في أواسط القرن الثامن زار سوريا ولبنان، كما زار غيرهما من البلاد المجاورة، اثنان هما روبرت وود وجيمس دوكن، وكان من نتيجة هذه الزيارة أن وضع أولهما كتابين: الواحد عن آثار تدمر صدر سنة ١٧٥٣، والثاني عن آثار بعلبك صدر سنة ١٧٥٧.

ونحن إذا أخذنا أياً من الكتابين وجدنا المؤلف يعرض تاريخاً مقتضباً للمدينة ويصف الآثار القائمة، وهي بطبيعة الحال كانت أقل بكثير مما نشاهده اليوم، لأن أكثر هذه الآثار كانت يومها مدفونة تحت الرمال. ولكن بالإضافة إلى الوصف، نجد أن روبرت وود قد رسم تلك الأطلال وقاس أبعاد أجزائها مستعيناً على ذلك بأدوات كانت تعتبر يومها دقيقة.

ومثل ذلك يقال عن الرحالة بر كارت الذي زار جرش سنة ١٨١٠ ووصفها ورسم كثيراً من الموجود فيها. وقد كان الناس في جهات الأردن يتحدثون عن آثار وادي موسى. فلما زارها بر كارت اعتبرها هي البتراء النبطية، فوصفها بشكل خاص، ولكنه تجنب قياس الأماكن فيها حتى لا يشك به أنه يفتش عن كنوز.

ولكن هناك نوع آخر من الرحالين الأوروبيين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر والذين انتبهوا، في شمال أوروبا خاصة، إلى انتشار قطع من الصوان يبدو أن اليد صقلتها بشكل أو بآخر، وذلك بقصد استعماله للقطع أو للكسر. واهتم هؤلاء بوصفها أيضاً. وكانت هذه هي المادة الأولى لما عرف فيما بعد بالعصر الحجري من عصور ما قبل التاريخ.

وإذا كان هؤلاء الرحالون، الذين يعدون بالمئات، هم الذين وصفوا لنا الآثار الظاهرة بدقة، فإن هناك جماعة، أكثرها من أهل القرن التاسع عشر، قامت بمسح أثري لبلاد معينة أو مناطق خاصة منها.

في سنة ١٧٩٨ وصل نابليون إلى مصر فاتحاً لها. وكان في جملة الرجال الذين جاء بهم إلى مصر مجموعة من العلماء المختصين في كل ناحية من نواحي المعرفة. وعلى يد هؤلاء أنشىء المعهد العلمي الذي استمر في العمل ونشر بين سنتي (١٧٩٩ و١٨١٣) كتاب وصف مصر. والذي يهمنا من هذا الكتاب هو ما ألقاه من الضوء على الآثار المصرية. فهناك وصف للآثار الظاهرة من الهياكل والأهرام والقبور الملكية والأبنية، وحتى التلال التي قد تخفي تحتها شيئاً ما. وقد رافق هذا المسح الأثري في مصر، كما في غيرها من الأقطار الشرقية، جمع التحف الأثرية الصغيرة مما يمكن نقله إلى متاحف الغرب.

وفي سنة ١٨٢٨ تم مسح أثري ثانٍ لمصر، قام به روزيليني بمساعدة شامبليون نفسه. وفي هذه المرة أدخلت المناطق الجنوبية من مصر إلى الشلال الأول عند أسوان في إطار المناطق الممسوحة. وفي سنة ١٨٤٠ قام لبسيوس بمسح لآثار النوبة إلى الخرطوم. وهكذا فإنه لم يكد القرن التاسع ينتصف حتى كانت المواقع الأثرية الهامة والآثار الرئيسة الموضحة على خرائط دقيقة، بانتظار الرفش والمعول.

وكانت فلسطين ولبنان وسوريا أيضاً من المناطق التي أفادت من الحماسة التي انتشرت في سبيل القيام بالمسح الأثري. فقد انتقلت العدوى من أوروبا ومن مصر إليها. وكانت رحلات بر كارت في أوائل القرن التاسع عشر قد لفتت الأنظار إلى البتراء وغيرها، فجاء إدوارد روبنسون وقضى في فلسطين أربعة عشر عاماً ونشر سنة ١٨٥٢ كتابه المسمى «دراسات توراتية في فلسطين». وكان كتاب رينان عن المسح الأثري للبنان، وهو نتيجة دراسة أثرية شاملة لفينيقيا قد نشر سنة ١٨٦٠، كل ذلك هيأ الجو لأعمال مسح أثرية شاملة. وفي سنة ١٨٦٥ أنشئت في لندن جمعية الكشف الأثري في فلسطين. وبعد قيامها بخمس سنوات بدأت بالعمل في البلاد نفسها. وكان العمل أصلاً يستهدف مسح البلاد مسحاً أثرياً شاملاً، بحيث يمكن وضع الأسس الرئيسة للتنقيب عندما يحين الوقت. وكان بين الذين عملوا في هذا المجال في فلسطين كوندر ودراك وضابط شاب هو الذي أصبح فيما بعد لورد كتشنر. ونتج عن هذا العمل كتاب «مسح فلسطين» الذي عيّن كل مكان يمكن أن يعثر فيه على آثار.

بدأ مسح فلسطين سنة ١٨٧١. وكان القائمون على الأمر مدربين على العمل الطوبوغرافي وأصحاب معرفة بالجيولوجيا والتاريخ. ولذلك فإن عملهم كان بقدر ما يتسنى في ذلك الوقت أن يكون، تاماً تقريباً. ولا شك أن التجارب التي كانت قد تمت في أماكن أخرى، أفادت القائمين على العمل. فقد اتبع العاملون في الحقل طرق المسح الصحيحة مع مقابلة بين مسحين هنا وهناك لضبط المواقع. واهتموا بتدوين الملاحظات المتعلقة بالسطح والمرتفعات والنباتات والحيوانات والحرارة. وسجلوا أسماء جميع الأمكنة التي مرت معهم.

والكتاب الذي أشرنا إليه قبلاً، أي «مسح فلسطين» يحتوي في أجزائه الثلاثة على تسعة آلاف اسم. وهذه الأسماء أخذها المساحون من أهل البلاد وقابلوها، عن طريق آخرين على ما رواه الجغرافيون والرحالة العرب وغيرهم للتثبت من صحتها. كما أن الجماعة رسموا الخرط اللازمة للبلاد والمدن وصوراً لبعض الأماكن الهامة.

والذي يهمنا، في هذه المناسبة، هو أن قلة من الأماكن الأثرية في فلسطين فاتت هؤلاء. وحريّ بالذكر أن هؤلاء المسّاحين خصوا أماكن معينة بتفصيل خاص. فالقدس لها خرائط خاصة، كما أنهم اهتموا بالأماكن التالية: عتليت وقيسارية وأرصوف وبيسان وكوكب الهوا ونابلس وعسقلان وغزة وتل جازر خربة أبو شوشة وبيت جبرين. ومن الأماكن التي اهتم بها خارج فلسطين صور في لبنان وقلعة الشوبك في الأردن.

ولم يكن للعراق حظ للحصول على نوع من المسح الأثري العام قبل البدء بالحفر والتنقيب، ولكن لا بد من ذكر ما قام به لوفتوس وتشرشل سنة ١٨٤٩ من وصف جنوب العراق وصفاً شمل قسماً كبيراً من التلال الصناعية القائمة فيه، والتي ثبت فيما بعد أنها كلها كانت بقايا مدن قديمة

٤ ـ علم الآثار: المحتوى والأسلوب

يعنى علماء الآثار اليوم بدراسة ما خلّفه الإنسان على سطح هذه الأرض منذ أن بدأ حياته عليها. وهناك مجالات مختلفة يعنى بها الباحثون. فعلم الآثار الكلاسيكية يعنى أصلاً بما خلّفه اليونان والرومان من أبنية على اختلاف أنواعها وأشكالها وتخطيطها وزخرفها. وعلم الآثار الإسلامية مثلاً، يتناول ما خلّفته الحضارة العربية الإسلامية من آثار البناء والمعمار والفنون الصغرى الزخرفية والصناعية. وهناك من علماء الآثار من يقتصر في دراسته على ما شاده الفراعنة القدماء عبر الزمان. ولكن بالإضافة إلى هذا كله، فعلم الآثار يشمل مخلفات الإنسان قبل أن كتب هذا الإنسان تاريخه، أي قبل التاريخ المدوّن، سواء كانت المدونات نقوشاً أو آجرات أو أوراق بردي. ذلك بأن الإنسان بدأ حياته على الأرض قبل آلاف السنين. وقبل أن ينصرف إلى البناء والكتابة مرت عليه أدوار كان فيها يعيش على جمع النباتات وصيد الحيوانات ثم انتقل إلى تدجين الحيوان واختراع الدولاب واكتشاف النار. هذه الفترة الطويلة من حياة الإنسان كان يستعمل فيها الحجر أولاً للقطع والكسر وخياطة الجلود وكشطها. ثم جاءه وقت عرف فيه مزج النحاس بالقصدير ليحصل من ذلك على البرونز أو الشبه. وأخيراً اكتشف الحديد. وفترة استعمال الحجر طويلة. وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار تطور الوسيلة التي صقل بها الإنسان الصوان وهيأه للاستعمال، وجدنا أن العصر الحجري بالذات يقسم إلى القديم والمتوسط والحديث. وليس هنا مجال تفصيل الفروق بين الأدوات أو الآلات، إذا جاز التعبير، التي صنعها الإنسان في هذه الأزمنة الحجرية الثلاثة. ولذلك نكتفي بالقول بأن الفرق الأساسي هو فرق في طريقة صنع هذه الأدوات وتنوعها وتنويعها.

فعلم الآثار إذن يتناول هذه الآثار المادية التي بقيت بعد أن زال صانعوها ومستعملوها،

فيعمد العلماء إلى نبشها من مظانها، ليدرسوها ويصنفوها ويفسروا ارتباطها بالحياة في فترات أزمنة ما قبل التاريخ. وإذن، فالعالم الأثري هو الذي يوجه همه إلى الأشياء الموجودة ليحاول أن يفهم ما صنعه الإنسان وكيف صنعه وكيف استعمله، وليسبر غور الحياة اليومية لهذا الإنسان القديم جداً.

وعلم الآثار حديث العهد، ويمكن القول إن عناية الباحثين بهذه المخلفات البشرية ترجع أصلاً إلى الفترة الممتدة من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٧٠. ولعل السبب الأصلي الذي حفز الباحثين على الاهتمام بهذه الآثار القديمة هو تطور علم الجيولوجيا، أي طبقات الأرض وظهور نظرية التطور. ذلك أن الدراسات الجيولوجية أدت إلى اكتشاف بقايا بشرية متحجرة في طبقات قديمة من الأرض في كنت بإنكلترا وفي نيندرتال بألمانيا. وكان المعنى الأول لذلك هو أن الإنسان قديم على سطح البسيطة، أي أن وجوده لم يكن يتفق مع نظرية أشر القائل بأن الإنسان وجد على سطح البسيطة سنة ٤٠٠٤ق.م. كما أن ظهور كتاب داروين سنة ١٨٥٧، الذي يقوم على أساس أن الحياة البشرية قديمة متطورة، حمل الباحثين على التنقيب عن آثار هذا الإنسان للتمعن في نوع الحياة التي كان يحياها، والأسلوب الذي كان يحصل فيه على طعامه، والمكان الذي كان يأوي إليه والإله الذي كان يعبده. ولم يلبث الباحثون أن عثروا حتى على آثار فنية ترجع إلى نحو أربعة عشر ألفاً من السنين في شمال أسبانيا، في كهف التميرا.

ومن هنا كثر الاهتمام بالرفش والمعول وسيلتين لإزالة الأتربة التي كانت تغطي الأدوات والمساكن والكهوف.

وقد كانت أعمال الحفر والتنقيب الأولى تسير على غير نظام معين. ونحن إذا أخذنا العالم الفرنسي ماريت الذي بدأ عمله في مصر سنة ١٨٥٠، والذي استمر في التنقيب نحو ثلاثين سنة، حفر أثناءها في نحو ثلاثين موضعاً، فقد كانت عنايته موجهة أصلاً إلى البراق من الموجودات. فلم تكن ثمة خطة معينة، ولم يكن هناك نظام يتبع. وكان يجمع ما يعثر عليه دون تقييد وترتيب. ومع ذلك فقد كان الرجل رائداً في الميدان. ويكفيه أنه حال دون نهب الآثار ونقلها إلى الخارج في الفترة التي كان فيها مديراً لمصلحة الآثار المصرية.

ومثل هذا يمكن أن يقال عن أعمال الحفر الأولى التي تمت في أرض الرافدين بين سنتي ١٨٤٣ و١٨٧٧. فقد كان في العمل سباق ومنافسة بين منقبين فرنسيين وإنكليز. ومع ذلك فقد توصل هؤلاء المنقبون الرواد الأوائل إلى التعرف إلى نينوى وأرك القديمة وتل ورقة اليوم، ولارسا وهي سنكرا الحالية وأور الكلدانيين في تل المقير وأريدو المسماة حالياً تل أبو شهرين. وكل هذه مدن قديمة أخرجت كنوزها فأوضحت لنا شيئاً عن حياة المدن الأولى واتساع تجارتها وأنماط بنائها الرسمي والديني والشعبي.

على أن علم الآثار في القرن العشرين تقدم كثيراً في اتجاهين: الأول، أن المنقبين الآن، على اختلاف نزعاتهم، أكثر تعاوناً. ومن ثم فالتخطيط العام للقيام بأعمال الحفر ممكن. والثاني، أن الوسائل التي يلجأ إليها علماء الآثار تطورت كثيراً. ولعل هذه تحتاج إلى شيء من التوضيح.

أول ما يجب أن يذكر هو أن العالم الأثري الآن يهتم بعلم طبقات الأرض والدراسات المناخية النباتية والحيوانية وعلم الطبيعة والكيمياء. ذلك أنه يحتاج إلى هذه كلها للتعرف إلى الطبقة المعينة من التربة التي يعثر فيها على آثار الإنسان العادية وإلى نوع النباتات أو العظام التي قد تعترض تنقيبه والمناخ الذي سيطر على جماعة معينة في وقت ما.

وقد كان العالم الأثري في حيرة من أمر الزمن الذي تعود إليه موجوداته المستخرجة من التراب المتراكم. فكان يلجأ إلى المقارنات. ولكن أمرين ساعداه على ضبط الأمور بعض الشيء: أولهما التقدم الذي أصاب علم الجيولوجيا أو طبقات الأرض من حيث ثخن الطبقات الصخرية والترابية وتتابعها وارتباط هذين بعمر هذه الطبقات. ومن ثم فقد أصبح بإمكان العالم الأثري أن يستعين بهذه الأمور ليقرر، من ترسبات التربة وطبقاتها، عمر ما عثر عليه من آثار الإنسان ـ أدوات وآلات وآنية ومساكن وما إلى ذلك. والأمر الثاني هو اهتمام العلماء الأثريين بالفخار. ذلك أن الكثير من مخلفات الإنسان يتعرض للفناء، كالخشب والجلد أو للذوبان مثل اللُبن، وقد يصدأ الحديد ويضيع شكله الأصلي. لكن الفخار لا يفنى. قد يتكسر ويتهشم وينتثر، ولكنه لا يذوب ولا يفنى ولا يضيع شكله. فإذا عثر البحاثة على قطع فخارية، فقد يمكنه أن يجمع المتكسر منها إلى بعضها البعض، ويخرج من ذلك بوعاء أو قدر. وإذا كان هذا الفخار مزخرفاً أمكن للزخرفة أن تساعد في تعيين عمر الفخار، ومن ثم زمن الجماعة التي استعملته. والفضل في وضع الفخار في هذه المنزلة يرجع إلى السير فلندرز بتري الذي صرف ستة عقود أو يزيد في التنقيب الأثري في مصر وفلسطين.

على أن أهم وسيلة علمية للتأكد من عمر المواد العضوية، مثل العظام والفحم العادي، هي التي توصل إليها ويلارد ف. ليبي، وهو أول من نال جائزة نوبل في الآثار. فقد توصل إلى الكشف عن حقيقة علمية هامة وهي أنه عندما يموت جسم عضوي، فإن ما يحتويه الجسم من «كربون ١٢» يظل ثابتاً. أما ما يحتوي عليه من «كربون ١٤» فيتحلل تدريجاً وعلى أساس ثابت. ومن ثم فإن مدى انحلال «كربون ١٤» يعين المدة التي مرت على الجسم العضوي منذ أن فقد الحياة.

هذه الحقيقة اتخذت مقياساً لا يطاله الخطأ الكبير لتحديد الزمن في هذه الحالات. هذه هي التجربة المعروفة باسم تجربة «كربون ١٤».

فنحن إذا ألقينا نظرة على تطور البحث الأثري والتنقيب الأثري وترتيب ما يُعثر عليه وتنظيمه وتصنيفه وتعيين مداه خلال مائة وخمسين من السنين، وجدنا أن ما كان مغامرات بالرفش والمعول لجمع الطريف من العاديات ونقلها خارج بلادها الأصلية، أصبح الآن علماً مادته ما خلّفه الإنسان. وغايته درس ما صنع الإنسان، كيف صنع ذلك وكيف أفاد منه.

٣ ـ قصة اكتشاف المدنيات الأولى

١ ـ المدنية السومرية

لا شك في أن قصص التنقيب الأثري في أقطار المدنيات الشرقية القديمة، أي أرض الرافدين ووادي النيل وفلسطين ولبنان وسوريا، فيها من الطرائف الشيء الكثير. ولكن رواية القصة كاملة أمر لا تحتمله هذه الأحاديث. فلا بد، إذن، من الاقتصار على المعالم الرئيسة اقتصاداً في الوقت والمجال. وسنتحدث هنا عن أرض الرافدين.

كان أول من ضرب معولاً في سبيل التنقيب الأثري في أرض الرافدين بوتا الفرنسي سنة ١٨٤٣ في كويونجك الواقعة مقابل الموصل عبر نهر دجلة، والتي ثبت فيما بعد أنها هي نينوى. كما أنه حفر في خورساباد التي اتضح فيما بعد أنها كانت دار شاروكين أي مدينة سرجون (الثاني) الآشوري. وبعد ذلك بسنتين بدأ لايارد التنقيب في نمرود. ولما تخلى بوتا عن العمل خلفه فيه بلاس. كما أن رسام كان خليفة لايارد.

وفي أواخر العقد الخامس من القرن التاسع عشر كان لو فتس يقوم بالتنقيب في ورقة التي اتضح فيما بعد أنها أُرك التوراتية، أي اورك البابلية. كما ان تشرشل حفر في سنكرا وكشف عن لارسا القديمة. ولم يمض وقت طويل حتى كان تايلور يحفر في تل المقير التي عرفت قديماً باسم أور الكلدانيين، كما نقب في تل ابو شهرين وهي أريدو القديمة.

وفي العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر كشف دو سارزك النقاب عن لاغاش السومرية لما حفر في تلوه. ولما كانت رموز الكتابة المسمارية قد حلت، فمعنى هذا أنه لم تكد سنة ١٩٠٠ تطل حتى كانت مدنية السومريين قد احتلت مكانها تنقيباً أثرياً ومدونات مسمارية آجريّة.

أما في القرن العشرين فعندنا كشفان أثريان هامان هما: حفريات أور التي قام بها وولي بين ١٩٢٢ و١٩٢٦ والتي أخرجت كنوزاً هائلة بين بطون الأرض، كانت تضاهي ما نتج عن الكشف عن قبر توت عنخ آمون في مصر. وفي العقد الخامس من القرن العشرين قامت إدارة الآثار العراقية بإشراف فؤاد صقر بالحفر في تل أبو شهرين، حيث كان تايلور قد حفر قبل قرابة قرن. والذي ظهر من التنقيب الحديث هناك هو أن أريدو هي أقدم مدينة سومرية وأن الاستيطان فيها يرجع إلى سنة ٥٠٠٠ ق. م.

من القضايا التي واجهها علماء الآثار والمؤرخون وعلماء الأنثروبولوجيا مشكلة «المدنية». وبعبارة أخرى ـ ما هي المقاييس التي تعتبر على أساسها جماعة أي جماعة، متمدنة؟ وهذا لا يعني بطبيعة الحال ان الجماعة لم يكن لها من قبل نوع من الحياة

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ولكن المقصود هو الوصول إلى درجة المدنية.

وقد عالج هذه القضية كثيرون. ويمكن القول بأن خلاصة ما انتهى إليه البحث هو أن الجماعة التي تعيش في مدن لا في مجتمعات زراعية قروية فقط، هي الجماعة التي ظهر فيها تخصص مهني، وهي التي تنشىء وسائل ري على أساس من التعاون، وهي التي تتمتع مدنها بمراكز للعبادة، وهي الجماعة التي لها كتابة.

هذه الشروط، إذا جاز التعبير، تنطبق على المجتمع الذي عاش في أريدو وفي غيرها من مدن الجزء الجنوبي من أرض الرافدين، الذي عرف في العهد القديم باسم «شنعار» والذي يسميه المؤرخون اليوم «سومر». وقد نشأت هذه المجتمعات المتمدنة بين سنتي ٣٥٠٠ و٣٠٠٠ق.م. ويجب أن نذكر أن هذه المجتمعات المدنية إنما سبقتها مجتمعات أخرى كانت تختلف حياتها باختلاف وسائل تحصيل المعاش، لكنها كلها انتهى أمرها بالانتقال إلى الزراعة قبل أن تقيم المدن وتتجمع فيها وحولها.

ليس الذي يهمنا في هذا الحديث قيام الأسر الحاكمة وظهور الملوك والمعارك التي حاربوها. ذلك بأن الذي نعنى به الآن هو هذه المدنية الأولى في التاريخ، والأسس التي كانت الحياة تعتمدها.

أول ما يجب أن يذكر هو أن المدن السومرية القديمة، والتي سار على غرارها البابليون والآشوريون فيما بعد، كانت متسعة نسبياً، وكانت تحيط بها أسوار. فأُرك كانت مساحتها تزيد قليلاً عن خمسة كيلو مترات مربعة. وقد اتضح من الوثائق المحلية أن مدينة لاغاش كان فيها ستة وثلاثون ألف ذكر بالغ. ومعنى هذا أن سكانها جميعاً كانوا يتراوحون بين ثمانين ومائة ألف شخص. أما أور وأريدو ونيبور فقد قدر سكان كل منها بنحو نصف مليون نسمة.

ومع أن الحياة الزراعية كانت الأصل في قيام المجتمع في هذه المدن، فإن عدد السكان الكبير وما عثر عليه في بقايا هذه المدن، يدل دلالة واضحة على اعتماد القوم على الصناعة والتجارة. وهنا يأتي دور التخصص المهني، وإتقان المصنوع. وفي مقدمة الصناعات السومرية الصناعات المعدنية الصغرى، أي ما يمكن أن يصلح للزخرف والحلي. وبما أن أرض الرافدين خلو من المعادن، فقد كان على تجار سومر أن يحصلوا على حاجتهم من هذه المواد الخام من الخارج. وقد ثبت من الوثائق التجارية التي عثر عليها، أن التجار كانوا يستوردون الذهب من عيلام وآسيا الصغرى ومنطقة إنطاكيا، والفضة والرصاص من جبال طوروس ومن عيلام، والنحاس كانوا يحملونه من عُمان، ولعله كان يحمل إليهم من القفقاس أيضاً. وكان الحجر الجيد ينقل من عُمان ليستعمل في براويز الأبواب ولنحت التماثيل. وكانت إيران وأفغانستان البلدان اللذان يزودان مدن سومر وصناعتها باللازورد، وذلك لصناعة الحلي. وكان اللؤلؤ الذي احتاجه الصياغ السومريون استورده لهم التجار من الخليج العربي، كما استورد هؤلاء التجار الأصداف البحرية الجيدة من الهند. ومع أن جبال زغروس وجبال أمانوس كانت تبعث إلى مدن سومر بأخشاب الأرز والشربين، فقد كان لأرز لبنان مكانة خاصة بين العاملين

في صناعة الأثاث والنجارة على العموم. وكان بعض هذه التجارة الخارجية يتم على أيدي تجار سومريين كانوا يقيمون لهم جوالي أو طوارىء في البلاد التي يتاجرون معها. ومن المؤكد، مثلاً أنه كان ثمة جالية سومرية تجارية في كانش بآسيا الصغرى.

وعرفت المدن السومرية دولاب الخزّاف، بل هو مما نفحته للمدنية. وكان الخزف السومري، العادي والقيشاني، مطلوباً بكثرة. كما أن أقدم زجاج عرف في العالم كان من صنع السومريين. والذين عرفوا الدولاب لصنع الخزف، استعملوه أيضاً في جر العربات. وقد تم لهم هذا قبل سنة ٣٠٠٠ ق.م. فكان عندهم عربات بأربعة دواليب وعربات بدولابين.

وتتميز الهياكل السومرية باتساعها وبأبراجها الحلزونية المرتقى. لكن الصعود كان من الخارج، فقد كان اتساع الهيكل «ايانا» في أرك خمسة وثمانين متراً طولاً وثلاثين متراً عرضاً. وكانت تقوم خلفه الزيغورات الحلزونية التي ترتفع نحو خمسة عشر متراً لتحمل هيكلاً آخر صغيراً بالنسبة إلى الهيكل الأصلي.

وقد يطول بنا الحديث لو نحن سرنا في تعداد صفات المدنية السومرية ومآتيها. ولذلك نكتفي بهذا مذكرين أنفسنا بأن السومريين هم الذين وضعوا الكتابة المسمارية، وهي الكتابة التي انتشرت في المنطقة وظلت مستعملة إلى حول القرن الخامس ق.م. وأقدم الوثائق التي عثر عليها من أيام السومريين كانت وثائق تتعلق بالحياة اليومية والتجارة. وثمة وثائق ترجع إلى سنة ٣٥٠٠ ق.م. هي إيصالات وفواتير تتعلق بالماشية والحليب والحبوب.

وبالرغم مما نعرفه عن المدنية السومرية بفضل العمل الأثري العلمي المنظم، فإن أصل الشعب السومري أي موطنه الأصلي لم يكشف سره بعد.

والسؤال الذي يخطر في البال الآن هو: كيف ولماذا قامت هذه المدنية الأولى في عالم البشرية في تلك الرقعة من الأرض؟

ليست الإجابة عن هذا السؤال يسيرة. وقد اختلف الباحثون في ذلك. ولكن يبدو، من المتمعن في النظريات التي تقدم بها الباحثون في تاريخ أرض الرافدين القديم، هو أن الأحوال الجغرافية كانت ملائمة لتطور وانتقال من القرى الزراعية المنفردة المتباعدة إلى تجمعات مدنية، أي إلى حياة معقدة تحتاج إلى تنظيم. وهنا لا بد من القول، مع المتخصصين في الشؤون السومرية، بأن عبقرية الشعب نفسه كان لها أثر في هذه النقلة.

٢ ـ علم الآثار والمدنيّة المصرية

في سنة ١٨٥٠ أرسل متحف اللوفر في باريس، ماريت إلى مصر للبحث عن مخطوطات قبطية. لكن الرجل لم تكد قدماه تطآن أرض الكنانة حتى انصرف اهتمامه إلى الآثار المصرية التاريخية، وبدأ الحفر في ممفيس في السنة نفسها. ولم يعد ماريت إلى فرنسا، بل إنه قَبل سنة ١٨٥٨ منصب مدير لإدارة الآثار المصرية التي أنشئت في تلك السنة، وظل في منصبه إلى حين وفاته سنة ١٨٨١. وفي الثلاثين سنة التي قضاها في مصر حفر في ما لا يقل عن ثلاثين موضعاً هاماً بينها هياكل أبيدوس ومدينة حَبو والدير البحري وادفو

وهيكل أبي الهول في الجيزة. وفي سنة ١٨٦٧ حمل مجموعة من الحلى المصرية القديمة الدقيقة الصنع إلى باريس حيث عرضت في المعرض الكبير. ولما أظهرت الأمبراطورة أوجيني رغبتها في الاحتفاظ بهذه المجموعة رفض ماريت ذلك وأعادها إلى مصر. وإليه يرجع الفضل في إنشاء أول متحف وطني للآثار لا في مصر فحسب، ولكن في الشرق الأدنى كله.

يعتبر ماريت رائد التنقيب الأثري في مصر. ومع أن الوسائل التي اتبعها كان يعوزها الإتقان، ومع أن الرجل لم يكتب تقارير وافية عن الحفريات التي قام بها، ومع أنه أتلف كثيراً من الآثار في سبيل الوصول إلى غيرها، مع هذا كله، فهو صاحب فضل على العمل الأثري في وادي النيل.

يأتي بعد ماريت، فلندرز بتري، وهو الذي جعل من التنقيب الأثري فنا علمياً من حيث التخطيط والحفر والوصف والترتيب. وكان بتري يقوم بالأعمال باسم الجمعية البريطانية للآثار.

وقد ظل التنقيب عن الآثار في مصر حكراً على المؤسسات البريطانية والفرنسية إلى سنة ١٩٠٠، ولكن بعد ذلك العام دخل الميدان جماعات أميركية وألمانية وسويسرية وبلجيكية وإيطالية. كما أن إدارة الآثار المصرية وجامعة القاهرة أخذتا على عاتقهما القيام بالحفر والتنقيب. ومن الأعمال التي تمت في القرن العشرين الكشف عن تل العمارنة وقبر توت عنخ آمون وغير ذلك. وكل عمل من أعمال رجال الآثار كان يزيد في معرفتنا لتطور الحياة المدنية في مصر عبر عصورها القديمة. وطبعاً ثمة أسماء كثيرة وأعمال أكثر، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن العقود الثلاثة الأخيرة كان فيها توجيه نحو الفترة السابقة لعهد الأسر المصرية. وهنا لا بد من الإشارة إلى أسماء سليم حسن وأمري وزكي سعد. وقد تم الكشف عن مقبرة أبناء رمسيس الثاني مؤخراً.

لنكتف بهذا القدر من الأسماء ولننتقل إلى استعراض للمدنية المصرية في أول عهدها. يقول أمري «في فترة تقع حول سنة ٣٤٠٠ ق.م. حدث تغيير كبير في مصر فاجتازت البلاد بسرعة من حالة العصر الحجري التي كانت مركبة تركيباً قبلياً، إلى مملكتين منظمتين تنظيماً جيداً: الواحدة منها تشمل الدلتا، بينما تشمل الأخرى وادي النيل. وفي الوقت نفسه ظهرت الكتابة وتقدمت الفنون والصناعات والأبنية تقدماً مدهشاً. وكل شيء يدل على وجود مدنية جيدة التنظيم، بل يمكن القول بأنها كانت مدنية فيها الكثير من الفخامة. وقد تم هذا كله في فترة زمنية قصيرة نسبياً، إذ إنه ليس ثمة مقدمات أو خلفيات تهيىء لمثل هذا التطور في الكتابة والعمارة».

تلا ذلك، في غضون مدة لا تتجاوز القرنين، أن توحدت مصر كلها تحت أمرة نرمر الذي كان ابنه أول ملك من ملوك الأسرة الأولى.

ونحن إذا ألقينا نظرة سريعة على حالة المدنية المصرية في تلك الفترة، وجدنا أن

الملكية كانت، في أيام الأسرتين الأولى والثانية، مطلقة، وأن الملك كان يعتبر تجسداً للإله. ونجد أن الفنون والأبنية، الدينية منها والرسمية، تعبر إلى درجة كبيرة عن هذه الناحية.

أما في التجارة فنرى أن المصنوعات المختلفة والمواد الخام تنقل في داخل البلاد على نطاق واسع. فالحجر المعروف بالألبستر كان ينقل من الصحراء الشرقية، والبازلت من الفيوم، والرخام من المنطقة الساحلية للبحر الأحمر. وكان الفخار ينقل من مكان إلى آخر بكثرة. أما مع الخارج، فقد كانت لمصر علاقات تجارية متينة. فكان النحاس والتوركواز يحملان من سيناء، وكانت الأخشاب تنقل إلى مصر من لبنان وسورية خاصة الأرز من لبنان. أما خشب الأبنوس الذي كان يستعمل لتجميل الأثاث، فقد كان يأتي من الجنوب، وكان العاج يحمل معه. وما يهتم به علماء الآثار كثرة الأوعية التي كانت تحمل إلى مصر من الخارج وخاصة من جبيل. ويبدو أن هذه الأوعية، التي تشبه الزجاجات أو الجرار الصغيرة نسبياً، كان ينقل فيها زيت الزيتون إلى مصر من فلسطين ولبنان وسوريا. وكانت مصر تصدر الأوعية الحجرية إلى لبنان وسوريا وفلسطين وكريت وغيرها. وكانت المتاجر تنقل إلى المناطق البحرية في سفن يرجح أنها لم تكن مصرية.

والحياة الزراعية كانت تقوم على الإفادة من مياه النيل أثناء فيضانه. والصناعات الزخرفية والحياتية كانت كثيرة. والبناء الرسمي والديني، كالأهرام وقبور الملوك والقصور كانت ضخمة جداً، مثل تماثيل قدامى الملوك. لكن بيوت العامة، مثلها في أماكن أخرى معاصرة، كانت بسيطة.

نحن في هذا الحديث لا نريد أن نفصل نواحي المدنية المصرية الأولى. ولكننا نود أن نطرح السؤال التالي: ما الذي حدث حتى أدى إلى هذا التطور الهام في الحياة المصرية فنقلها من حياة قروية إلى حياة مدنية ذات كتابة في الفترة السابقة لعصور الأسر الأولى؟

للإجابة عن هذا السؤال يترتب علينا أن نذكر بضعة أمور هامة: أولها، أن مدنية السومريين أسبق عهداً من مدنية مصر القديمة الأولى. ثانياً، أن تطور المدنية المصرية السريع كان نتيجة تأثر مصر بعامل أو عوامل فعّالة جاءت من الخارج. فهل جاءت هذه من أرض الرافدين؟ ثالثاً، إذا نحن تذكرنا أن أختاماً اسطوانية من النوع المعروف عند السومريين وجدت في مصر، أدركنا لماذا أقدم المصريون على استخدام هذه الأختام فيما بعد. رابعاً، من الواضح أن الفن المصري الذي ظهر في هذه الفترة كان مشابهاً في الكثير من صفاته للفنون السومرية ـ مثل مناظر الصيد والقنص حيث تفترس السباع الأبقار وحيث نرى على سكين من الصوان عثر عليها على مقربة من أبيدوس صورة للبطل تشبه البطل السومري جلجامش يُخضع أسدين. خامساً، أن البناء المصري في تلك الفترة يشبه في استعمال اللبن البناء السومري. وسادساً وأخيراً، يبدو أن الكتابة الهيروغليفية نشأت تحت تأثير الكتابة المسمارية، مع العلم بأنها لم تلبث أن اختلفت عنها.

كان هذا يؤدي إلى سؤال آخر. كيف تم هذا التأثير؟ كان الرأي من قبل، وهو الرأي

الذي قال به فلندرز بتري، هو أن جماعة من الخارج دخلت مصر فاتحة وهي التي حملت عناصر المدنية إلى وادي النيل. وأضاف آخرون أن هذه الجماعة قد تكون أرض الرافدين موطنها الأصلي. لكن نظرية الفتح هذه قل المنافحون عنها الآن. والذي يجمع عليه الكثرة من الباحثين هو أن المدنية المصرية القديمة الأولى تطورت بتأثير من أرض الرافدين. لكن هذا التأثير كان نتيجة حافز حضاري قام بنقله أفراد على مدى من السنين بسبب الاتصال الذي كان قائماً بين البلدين.

ولا بد من الإشارة إلى أن ثمة فرقين هامين بين مدنية السومريين ومدنية المصريين: الأول، هو أن الملك في مصر كان تجسيداً للإله أي أنه كان إلهياً في طبيعته، أما في أرض الرافدين فقد كان الحاكم وكيلاً للإله على الأرض. ويتبع هذا أن أرض الرافدين كان لمدنها، حتى في وقت مبكر، قوانين مدوّنة. وليس قانون حمورابي سوى حلقة في هذه السلسلة. أما مصر فلم تكن تحتاج إلى ذلك: فكلمة الملك ـ الإله هي القانون. والفرق الثاني هو أن مصر انتقلت بسرعة إلى الدولة الواحدة. أما أرض الرافدين فقد ظلت مدة طويلة تتكون من ممالك ـ مدن.

هذه هي القضايا التي تفسرها الحفريات الأثرية ودراستها. لكن يجب القول بأن مثل هذه الآراء ليست نهائية، ولكنها هي المقبولة اليوم تفسيراً للتاريخ الحضاري في تلك الديار.

٣ ـ المدنيّة الفينيقية

إن الأخبار التي وصلتنا عن الفينيقيين عن طريق المدونات السياسية والتجارية كانت كثيرة، ولكن أكثرها لم يكن يتجاوز القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وظل الأمر على ذلك إلى أن دخل، أي التنقيب الأثري، الميدان، وعندها عرفنا أن الشعب الفينيقي كان يقطن الشواطىء اللبنانية السورية الفلسطينية من رأس الشمرا إلى غزة منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وأن أهم مراكزه كانت صور وصيدا وجبيل وبيروت وعكا ورأس الشمرا.

وقد بدأت الدراسات الأثرية سنة ١٨٦٠ إذ قام رينان بمسح أثري للمنطقة الفينيقية في لبنان. ولكن هذا لم يزد على أنه كان مسّاً رفيقاً للسطح في واقع الأمر. مع أن نواويس كثيرة عثر عليها في منطقة صيدا حتى قبل الحرب العالمية الأولى، فإن التنقيب الأثري المنظم في العمق جاء أولاً في الفترة التي تلت تلك الحرب. ولست أنسى يوم زرنا مدينة جبيل لأول مرة سنة ١٩٢٥ حيث تفضل الأستاذ مونته، وكان يقوم بالحفر هناك منذ ١٩٢٠، فرافقنا في زيارة لأعماله. ومنذ سنة ١٩٢٦ تقوم إدارة الآثار اللبنانية بأعمال الحفر هناك. وفي سنة ١٩٢٩ بدأ الحفر في أوغاريت (رأس الشمرا) على الساحل السوري، ولا يزال العمل مستمراً إلى الآن (باستثناء فترة الحرب العالمية الثانية). وفي السنوات الأخيرة قامت إدارة الآثار في لبنان بحفر أثري واسع النطاق في بيروت وصيدا وخربة سلم، وقد حصلت على نتائج ممتازة. أما التنقيب الأثري في بيروت سنة ١٩٩٥، فهو أمر يحتاج إلى دراسة خاصة.

على أننا إذا تذكرنا أن الفينيقيين لم تقتصر سكناهم وآثار مدنيّتهم على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، بل إنهم انتشروا في شمال أفريقيا، بدءاً من طرابلس في ليبيا

وانتهاء بطنجة في المغرب، وكانت قرطاجة أكبر مؤسساتهم وأغناها وأقواها، كما أنه كان لهم انتشار في قبرص ومالطة وصقلية وسردينية وإسبانيا، أدركنا أن التعرف إلى المدنية الفينيقية وتطورها تعرفاً صحيحاً لا يتم إلاّ إذا أحطنا علماً بأعمال الحفر في تلك الأصقاع النائية. ومن ثم، فنستميح القارىء العذر إن نحن أشرنا إلى ما تم هناك في هذه الناحية.

ولعل أوسع نطاق للتنقيب الأثري كان هذا الذي تم في قرطاجة خلال العقود الماضية. فقد اتضحت معالم أبنية قديمة وهياكل وعثر على تماثيل للآلهة وآثار صناعية فنية هامة لا يتسع المقام حتى للإشارة إليها، بله تفصيلها. وفي صقلية تم الحفر في أماكن كثيرة لعل أهمها حفريات موتيه، فضلاً عن حفريات بلرمو وسولنتي. ويبدو أن المدنية الفينيقية كانت أوضح معالم وأرسخ أبعاداً في سردينية منها في أي من الجزر تلك، على ما اتضح من حفريات سلسيس ومونته سراي ونورا. وقد دلت أعمال التنقيب الأثري في اسبانيا، وخاصة في قادس وأبيزا، على أن حضارة الفينيقيين هناك كانت أوسع خطى وأبعد شوطاً في التقدم عما كانت عليه في صقلية وسردينية مثلاً. ومع أن التنقيب الأثري في الأماكن الفينيقية في مالطة لم يبدأ إلا في سنة ١٩٦٢، فما ظهر إلى الآن يدل على احتمال العثور على الكثير مما له قيمة.

أما وقد أشرنا إلى الأعمال الهامة فلنقدم نماذج مما عثر عليه من آثار توضح لنا معالم المدنية الفينيقية.

فقد عرفنا من الاكتشافات الأولى في جبيل أن أول استيطان للمكان بدأ في الألف الرابع قبل الميلاد... ثم تُظهر الآثار أن سكان جبيل بعد ذلك بفترة قصيرة عرفوا البرونز ودولاب الخزاف وبناء الأسوار ذات الجدارين الحجريين. كما أن الهياكل أخرجت كنوزها وبينها هدايا من فراعنة مصر الذين عاشوا بين ٣٢٠٠ و٢٢٠٠ ق.م. أما الكنوز الأصلية التي وجدت فمنها فؤوس من الذهب الخالص وآنية من الفضة وتمثال للإله رشف مغطى بالذهب وجواهر ثمينة. وهذه من النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد.

وأعمال الحفر التي تمت في أوغاريت أظهرت لنا شيئاً كثيراً غنياً. فقد كان القصر الملكي في أوغاريت يتكون من ٦٧ غرفة تحيط بخمسة صحون، وكان يشغل من الأرض مساحة تقدر بثمانية آلاف متر مربع. ولا شك أنه كان أكثر من مجرد مكان للإقامة الخاصة. إذ إن أربعة أقسام منه كانت مخصصة للأعمال والمحفوظات الرسمية، التي أمدتنا بآلاف الوثائق الإدارية والقانونية مدوّنة بالكتابة الأوغاريتية المحلية وبالكتابة الأسفينية الأكدية.

وكشفت أعمال التنقيب عن صحون ثلاثة أخرى وثلاثة أجنحة كانت مخصصة للأعمال الإدارية في القصر. وهناك جناح، كان يقع قرب المدخل الشمالي الشرقي للقصر، خصص على ما اتضح من المتون المتكشفة، للأعمال القانونية والمالية الخاصة بالمدينة وأرباضها، بالمقارنة بالمكاتب قرب المدخل الغربي التي كانت تهتم بالأعمال المتعلقة بالريف. وكانت أعمال الخاصة الملكية ينظر فيها في مكان ثالث، على مقربة من الصحن. والمتون هنا هي

في غالبيتها قانونية متعلقة بالهدايا وانتقال الأملاك والتبني وما إلى ذلك. وكثير من هذه الوثائق كان ممهوراً بختم الملك. أما الأعمال الخارجية فكانت تتم في صحن داخلي، على ما يستنتج من الوثائق الأكدية التي عثر عليها هناك، وبعضها عليها أختام البيت المالك الحثي.

إن قصر أوغاريت، مع أن الباقي منه لا يتجاوز الهيكل الأساسي، يؤثر في الزائر. فإذا تصورنا وقد ارتفع فوقه طابق ثانٍ أو أكثر، على ما يتضح من الأحد عشر درجة الموجودة، وإذا أضفنا إلى ذلك أثاثه الرائع المصنوع من الخشب والمعادن، والزخرف الجداري من العاج المحفور، والحرس الملكي يحيط به والموظفين يقومون بأعمالهم ومبعوثي الملوك وأصحاب الأعمال يتخطون عتباته آتين وعائدين، والملك وأعوانه يخرجون ويدخلون في المركبة الملكية ــ إذا تذكرنا هذا استطعنا أن نتصور قصر أوغاريت في أيام عزها.

لم يعثر المنقبون على مثيل للقصر الملكي في أوغاريت في أي من المدن التي تم فيها الحفر والتنقيب في فلسطين أو سوريا. ومن المرجح أنه ليس له مثيل قط وحتى جبيل لم يكن لها مثل ذلك. ذلك بأن أوغاريت كانت لها منزلة خاصة وثراء خاص. فقد كانت تقع على ملتقى الطرق التجارية من بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى وكنعان وقبرص وكريت والعالم الأيجي ومصر. وكانت للمدينة قيمة خاصة في النزاع بين مصر وبلاد الحثيين. فهي سهلة المنال من مصر، بحراً، ومن الامبراطورية الحثية براً، ولذلك حاول ملوك الفريقين التقرب منها لأنهم حسبوا أن الإفادة منها تطوعاً أفضل لأي منهما من احتلالها. وكانت أوغاريت تستفيد من ذلك وتستغل الفريقين. وقد وفد إليها لاجئون فارون من العالم الايجي حول سنة ١٤٠٠ ق.م. فزاد ذلك في ثرائها إذ حمل هؤلاء معهم الكثير من ثروتهم. وتدل الوثائق المكتشفة في المدينة على أن ملك أوغاريت كان من أمراء التجار.

والآن فلنلق نظرة سريعة على نواح أخرى من نواحي المدنية الفينيقية. وأول ما يلفت اتساع المدى الذي بلغته التجارة الفينيقية. فتجارة الأخشاب كانت تصل إلى مصر وما بين النهرين. والصناعة الفينيقية الرئيسة كانت صناعة الأقمشة. فما أكثر ما ورد ذكرها في شعر هوميروس، وخاصة المصبوغة منها بالأرجوان. كما أن الفينيقيين أتقنوا صناعة الزجاج، وأتقنوا النقش على العاج والمعدن.

وهذه الناحية الفنية المتصلة بحياة الفينيقيين يجب، كي نفهمها، أن نذكر أن المنطقة التي استقر فيها هؤلاء القوم كانت تتصل بالحضارات المختلفة. والمهم أن «الفينيقيين استطاعوا أن يحافظوا على التقليد الفني في الوقت الذي كان جيرانهم يدمرون الحضارة».

ولا بد من الإشارة إلى أمر على غاية الأهمية، وهو تأثير الديانة الفينيقية على مصر وآلهتها. ويلخص الدكتور وليام ورد ذلك بما يلي: أولاً، أن عناة وعشتار أصبحتا إبنتين للإله المصري رع. ثانياً، أن رعمسيس الثاني كان يسمي نفسه رضيع عناة، الآلهة الفينيقية الكنعانية، جرياً على أنها كانت ترضع ملوك أوغاريت. ثالثاً أن الأساطير الدينية، مثل أسطورة عشتار، شاعت بين المصريين.

وبهذه المناسبة، فإن المكتبة الأوغاريتية الفينيقية الأسطورية هي مكتبة أدبية رائعة.

وأخيراً، هل ثمة من ينسى أن الفينيقيين هم الذين زوّدوا العالم بالألفباء؟

٤ ـ مدنيّة فلسطين

كان حظ فلسطين من أعمال الحفر الأثري، من حيث بدؤه واتساعه، لا يقل عن حظ مصر وأرض الرافدين. وليس ذلك غريباً على بلد ارتبط اسمه بالدراسات التوراتية من زمن طويل. وكان من الطبيعي أن يتجه علماء الآثار إلى القدس التي بدأ الحفر فيها سنة ١٨٧٤، وقد استمر في فترات مختلفة حتى أواسط القرن الحالي. لكن التنقيب الأثري في مدينة مثل القدس لم يكن يسيراً، لذلك فإن أكثر ما حفر كان خارج أسوار المدينة الحالية، وهي التي بناها السلطان سليمان العثماني سنة ١٥٤٣. وكانت أريحا المكان الثاني الذي بدأ الحفر فيه، وكان ذلك سنة ١٨٧٣. ومع أن العمل توقف بعد ذلك، فقد عاد معول الأثري إلى هناك، وكان أهم ما تم بين سنتي ١٩٥٢ و١٩٥٨. وقد اتضح من البحث أن المكان كان مأهولاً بالسكان بدءاً من الألف الثامن ق.م. وكان من حسن حظ التنقيب الأثري في فلسطين أن انتقل للعمل هناك فلندرز بتري سنة ١٨٩٠، إذ بدأ الحفر في تل الحسي الواقعة بين غزة والخليل. وقد وضع هذا العلاّمة خبرته التي اكتسبها من أعماله الطويلة في مصر في سبيل وضع القواعد الأساسية لأعمال الحفر في فلسطين. فحفر فيما بعد في تل العجول جنوبي غزة بين سنتين ١٩٢٣ و١٩٣٥. وقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يقضي ثلاثة أيام مع فلندرز بتري في ذلك المكان للاطلاع على الأساليب الأثرية العلمية اطلاعاً مباشراً.

والأماكن التي تم فيها الحفر الأثري في فلسطين إلى منتصف القرن الحالي، والمرتبطة بدراسة المدنية القديمة، هي نحو أربعين موقعاً، كان بينها ثلاثة أماكن عثر فيها على آثار بشرية متحجرة هي كهف القفزة جنوبي الناصرة ومغارة الزطّية قرب طبريا ومغارة السخول قرب حيفا. وفي مغارتي الزطّية والسخول عثر المنقبون على آثار بشرية تشبه الإنسان النيندرتالي.

ونحن في هذه الأحاديث لا نؤرخ للمدنية في كل قطر، ولكننا نتناول فترة معينة لتوضيح أهم ما تم على أيدي ذلك الشعب القديم فيها. والفترة التي نتناولها في حديثنا عن فلسطين الآن هي التي تمتد من حول سنة ٣٠٠٠ق.م. إلى نحو سنة ١٢٠٠ق.م.

حريّ بالذكر أن أرض الرافدين ومصر شهدت في هذه القرون تقدماً زراعياً وصناعياً كبيراً جعل من البلدين منطقتين مصدرتين، كما أنهما احتاجتا الكثير من المواد الخام التي كانت توجد في ديار الشام. ومن هنا كان اهتمام حكام مصر بأن يكون لهم نفوذ في فلسطين لضمان طرق الاتصال مع الشمال. ومثل ذلك يقال عن اهتمام حكام بلاد الرافدين في السيطرة على مركز الطرق في سوريا. والفريقان كانا شديدي العناية بمصدر الأخشاب الرئيسي، أي لبنان لحاجة سكان القطرين إلى خشب الأرز. ومعنى هذا أن فلسطين كانت تتأثر بما يصل إليها من حضارة ومدنية من الشرق والشمال والجنوب. فقامت في أوائل هذه

الفترة، وهي الفترة التي كان الكنعانيون يسيطرون فيها على فلسطين، مدن تطورت عما كان من قبل قرى زراعية، على نحو ما تم في أرض الرافدين ومصر.

ورغبة منا في توضيح المدنية الكنعانية في فلسطين رأينا أن نقتصر الآن على المدينة الكنعانية.

بدأت السكنات الكنعانية في مطلع العصر البرونزي (حول ٣٠٠٠ ق.م). وكان العامل الأساسي في اختيار مكان الاستيطان صلاحية ذلك المكان للدفاع ضد المهاجمين له. ومن هنا نجد أن التلال الناتئة في السهول أو المرتفعات المسيطرة على طريق ما والتي كانت قرى في أول الأمر أصبحت مدناً، واستمرت على ذلك حتى أواخر العصر الحديدي.

كان السكان يعتمدون على التحدرات الطبيعية للمكان المختار في سبيل إقامة وسائل للدفاع. لكن مع سير الزمن في الألف الثالث ق.م. نمت المدن وأخذ سكانها أنفسهم ببناء أسوار مكونة من حجارة غير مشذبة مختلفة الحجوم أو من آجر. وكانت الغاية من الأسوار أن تصد الغزوات المختلفة التي كانت المدن تتعرض لها، خاصة من الشرق. ومثل هذا يظهر بوضوح في أريحا وعاي وتل الفارعة وبيسان ـ حيث تقع هذه عند مداخل الطرق الآتية من الشرق نحو فلسطين.

وكان ثمة عامل آخر هام يتعلق بالمدينة وهو الماء. وقد تؤمن حاجة المدينة من الماء من عين جارية مثل أريحا والقدس وتل الفارعة. وفي هذه الحالة كانت المياه تستعمل للري كما كانت تستعمل للشرب. إلا أن مصدر الماء كان معرضاً للخطر بسبب وجوده خارج السور. وإذن فقد كان من الضروري أن يوسع نطاق السور بحيث يضم العين، إذا كان المستوى مناسباً لذلك. أما فيما عدا ذلك، أي إذا كان مستوى المدينة أعلى من مستوى العين بحيث يؤثر ذلك على وضع الأسوار ويقلل من أهمية التحصينات، فإن السكان كانوا يحفرون نفقاً يوصل العين إلى داخل الأسوار مثل القدس. ففي هذه، حفر النفق الذي أوصل مياه عين أم الدرج (شرقي المدينة) إلى داخل الأسوار. وعندها نُحت في الصخر درج منحدر إلى نقطة حيث نقبت فتحة عمودية تصل إلى الماء. أما العين فتسوّر وتخفى عن العيون. ومثل ذلك كان الحال في جازر (أبو شوشة) في العصر البرونزي المتوسط.

وفي مجدّو، بين حيفا وجنين، نجد الطريقة نفسها، ولكنها تعود إلى العصر الحديدي. فالنظام الذي اتبع كان يعتمد على نبع يقوم على المنحدر الجنوبي الغربي للتل. وقد حمل السكان الماء من هذا النبع عبر عصور التاريخ كلها. وكان السكان يقومون بتنظيف طريق الماء حتى وصلوا إلى النبع الموجود في كهف صخري. على أن مصدر الماء ظل خارج السور. ومعنى هذا أنه لم تكن له قيمة البتة في حالة ضرب الحصار على المدينة. أما حول السنة ١٢٠٠ ق.م. فإننا نجد أن الوصول إلى الماء من داخل الأسوار أصبح ممكناً. ويبدو أن الخطوات التي اتخذت حتى تم للسكان ذلك كانت على الأسلوب التالي: ١ ـ كان السكان يصلون عن طريق ممر طويل منحدر تدريجاً مبني بالحجارة ٢ ـ كانت الخطوة التالية أكثر

طموحاً. فقد حفرت حفرة عمودية عمقها ٣٥ متراً من سطح الأرض في المدينة. وكان القسم الأعلى منها مبنياً، لكن الجزء الأسفل حفر في الصخر. عند نهاية هذه الحفرة نُقر نفق يصلها بالنبع طوله ٦٣ متراً. وعندها ختم على النبع بالنسبة إلى الخارج ببناء متين. أما الحفرة العمودية فأحيطت على جوانبها بدرج من فوق إلى أسفل. وعندها أصبح نساء مجدو يستطعن الانحدار على هذا المدرج ثم السير في النفق إلى النبع، فيحملن الماء إلى البيوت، دون أن يكن معرضات للخطر أو دون أن يتمكن العدو من قطع الماء عن المدينة.

أما حيث لم يتوفر نبع أو عين تفي بالحاجة، فقد كان المألوف أن تحفر بئر عميقة بحيث تصل إلى مستوى المياه. والبئر بطبيعة الحال كانت تحفر داخل أسوار البلدة أو المدينة. والأمثلة على هذا كثيرة: تل بيت مرسيم وتل الصافي وبيت شمش. أما في جازر فبدل أن تحفر بئر فقط، حفر نفق ونقر فيه درج أوصل الناس إلى الماء رأساً. ومثل ذلك صُنع في جبعون. وفي لخيش كان من الضروري أن تحفر البئر خارج المدينة، إذ لم يهتد إلى ماء داخلها. وقد كان عمق البئر نحو ٣٧ متراً.

والذي يمكن أن يستنتج من دراسة هذه الوسائل هو أن الكنعانيين كانوا ماهرين في أعمال الهندسة هذه، بحيث تمكنوا من القيام بمثل هذه الأعمال، وأن الزعماء المحليين كانوا أصحاب نفوذ كبير، وأن الرغبة في المحافظة على الحرية والاستقلال المحليين كانت قوية جداً عند أمراء هذه الممالك ـ المدن.

في أوائل الألف الثاني ق. م. كان السكان قد أخذوا يبنون بيوتاً مستطيلة الشكل ويستخدمون الطين أو الآجر في البناء، ويربطون بين الآجرات بالمونة. أما الأساس فكان دوماً إما الصخر أو قاعدة مبنية من الحجر. كانت البيوت صغيرة على العموم، إذ إن ذلك كان متوقفاً على طول الجوائز الخشبية التي أمكن الحصول عليها لتستعمل ركائز للسقف. والسقف كان من الأخشاب أو من التراب. وكانت البيوت تُقصّر بالطين من الخارج، كما أن السطح كان يدحل بمدحلة صغيرة لتتماسك أجزاؤه فتمنع الماء من التسرب خلاله في أيام المطر. ولما أمكن الحصول على المزيد من جوائز الخشب وضعت هذه في الجدر لتقويتها.

ونلاحظ أنه في عصر الهكسوس أخذت تظهر في هذه المدن بيوت أوسع قليلاً، لعلها كانت بيوت السادة. وكانت هذه البيوت تحيط غرفها بصحن، ويدور بها سور لمنع المارة من النظر إلى الداخل. وكان يقوم في الصحن بئر لجمع مياه الأمطار من أسطحة الغرف المختلفة. وكانت هذه البيوت تحوي مخازن للحبوب وخوابي للزيت والخمر وغيرها ومعصرة وفرناً. بل وقد يكون فيها قسم خاص بالأسرة بالمقارنة مع القسم الذي يستقبل فيه الزوار وأصحاب المصالح. وقد أظهرت أعمال الحفر والتنقيب عن مثل هذه البيوت الكبيرة في عاي القريبة من رام الله (من الألف الثالث ق.م.). وكثيراً ما كانت هذه البيوت تتألف من طابقين، وقد يستعمل الطابق الثاني للاستقبال في علية خاصة. وورد أن عجلون ملك مؤاب كان يجلس على سريره في غرفة صيفية له وحده وفيها يستقبل زواره.

ولسنا بحاجة إلى القول بأن البيوت أقيمت في أكثر هذه المدن كما اتفق، وأن شوارعها وأزقتها وممراتها كانت متعرجة ضيقة. وكانت المدن، بسبب ضيق مساحاتها، مزدحمة بالسكان. ومع ذلك فقد يجتمع أصحاب الصناعة الرئيسة في المدينة في ناحية واحدة منها كي لا يتسببوا في إزعاج السكان عامة. فقد كان المشتغلون بالأدوات المعدنية في مدينة بيت شمس يقيمون في الحي الشمال الشرقي من المدينة. وكان للتجار الغرباء أماكن خاصة بنزولهم في المدن الكنعانية.

ولم تكن لهذه المدن ساحات عامة، بل إن الأعمال واللقاء والبيع والشراء كانت تتم حول الباب الرئيسي للمدينة، إما خارجه أو داخله، على نحو ما نعرف عن تل الفارعة (من القرن التاسع عشر ق.م.)

تتحدث رسائل تل العمارنة عن الملوك في بلاد الشام، فما هو نوع السكن الذي كانوا يقيمون فيه؟ هل كانت لهم قصور؟

إذا تذكرنا أن اللقب الذي استعملوه كان عادياً وأن المملكة قلما كان يتجاوز قطرها ٣٥ كيلومتراً. كان من الطبيعي أن لا ننتظر قصوراً بالمفهوم المرتبط بالملكية. فإن أي بيت ذي طابقين عثر عليه في كل من أريحا وبيت إيل وتل بيت مرسيم وتل العجول وبيسان وحازور يمكن وصفه بأنه «قصر». وهذه بيوت من العصر البرونزي المتوسط. وقد عثر في مجدو على بناية ترجع إلى القرن الخامس عشر ق.م. وأقيمت حول بضعة صحون وتشغل نحو ١٢٠٠ من الأمتار المربعة. هي ولا شك «قصر»، بالنسبة ليس إلى مساحتها واتساعها فحسب، ولكن بالنسبة إلى ما عثر عليه فيها من الذهب والعاج واللازورد مطموراً تحت أرض إحدى غرفها. إلا أنه حري بالذكر أن مجدو كانت على طريق تجاري وحربي هام، وقد أفادت من موقعها بشكل غريب. وقد يقوم في القصر معبد أو أكثر على نحو ما نعرف من مدينة قطنا التي كان في قصر ملكها معبد للإله ننغال وهو الآله القمر.

ومما حفلت به المدينة الكنعانية هو «المكان المقدس»، وهو أصلاً المكان الذي كانت القبيلة تدفن فيه موتاها وتحتفظ بذكراهم. هذه هي الأماكن المقدسة أو «الأماكن المرتفعة» التي ترد أخبارها في تاريخ الكنعانيين. ففي «المكان المرتفع» في جازر مثلاً تقوم ثمانية أحجار ضخمة تمتد نحو ٢٧ متراً على شكل هلال ، ولعل الإلهة أشيرة كانت تعبر هناك.

على أن الجماعات التي استقرت وأنشأت المدن أخذت، على توالي الأيام، تبني الهياكل المخصصة للعبادة، والتي كان معناها أن الإله موجود هناك، وذاك هو بيته. والهيكل كان فيه مذبح لتقديم الضحايا التي تنوعت بحيث كانت حيوانات صغيرة أو ثمار الأرض.

ويرى أولبرايت أن وجود بيوت قليلة ذات صحون متسعة وغرف متعددة في المدينة الكنعانية إلى جانب البيوت الصغيرة الضيقة ذات الغرفة الواحدة، يدل دلالة واضحة على أن المجتمع الكنعاني كان مجتمعاً إقطاعياً. وقد يكون توزع أدوات الترف والزينة في المقابر والبيوت دليلاً آخر على هذا النوع من المجتمع. ويمكن إضافة إشارات أخرى متفرقة من

رسائل تل العمارنة ومحفوظات أللخ (عطشانا) وأوغاريت. وفضلاً عن ذلك فإن الأساطير المختلفة التي وصلت إلينا من الألفين الثالث والثاني ق.م. تدل على الأمر نفسه.

٥ ـ مدنيّة السند وعلم الآثار

كان المتعارف عليه بين المؤرخين إلى أوائل القرن الحالي أن قوماً دخلوا حوض السند في أواسط الألف الثاني ق.م. من الجهة الشمالية الغربية، وأن هؤلاء هم الذين أوجدوا حضارة الهند التي حفظتها لنا الخرافات والأساطير، وتحدث عنها الكتاب ووصفها الرحّالة، وهي التي كانت السنسكريتية لغتها وآدابها.

ولكن في سنة ١٩٢١ كان بعض المسؤولين في تلك المنطقة يدورون بالمعبد البوذي القائم في مكان يسميه الناس «تل الموتى» (موهنجودارو) لتنظيف البناء، لما تبدّت لهم آثار تمتّ إلى المعبد بصلة. فأخذوا يخدشون الأرض، ثم أخذوا يعمقون الجراح وتولى أمر الحفر هناك السير جون مارشال، الذي كان مديراً لإدارة الآثار الهندية. فكان أن اتضح لعلماء الآثار، في غضون سنوات قصيرة، أن المكان الذي يسميه الناس «تل الموتى» كان، قبل أربعة آلاف وخمسمائة سنة، مدينة تعج بالحياة بكل معنى الكلمة. وكان كل موسم يزيح نقاباً عما خفي من قبل حتى كان كشف سنة ١٩٥٠ فاتضح أمر موهنجدارو. وإذا تذكرنا أن الحفر لم يقتصر على هذا المكان بل اتجه إلى «هَرَبَة» وغيرها من الأماكن، عرفنا أن المنطقة التي كانت تزدهر فيها حضارة السند كانت تمتد نحواً من ألف وخمسمائة ميل من الشمال إلى الجنوب ونحو ثلث هذا شرقاً في غرب.

وسنقتصر في هذا الحديث على وصف موهنجودارو على ما رأيناها بأنفسنا في زيارتنا باعتبار أنها نموذج لمدينة السند.

تقع أنقاض موهنجودارو (تل الموتى) على مقربة من نهر السند، في منبسط من الأرض يتعرض لأن يغرقه النهر إذا خطر له أن يغير مجراه، وما أكثر ما كان يفعل ذلك. ومن أجل ذلك رفع أهل المدينة المصاطب ليبنوا مدينتهم في أمان من النهر وفيضانه وتغيير مجراه. وكانت الأرض المحيطة بتل الموتى تخترقها قنوات الري فتجعل منها، بدل التربة المهملة اليوم، أرضاً تنتج الخير الكثير لسكانها. فكان القمح والشعير والسمسم والقطاني والشوفان وبعض القطن مما تجود به الأرض. والأرض تعطي متى اعتني بها، وتفقر متى أهملت. أما المدينة التي كانت تقوم هناك حول ٢٠٠٠ق.م. فقد كانت مدينة كبيرة، وكانت حضارتها من النوع الذي عرفه العالم القديم في أحواض الأنهار الكبرى في العراق ووادي النيل وما إليهما. وكانت أنواع الخزف تعرض في أسواقها للبيع، كما يبدو أن سكانها أتقنوا صناعة الآجر المشوي الذي استعملوه للبناء الرسمي والعادي.

كانت المدينة تتألف من قسمين ـ الأعلى والأدنى. والأول كان يقع في الجهة الغربية من المدينة، وينتشر في مستطيل يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو ٣٦٠ متراً، أما عرضه فنحو نصف ذلك. والجدير بالذكر أن هذا القسم كان في غاية التحصين. إذ فضلاً عن

المصطبة الضخمة التي أقيمت لإرساء الأسس عليها، نجد بقايا سور يبلغ سمكه في أسفله نحو ١٢ متراً ويدق قليلاً كلما ارتفع، ويتراوح ارتفاعه بين ١٠ و١٢ من الأمتار. ومع أن السور مبني من الآجر المجفف بالشمس أو من التراب، فإن جداره الخارجي كان من الآجر المشوي بالنار، وهذا كان يحميه من الأمطار الموسمية الغزيرة. وكانت تقوم على مسافات متساوية فيه حصون مستطيلة بنيت بناء قوياً.

يدور هذا السور بأرض رفعت نحو عشرة أمتار عن المستوى الأصلي، بحيث تكون الأبنية المقامة عليها في مأمن من الفيضان. وقد أقيمت على هذه المصاطب البنايات العامة، سواء في ذلك الأبنية المدنية والدينية. ومن هذه خزان كبير للماء، وبيت لعله كان مقر حاكم المدينة، وبناء آخر لعله كان الديوان العام الذي يجتمع فيه أهل الشورى والإدارة.

أما القسم الثاني ـ الأدنى ـ من المدينة فتتضح لنا معالمه إذا ارتقينا مكاناً عالياً في القسم الأول يشرف عليه. إنه الجزء الشرقي من «موهنجودارو». إن آثاره، من البيوت والحوانيت، تمتد كيلومتراً في اتجاه نهر السند، حيث تقوم في آخر هذه المسافة، مصطبة ضخمة توضح للنهر المدى الذي يستطيع أن يصل إليه من دون أن يؤذي المدينة أو سكانها. ولم يكن نهر السند ليرضى بهذه الحدود دوماً، فما أكثر ما بلغت به سورة الغضب أن يتجاوز هذه المصطبة فيخرج ويحطم. لكنه لا يلبث أن يعود إلى مجراه باسماً مسالماً، وعندئذٍ ينشط القوم إلى البناء ثانية والاستمتاع بنعمة هذا النهر الكبيرة.

لقد رأينا، ونحن واقفون على أطراف تحصينات القلعة وهي القسم الأصلي الغربي من المدينة، شوارع متوازية ومتعامدة في عرض نحو عشرة أمتار، تمتد أمامنا، وتقسم المدينة أقساماً متسقة متساوية تقريباً، كل منها نحو ٦٣٠ في ٢٠٠ من الأمتار. وهذا الأمر يدل دلالة قاطعة على أن المدينة لم تنمُ نمواً عادياً على مر السنين، بل كانت نتيجة تخطيط المدن. ولكل شارع مجاريه المنظمة المرتبة تحمل فضلات المياه بحيث تلقيها بعيداً. لكن هذه الشوارع كانت ترابية، أي إنها لم تغط بالحجارة قط.

ولعل مما يلفت في هذه المدينة هو سيطرة النظام التام على أبنيتها التي تبدو متشابهة تماماً، وانعدام أي أثر للزينة العامة في الشوارع أو الساحات العامة، وعدم وجود الأبواب أو النوافذ المطلة على الشوارع الرئيسة، ذلك أن البيوت كان يدخل إليها من الأزقة الجانبية، كما كانت بسيطة الزخرف، بسيطة الأثاث. وفي ناحية نائية من هذا القسم من المدينة تقوم بقايا ١٦ كوخاً صغيراً، لعلها كانت مساكن للعبيد أو ما شاكلهم ممن كانوا يعملون جماعات تحت أمرة المدينة.

ولم يعثر الباحثون بعد على ما يمكن أن يعتبر هيكلاً أو معبداً. ولما كانت النقوش القليلة التي عثر عليها لم تحل رموزها بعد، فإن ما يمكن أن يقال عن دين هؤلاء السكان وعبادتهم هو أقرب إلى الحدس والتخمين منه إلى التقرير الواقعي العلمي. فالذي وجد هناك من تماثيل نسائية صغيرة يشير إلى وجود نوع من عبادة «الآلهة الأم». وثمة ما يشير إلى قيام

نوع من العبادة الجنسية التناسلية وعبادة الأشجار. فإذا صح هذا الاستنتاج فإن العبادة التي كانت تقام أسرارها في موهنجودارو وما إليها كانت عبادة أساسها الخصب والإنتاج.

يرى علماء الآثار الذين درسوا المدينة وما أظهره التنقيب عنها أن السكان كانوا يستعملون القليل من الثياب. لكن هذا الذي استعمل فيه تنوع من الألوان وفيه زركشة. والظاهر أن الكثيرين من رجال الدين كانوا يطلقون لحاهم. ومما لفت تنوع السكان، مما يدل على أن عناصر من خارج المنطقة جاءتها متاجرة ومهاجرة ومستوطنة. وهذا لا يخرج عما يمكن أن يرى إلى الآن في منطقة السند.

ولعل أطرف ما كشفت عنه أعمال الحفر في موهنجودارو هو مخزن الحبوب العجيب. فقد رفعت أرض المخزن نحو ستة أمتار عن أرض المنطقة (في الجزء الشرقي من المدينة) في بناء أسُسه من الآجر المشوي، في مساحة ستة عشر متراً طولاً في عرض ثمانية أمتار. وكان يعلو هذا الأساس المبني إطار من الخشب تركت فيه مجار للهواء بحيث لا يتأذى المخزون من الحب من الرطوبة، وكان الحب يحمل في أكياس على عربات تجرها الثيران إلى مكان مرتفع يقع شمالي المخزن ذاته، ومن هذه العربات تنقل الأكياس إلى أماكن الخزن. وضخامة هذا المخزن تدل على أنه كان عاماً، ولعله كان للحكومة التي كانت تفكر بأمر الرعايا فتحتفظ لهم بكميات من الحبوب تغنيهم عن التذمر والألم فيما إذا فشل الموسم.

وأكثر الذين درسوا موهنجودارو يرون أنها لم تكن مدينة محصنة، بمعنى أن السور والحصون لم تكن تدور بها جميعها كما كانت الحال في مدينة «هربة» التي تبعد عنها نحو خمسمائة كيلومتر. ولعل موهنجودارو كانت مدينة مفتوحة، باستثناء القلعة التي كانت تشغل جزءاً صغيراً من مساحة المدينة الكلية.

هذه المدينة الآمنة المطمئنة كان رزقها يأتيها رغداً من كل مكان، من زراعتها وصناعاتها وتجارتها. ولكن ذلك لم يدم. فحول سنة ١٥٠٠ق.م. أو نحو ذلك، على ما كشفته أعمال الحفر، تعرضت هذه المدينة لهجوم عنيف، لم يكتف الذين قاموا به باحتلال المدينة، ولكنهم هدموها وأحرقوها. فالجثث الممثل بها، والرماد الذي ظهر في طبقات المدينة، وآثار الحرائق الباقية إلى الآن، تدل على ذلك. وهكذا انتهت قصة موهنجودارو، المدينة المنظمة المرتبة الناجحة، إلى تدمير وتخريب.

وإذن، فما كان الأدب التاريخي يعتبره بدءاً لحضارة تلك الديار، أثبت علم الآثار أنه كان نهاية لمدينة عظيمة.

والسؤال الذي يقلّبه الباحثون في مدنية السند هذه هو: كيف تم لتلك البلاد أن تنشأ فيها مثل هذه المدنيّة؟

ليس الجواب يسيراً. فكل سؤال عن أصل مدنية ما، سهل طرحه ولكن الإجابة عنه، صعبة. ولننقل خلاصة رأي مورتيمور هويلر حول هذه القضية. يقول، إن الأحوال الجغرافية كانت تمكّن الشعب من التقدم. لكن الشيء الذي يلفت النظر هو أن مدنية السند ليست نتيجة

تطور تدريجي، إذ ليس لها أصول متطاولة في القدم. لكن يجب أن لا يغرب عن البال أنه كان ثمة مدنيتان قد سبقتاها وهما مدنية أرض الرافدين ومدنية وادي النيل. لكن يجب أن لا يتبادر إلى الذهن أن أياً من هاتين المدنيتين يمكن اعتبارهاً أمّاً مباشرة لمدنية السند. ولكن الآراء تنتقل، والحافز لمدنية الهند جاء من الغرب ـ من أرض الرافدين من بلاد سومر. فالصلات البحرية، عن طريق الخليج العربي، كانت قوية.

أرض غنية زراعة، وقوم يشعرون بوجودهم وحافز يدفعهم. مدينة واسعة عميقة تنشأ وتموت، ويأتي الرفش والمعول فيكشفان عنها.

٦ ـ علم الآثار ومدنيّة الخليج القديمة

كان أهل البلاد والرحالون عندما ينتقلون في أنحاء الخليج العربي ويزورون جزره يشاهدون الكثير من التلال الصناعية في تلك الأماكن. وقد عدّت هذه التلال بالآلاف. وكان الرأي السائد هو أن هذه هي «تلال مدافن». فقام اثنان من الأجانب، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بحفر سطحي لبعض هذه التلال في البحرين فثبت لهما أنها كانت مدافن. ولكن أين كان يسكن القوم الذين دفنوا موتاهم في هذه التلال؟

ليس في الروايات العربية ما يشير إلى شيء من ذلك، لأن أولئك «السكان» كان قد ران عليهم صمت لمدة لا تقل عن ألفي سنة. والصمت لا يفسر الأحداث ولا يزوّد التاريخ بقصة. ولكن متى أخرجت الأرض كنوزها يعود الصوت، أو على الأقل الصدى، إلى المكان، وعندها يمكن للتاريخ أن يتكلم. والتاريخ هنا كان لا بد أن يعتمد على ما يقوم به الرفش والمعول، وعلى حل رموز الكتابات.

وهذا ما حدث بالضبط. إذ إنه لما خرجت الآجرات بالآلاف من أرض الرافدين وحلت رموز الكتابة الإسفينية ظهرت أساطير دينية، مثل قصة جلجَامش. ثم ظهرت آجرات عليها فواتير ومراسلات تجارية تذكر اسم «دلمون» و«ماكان» (أوماغان) وتعني المواد التجارية التي كانت تنقل من بعيد ـ من الجنوب ـ إلى أرض الرافدين. ففي سنة ١٨٨٠ كتب رولنصون يقول بأنه يجب أن نفهم جيداً بأنه في جميع الألواح الآشورية، من أقدم العصور إلى آخر عهد الدولة الآشورية، ثمة إشارات تشير باستمرار إلى جزيرة تقع إلى جنوب أرض الرافدين وتسمى «نيدوكي» باللغة الأكدية و«تلقون» أو «تلمون» باللغة الآشورية. وبنوع من الحس الباطني أضاف رولنصون إلى أن تلمون هذه قد تكون البحرين. ولما عرفت قصة جلجامش للعالم ظن البعض أن المكان الذي قصده البطل للحصول على العشبة المانحة الخلود هو البحرين أو ما حولها.

وعلى كل، فقد عثر المنقبون على نقش يرجع إلى سنة ٢٥٢٠ق.م. من أيام «أور ـ نانشي» ملك لاغاش مسجل فيه أن سفن دلمون حملت إلى الملك خشباً من بلاد نائية. وهذه أقدم وثيقة عثر عليها إلى الآن التي يظهر فيها اسم دلمون.

على أن الذي ظل ناقصاً هو الحفر والتنقيب في الخليج العربي، في شطآنه وجزره. لعل

الرفش والمعول يخرجان معلومات جديدة. وهذا ما حدث منذ شتاء ١٩٥٣ وحتى ١٩٦٥. والقسم الأكبر من أعمال الحفر التي تمت إلى الآن قامت بها البعثة الدنمركية الأثرية. لكن إدارات الآثار في بعض الدول العربية هناك أخذت تشارك بعض المشاركة في العمل.

والأماكن التي قام فيها التنقيب أو المسح الأثري إلى الآن في الخليج العربي هي، من الشمال إلى الجنوب، جزيرة فيلكة، والكويت نفسها، وفي البحرين في قلعة البحرين وقرية بربر، وفي سواحل المملكة العربية السعودية في ناورت وثج والعقير والظهران وأماكن أخرى متعددة، وفي قطر وفي أبو ظبي في جزيرة أم النار ومدينة العين وفي دبة في شبه الجزيرة عند المنقلب إلى مسقط وعمان. وقد كان التنقيب والحفر في البحرين ـ في قلعة البحرين وقرية بربر ـ أوسع نطاقاً وأعمق. ولذلك فالصورة التي عندنا الآن عن حضارة البحرين ومدينتها أوفى من الصور المجتزأة الأخرى.

وقد اتضح من أعمال الحفر الأثرية في الخليج أمور كثيرة، لعله من الخير أن نضعها هنا ملخصة:

١ ـ ثبت للباحثين أن قلعة البحرين تمثل حضارة ومدنية امتدت من حول سنة ٣٠٠٠ ق.م. إلى نحو ٣٠٠ ق.م. وقد حفرت البعثة الدنمركية خمس مدن كانت تبنى الواحدة عنها على أنقاض الأخرى وفي مكانها على العموم.

وقد وضع جوفري بيبي جدولاً موقتاً لعصور هذه المدن الخمس كالآتي:

(أ) المدينة الأولى ـ مجهولة تاريخ الإنشاء والأصل.

(ب) المدينة الثانية ـ أنشئت حول ٢٣٠٠ ق.م.

(ج) المدينة الثالثة ـ أنشئت حول سنة ١٧٥٠ ق.م. واستمرت إلى نحو ١٢٥٠ ق.م.

(د) المدينة الرابعة، من حول ١٠٠٠ ق.م. إلى نحو ٥٠٠ ق.م.

(هـ) المدينة الخامسة ـ بين ٥٠٠ ق.م. و٢٥٠ ق.م.

٢ ـ إن حضارات مختلفة في درجاتها، من حيث مصادر التأثير بها، نشأت في فيلكة وتاروت (السعودية) وأم النار (أبو ظبي) في الوقت نفسه، وإن لم تظهر أعمال الحفر الاولى بعد فيما إذا كانت جميعها قد استمرت إلى نحو ٣٠٠ ق.م، لكن فيلكة وثج كان في كل منهما مدنيّة في القرن الثالث ق.م.

٣ ـ إن قيام الحضارة والمدنيّة في المناطق المشار إليها كان يعاصر، على نحو ما ذكرنا من قبل، المدنيّة المتقدمة في سومر (جنوب العراق) وحوض السند.

٤ ـ إن بلاد «ماكان» (أوماغان) التي كانت تصدّر النحاس إلى أرض الرافدين يرجح أنها عُمان وما إليها.

٥ ـ إن مملكة دلمون كانت ملء السمع التجارية لمدة تزيد على ألفي سنة (٢٥٠٠ ـ ٥٠٠ ق.م.). فقد كانت منطقة واسعة. ولعل مدينة دلمون كانت تقوم في البحرين، وإليها عزيت الرقعة أو المملكة بكاملها.

٦ ـ يبدو أن سكان جنوب العراق من السومريين والبابليين كانوا في فجر التاريخ

يعتقدون أن الآلهة كانت تقضي الكثير من وقتها في دلمون حيث كانت تكثر المياه الحلوة والخضرة، وكان السكان لذلك يعتبرون دلمون أرضاً مقدسة.

٧ ـ كانت السفن، على ما يبدو، تحمل من بلاد السند الأخشاب والقطن والعاج والعقيق الأحمر واللازورد، كما كانت سفن «ماكان» (أوماغان) تحمل النحاس. وكل ذلك يمر بالبحرين وفيلكة في طريقه إلى بلاد الرافدين. ولعل كثيراً من هذه السفن كان في الواقع ملك أهل الخليج ومصنوعاً فيه.

يبدو من الدراسات المختلفة والمقارنة أن هذه التجارة العالمية (بين جنوب العراق والسند) أخذت بالتأخر بدءاً من حول سنة ٢٠٠٠ ق.م. لكنها اصيبت بضربة قوية لما قضي على المدينة السندية (حول سنة ١٦٠٠ق.م.) وانتهى أمرها بعد ذلك بنحو قرن. ومن هنا تعطلت السوق المورّدة إلى العراق، وتناقصت تجارة التزانزيت عبر الخليج العربي، وضعف مركز دلمون (البحرين؟) التجاري. ومع أن المنطقة عاد إليها نشاطها فيما بعد، إلا أن السند لم تكن طرفاً فيه. بل كان الأمر مرتبطاً بالجزء الشمالي من الخليج العربي. وعلى كل، فلم يكن النشاط التجاري على نحو ما كان عليه في العصور التي سبقت ذلك.

وفي إبان ازدهار دلمون ونشاطها كان لتجارها وكالات تجارية (حول سنة ٢٠٠٠ق.م.) في مدن جنوب العراق مثل لاغيش وأور.

وهكذا فقد نُفض الغبار عن بعض المواقع في الخليج العربي، فكان أن ظهرت حضارات الأقوام التي استوطنت أجزاءه من العصور الحجرية إلى قيام مدن ومدنية متقدمة نشيطة فعّالة.

وبذلك انتهى الوقت الذي كان الناس فيه يظنون أن أقطار الخليج العربي تاريخها ابن الأمس القريب. إن أصواتاً تسمع الآن واضحة، وصور الحياة أخذت تبين.

ومتى نشط الرفش والمعول والبحث ـ على أيدي أبناء البلاد أنفسهم في المستقبل القريب ـ ستتضح الصورة أكثر فأكثر، وتزداد الأصوات الآتية من الماضي البعيد قوة، وعندها يمكن أن يكتب التاريخ الصحيح.

إن الخطوة الأولى قد خطاها التاريخ وما تبقى فالوقت كفيل بإنجاحه.

٧ ـ علم الآثار والمدنية الصينية

كان الناس يعرفون الكثير عن أرض الرافدين ومصر لكن علم الآثار وسّع هذه المعرفة وعمقها. وكانت فينيقيا وفلسطين شيئاً حياً في نفوس الناس وعقولهم وقلوبهم، ولكن الرفش والمعول جسّد ما كان أسطورة أو خيالاً. أما بالنسبة إلى حوض نهر السند، فإن التنقيب الأثري وضع أمامنا صورة لحضارة لعلها لم تكن معروفة من قبل. فما الذي فعله علم الآثار والتنقيب الأثري بالنسبة إلى مدنية الصين القديمة؟

كان الرأي الشائع والمقبول عند المشتغلين بدراسة المدنيات القديمة من أهل الغرب، هو أن الصين لم تكن لها مدنية قبل القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد، وأنها لم تعرف فترة

«ما قبل التاريخ». أما بالنسبة إلى أهل الصين أنفسهم فقد كان تاريخهم مزيجاً من الخرافة والأسطورة وما ورد عندهم على أنه شبه تاريخ. فقد كانوا يقولون بخلق العالم، ثم كانوا يروون قصة طوفان أدى إلى تدمير هذا العالم، الذي أعاد تنظيمه نوا، الذي يعزى إليه خلق البشر. وعندهم بعد ذلك ملوك وأبطال أسطوريون ينتظمون ثلاثة ملوك وخمسة أباطرة، هم الذين اخترعوا المساكن والنار والزراعة والكتابة والنظم الاجتماعية والسياسية. ويتلو هذا كله ثلاث أسر هي التي تبدأ بها الفترة التاريخية. وقد كانت فلسفة كونفوشيوس، الذي توفي سنة ٤٧٩ ق.م. تقول بأن الصين كانت دوماً وحدة سياسية يحكمها أباطرة، وتخضع كلها لحاكم واحد في وقت واحد. وقد تكون هذه كلها خرافات أو أساطير، يمكن أن ينكرها ما ورد في كتاب وضعه كانغ سنة ٥٢ ق.م. روى فيه أن حكيماً شرقياً قال لأحد الملوك بأن الأدوات كانت أولاً تصنع من الحجارة وبها تقطع الأشجار وتبنى البيوت. وكانت هذه تدفن مع الموتى. ثم جاء وقت كانت هذه الأدوات تصنع من اليَشب، وهو الحجر المعروف بالجيد، وذلك لقطع الأشجار وبناء البيوت وحفر الأرض وكانت تدفن مع الموتى. وتلا ذلك زمن كانت الأدوات تصنع فيه من البرونز لحفر القني وبناء البيوت. وأما في أيامنا هذه فإن الأدوات تصنع من الحديد.

ما الذي غيّر الصورة التاريخية لحضارة الصين القديمة ومدنيتها بحيث أصبحنا الآن نتحدث عن عصر حجري حديث يشغل النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، ثم يتلو ذلك مدنية تمتد من حول سنة ٢١٠٠ إلى حول سنة ١١٠٠ ق.م؟

هذا هو الذي أظهره التنقيب الأثري في منطقة شانغ في الحوض الأوسط للنهر الأصفر. هذا العمل بدأ سنة ١٩٢١ على يد مهندس سويدي يدعى غونار أندرسون، الذي عرَّفنا إلى أول جماعة زراعية قروية لما قام بحفر مكانها في ولاية هونان. وخلال نصف القرن الذي تلا ذلك قام العلماء، الصينيون وغيرهم، بالتنقيب في أماكن مختلفة، فاتضح لهم أن حضارة زراعية كانت تقوم على إنتاج القمح، ولكن الذرة كانت تشغل حيزاً أكبر في حياة القوم. كما أنهم كانوا يقتنون الخنازير والأبقار والأغنام والكلاب والدجاج، ولعله كان عندهم خيول أيضاً. ووحدة الحياة عندهم كانت القرية. هذه الحياة كانت خلفيّة الحياة المدنية التي ظهرت فجأة حول سنة ٢٠٠٠ ق.م.

ولننتقل الآن إلى ما أظهرته الآثار من حياة المدن الصينية، التي تعتبر مدينة أنيانغ، وهي عاصمة متأخرة لشانغ، أفضل مثال لها. هذه المدن المكتظة بالسكان كانت تقوم على ضفاف الأنهار، وكانت الأنهار وسيلة الانتقال الرئيسة عندهم. كما كانت تدور بها الأسوار. وكان صنّاع هذه المدن يحفرون على الحجارة واليشب والعاج والعظام والصدف ويصنعون الخزف ويطعّمون الخشب ويتقنون صنع الحلي الذهبية ويصنعون أدوات وآلات حادة من النحاس والرصاص والبرونز. هذه كلها كانت متركزة في المدن، أما أهل الريف، الذين كانوا يتكاثرون بسرعة، فقد ظلوا زرّاعاً، وظلت لهم غلاتهم وحيواناتهم. ويجب أن نذكر عنايتهم بدود القز لإنتاج الحرير.

وقد كان مجتمع شانغ يقوم على استخدام المعادن. فأوعية الأكل والشرب والطبخ والخزن والآلات والأدوات كانت تصنع من البرونز. ومثل ذلك يقال في ما تزوّق به المركبات والخيول. ولعل أبرز الأوعية كانت تلك التي تستعمل لتقديم القرابين للآلهة وللأجداد. وقد وصفت صناعة البرونز في مدن شانغ بأنها من أبرز الفنون في العالم القديم. ومع أنها كانت ضيقة في مجال التعبير، فقد كانت تتميز بقوتها.

وكانت القطع البرونزية في غالبها منقوش عليها إما حادثة، كحرب أو معركة، أو اسم قبيلة أو أحد الأجداد، أو اسم الصانع. ولذلك فالنقوش كانت قصيرة، إلا أنها كانت توجد في أي مكان من الوعاء أو الأداة. ويجب أن نضيف إلى هذه النقوش نحو مئة ألف قطعة من العظم أو الصدف نقش عليها مثل ذلك، وإن كان الغالب على هذه القطع الأخيرة أنها كانت للاستخارة أو استطلاع المستقبل. إذا تذكرنا هذا لا نستغرب أن ينصرف ثلاثمائة من علماء الصين إلى التخصص في هذه النقوش فقط.

وقد كان مجتمع شانغ منظماً على أساس طبقتين: الأولى هي طبقة النبلاء المحاربين وهم الحكام، والثانية سكان القرى وهم الزارعون والفلاحون. وكان أهل شانغ يعبدون الأسلاف أي الأجداد بالإضافة إلى عدد من آلهة السماء أو معبودات تقطن الأرضين. وكانت لهم طقوس كثيرة متنوعة يقوم الكاهن أو الشامان على ضبطها وتنفيذها. وكانت الموسيقى والرقص يرافقان هذه الطقوس الدينية. وكان الطبل وقطع اليشب المنغمة والأجراس مما يستعمل مع الموسيقى والرقص. وكان لأهل مدينة شانغ كتابة مقطعية.

يتضح من هذا المقتضب أن مجتمع شانغ كان يشبه، في أمور كثيرة، مجتمع الممالك المدن التي قامت في الشرق الأدنى في العصر البرونزي. وقد أجمل وليم وطسون نواحي الشبه في الأمور التالية:

(١) ـ إن الملك كان يؤله بعد وفاته.

(٢) ـ إن الأسوار كانت تدور بالمدن.

(٣) ـ إن الحفر كان على الحجارة القاسية مثل اليشب، والنحت كان على شكل بسيط.

(٤) ـ كان التسلح أساسه المركبة والقوس.

(٥) ـ وجود الرق في المجتمعين، ولعل أكثر العبيد كانوا أسرى حرب أصلاً.

(٦) ـ أخيراً، إن نظام الكتابة في المجتمعين كان متشابهاً.

ذكرنا هذه الأمور لأننا نود الآن أن ننتقل إلى السؤال الذي يهتم به دارسو المدنيّة الصينية الأولى، وهو: هل معنى هذا التشابه أن المدنية الصينية أخذت عن سومر أو عن مصر أو عن السند مثلاً؟ يتحتم علينا أن نذّكر أنفسنا بأن مدنية سومر والمدنية المصرية سابقتان لمدنية شانغ كثيراً. أما مدنية السند فإن لم تكن سابقة في الزمن لمدنية شانغ الصينية، فهي معاصرة لها على أقل تقدير. ومن ثم فليس ما يمنع من أن يكون الاتصال بين الصين والشرق الأدنى قد حصل في تلك القرون الخوالي. وإذا كان اليونان والرومان عرفوا

الطريق الموصل إلى الصين للحصول على حريرها على الأقل، فليس ما يمنع أن يكون طريق الحرير قد استخدم في الألف الثالث ق.م. وكما كان الحرير ينقل من الشرق إلى الغرب فقد تنتقل الآراء والأفكار والبواعث من الغرب إلى الشرق.

والقضية التي يهتم بها العلماء هي قضية استخدام البرونز ومعرفة تصنيعه. ففي بلدان جنوب غرب آسيا وفي أوروبا، كان ثمة دور أولي بدائي لاستعمال البرونز في صنع الخناجر والمدى والفؤوس المسطحة قبل الانتقال إلى الصناعة البرونزية المعقدة. أما في الصين فلم تمر صناعة البرونز بمثل هذا الدور. إن الصانع للأدوات والأوعية والآلات البرونزية بدأ رأساً بصناعة معدنية مركبة. فمن أول الأمر تجده يصنع أوعية طقسية منمقة.

بعد هاتين الملحوظتين نعود لنلخص ما يقوله العلماء الأثريون في تفسير هذا التشابه والتوازي بين المدنيتين. إن العلماء الآن لا يقبلون رأياً سابقاً بأن جماعة من أهل الشرق الأدنى غزوا منطقة شانغ ونقلوا معهم ما عندهم إلى تلك الأصقاع. لكن ما يقبله الكثيرون هو أن معرفة تصنيع البرونز انتقلت تدريجاً من الشرق الأدنى إلى الشرق على أنها جرثومة المعرفة الفنية. لقد انتقلت مع عناصر ثقافية أخرى فكانت هذه كلها حافزاً على دفع حياة المدن في طريق أقوى.

لكن يظل هناك من يقول، والعلماء الصينيون أنفسهم يقولون ذلك، بأن هذا الذي وصل الصين من الغرب لم يلبث أن تقولب على الطريقة المحلية في شانغ. ومعنى هذا أن المدنية الصينية ظلت لها خصائصها وصفاتها الأصلية المميزة.

٨ ـ جذور مدنيّة أميركا

بعد أن استقر الأوروبيون، إسبانيون وغيرهم، في أميركا أخذوا أنفسهم بالتعرف إلى هذه المدنيات القديمة: أصولها وجذورها وتطورها وخصائصها. وكان العمل بادىء بدء تاريخياً أدبياً، لكنه منذ نحو ثلاثين سنة أخذ علماء الآثار ينضمون إلى الباحثين.

والذي عليه جمهرة الباحثين هو أن الإنسان وصل أميركا الوسطى قبل نحو ثلاثين ألف سنة. والمرجح أنه هبط العالم الجديد عن طريق مضيق بيرنغ وألاسكا من آسيا. وأن بعض المجتمعات الزراعية الأولى تطورت إلى حياة مدنية؛ وأنه قد يكون من المحتمل أن هذه الحضارات والمدنيات كان لها اتصال مع الخارج، الأمر الذي ساعدها على التقدم في مضمار المدنية.

بعد أن سار الباحثون في مدنيات أميركا على غرار المشتغلين بمدنيات الشرق الأدنى وأوروبا وحوض السند والنهر الأصفر، أي إن أولئك قبلوا تقسيم الحياة البشرية تاريخياً إلى العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث والعصر البرونزي والعصر الحديدي، عدل الباحثون الأميركيون عن هذا التقسيم لأنه لا ينطبق على مدنيات أميركا وثقافاتها. وأوجدوا لأنفسهم تقسيماً جديداً مبنياً على ما عندهم. على أن هذا التقسيم في واقع الأمر لا يهمنا هنا، لأننا نحن لا نتحدث عن المدنيات في فتراتها وعصورها، وإنما نتحدث عن الأصول التي

عرفتها أميركا أساساً للمدنيات التي وجدها الإسبان هناك.

يبدو أن الإنسان الأول في أميركا الوسطى، مثل الإنسان الأول في كل مكان، كان صيّاداً قناصاً بادىء بدء. ولعل هذا الدور استمر هناك إلى الألف السابع ق.م. عندما بدأ الإنسان يجمع غذاءه ويصطاد في الوقت نفسه. ولكن هذا الإنسان قضى وقتاً طويلاً حتى انتقل إلى الحياة الزراعية المنتظمة قرى ومجتمعات. ويرى البعض أن هذه الفترة استمرت، مع اختلاف بسيط بين مكان وآخر، خمسة آلاف سنة وانتهت حول سنة ١٠٠٠ق.م.

من القضايا التي شغلت الباحثين قضية الذرة الصفراء. إن الذرة الصفراء، وهي من نباتات العالم الجديد، كانت أساس الزراعة والغلات الزراعية في كل مدنية أو حضارة عرفت في أميركا الوسطى والجنوبية. ومع أنها توجد بشكل «مدجّن» في الحضارات الزراعية جميعها، فإنه لم يعثر على الذرة الصفراء بشكلها البري الأصلي. إذن فمن أين جاءت؟ كان من حسن الحظ أن عثر مؤخراً على شيء يوضح هذا الأمر. ذلك أن مكنيش يعمل منذ ١٩٦١ في تنقيب أثري في خمسة كهوف موجودة في وادي كان تيهو في جنوب المكسيك، بالإضافة إلى كهوف في أماكن أخرى. وقد ظهر له بوضوح أن الذرة دجنت في تلك المنطقة في أول الألف الخامس ق.م. ذلك بأن المواد الغذائية التي كان القوم يُطعمُونها، وخاصة الحبوب، عثر عليها في طبقات الأتربة المتراكمة في هذه الكهوف وبينها حبوب الذرة الصفراء البرية. وقد ظل بعض الناس يستعملون الذرة الصفراء البرية حتى بعد تدجينها، لأنها كانت متيسرة.

حدد مكنيش الأماكن التي ظهرت فيها الزراعة، على ضوء الآثار الموجودة، على أنها أربع وهي: أولاً، منطقة كان تيهو في جنوب المكسيك؛ ثانياً، منطقة في شمال شرق المكسيك على مقربة من خليج مكسيكو؛ ثالثاً، المنطقة الساحلية في شمال البيرو؛ رابعاً في جنوب غرب الولايات المتحدة في ولاية مكسيكو الجديدة. وقد اختلف تدجين الذرة الصفراء وغيرها بين منطقة وأخرى، ولكنه تم في المدة الواقعة بين سنة ٥٠٠٠ وسنة ٣٤٠٠ ق.م.

والانتقال إلى المجتمعات الزراعية وتطور القرى تمَّ في فترات مختلفة أيضاً. ففي البيرو كانت أيام التطور تمتد من القرن الثامن ق.م. إلى أيام المسيح. وكانت الزراعة هناك تعتمد على الري المنظم أيضاً. وبالإضافة إلى الذرة الصفراء وغيرها من النباتات زرع القوم البطاطا والفستق. وهذه القرى كانت مستقرة السكان مع ازديادهم، وغالباً ما كانت هذه القرى تقوم على القرب منها مراكز كبيرة حيث تبنى الهياكل على مصاطب. وكان الفخار المصنوع فيها جيداً، كما كان هناك الحفر على الحجارة. ويبدو أن بداءة بناء الأهرام في البيرو ترجع إلى ذلك الوقت.

والانتقال بعد ذلك إلى المدنية الكلاسيكية في البيرو يسير بحيث تظهر لهذه المدنية الخصائص التالية: (١) الأهرام تصبح أضخم، والقصور تصبح مركبة في بنائها. (٢) يبدو الفن هناك وله أبعاد ثلاثة أي يصبح الفن مجسّماً لا مسطحاً فحسب. (٣) تظهر المعادن الآن واضحة الاستعمال بما في ذلك البرونز والنحاس والذهب. (٤) النسيج يزداد إتقاناً وتنوّعاً.

(٥) إقامة أبنية ضخمة جميلة حجرية في الأجزاء المرتفعة. (٦) تجمع السكان، ولو أنهم ظلوا في قرى، حول الأهرام أو الهياكل.

فإذا نحن انتقلنا من البيرو إلى المكسيك، وجدنا أنفسنا أمام تطور معاصر زمناً. ذلك بأن المدنية التي كانت أيام الإسبان في هذه المنطقة كانت ترتكز على أسس أقدم، إذ هي جارة الأولمك وغيرهم. وإذا نحن اقتصرنا، رغبة في ضرب المثال فقط، على الأولمك لاستطعنا أن نضع إصبعنا على الأمور التالية: أولاً، إن حضارة الأولمك بدأت في القرن الثامن ق.م. ثانياً، إن فن الأولمك يبدو أفضل ما يبدو في الحفر في الحجارة الكبيرة. كما أتقن القوم صنع الأشياء الصغيرة من اليشب. ثالثاً، كانت هذه الأشياء محفور عليها كتابات تصويرية، وهذه هي بداءة الكتابة في الحضارات المكسيكية. وأقدم المتون الأدبية في المكسيك جاءتنا من حضارة الزابوت الذين كانوا يقطنون في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الأولمك.

إلى الشمال من مدينة المكسيك الحالية، وعلى بعد نحو أربعين كيلومتراً منها، تقوم آثار مدينة تيوتيهوكان، وهي أكبر مدينة في المكسيك جمعاء وتعود إلى عصر ما قبل كولمبوس. ومعنى الاسم «مدينة الآلهة». وقد كانت تغطي مساحة تزيد قليلاً على سبعة كيلومترات مربعة، وكانت مخططة على أساس شوارع متقاطعة، وكان فيها قصور كبيرة وهياكل مشهورة وهرمان ـ هرم الشمس وهرم القمر. وقد بلغ عدد سكانها، في عز ازدهارها، نحو مائة وعشرين ألفاً. وهرم الشمس فيها يبلغ طول قاعدته نحو ٢١٠ من الأمتار وارتفاعه نحو سبعين متراً. وكان يعلو قمته هيكل يغطيه سقف من القش.

مدنية المكسيك كانت ذات كتابة وأدب. وكان الكثير من السكان يملكون الكتب. أما المعادن فلم تكن معروفة قبل نحو سنة ٩٠٠ بعد الميلاد. وكانت الأدوات الحجرية هي المستعملة في إقامة هذه الأبنية الضخمة.

وحضارة المايا، في غواتيمالا ويوكاتان، المعاصرة لمدنيّة البيرو والمكسيك كانت تشبه ما سبق ووصفناه من تينك المدينتين. وقد قيل إن المايا كانوا، من الناحية الفنية، إغريق أميركا الوسطى.

كان للمايا كتابة صورية، وقد وصلتنا من آثارهم المكتوبة ثلاثة كتب على الأقل. ولكن هذه الكتابة، مثل غيرها من كتابات المنطقة، لم تحل رموزها بعد.

وحريّ بنا، في ختام هذا الحديث، أن نشير إلى بعض الفروق بين مدنيّات العالم القديم التي تحدثنا عنها قبلاً ومدنيات العالم الجديد. أول هذه الفروق هو أنه في أميركا كانت الأدوات من الخشب أو الحجارة، وقد كان لليشب دور كبير في ذلك. ويعود السبب إلى أن استعمال المعادن لم يكن قد بلغ الدور الذي بلغه في العالم القديم. والفرق الثاني هو أن مدنيات أميركا لم تعرف الدولاب ـ لا لصنع الفخار ولا للعربة. وثمة فرق آخر وهو أن الحيوان المدجّن في العالم القديم كان أكثر تنوعاً وأقوى، ولذلك فقد استعمل للنقل والجر.

أكثر الباحثين أكد على أن المدنية في أميركا نمت وتطورت مستقلة. ولكن هناك من

يرى بأن نفحة من العالم القديم وصلت إلى تلك الديار. ولكن كيف ومتى؟ ذلك أمر لا يزال في نطاق الأساطير.

٩ ـ بلاد المايا وحضارتها

تشمل المنطقة التي سنتحدث عنها هنا الوحدات السياسية التالية (في أميركا الوسطى)، هندوراس والسلفادور وغواتيمالا وبليز وقسماً كبيراً من المكسيك. يحدها البحر الكاريبي شرقاً والمحيط الهادي جنوباً وما تبقى من المكسيك غرباً وخليج المكسيك شمالاً.

هذه الرقعة من الأرض هي الآن واحدة من المناطق التي يقصدها رجال الآثار وعلماء الاجتماع ومهرة حل رموز الكتابات والألسنيون والأنتروبولوجيون وغيرهم من هذا النوع كي يكتشفوا إنجازات حضارة المايا وأسباب انقراضها المفاجىء.

هذه الحضارة بدت قوية منتظمة حول سنة ٢٥٠ للميلاد، وظلت تنتقل من إنجاز إلى إنجاز في نواح كثيرة من الحياة، ثم انقرضت فجأة سنة ٩٠٠ للميلاد. ومعنى هذا أنها لم تعمر سوى ستة قرون وبعض القرن.

وهذه الخلاصة التي نطلع بها على القراء الآن هي نتيجة لعمل قام به نحو خمسة عشر عالماً، بينهم رحّالان قاما بزيارة للمنطقة بين سنتي ١٨٣٩ و١٨٤١. كان الأول فناناً إنكليزياً هو فردرك كاترود والثاني محام ورحّالة أميركي هو جون لويد ستيفنز. وقد وضع هذ الاخير كتاباً عن زيارته لامريكا الوسطى وشيابا ويو كاتان. وقد اتضح فيما بعد أن هذا الرحالة اكتشف مدينة كوبان ؟؟؟ بارعاً في الكتابة، دقيقاً في الوصف بحيث أن كتابه انتشر انتشاراً كبيراً.

وأخذ الباحثون يهتمون بهذه الآثار، وأهم ما فيها هذه الأهرام التي أقامها شعب المايا في المدن.

جمع الرحّالون والعلماء والمكتشفون الكثير من الأماكن وتعرفوا إلى الكثير من معالم الحضارة هناك، بحيث إنه أصبح بإمكان ألفرد مودزلي أن يعد أول «كاتالوغ» جامع للمباني التي خلّفها السكان، وذلك سنة ١٨٩٠. وقد وقعنا على أسماء عدد من أهل العلم الذين انصرفوا إلى دراسة السكان والبلاد والحضارة. ونحن إكراماً لهم نود أن نضع أسماءهم هنا في ثبت، ونبيّن نواحي تخصص كل منهم، وبعد ذلك نتناول مجمل ما توصلوا إليه. فالذي نعنى به نحن هنا ما تم على أيدي المايا، ولماذا انقرضت حضارتهم، بقطع النظر عن المعلومة الواحدة التي توصل إليها أي من الباحثين.

والباحثون هم:

جورج ستيوارت الذي هو أركيولوجي يعمل في المجلة الجغرافية الأميركية الكبيرة «الجغرافية الوطنية».

آرثو ديميرست أستاذ الآثار في جامعة فندربلت (تنسي).

كارلوس نافاريت، وهو من كبار الأنتروبولوجيين في المكسيك.

ج. أريك تومسون وسلفانوس مورلي وهما من علماء معهد كارنغي في واشنطن.

الزوجان أرلن وديانا تشاس، وهما يدرسان الآثار في جامعة فلوريدا الوسطى.

من الطبيعي أن يغلب عدد رجال الآثار على غيرهم من أهل العلم، ولذلك فعندنا الآن ت. باتريك كلّبرت من علماء الآثار ومن جامعة أريزونا. ويليه، في الزمن لا في الأهمية، عالم الآثار فرنون سكاربره من جامعة سنسناتي في أوهايو. وثمة الخبير بالهيروغليفيات ستيفن هوستون من جامعة فندربلت أيضاً. والأنتروبولوجي ميشال كو (من جامعة بيل). وكانت لندا شيل تعلم الفن في جامعة ألاباما، لكنها في سنة ١٩٧٠ أخذت بالكتابة الهيروغليفية وانجذبت نحو هذه الحضارة الغريبة.

ومن الاختصاصيين في شؤون الكتابة الذي قضى أياماً طويلة يبحث هذه الهيروغليفيات ريتشارد لفنتال من جامعة كليفورنيا في حرم لوس أنجيليس.

هناك أمور كثيرة انصرف إليها العلماء والباحثون. زاروا الأهرام التي بناها ذلك الشعب، وبحثوا عن العظام التي لفظوها من طعامهم أو التي حفظتها القبور من موتاهم. وانصرف البعض مؤخراً إلى درس فضلات الطعام التي كان القوم يقذفون بها في حفر هنا وهناك. وتطلعوا إلى ما اجتث من الغابات وإلى ما بني من المدن وكيف رتبت. وتتبعوا نقص المياه وأيام العواصف الشديدة التي يمكن أن تعصف بالبلاد.

والذي يجب أن نذكّر القراء به هو أن النتائج التي توصلوا إليها ليست نهائية، ولعلها لن تصبح كذلك.

بلغ عدد المدن التي نقب عنها، نحو عشرين مدينة بين صغيرة وكبيرة. وأخذت آلاف الصور ورسم الكثير من الخرائط للبلاد والآثار.

وها نحن نضع بين يدي القارىء بعض ما توصلوا إليه:

١ ـ كانت قطع من الأرض يعتبرها المنقبون من الأرضين التي لا يمكن لأهل تلك البلاد أن يهتموا بها بسبب جفافها. لكن الباحثين وجدوا أنها سكنت في وقت من الأوقات.

٢ ـ يقول أحد الباحثين إن الذي بقي من آثار هؤلاء القوم لا يعدو الواحد بالمائة مما كان في هذا المناخ المداري.

٣ ـ قال اثنان من كبار أهل الآثار (قبل سنوات) إن أواسط المدينة لم تكن تستعمل للسكن، بل للاحتفالات الدينية، خاصة في مواسم معينة. لكن البحوث الجديدة أظهرت خطأهما.

٤ ـ كان يظن أن جماعة المايا كانت جماعة مسالمة. ولكن البحث الحديث أظهر أنها كانت محاربة وبشكل قاس عنيف.

٥ ـ يقسم البعض فترة التاريخ في تلك البلاد (أي من سنة ٢٥٠ إلى سنة ٩٠٠م) إلى دورين، تكون سنة ٧٦١ في هذه الحالة حداً فاصلاً بين الدورين. ولكن الكثيرين لا يرون ما

يؤيد هذا الرأي.

٦ ـ يذهب كثيرون إلى أن العامل الأساسي في القضاء على حضارة المايا كانت الحروب القاسية العنيفة التي كانت دارت رحاها بين المدن، وقد يقضى على المئات في المعركة الواحدة. هذا الرأي يقبله الكثيرون الآن، لأن آثار القتال والمعارك والحرب واضحة للعيان، أو لعلها أصبحت واضحة للعيان.

٧ ـ يرى أحد علماء الآثار أن الماء نقص بالنسبة لحاجات السكان، لذلك فقد الكثير من السكان بسبب العطش. وقد بنى رأيه على وجود نظام دقيق لحفظ ماء المطر. لكن متى يأتي من ينقض هذا الرأي؟ لعل هذا يتم قبل أن يصل هذا الكتاب إلى أيدي القراء.

الدراسات الحديثة للمايا وحضارتها وأسباب انقراضها، على ما لخصناه في هذه العجالة، فيها نموذج لما يمكن أن يتم على أيدي فئات مختلفة، تأتي من أماكن متباعدة، من العمل، الذي يحتاج بعض الوقت كي تستقر أموره.

على كل، هناك أمر جديد دخل في حلبة المناقشات. فعصرنا عصر متعدد الصفات من حيث القوى الطبيعية والصناعية، الخيّرة والشريرة، التي تؤثر فيه ـــ عصر الكهرباء، عصر الكمبيوتر، عصر الإنسان الأوتوماتيكي الخ.

لكن من الأمور التي أخذ العلماء يعنون بها، هي قضية البيئة. ومع أن دراسة البيئة في المايا قد تؤدي إلى تفسير أسباب الإنقراض، فالطريف أن بعض الباحثين في شؤون البيئة ينصرفون الآن إلى محاولة تعلم دروس من المايا قد تنفعنا في تحسين أمور البيئة عندنا!

١٠ ـ جذور المدنية القديمة وعلم الآثار

تناولنا في أحاديثنا السابقة تسع مدنيات قديمة، وقِدمها لم يكن دائماً بالنسبة إلى منطقتنا. فمدنيات أميركا، بالنسبة إلينا، حديثة العهد. لكن بالنسبة إلى ما حققته ذاتياً فهي قديمة. والمدنيات التسع منها أربع قامت في أحواض أنهار. فالمدنية السومرية قامت أصلاً في الجزء الجنوبي من أرض الرافدين ثم انتقلت إلى شماله بعد أن أصيبت تربة الجنوب بالرواسب الملحية الشديدة. والمدنية المصرية القديمة هي مدنية النيل، وفي واديه قامت وترعرعت وآتت أكلها. والمدنية السندية، كان حوض نهر السند موطنها ومستقرها. وهكذا كانت المدنية الصينية الأولى؛ إذ إن نشوءها وتطورها تما في الجزء الأوسط من حوض النهر الأصفر. واثنتان من المدنيات التي تحدثنا عنها قامتا في منطقة تغلب الجبال عليها وفيها سهول قليلة نسبياً، إلاّ أنها تقع على البحر، وهما مدنية الفينيقيين ومدنية فلسطين. ومع أن هاتين المدنيتين لم تقوما حول نهر فإن المنطقة التي ظهرتا فيها هي منطقة معتدلة الأمطار والمناخ. وهناك ثلاث مدنيات في أميركا الوسطى والجنوبية قامت في أجزاء من البلاد تنزل فيها الأمطار بكثرة أو باعتدال، وبعض أجزائها مرتفع مثل البيرو، وبعضها، مثل سواحل خليج المكسيك تقع على مستوى سطح البحر وتتمتع بحرارة كبيرة. وهناك مدنيات أخرى لم نتحدث عنها لأن المجال لم يتسع لها، مثل مدنية العالم الإيجي وغيرها.

وارتباط بعض المدنيات الهامة بالأنهار وأحواضها حمل الباحثين على القول بأن المدنية هي أصلاً نهرية. وهذا صحيح فيما يتعلق بالحياة البدائية وقيام الزراعة، بحيث انتقل الإنسان من الصيد والقنص، سبيلاً للحصول على غذائه، إلى تدجين النباتات والحيوانات، فزرع الأولى موسميّاً وربى الثانية وحسن أنواعها. ولكن ثمة مناطق كثيرة في العالم ذات أنهار وفيها أقوام عرفت الزراعة لكنها لم تنتقل إلى المدنية: أي إلى أن تكون لها مدن وصناعات ومهن متنوعة ومتعاون عليها، ودولة تنظم هذه الشؤون، ومراكز عبادة ذات طقوس معروفة وكتابة. وإذن فمع أن النهر يؤدي إلى قيام الزراعة، وقد يؤدي إلى نشوء القرية ولكنه لا يؤدي حتماً إلى نشوء المدنية ونظمها ومتطلباتها. إذن لا بد من وجود عامل آخر.

وإذا انتقلنا من المدنيات النهرية إلى مدنيتي فينيقية وفلسطين وجدنا أن الموقع الجغرافي كان له أثر في قيام المدنية في هاتين المنطقتين. فوقوعهما بين أرض الرافدين ووادي النيل جعلهما تتأثران بما عند هؤلاء وأولئك. ويبدو هذا في الكثير من نواحي الحياة المدنية، إن في الدين أو في الفن أو في الصناعة، وإن كان لا يبدو أثر ذلك في الزراعة مثلاً. ذلك أن الزراعة النهرية القائمة على نوع خاص من الري في أرض الرافدين ووادي النيل لم تكن تصلح لبلاد جبالها كثيرة وبعضها مرتفع، وسهولها صغيرة وقليلة نسبياً، وبعضها لا يعدو كونه جيوباً ساحلية، والأنهار فيها، بالنسبة إلى الفرات ودجلة والنيل، تكاد تكون أسماء على غير مسمّى. فضلاً عن أن بعض الأماكن في فلسطين وفينيقيا عرفت الحبوب ودجنتها قبل مصر. فمثلاً كان القمح نباتاً مدجناً في أريحا في الألف السابع قبل الميلاد.

ومدنيات أميركا التي تحدّثنا عنها كانت لها أصول زراعية وتدجين للنبات الرئيسي فيها، أي الذرة الصفراء، تعود إلى أيام بعيدة في تاريخها.

ودراسة المدنيات القديمة، لا في أدوارها البدائية صيداً ورعاية، ولا في حياتها الزراعية، زرعاً وسكنى قرية، ولكن في سكناها المدن وخلقها المنظمات المدنية ــ دراسة هذه المدنية حملت المشتغلين بالموضوع، عبر العقود الماضية، على وضع نظريات مختلفة. وهذه النظريات، بهذه المناسبة، لا تتناول العلة الأولى، لكنها تبحث في العوامل الفعّالة التي أنتجت تلك المدنيات.

جاء وقت كانت معرفة علم الآثار بمصر تفوق غيرها؛ ومصر لها في نفوس الناس منزلة كبرى. لذلك جاء من يقول بأن المدنية ظهرت مرة واحدة في العالم؛ ظهرت في مصر أول ما ظهرت؛ وكل مدنية أخرى في العالم قامت بتأثير مصر، إما نتيجة لحرب وفتح أو لهجرة واسعة المدى أو لنقل لهذه المدنية هدف مقصود مخطط له. وكان جورج أليوت سميث وزميله و.ج. بري في مقدمة الداعين إلى هذه الفكرة. وقد أتيح لكاتب هذا المقال أن يستمع إلى محاضرات «بري» حول الموضوع التي كان يلقيها بحماسة كبيرة بحيث كان يخشى الواحد منا أن تصيبه العدوى. ولما أصبح بإمكان الناس أن يعرفوا، عن طريق التنقيب والبحث الأثريين، أن مدنية سومر هي أقدم من مدنية مصر، انتقل رقاص الساعة إلى تلك الجهة. فقد ظل القول

بأن المدنية ظهرت في العالم مرة واحدة فقط، وأن مهدها كان سومر، وأن كل مدنية في العالم إنما جاءت من هناك. وقد كانت الوسائل ذاتها التي استعملت لتوضيح الأصل الفرعوني لمدنية العالم هي التي استخدمت لتوضيح الأصل السومري لها، وكان رغلان في طليعة القائلين بذلك.

ولكن، مع أنه لا يزال هناك من يردد إحدى النغمتين، فإن النظرية القائلة بوحدة أصل المدنيات كلها حتماً قد تعدّاها البحث الأثري والتفكير التاريخي. ذلك بأنه إذا كان باستطاعة الإنسان البدائي الأول أن يصنع أدواته من الحجارة وأن يكتشف الزراعة والنار وصنع الفخار، وأن يستخدم الدولاب في ذلك، وبهذا ينتقل إلى الحياة الزراعية القروية، فليس ثمة ما يمنع هذا الإنسان أن ينتقل إلى المدينة، فتتسع مراكز سكناه، وتنتظم شؤونه وتتوحد دولته أو دوله وتتخذ عبادته طقوساً معينة ويهتدي إلى اختراع الكتابة. وإذن فليس ما يمنع، منطقياً، من أن تقوم المدنيات في أماكن متعددة وتنشط في سيرها فتخلف لنا آداباً دينية ولوحات وآجرات تجارية أو نقوشاً حربية أو قرابينية.

لكن الذي يلفت الباحثين هو وجود أوجه من التشابه، بين المدنيات القديمة، قد لا تكون كلها وليدة المصادفة. فوجود الأختام الاسطوانية السومرية في مصر، والشبه الموجود في البناء بين البلدين وبعض نواح من الكتابة، تحمل الباحثين على التساؤل: لماذا هذا موجود؟ ومثل ذلك يقال عن شيء من الشبه بين مدنية سومر ومدنية حوض السند، وإن كان ثمة فروق كبيرة أيضاً. ووجود الأشياء المتشابهة هو الذي يدفع بالباحثين إلى تفسير لذلك! ولا ينسى هؤلاء بأن الإنسان نفسه هو العامل الأول في قيام المدنية. ويبدو أن الإنسان الذي عاش في سومر في تلك الأزمنة القديمة نقل نفسه من القرية إلى المدينة، لسبب لا ندريه تماماً، ولكن لا بد من أن نقول عنه إنه مرتبط بنفسية ذلك الإنسان في وقت معين. أما بالنسبة إلى الأماكن الأخرى، فإن الذين يقولون بتأثير سومر في مصر والسند فيفسرون ذلك بغزوة حربية أو هجرة عدد كبير من الناس. لكن علم الآثار، كما يمكن الحكم عليه وله الآن، لا يقبل مثل ذلك. فالغزوات الحربية والهجرات الكثيرة العدد معروفة شؤونها إلى درجة كبيرة، لكنها لا تعود إلى ذلك الوقت ـ الألف الرابع قبل الميلاد. فإذا كان ثمة تأثير فلا بد من أنه جاء نتيجة اتصالات فردية مستمرة بسبب الاتجار مثلاً، أو عن طريق أفراد ذوي دفع وزخم خاصين.

ويجب أن لا ننسى قط أن الأفكار لها أجنحة، والأفكار كان لها أجنحة عند الإنسان القديم، كما لها أجنحة اليوم. لكن أجنحتها القديمة كانت أضعف وأقل، إلا أن ذلك لا يقلل من أهميتها. وليس من الصعب أن تنتقل الأفكار والصور من مكان إلى آخر على أيدي فئات قليلة باستمرار، أو على أيدي أفراد ذوي تأثير خاص. والواقع أننا عندما نتدبر أمر الأساطير القديمة نجد، في أحيان كثيرة، تفسيراً ولا نلبث أن نعثر على ما يؤيده في التاريخ والآثار. ألم تكن ثمة أسطورة تقول بأن قدموس هو الذي نقل الكتابة إلى الغرب؟ ألم يظل ذلك شيئاً يتدرَّرُ به المحدثون والكتّاب حتى جاء التاريخ وعلم الآثار فقالا لنا إن الكتابة انتقلت من الفينيقيين

إلى اليونان!

ولعل وصول الإنسان إلى أميركا، وخلقه حضارة زراعية ومدنية هناك، كانا السبب في وضع نظريات لتفسير ذلك، أكثرها، إن لم تكن كلها، أغرب من الخيال! فهل ثمة قوم أو شعب لم يحاول أن ينسب إلى نفسه كشف أميركا أو نقل المدنية لها أو كلا الأمرين معاً! وإن كان ثمة فئة لم تفعل ذلك فقد قام أفرادها بالاهتمام بذلك والتنويه به وإثباته.

ولكن الزراعة في أميركا الوسطى والجنوبية أصيلة والمدنية هناك وطنية. وقد تكون الأفكار المجنّحة وصلت حتى إلى تلك المناطق ـ إما عبر المحيط الهادي أو عبر المحيط الأطلسي، والطريق الأول هو الأرجح حظاً.

القسم الثاني
في البحار الشرقية

١ ـ دليل البحر الأرِثري

إن التجارة البحرية بين حوض السند وأرض الرافدين قديمة العهد، ومع أننا لا ننوي أن نعالج هذا الموضوع بتفصيل، فإننا نرى من الضروري أن نشير إلى ذلك لارتباط هذه القضية بالموضوع الذي ننوي أن نبحثه. والذي نعرفه هو أن السفن كانت تحمل من بلاد السند إلى أرض الرافدين الأخشاب والقطن والعاج والعقيق الأحمر واللازورد. وكانت موانىء الخليج العربي وعمان هي المحطات التي ترسو فيها السفن ويريح فيها البحارة في انتقالهم بين المنطقتين، خاصة وأن السفن كانت تسير دوماً محاذية للشواطىء، لأنها لم تكن كبيرة بحيث يمكنها أن تمخر عباب البحر. وهذه التجارة وقفت حول سنة ١٥٠٠ق.م. بسبب انهيار المدنية السندية. على أن عُمان (ماجان) ظلت مصدراً رئيساً للنحاس الذي كانت المدن السومرية بحاجة ماسة إليه. ولعل البحرين الحالية (دلمون؟) كانت أكبر الموانىء على الطريق السندي العراقي.

وكانت ثمة علاقات تجارية قديمة بين مصر وبلاد بونت (بون)، وهذه العلاقات تعود إلى حول سنة ٢٠٠٠ق.م. ومع أن هذه العلاقات توقفت نحو خمسة قرون، فقد عادت، وبشكل أقوى، في القرن الخامس عشر، أيام الملكة حتشبسوت على ما نعرفه من النقوش التي خلّفتها على جدر الدير البحري في طيبة القديمة. وقد كان البخور والطيوب والعاج من أهم المتاجر التي نقلت من بلاد بونت. والباحثون يكادون يتفقون الآن على أن بونت كانت تشمل المناطق العربية والأفريقية الواقعة عند مخرج باب المندب. ولعل جزيرة سوقطرى كانت داخلة في هذا أيضاً.

وبسبب اضطراب أمور مصر في القرن الحادي عشر ق.م. فقد انتقلت تجارة البحر الأحمر وما يليه خارج باب المندب، إلى الفينيقيين الذين سيطروا على الطرق فيه وإليه. فقد كانت السفن تصنع، في القرن العاشر ق.م، في تل الخُلَيْفة (وهي التي يذكرها الجغرافيون العرب باسم أيلة)، وكان التجار ينقلون إلى مصر، ثم عبر البر إلى موانىء فينيقية وغيرها، الذهب والفضة والطيوب والحجارة الكريمة وخشب الصندل والعاج الأفريقي والقرود والبخور والطواويس. وقد ورد اسم أوفير على أنها المنطقة التي كان هؤلاء التجار الفينيقيون يحملون بعض هذه المتاجر منها. لكن العلماء لم يتفقوا بعد على موضع أوفير هذه. والسلع المذكورة كان بعضها يأتي من الهند؛ والمرجح أن موانىء جنوب الجزيرة العربية، وأهمها عدن وقنا (بير علي أو حصن الغراب)، كانت محطات لهذه السلع، وأن الذين كانوا ينقلون المتاجر الهندية هم الملاحون العرب.

وحريّ بالذكر أن البخور بصنفيه، اللبان والمر، كان ينتج في جنوب الجزيرة في منطقة

حضرموت ـ ظفار، كما كان نوع من المر ينتج في منطقة الصومال أيضاً. وينقل هذا كله عبر البحر الأحمر إلى مصر وما بعدها، كما كان يحمل براً إلى الشمال عبر الحجاز إلى بلاد الشام، وشمالاً في شرق إلى بلاد الرافدين.

ظلت التجارة البحرية الهندية الأفريقية في أيدي العرب بعد انحسار النفوذ الفينيقي عن البحر الأحمر، وأثناء قيام الامبراطوريات الآشورية والكلدانية والفارسية، لأن هذه جميعها كانت امبراطوريات برية، فكانت عنايتها بالطرق البرية، عبر أواسط آسيا والهند، أكبر من عنايتها بالطرق البحرية.

على أنه يجب أن نذكر أن داريوس الفارسي أرسل، حول السنة ٥١٠ ق.م، بحاراً يونانياً ليكتشف الطريق البحري من مصب نهر السند إلى مصر حول الجزيرة العربية. وقد احتاج هذا البحار، واسمه سكيلاكس، سنتين ونصف السنة حتى قطع المسافة من مكان على مقربة من ميناء أتوك الحديثة إلى مدينة أرزينوي على مقربة من السويس الحالية) في مصر.

ولما أتم الإسكندر فتح ما فتح من البلاد الشرقية واعتزم العودة إلى بابل، أرسل أمير البحر نيارخوس، برفقة أسطول كبير، من نهر السند إلى شمال الخليج العربي ليتعرف إلى الطريق البحري. ووصل نيارخوس بعد ١٤٦ يوماً في الطريق (٣٢٥ق.م.) ودوّن أخبار رحلته، التي نقل أكثرها أريان، مؤرخ الإسكندر، فيما بعد، فوصلت إلينا بتفاصيلها.

وقد بعث الإسكندر بثلاث بعثات أخرى من جنوب بلاد الرافدين للتعرف إلى الشواطىء الغربية للخليج العربي، فوصلت أولاها البحرين، والثانية يبدو أنها وصلت أبو ظبي، أما الثالثة فيبدو أنها بلغت الأجزاء الشمالية من عمان.

توزع خلفاء الإسكندر امبراطوريته، فكانت مصر للبطالمة وكانت بلاد الرافدين وبلاد الشام للسلاجقة. وقد عني البطالمة بتجارة البحر الأحمر وما بعده، كما اهتموا بالكشف عن شواطئه. وقد كانت لهم تجارة نشطة، كما كان بطليموس الأول يأمل في أن يكوّن علاقات تجارية مع الهند مباشرة. ومن هنا كان اهتمامه بإقامة موانىء على شواطىء البحر الأحمر المصرية. وقد تم للبطالمة في أيامه وأيام خلفائه إنشاء أرزينوي (قرب السويس) ومايوس هرموس (أبو سمر) ولوكس ليمن (القصير) وبرينتشي وأدوليس (عدولي).

ومع كل ما بذله البطالمة في محاولتهم للاتصال المباشر مع الهند، فإنهم لم يتمكنوا من ذلك. وظلت التجارة البحرية الهندية وقفاً على التجار والملاحين العرب.

ومع اضطراب أمور البطالمة في مصر في القرن الأول ق.م. الأمر الذي انتهى بهم إلى أن تحتل روما مصر، فقد ظلت هناك تجارة فيها نشاط. وقد وصل التجار اليونانيون المتوطنون في مصر إلى سوقطرى. ويبدو أن بطليموس الحادي عشر (٨٠ ـ ٥١ ق.م.) أرسل إلى تلك الجزيرة معمرين يونانيين للإقامة الدائمة هناك. وقد ظل هؤلاء إلى ما بعد الفتح العربي الإسلامي.

ولعل أهم ما تم اكتشافه في القرن الأول ق.م. هو التعرف إلى مهاب الرياح الموسمية

وارتباط ذلك بالطرق البحرية. وقد تم هذا على يد ملاّح وتاجر يوناني اسمه هيبالوس. بعد هذا الاكتشاف أخذت السفن، وقد أصبحت أضخم وأقوى، تمخر عباب اليم الهندي من دون أن تضطر إلى محاذاة الشاطىء. وأصبح الجدول الزمني لتنقل السفن على النحو التالي: تغادر السفينة الميناء المصري في شهر تموز/ يوليو فتخرج من البحر الأحمر في أوائل شهر آب/ أغسطس، وعندها تدفع بها الرياح الموسمية الصيفية من واحد من الموانىء التالية ـ من قنا أو عدن أو رأس غواردفوى إلى ساحل ملبار (غرب الهند) أو إلى جزيرة سيلان (سري لارنكة) فتصل في نحو الأربعين يوماً. وفي الشتاء تعود مستفيدة من الرياح الشتوية. وقد تضطر إلى قضاء بعض الوقت في قنا أو عدن ـ ذهاباً وإياباً ـ لتبادل السلع والمتاجر.

وكان قيام الامبراطورية الرومانية في القرن الأول ق.م. (وقد ضمت بين ٧٠ و٨٠ مليوناً من السكان) إيذاناً بازدياد الطلب على البضائع الشرقية ـــ العربية كالبخور والطيوب والأفريقية كالعاج والفيلة، والهندية كالتوابل والأفاويه والحجارة الكريمة ـــ ومن ثم بازدياد النشاط التجاري[١].

الجغرافيون الكلاسيكيون[٢]

كان للجغرافيين والمؤرخين اليونان والرومان اهتمام بالمحيط الهندي وشطآنه. وقد تباينت أخبارهم ورواياتهم ومعرفتهم بحسب التطور الذي كان يصيب البلاد المختلفة من حيث الاتصال بين الشعوب أو الفتوح الكبيرة. فعلى سبيل المثال كانت فتوح الإسكندر مجالاً لهؤلاء الكتّاب للتعرف إلى مناطق واسعة في الشرق، كما أن قيام الامبراطورية الرومانية يسّر للكتّاب التنقل رحّالة وتجاراً وزائرين. ولسنا نعتزم هنا أن نتحدث عن هؤلاء المؤلفين جميعهم، فذلك أمر خارج عن نطاق البحث. ولكن هناك فئة صغيرة منهم كانت تعاصر، إلى درجة ما، مؤلف دليل البحر الأرثري، الذي سيكون موضوع هذه الدراسة. ومن ثم فقد رأينا أن نشير إلى أفرادها إذ إننا قد نفيد من بعض ما أوردوه لتوضيح مسائل نعرض لها.

وأول من نريد أن نشير إليه هو سترابون صاحب «الجغرافيا» الذي عاش في أواخر القرن الأول ق.م. وأوائل القرن الأول بعده. ويبدو من الأحداث التي أشار إليها أن آخر ما كتبه يعود إلى سنة ١٨م. وقد جمع سترابون معلوماته من الجغرافيين اليونانيين الذين سبقوه ونظمها وأضاف إليها ما وصل إليه علمه. والنقطة التي انطلق منها هي أن «الجزء المعمور من الأرض» هو مسرح للتاريخ. ومن ثم فقد كان مؤلفه، الواقع في ١٧ كتاباً، ينحو في اتجاه الوصف للبلدان. وقد خصّ أوروبا بثمانية كتب وآسيا بستة وأفريقيا بكتاب واحد. وما تبقى كان مقدمات وعرضاً للمصادر التي استقى منها. وكتاب سترابون لم يعرفه معاصروه، ولا الذين جاءوا بعده لمدة طويلة. وظل نسياً منسياً إلى أيام الدولة البزنطية.

ويلي سترابون زمنياً بومبونيوس ميلا الذي وضع كتابه حول سنة ٤٣م. وهو كتاب مختصر مقتضب. نقل فيه معلوماته ممن سبقه. وكانت عنايته بالأمور الغريبة من عادات وحيوانات وما إلى ذلك. والباحثون يجمعون على أن الفائدة التي جناها القراء من كتابه قليلة.

وكتاب «دليل البحر الأرثري» وضع في أواسط القرن الأول للميلاد، والمرجح أن ذلك تم بين سنة ٥٠ و٨٠م. ولن نتحدث عنه هنا لأنه بيت القصيد في هذه الدراسة، فلنتركه إلى حينه.

وقد كان من كتّاب القرن الأول الميلادي واحد من كبار أهل المعرفة هو بليني. وكتابه، المعروف باسم «التاريخ الطبيعي» أولى أن يسمى «تاريخ الطبيعة». توفي بليني سنة ٧٩م. إذ اقترب أكثر من اللازم إلى بركان فيزوف الذي كان ثائراً، فراح ضحية محاولته التعرف إلى هذا الهيجان وعلى الحمم التي كان يقذفها.

كتاب بليني هو موسوعة عامة عن الطبيعة وما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد. والمؤلَّف المكون من ٣٧ كتاباً يخص الجغرافيا منه أربعة كتب (٣ ـ ٦). لكن عندما يتحدث بليني عن الحيوانات والنباتات وخصائصها والسلع وأنواعها فإنه يقدم لنا دراسات لها مساس كبير بالجغرافيا بالذات. وبسبب أن بليني كتب في القرن الأول للميلاد، وهو الذي بلغت فيه الامبراطورية أقصى اتساع لها (باستثناء فتوحات محدودة تمت بعد أيامه) فقد جاء كتابه يلخص المعرفة التي كان باستطاعة مؤلف نشيط طلعة بحاثة أن يحصل عليها.

وفي أوائل القرن الثاني للميلاد وضع مارينوس الصوري كتابه في الجغرافيا. وقد ضاع الكتاب. لكن بطليموس الجغرافي الكبير نقل عنه الكثير، بحيث إنه كان باستطاعة الباحثين أن يحصلوا على الكثير من مادته الجغرافية، ويحكموا عليها حكماً صحيحاً. فالرجل كانت له خطة صحيحة وكان قادراً على تخليص السمين من الغث في المعرفة الجغرافية.

وبطليموس الذي عاش في أواسط القرن الثاني في الإسكندرية كان فلكياً في الدرجة الأولى، وكان همه أن يضع خارطة للجزء المسكون من العالم. ومثل كل الذين اهتموا برسم خارطة عالمية كان بحاجة إلى تعيين المواقع على خطوط الطول والعرض لينطلق منها إلى مهمته الأساسية. ولما كانت إمكاناته للرصد محدودة نسبياً، فقد لجأ إلى الذين سبقوه من الجغرافيين، اليونان والرومان على السواء، ليأخذ عنهم المقاييس والمسافات. ومن هنا كان اعتماده على كتاب مارينوس؛ وقد نقده نقداً عنيفاً في أحيان كثيرة، ولو أن بعض الباحثين المحدثين لا يقرونه على كل ما أثار حول معلومات مارينوس الصوري من نقد.

ذكرنا هؤلاء لأننا سنحتاج إليهم في التعليق على «دليل البحر الأرثري».

دليل البحر الأرثري[٣]

هذا الكتاب مجهول اسم مؤلفه. والمتفق عليه أنه من وضع تاجر يوناني كان يعيش في مصر، ولعله من أبناء الإسكندرية. وتم وضعه بين سنة ٥٠م و٨٠م. صحيح أن هناك من يجعل تاريخ التأليف في القرن الأول ق.م. وهناك من ينقل الزمن إلى القرن الثاني للميلاد، ولكن إجماعاً يكاد يكون تاماً بين المحدثين من دارسي «الدليل» على أنه وضع في الفترة التي أشرنا إليها. وإذن فهو من معاصري بليني.

وكلمة بربليس periplus تعني رحلة أو دورة. وقد استعملت هذه الكلمة كثيراً عند

الجغرافيين والمؤرخين والرحالين. فسكيلاكس الذي بعث به داريوس الفارسي وضع بربليس. وأريان مؤرخ الإسكندر له بربليس البحر الأسود. وهذا الدليل الذي بين أيدينا ليس قصة رحلة اكتشاف على نحو ما فعل نيار خوس الذي بعث به الإسكندر للتعرف إلى الطريق من حوض السند إلى أرض الرافدين. إنه دليل وضعه تاجر خبير بالمنطقة لإرشاد التجار والملاحين.

وكلمة أرثري erythraean يونانية معناها الأحمر. ومع أن هناك بحراً هو البحر الأحمر، فالكلمة اليونانية لم يكن يقصد بها ذلك البحر في تلك الأزمنة إذ إن البحر الأحمر كان يسمى، عند الكثرة من الجغرافيين الكلاسيكيين، حتى بعد أيام هذا المؤلف المجهول، خليج العرب أو الخليج العربي Sinus Arabicus. فالكلمة اليونانية أرثري كانت تعني، في العهد الذي نتحدث عنه، القسم الشمالي من المحيط الهندي وأجزاءه ومتفرعاته، بما في ذلك البحر العربي وبحر الزنج وخليج عمان والخليج العربي والبحر الأحمر. وقد فضلنا استعمال الكلمة اليونانية معربة، كما فضلنا كلمة «دليل» على رحلة أو دورة، لأنها على طبيعة الكتاب أدلّ وإلى المقصود منه أقرب. ومن هنا استعملنا «دليل البحر الأرثري».

والكتيب مؤلف من ٦٦ فصلاً قصيراً، ومجموع صفحاته في الترجمة الإنكليزية التي نعتمدها ٢٨ صفحة. والكتاب يدل على أن مؤلفه كان تاجراً مجرّباً خبيراً. فهو يضع في كتابه نتيجة هذه الخبرة والتجربة باختصار تام، دون أن يعنى بأسلوب الكتابة، إذ إنه لم يكن ممن حصل على قدر كبير من الثقافة المعاصرة له.

يقدم لنا الكتاب ـ الدليل وصفاً جغرافياً لشواطىء البحر الأحمر وأفريقيا فيما وراء باب المندب، إلى حيث عرفها الناس يومئذ، وشواطىء الجزيرة العربية الجنوبية والجزء الغربي من الهند إلى آخر حدود ملابار. ويعنى بالموانىء ـ والميناء في نظره ما وجد فيه مكان لرسو السفن التي تصح لتوقف السفن فيها والقيام بتجارة محدودة فيها. ويفصّل السلع المختلفة ـ المستوردة والمصدرة ـ ويقدم لنا إشارات هامة إلى المراكز الداخلية التي قد تغذي الموانىء بالسلع أو تبتاع سلعها من الموانىء.

يعدد صاحب الدليل ثمانية وعشرين ميناء هاماً موزعة على النحو التالي: البحر الأحمر (مصر) ٢؛ أفريقيا ما وراء باب المندب (بما في ذلك شرق أفريقيا) ٩؛ بلاد العرب (بما في ذلك شواطىء البحر (الأحمر) ٦؛ الخليج العربي ٢؛ ساحل مكران ١؛ الهند ٧؛ الصين ١.

وأوصاف الموانىء صحيحة في غالب الأحيان، وثمة تعليقات قيّمة وإشارات مفيدة بالرغم من صغر حجم الكتاب. فالمؤلف يذكر أن الطريق البري من أدوليس (عدولي) على الساحل الأفريقي إلى عطبرة ثم شمالاً إلى مصر هو أفضل من الطريق الشمالي من القصير إلى الداخل، لأن الأول فيه كلأ وماء، أما الثاني فيمر في أرض تكاد تكون قاحلة. ومن ذلك وصفه الدقيق لنهر السند والأخطار التي يتعرض لها الملاحون بسبب كثرة فروع النهر المؤدية إلى البحر وتواتر المد والجزر في تلك الجهات.

ونحن عندما نذكر أن بليني تحدث عن الطريق إلى الهند فإننا يجب أن نتذكر أنه حصل

على معلوماته من رحلة واحدة قام بها أحد الرحالة من قبل. ومع أن بطليموس كتب بعد صاحب الدليل بمدة، فإن التفاصيل التي أوردها الجغرافي الكبير ليست موضع ثقة إلى الدرجة التي أوردها صاحب الدليل. وليس ثمة من شك في أن «الدليل»، من حيث إفاداته الجغرافية، هو أصدق وثيقة وصلت إلينا من أي من الكتّاب القدامى.

والذي نود أن نفعله هنا هو أن ننقل الفصول التي تحدث فيها صاحب «الدليل» عن بلاد العرب وموانئها وسلعها وبضائعها من الإنكليزية إلى العربية، ثم نعلق عليها بما يساعدنا على تفهمها والإفادة منها للتعرف إلى تجارة الجزيرة في القرن الأول للميلاد.

والفصول المقصودة هي من ١٩ إلى ٣٦، أما الفصول السابقة (١ ـ ١٨) فتعنى بالشاطىء المصري للبحر الأحمر والشاطىء الأفريقي، كما أن الفصول اللاحقة (٣٧ ـ ٦٦) تتناول موانىء غرب الهند معرفة مباشرة، وإشارات نقلت سماعاً عن موانىء إلى الشرق منها.

الجزيرة العربية في دليل البحر الأرثري[٤]

[ترجمة للفصول ١٩ ـ ٣٦]

(فصل ١٩) والآن إلى جهة اليسار من برينتشي [خليج أم الكتف] وعلى بعد يومين أو ثلاثة أيام بحراً من ميناء موسِّل [ميوس هرموس = أبو سُمَر] وإلى الشرق منها عبر الخليج المجاور لها (البحر الأحمر) يقع ميناء آخر ومكان محصن، وهو المسمى القرية البيضاء [لوكي كومي = الحوراء]، والتي يمتد منها طريق إلى البتراء التي هي تحت حكم مليخاس، ملك الأنباط. وهذه (القرية البيضاء) هي سوق للسفن الصغيرة التي تأتيها من العربية؛ ومن ثم فهناك كنتوريون (قائد مائة) يقيم باستمرار ليحصل على المتاجر المستوردة ربع قيمتها. وهناك قوة مسلحة تقوم بدور الحامية.

(فصل ٢٠) إلى الجنوب مباشرة من هذا المكان تجاوره بلاد العرب، التي تمتد مسافة طويلة على شواطىء البحر الأرثري. وهذه البلاد تقطنها قبائل متباينة التي تختلف في كلامها، اختلافاً جزئياً في بعض الحالات، واختلافاً تاماً في البعض الآخر. والأرض المحاذية للبحر تتقطها هنا وهناك مغاور يقيم فيها أولئك الذين يقتاتون بالسمك. لكن الأجزاء الداخلية فيها جماعات خبيثة، تتكلم لغتين، وتقطن القرى (أي مستقرة) وبعضها يعيش في المضارب (البدو). فإذا وقع هؤلاء على الملاحين الذين يخرجون عن خط السير في وسط البحر (الأحمر) نهبوا ما معهم وأخذوا الناجين منهم رقيقاً. كما يتعرضون هم بالذات إلى الوقوع أسرى في أيدي زعماء بلاد العرب وملوكها. وهؤلاء يطلق عليهم اسم القرنائين (نسبة إلى قرناو عاصمة دولة معين). والملاحة خطرة على طول هذا الساحل من بلاد العرب الذي لا موانىء فيه وحتى الأماكن التي ترسو السفن فيها سيئة ويصعب الوصول إليها بسبب الأمواج العاتية والصخور الناتئة. فهو شاطىء مزعج من كل ناحية. ومن ثم فإننا نسير دائماً على مساق في وسط الخليج (البحر الأحمر) ونسرع في سيرنا في مقابل بلاد العرب إلى أن نصل إلى الجزيرة المحروقة؛ إذ جنوبيها مباشرة تقع مناطق يقطنها قوم مسالمون وهم بدو ورعاة أبقار وأغنام وجمال.

(فصل ٢١) بعد هذه الأماكن، وعلى الجهة اليسرى من هذا الخليج (البحر الأحمر)، يقع على الشاطىء مكان يسمى مُوزا (مُخا). وهي مدينة سوق، بحسب القانون، وتبعد عن برنيتشي نحو اثنتي عشرة ألف ستاديا، للمبحرين في اتجاه الجنوب. والمكان مزدحم بأصحاب السفن من العرب والملاحين، ويعمل الناس كثيراً في أمور التجارة. إذ إنهم يتاجرون مع الساحل البعيد ومع باريغازا (بُرُواخ في ساحل الهند الغربي)، ويبعثون بسفنهم الخاصة بهم إلى هناك.

(الفصل ٢٢) وعلى بعد مسيرة ثلاثة أيام إلى الداخل من هذا الميناء تقوم مدينة ساوا (أو سافا = سوا) في وسط منطقة تسمى مافاريتيس. وهناك زعيم ـ تابع اسمه كولاييوس يعيش في تلك المدينة.

(فصل ٢٣) وعلى مسيرة تسعة أيام أخرى تقوم سفار [ظفار] العاصمة حيث يقيم كاريبال الملك الشرعي لقبيلتي الهومريين والسبأيين المتجاورتين. وهو صديق للأباطرة بسبب توالي السفارات والهدايا.

(فصل ٢٤) ليس في المدينة ـ السوق موزا ميناء، لكن فيها مرسى للسفن، وبسبب الأرض الرملية في المرسى فإن مراسي السفن تعلق في الأرض جيداً. والسلع التي تصل إليها (موزا) تتألف من الأقمشة الأرجوانية الناعم منها والخشن، والثياب العادي منها والمطرز والمذهب، والزعفران ونبات السعادى الحلو وقماش الموسلين والبرود والحرامات (ليست بكثرة) بعضها عادي والبعض الآخر مصنوع على الطريقة المحلية؛ والأوشحة المنوعة الألوان والدهونات (أو المراهم) المعطرة بكميات معتدلة، والخمر والقمح، ليس كثيراً. ذلك بأن البلاد تنتج كميات معتدلة من القمح وكميات كبيرة من الخمر. وتهدى إلى الملك والزعيم الخيول والبغال القوية والأواني المصنوعة من الذهب ومن الفضة الصقيلة والأقمشة الرفيعة الحياكة والأواني النحاسية. ومن المكان ذاته تصدّر الأشياء التي تنتجها البلاد: المر الجيد و«الستاكتا» الجبانية المعينية، والمرمر وجميع الأشياء التي مر ذكرها من افاليتس (زيلع) والشاطىء البعيد. والسفر إلى هذا المكان أفضله ما وقع في شهر أيلول٩٣ سبتمبر أي توت (الاسم مصري قديم). إلا أنه ليس ثمة ما ينفع من القيام بالرحلة قبل ذلك.

(فصل ٢٥) بعد مسيرة نحو ثلاثمائة ستاديا عن هذا المكان يقترب الساحل العربي من الساحل البربري (الأفريقي) عند الخليج الافاليتي بحيث يتكون هناك قنال، ليس بالطويل، الذي تتجمع فيه مياه البحر بحيث تصبح مضيقاً ضيقاً طوله ستون ستاديا وتقسمه جزيرة ديودوروس قسمين. ومن ثم فإن الملاحة فيه تتعرض لتيارات عنيفة ورياح عاتية تهب عليه من سلسلة الجبال المصاقبة له. وعلى شاطىء في هذا المضيق تقوم قرية للعرب، تابعة للزعيم نفسه، تسمى أوكليس (عدو لي؟). وليست هذه مدينة ـ سوق بل هي مرسى ومكان للتزود بالماء، وهي أول مكان يمكن أن تقف فيه السفن القاصدة الخليج (البحر الأحمر).

(فصل٢٦) فيما وراء أوكليس يتسع البحر ثانية نحو الشرق بحيث ينبسط المحيط الفسيح. وبعد نحو ألف ومائتي ستاديا هناك العربية اليوديمونية، وهي قرية على الشاطىء

تقع أيضاً في ملك كاريبال، ولها مرسى مريح وأماكن للتزود بالماء الذي هو أعذب من ماء أوكليس وأفضل. وتقع هذه على مدخل خليج تنحسر المياه عنه. وقد سميت يوديمون لأن المدينة في أيامها الخوالي، قبل أن يتم السفر (المباشر) من الهند إلى مصر، وقبل أن يجرؤ الملاحون على الإبحار من مصر إلى الموانىء الواقعة عبر المحيط (مباشرة)، بل كان الجميع يجتمعون في هذا المكان، كانت تتجمع فيها جميع السلع من البلدين، كما هي الحال بالنسبة للإسكندرية في زماننا، إذ إن هذه تصلها الأشياء التي تبتاع من الخارج ومن مصر. ولكن قبل مدة ليست بعيدة عن زمننا خرّب كاريبال هذا المكان.

(فصل ٢٧) بعد العربية اليوديمونية يمتد ساحل طويل وخليج على طول ألفي ستاديا، ويقطن هذا الساحل بدو، وجماعات من أكلة السمك تقيم في قرى. وبعد الرأس البري الذي يبرز من الخليج تقوم على الشاطىء، مدينة ـ سوق أخرى اسمها كانا [قنا]، وهي من مملكة إليازوس بلاد البخور. وتقع قبالتها جزيرتان قاحلتان تسمى إحداهما جزيرة الطيور والأخرى جزيرة القبة. وإلى الداخل من كانا تقع العاصمة شباثا [شبوه] حيث يقيم الملك. وكل ما ينتج من البخور في البلاد يحمل إلى ذلك المكان على الجمال حيث يخزن، كما ينقل إلى كانا على أطواف مشدودة بالقِرَب الجلدية المملوءة هواء، على طريقة أهل البلاد، وفي القوارب. وهذا المكان (كانا) له أيضاً تجارة مع موانىء الشط البعيد ومع بريغازا وسكيثيا وأومّانا والشاطىء الفارسي القريب من هذه.

(فصل ٢٨) وإلى هذا المكان يرد من مصر بعض القمح والخمر كما هو الحال في موزا؛ والثياب العربية النمط البسيط منها والعادي والمزيف؛ والنحاس والقصدير والمرجان والاصطرك وأشياء أخرى مثل تلك التي تحمل إلى موزا. ويحمل إلى الملك عادة الذهب المشغول وصحاف الفضة، وكذلك الخيول والتماثيل والثياب الرفيعة الصنعة والنوع. ويصدر من هذا المكان المنتوجات المحلية وهي البخور والألوَّة (الصبرة المرة) وبقية الأشياء التي تُتبادل تجارياً في الموانىء الأخرى. وخير وقت للإبحار إلى هذا المكان هو الوقت ذاته الذي يبحر فيه إلى موزا، أو قبل ذلك بقليل.

(فصل ٢٩) فيما وراء كانا ينحسر البر كثيراً ويلي ذلك خليج عميق جداً، يشغل مسافة طويلة، ويسمى خليج الساشاليت؛ وبلاد البخور وهي جبلية وتستعصي على الزائر، تلفها الغيوم والضباب، وهي التي تنتج البخور من الأشجار الموجودة فيها. والأشجار التي تنتج البخور ليست بالطويلة أو الضخمة؛ والبخور يتقطر منها على لحائها، كما يحدث بالنسبة إلى الشجرة التي تسقط صمغها دمعاً في مصر. ويقوم بجمع البخور عبيد الملك وأولئك الذين يبعثون لهذا العمل عقوبة لهم. إذ إن هذه الأماكن ليست صحية كما أنها موبوءة وحتى بالنسبة إلى أولئك الذين يبحرون في محاذاة الساحل. إلا أنها بالنسبة إلى الذين يعملون هناك تكاد تكون قاتلة. وقد يقضون بسبب نقص الطعام أيضاً.

(فصل ٣٠) وعلى هذا الخليج يوجد رأس بري ضخم جداً اسمه سياغروس [رأس

فرتك] والذي تقوم عليه قلعة للدفاع عن البلاد. وهناك ميناء ومخازن للبخور الذي يجمع. ومقابل هذا الرأس توجد جزيرة في عرض البحر، تقع بينه وبين رأس التوابل (غردافوي) المقابل، إلا أنها أقرب إلى رأس فرتك. واسم الجزيرة هو ديوسكوريدا [سوقطرى] وهي كبيرة إلا أنها صحراوية باستثناء مناطق المستنقعات فيها حيث توجد أنهار تعيش فيها تماسيح وأفاع كثيرة وعظايا ضخمة التي تؤكل لحومها ويطاب دهنها لاستعماله بدل زيت الزيتون. ولا تنتج الجزيرة لا حبوباً ولا خمراً. وسكانها قلائل ويقطنون في الساحل الشمالي الذي يواجه القارة. وهم أجانب عن الجزيرة، إذ إنهم خليط من العرب والهنود واليونان، الذين كانوا قد هاجروا إليها للاتجار هناك. ويوجد فيها السلاحف البحرية الحقيقية والسلاحف البرية والسلاحف الجبلية، وهذه أضخمها وغلافها أثخن من غلاف غيرها؛ ومنها نماذج لا تساوي شيئاً لأنها لا يمكن قطعها من الأسفل بسبب صلابتها وقسوتها. ولكن النماذج ذات القيمة تقطع ويصنع من أغلفتها أصفاط أو علب للحلي وأطباق صغيرة وصحون للحلويات ومثل ذلك من الآنية. وتنتج الجزيرة أيضاً دم الأخوين المسمى الهندي، وهو الذي يجمع نقطاً تتحدر من الشجرة.

(فصل ٣١) وكما أن أزانيا تابعة لكاريبال وزعيم المفاريتيس، فإن هذه الجزيرة (سوقطرى) تابعة لملك بلاد البخور. وبعض التجارة هناك يقوم بها قوم من موزا، كما يقوم بها بعض أولئك الذين يصادف أن يمروا بها من داميريكا وباريغازا؛ إنهم يحملون إليها الأرز والقمح والقماش الهندي وبعض الإماء؛ ويبادلون هذه السلع بكمية كبيرة من الذَبَل. والجزيرة تقوم فيها حامية.

(فصل ٣٢) بعد رأس فرتك مباشرة ينفتح خليج عمان في الساحل انفتاحاً كبيراً بحيث يبلغ عرضه ستمائة ستاديا؛ ووراء ذلك تقوم جبال عالية صخرية وشديدة الانحدار تمتد خمسمائة ستاديا ويقطنها سكان المغاور ويلي ذلك ميناء مهيئة (أو مخصصة) لتقبل البخور من شاساليت ويسمى الميناء موشا. وترسو السفن فيه من كانا بانتظام. كما أن السفن العائدة من داميريكا وباريغازا، إذا وصلت متأخرة، فإنها تشتو هناك، وتتاجر مع موظفي الملك. فيعطي التجار ما معهم من القماش والقمح والسيرج مقابل البخور، الذي توجد منه أكوام في جميع أنحاء بلاد الشاساليت. وهذه الأكوام مكشوفة وليس ثمة حراس عليها، كما لو أن المكان كان في حماية الآلهة؛ إذ لا يمكن لأي من هذا البخور أن يحمل إلى ظهر المركب، لا علانية ولا سرقة، إلا بإذن الملك. فإذا حملت منها حبة واحدة دون هذا الإذن، لن يسمح للسفينة أن تخرج من الميناء.

(فصل٣٣) بين موشا وأزيك، وعلى مسافة تقرب من ألف وخمسمائة ستاديا، توازي الشاطىء سلسلة من الجبال. وفي نهايتها تقوم سبع جزائر على صف واحد هي المسماة زنوبيا [كوريا موريا]. وبعد ذلك تأتي منطقة موحشة وهي ليست جزءاً من المملكة ذاتها، وتخضع الآن لفارس، وإذا سرت نحو ألفي ستاديا محاذياً لهذا الساحل من جزر زنوبيا، ممعناً

في البحر، وصلت إلى جزيرة اسمها سارابيس، التي تبعد عن البر الأصلي نحو مائة وعشرين ستاديا. ويبلغ عرضها نحو مائتي ستاديا وطولها نحو ستمائة ستاديا. ويقطن سكان هذه الجزيرة في ثلاث مستوطنات وهم من أكلة السمك ولكنهم خبثاء. ويستعملون اللغة العربية ويتمنطقون بأحزمة مصنوعة من سعف النخيل. وفي هذه الجزيرة الكثير من الذَبَل من الصنف الجيد وفيها قوارب شراعية صغيرة وسفن للبضائع التي ترسل إلى كانا بانتظام.

(فصل ٣٤) والإبحار على طول الساحل، الذي يتجه نحو مدخل بحر فارس (الخليج العربي) يوصلنا إلى عدد من الجزر التي يطلق عليها اسم كالاي والمنتشرة على الشاطىء؛ وهي على بعد نحو ألفي ستاديا. والسكان مخاتلون وحظهم من المدنية قليل.

(فصل ٣٥) في النهاية لجزر كالاي توجد سلسلة من الجبال اسمها كالون، ويلي ذلك، على مسافة قصيرة، مدخل الخليج الفارسي، حيث يكثر الغطس على اللؤلؤ. إلى الجهة اليسرى من المضيق تقوم جبال عظيمة تسمى أسابون، وفي الجهة اليمنى يبدو واضح المعالم، جبل عالٍ اسمه سميراميس. وفيما بينهما يكون الممر عبر المضيق نحو ستمائة ستاديا؛ وفيما وراء ذلك يمتد ذلك البحر الكبير العريض، الخليج الفارسي، إلى مسافة بعيدة في الداخل. وفي نهايته تقوم مدينة ـ سوق مقررة قانوناً اسمها أبولوغوس [الأُبلَّة] الواقعة على مقربة من شاراكس سبازيني ونهر الفرات.

(فصل ٣٦) وإذا أبحرت عبر مدخل الخليج مسيرة ستة أيام فهناك مدينة ـ سوق أخرى في فارس (أو لفارس) اسمها أومّانا. وإلى هاتين المدينتين ـ السوقين (بولوغوس وأومّانا) تأتي سفن من باريغازا بانتظام، محملة بالنحاس وخشب الصندل وخشب التيك وأخشاب الساج والأبنوس. ويحمل البخور من كانا إلى أومّانا. ومن كل من هاتين المدينتين ـ السوقين يصدر إلى الهند، وإلى بلاد العرب أيضاً، الكثير من اللؤلؤ لكنه لا يضاهي اللؤلؤ الهندي. كما يحمل القماش الأرجواني، والثياب المصنوعة هناك على زي البلاد، والخمر وكميات كبيرة من التمر والذهب والرقيق.

تعليقات

نود، قبل أن نضع التعليقات اللازمة لهذا النص المترجم، أن نلخص ما جاء في الفصول الأولى (١ ـ ١٨) من الدليل لارتباط الكثير مما ورد فيها بالتجارة المتصلة بالجزيرة العربية. فالموانىء التجارية الواقعة على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر هي، من الشمال إلى الجنوب: ميوس هرموس (رأس أبو سُمَر) وبرنيتشي (خليج أم الكتف) وبطولمايوس (جزيرة الريح) وأدوليس (عدولي أو زولا). وبرنيتشي ظلت الميناء الرئيس للاتجار مع الموانىء العربية. أما بطولمايوس فكانت المركز الرئيس للحصول على الفيلة الأفريقية. وكانت أدوليس تتجمع فيها غلات السودان وأثيوبيا، فضلاً عن الكثير من المصنوعات المصرية، وأهمها القماش والزجاج. كما كان يصل إليها النحاس الأصفر والأحمر والخمور وزيت الزيتون من اللاذقية وإيطاليا، وكذلك الحديد والفولاذ من الهند، والعاج والذَبَل وقرن وحيد القرن. وأكثر ما يرد

إليها كان يُصدر.

وكانت المدن الواقعة في شرق أفريقيا، بعد الخروج من باب المندب، هي أفاليتس (المرجح أنها زيلع الحديثة) ومالاو (بربرة) التي كانت تصدر المر والقرفة والرقيق والعاج، وموسلوم (رأس هنتره؟). ويلي ذلك أوبون (رأس هافون) سوق الرقيق والذَبل (من أفريقيا) والأرز والدهن الهندي والسيرج والأقطان والسكر (من الهند). وكانت هذه أكبر موانىء أفريقيا الواقعة إلى جنوب رأس غودفري. وآخر ميناء يذكره صاحب الدليل هو رايتا (لعلها كِلْوة). وهذه كانت تستورد الرماح من موزا (مخَا) كما كانت تستورد كميات كبيرة من حرابها وسيوفها. أما صادراتها فكانت العاج والذَبل وقرن وحيد القرن وزيت النخيل.

وثمة أمر آخر حري بأن يذكر وهو أن الستاديا الوارد ذكرها في قياس المسافات البحرية تعادل عشر الميل أو سدس الكيلومتر.

والتعليقات التي نوردها هنا سنشير فيها إلى الفصول المترجمة من الدليل (أي ١٩ ـ ٣٦)

الفصل ١٩

١ ـ مليخاس: هو ابن الحارث الرابع ملك الأنباط (٩ ق.م. إلى ٤٠م) واسمه مليكوس أو مالك.

٢ ـ السفن الصغيرة: كانت سياسة البطالمة التجارية تقوم على تشجيع الاتصال المباشر مع الهند والتحرر من السيطرة اليمنية بشكل خاص. وكانت السفن المصرية كبيرة. لكن السفن التي كانت تحمل المتاجر من موزا (مُخَا) إلى لوكي كومي (الحوراء) صغيرة نسبياً. ومن هذا الميناء كانت البضائع تنقل براً إلى البتراء.

وبهذه المناسبة فإن أغسطوس قيصر كان يخشى أيضاً منافسة اليمنيين في التجارة البحرية، ولذلك فقد أرسل حملة بقيادة اليوس غايوس سنة ٢٥ق.م. لاحتلال بلاد السبئيين كما كانت تعرف. لكن الحملة فشلت.

لكن الذي نتج عن سياسة البطالمة والرومان في محاولتهم السيطرة على تجارة البحر الأحمر البحرية، هو أن الطرق البرية من اليمن إلى البتراء، عبر الحجاز، نشطت كثيراً. وكان في ذلك خير كثير للبتراء، التي ظل الرومان (مثل السلاقسة قبلهم) يتحينون الفرص للاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك في أيام تراجان، ولكن تجارتها استمرت إلى أواخر القرن الثاني للميلاد.

٣ ـ كنتوريون (قائد مائة) الذي كان يتقاضى ربع المتاجر في الحوراء كان يقوم بعمله نيابة عن ملك البتراء. وكذلك كانت الحامية من هناك. لكن صاحب الدليل استعمل كلمة لاتينية مألوفة. فالموظف لم يكن رومانياً.

الفصل ٢٠

٤ ـ لعله من المناسب أن نذّكر أنفسنا بالدول العربية التي قامت في جنوب الجزيرة

العربية، إذ إن ذلك ييسر لنا متابعة صاحب الدليل. ففي حول سنة ١١٥ق.م. كانت دولتا معين (في الجوف وعاصمتها قَرْناو وهي خربة معين اليوم) وسبأ التي تمركزت حول سبأ أولاً، ثم اتسع سلطانها بحيث شمل جنوب غرب الجزيرة بأجمعه تقريباً) قد انتهى أمرهما. أما دولة قَتَبان (بين منطقتي عدن وحضرموت وكانت عاصمتها تَمْنَع وهي حجر كحلان اليوم) قد بلغت ذروة عظمتها في القرن الأول ق.م. والمعروف أن هذه الدولة صكت نقوداً ذهبية حول سنة ٥٠ ق.م. وقد قضت دولة حضرموت (وعاصمتها شَبْوة) على دولة قتبان في أواخر القرن الأول ق.م. والدولة التي كانت معاصرة لزمن صاحب الدليل هي حمير التي قامت أصلاً حول ظفار في اليمن، ولم تلبث أن ضمت دولتي سبأ ومعين إليها. فكانت أوسع دول الجنوب نفوذاً. ومع ذلك فقد ظل عدد كبير من الجغرافيين الكلاسيكيين يذكرون سبأ وكأنها دولة لا تزال قائمة.

٥ ـ كانت السفن فعلاً تتعرض للهجوم من البر إذا اقتربت منه؛ وكان هذا يحدث في أيام القحط والمجاعات. ويبدو أن صاحب الدليل سمع بعض هذه الأخبار فعمم القول.

٦ ـ الجزيرة المحروقة هي جزيرة الطير في الأجزاء الجنوبية من البحر الأحمر (٣٥ درجة و١٥ دقيقة) شمالاً و٤١ درجة و٥٠ دقيقة شرقاً).

الفصل ٢١

٧ ـ موزا (مُخا): يستعمل صاحب الدليل الاسم لمكانين متقاربين هما موزا المدينة ـ السوق ومَسَالا الميناء. ومن المهم أن موزا لم يكن يُرحب تجارها بالسفن الأجنبية، بل كانت لهم سفنهم التي يبعثون بها إلى الموانىء المختلفة لنقل المتاجر إليها وإحضار السلع منها. فالسفن الهندية، مثلاً، كانت تفرغ متاجرها في أوكيلس وتنقل هذه السلع إلى موزا[٥]. وكان يترتب على الرعايا الرومان أن يبذلوا الكثير من الهدايا النفيسة إلى أصحاب الأمر كي يسمح لهم بالاتجار في أسواق موزا.

الفصل ٢٢

٨ ـ مفاريتيس: هي المنطقة التي كانت تقطنها قبيلة المعافر، وتقع في جنوب تهامة.

٩ ـ ساوا: كان يظن من قبل أنها تعز، ولكن اليوم تقبل على أنها سوا.

١٠ ـ كولايبوس: كليب.

الفصل ٢٣

١١ ـ كاريبال: هو كريبا إيل[٦] (وتر يوهانعيم) الذي كان معاصراً للأباطرة كلوديوس، وكليغولا وكلوديوس.. ويبدو أن علاقته مع أباطرة روما كانت طيبة، فكانت الهدايا متبادلة، وعلى الأخص من جانب الرومان.

١٢ ـ القبيلتان المتجاورتان: هما حمير وسبأ، وكانتا تحت إمرة سلطة واحدة.

الفصل ٢٤

١٣ ـ الزعفران[٧]: كانت زهرته تستعمل في كثير من الأمور في تلك الأزمنة ـ في صنع العقاقير، وفي الدهان أو الصباغة، ولتطييب الطعام، وفي صناعة العطور والمراهم (الدهونات). ويقول بليني إن الزعفران يمزج بالماء أو بالخمر، فضلاً عن فوائده الطبية

الكثيرة التي يعددها.

١٤ ـ نبات السعادي الحلو (وقد يكون المقصود البردي، إذ ثمة خلاف حول الكلمة اليونانية الأصلية). فإذا كان الأول هو المقصود فقد كان يستعمل في صنع العقاقير وفي تطييب الطعام. أما إذا كان الثاني فقد كانت وجوه استعماله كثيرة منها صنع ورق البردي والحبال وأشرعة السفن والأقمشة وما إلى ذلك.

١٥ ـ كانت الدهونات[٨] (المراهم) تستعمل للتجميل، فضلاً عن الأنواع الطبية منها. والأولى منها كانت تدخل فيها العطور والطيوب. ومن الأصماغ التي كانت تستعمل في النوعين، التجميلي والطبي، صمغ اسمه ستاكتا، وكان يجمع كثيراً على أيدي جماعات من أهل تلك البلاد.

١٦ ـ ولأن أجود أنواع الآنية لحفظ المراهم هي المصنوعة من المرمر، فقد كان من الطبيعي أن تروج صناعتها في المنطقة ذاتها التي يكثر فيها المرمر، وأن يكون الطلب على هذه الآنية متسقاً مع الاتجار بالمراهم بالذات.

١٧ ـ مر بنا قبلاً أفاليتسس هي زيلع.

الفصل ٢٥

١٨ ـ جزيرة ديودوروس هي جزيرة بريم.

١٩ ـ أوكيلس من المرجح أن يكون هذا الميناء قد بني إلى الشمال من رأس الشيخ سعيد الذي يفصله قنال ضيق عن جزيرة بريم. وسواء أكانت السفن الهندية يطلب منها أن لا تتجاوزه إلى موزا، أو أنها كانت تقف فيه وتنهي رحلتها عنده لأنه أيسر لها، فالمهم أن أوكيلس كانت تختص بالسلع الهندية. وقد تكون سلا الحديثة هي أوكيلس القديمة.

الفصل ٢٦

٢٠ ـ العربية اليوديمونية: هي عدن. وقد كانت الميناء الرئيس في أيام معين وسبأ، لكن دولة حمير لم تعن بها العناية الكافية فتأخرت.

٢١ ـ وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أن ظفار وموزا كانت لهما مصلحة مشتركة في إضعاف عدن، فلا نستبعد أن يكون الأمر قد وصل بكاريبال إلى مهاجمة عدن وتدميرها، ليخلو الجو لأهل موزا.

الفصل ٢٧

٢٢ ـ كانا ـ قنا عند الجغرافيين العرب، هي بير علي على مقربة من حصن الغراب. كان البخور الظفاري والحضرمي يجمع في ثلاثة مراكز ـ ظفار وشبوة وقنا (وهذه كانت تصل إليها الطرق البحرية).

ومن هذه الأماكن كانت تنطلق ثلاثة طرق برية رئيسة (غير الطريق البحري من قنا) إلى مأرب حاملة البخور ـ وخاصة اللبان وهو أجود الأنواع ـ حيث ينقل من هناك إلى الشمال.

٢٣ ـ اليازوس: اليازوس هذا هو إيل عَزّ[٩] ملك حضرموت (حول سنة ٥٠ للميلاد).

٢٤ ـ الشاطىء الفارسي: التعبير جغرافياً خطأ، كما أنه غير دقيق تاريخياً. فالمنطقة الممتدة من جزر كوريا موريا إلى رأس الحد كانت قد وقعت تحت حكم الدولة الفرتية. ولكن هذه المناطق البعيدة عن العاصمة كان لها نوع من الإدارة الذاتية. هذا من الناحية التاريخية. وقد اعتبر صاحب الدليل المنطقة «ساحلاً فارسياً»، وهنا الخطأ الجغرافي الكبير. فالبلاد، عمان وما جاورها، كانت يومها جزءاً من ساحل الجزيرة العربية الجنوبي ولا تزال.

الفصل ٢٨

٢٥ ـ التماثيل الوارد ذكرها في هذا الفصل هي تماثيل صغيرة للآلهة وكانت تستعمل في العبادة المنزلية.

٢٦ ـ أهمية كانا (قنا) التجارية تعود إلى تنوع المتاجر التي كانت تصل إليها للتبادل، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد.

٢٦ أ ـ كان المرجان مرغوباً في الهند والصين؛ وكان من أهم صادرات الأمبراطورية الرومانية.

٢٧ ب ـ الأصطرك storax مزيج من عصارات الأشجار العطرية يغلى حتى يعقد أو يصبح أجزاء صلبة. واستعماله كان طبياً وعطرياً.

٢٨ ـ الألوَّة أو الصبرة المرة؛ نبتة كان إنتاجها خاصاً بسوقطرى، لكن كانا كانت تحتكر تجارته.

الفصل ٢٩

٢٩ ـ من الأخطاء التي كانت شائعة عند الجغرافيين القدامى اعتقادهم بوجود خليج كبير بين رأس الكلب وراس حاسك، وأن رأس فرتك (سياغروس) يقسم الخليج إلى قسمين. وقد ظلت هذه الغلطة تظهر على الخرائط وفي الأوصاف الجغرافية المتناقلة حتى العصر الحديث، لما مسح الساحل الجنوبي من الجزيرة العربية.

٣٠ ـ يرجح أن ساشاليت هي الشِحّر، وقد كان اللبان الشحري (الذكر) يباع بأسعار أفضل من غيره.

٣١ ـ كان اهتمام الجغرافيين الكلاسيكيين بوصف شجرة البخور ـ اللبان في جنوب الجزيرة بشكل خاص، والمر على اختلاف أماكن نموه في جنوب الجزيرة وبلاد الصومال ـ كبيراً. ومن هؤلاء هيرودتس المؤرخ الجغرافي الأنتروبولوجي، وبليني[١٠] وغيرهما.

الفصل ٣٠

٣٢ ـ ديوسكورديا: هي بلا شك جزيرة سوقطرى وسكان الجزيرة، كما يقول صاحب الدليل، منهم يونان وهؤلاء، على ما يبدو، أرسلوا تجاراً ومعمرين وحراساً للمصالح المصرية ـ البطلومية. وقد اعتنق هؤلاء المسيحية فيما بعد، واستمروا على ذلك إلى أيام المسعودي.

٣٣ ـ جزيرة سوقطرى كانت فيها حامية ضد الفرتيين والحميريين.

٣٤ ـ سوقطرى كانت تنتج «دم الأخوين»، الذي كان يستعمل، كما يبدو، في التحضيرات الطبية. كما كانت فيها أنواع السلاحف الذي تجهز التجار بغلافها (الدَبل) الذي كان يستعمل

في صنع الكثير من الأدوات.

الفصل ٣٢

٣٥ ـ موشا هي خور ريري. والذي يجب أن نذكره هو أن الفرتيين كانوا يستولون على المنطقة الواقعة من راس حاسك إلى جنوب الخليج العربي. أما ما وقع إلى الغرب من راس حاسك فهو لحضرموت ـ بلاداً أو دولة.

الفصل ٣٣

٣٦ ـ لعل تسمية الجزائر زنوبيا مشتقة من بني جناب.

٣٧ ـ جزيرة سارابيس هي جزيرة مِصيرة.

٣٨ ـ أزيك هو رأس حاسك.

٣٩ ـ لم يكن باستطاعة صاحب الدليل أن يصل إلى المناطق الواقعة بعد جزر كوريا موريا، وذلك لأن الاحتلال الفرتي كان حديث العهد، وكانت الخصومات الرومانية الفرتية حادة. وقد كانت غايته الوصول إلى الهند، لذلك فإنه لم يتعرف شخصياً إلى المناطق التي يذكرها في الفصول ٣٣ إلى ٣٦. بل نقل ما سمعه عن رواة آخرين. لذلك فإن إشارته إلى المنطقة الموحشة أو المتوحشة هي سماعية ولا تعني الدقة في الرواية.

الفصل ٣٤

٤٠ ـ جزر كالاي هي جزر ديمانيات، التي تقع إلى الشمال الغربي من مسقط[١١].

الفصل ٣٥

٤١ ـ جبل أو جبال كالون هي الجبال المحيطة بقلهات[١٢]. وجبال أسابون منسوبة، على الغالب لبني أساب.

٤٢ ـ أبولوغوس هي الأُبُلَّة، وشاراكس سبازنيني هي المحمرة اليوم.

الفصل ٣٦

٤٣ ـ أومَّانا هي في الواقع عُمان وجوارها، لكن كما مر بنا، كان الجغرافيون الرومان يخلطون ـ خطأ ـ بين الجغرافية والوضع السياسي. فهذه المنطقة لم تكن جزءاً من فارس، ولكنها كانت تحت حكم الفرتيين.

٤٤ ـ كان النحاس وقتها يصدر إلى الخارج من عمان، كما كان يصدر قبل ذلك بنحو عشرين قرناً.

لكن الكميات نقصت، لذلك فقد كان بعض النحاس الذي يصدر من عمان قد استورد من غرب الجزيرة. إلا أن المهم أن هذا النحاس كان يرسل من كانا (قنا) إلى الهند ثم يعود إلى عمان فالخليج العربي. ذلك بأن الحروب الفرتية الرومانية كانت تعوق الاتصال المباشر.

٤٥ ـ كانت عُمان، ولا تزال، تصنع السفن المخيطة، أي التي توصل أجزاؤها بحبال من شجر جوز الهند أو ما إليه. ومصيرة وعمان كانتا المكان الرئيس لهذه الصناعة. وكانتا تصدران منتوجهما إلى الخارج.

٤٦ ـ الأرجوان الوارد ذكره هو الأرجوان الصوري (لبنان).

٤٧ ـ الخمر المذكور هو خمر التمر. وكان يرسل إلى الهند عادة. واستخراج الخمر من التمر قديم جداً. إذ ورد ذكره في مصر حول سنة ٢٥٠٠ق.م.

٤٨ ـ رواية صاحب الدليل عن الخليج العربي سماعية. فطريقه من عُمان إلى الهند كانت بطريق جزيرة مصيرة، ولم يدخل هو الخليج العربي.

ومثل ذلك يقال عن ما نقله عن البلاد الواقعة فيما بعد موانىء غربي الهند. ومع أنه توخى الدقة في الرواية جهده، فإن ما نقله يختلف من حيث طبيعته عما رآه، وشاهده وجربه بنفسه. ومن هنا كانت معلوماته عن شواطىء البحر الأحمر، الغربية والشرقية وشواطىء أفريقيا وشواطىء جنوب الجزيرة صحيحة ودقيقة إلى حد كبير.

تجارة الجزيرة العربية كما يوضحها دليل البحر الأرثري

يتضح من دراسة الدليل بكامله أنه كان هناك أربع مناطق ذات موارد طبيعية أو فيها مصنوعات يمكن أن تتبادلها فيما بينها أو وساطة. ومن هذه المناطق الأربع اثنتان كانتا في الطرفين البعيدين ـ الهند والامبراطورية الرومانية؛ ومنطقتان كانتا في الوسط جنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا (هذا بالنسبة للقرن الأول للميلاد).

فالهند كان عندها الفولاذ الهندي (دليل ٦ و٣٩) والنحاس (ف ٣٦) والأخشاب التيك والأبنوس والساج (ف ٣٦) والأرز (ف ١٤ و٤١) والقمح (ف ١٤) وزيت السيرج (ف ١٤ و٤١) والدهن الهندي (ف ١٤ و٤١) والسكر (ف ١٤) والأفاويه ويدخل في عدادها الفلفل والقرفه والطيوب (ف ٣٩ و٤١ و٤٩ و٥٦). كما كان اليشب والرصاص واللازورد ينقل إلى الهند من أواسط آسيا ومن موانئها يرسل إلى الغرب (ف ٤٩).

أما ما كان يُعدُّ في الهند ويصدر إلى الخارج فالأقمشة القطنية ـ والقطن نفسه ـ (ف ٦ و١٤ و٤١) والموسلين أو الموصلين (ف ٣٩) وأنواع مختلفة من الأقمشة (ف ٤٨) والنيلة (ف ٣٩) والكحل المصنوع (ف ٤٩) والأواني الفخارية (من الهند ف ٤٩ ومن الصين عبر الهند مع الصيني العادي والمزخرف ف ٥٦).

وكان ثمة أحجار كريمة تنقل من الهند مثل اللؤلؤ من خليج قنار (ف ٥٤ ـ ٥٨) والياقوت الأزرق والعقيق (ف ٣٩ و٤٨).

وكان قسم كبير من الحرير الصيني ينقل عن طريق الهند، بسبب إقفال الطريق البري عبر أواسط آسيا وإيران، إلى حوض البحر المتوسط.

في الجهة الأخرى كانت الامبراطورية الرومانية مجتمعاً مستهلكاً لمنتوجات الهند والصين (بخاصة الحرير) التي كانت تصل إليه، أو تنقل إليه. لكن المناطق الشرقية من الامبراطورية الرومانية بشكل خاص، كان عندها بعض ما تحتاجه أو تحبه المجتمعات الشرقية. وهذه يمكن إجمالها فيما يلي، على ما عرفناه من الدليل: الخمور من اللاذقية (ف ٦ ومن إيطاليا) وزيت الزيتون (من فلسطين ولبنان وسوريا) والمرجان (ف ٢٨ و٤٩) والقماش

الأرجواني الصوري (ف ٢٤ و٣٦) والأقمشة وبخاصة الكتانية (مصر ف ٦ و٧ و٨) والكحل المصنع (مصر ف ٤٩) والحجارة الثمينة الشفافة: الزمرد والياقوت الأصفر والعقيق الأحمر (من مصر ف ٦ و٣٩).

منتوجات هاتين المنطقتين كانت تنقل من الواحدة إلى الأخرى. ولا شك أن ميزان المدفوعات التجاري لم يكن في صالح الامبراطورية، إذ كانت تدفع ثمن أكثر الكماليات ذهباً وفضة.

وإحدى المنطقتين الوسطيين هي شرق أفريقيا. وأهم هذه، على ما ذكرناها من قبل، هي القرفة (ف ١٠ و١٢ و٤) والسمسم (ف ١٣ و٤١) والمر (ف ١٢ و٣٧ و٤٩ و٥٦) والعاج بكميات كبيرة (ف ١٦ و١٧) والذَبل (ف ١٣ و١٦ و١٧) وقرن وحيد القرن (ف ١٧) وبعض الرقيق (ف ١٣ و٤١).

وهذه المنطقة منتجة، واستهلاكها للكماليات كان قليلاً، لكنها كانت تعنى بالعطور والطيوب.

وتبقى المنطقة الأهم من حيث دورها التجاري. وهي منطقة الجزيرة العربية في شرقها (على الخليجين العربي والعماني) وجنوبها وغربها (على البحر الأحمر). وهي منطقة كان فيها سلع تنتجها وتبيعها إلى المناطق الأخرى، والامبراطورية الرومانية بشكل خاص.

فالمنتوجات الخاصة بالمنطقة هي:

البخور بنوعيه اللبان والمر (ف ٢٤ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣٧) والذبل البري والبحري (ف ٣٠) والذهب (في الحجاز وفي شرق الجزيرة (ف ٣٦) واللؤلؤ والتمر (أكثره من عمان ف ٣٦ و٤٩). ومن المصنوعات التي كانت تنتجها المنطقة الرماح (ف ١٧ و٣٩) القوارب المخيطة (ف ٣٦) والخمور (ف ٢٤ و٣٩ و٤٦).

والمراكز التجارية التي ورد ذكرها في الدليل هي الهامة في أيام كتابته وهي الأبلة (أبولوغوس) وعمان (وصاحب الدليل لم يورد ذكر جرها ـ الجرعاء أو العقير) وخور ريري (موشا) وقنا (كانا) وعدن (يوديمون) وسوقطرى واوكليس ومخا (موزا) والحوراء (لوكي كومي).

ويبدو أن أكثر المتاجر بين الشرق والغرب كانت تمر بواحدة أو أكثر من هذه الموانىء سواء أكان قصدها مصر بحراً، أو البتراء براً. فكانت الموانىء أو المدن الأسواق تتخير منها ما تحتاجه ـ ولأنها كانت في الغالب غنية فقد كانت تأخذ الكثير من هذه المتاجر ـ وترسل ما تبقى شرقاً أو غرباً، بعد أن تضيف إليه ما عندها.

ومع هذه والتجار كانت تنتقل عناصر الحضارة والمدنية. فكانت هذه الموانىء والمدن الأسواق عاملاً من عوامل نقل الآراء والأفكار والتيارات من بلد إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر.

وهذا الدور الذي قامت به المنطقة تجارياً في القرن الأول للميلاد سبقته أدوار قديمة لها ولحقت به أدوار تابعة. فطرق التجارة ظلت إلى القرن السادس عشر تمر بهذه المنطقة.

وحتى لما جاء البرتغاليون واكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح، وحوّلوا التجارة إلى أوروبا رأساً عن طريق جنوب أفريقيا، فإن الطريق البحري ـ البري القديم (البحر المتوسط ـ البحر الأحمر ـ المحيط الهندي أو البحر المتوسط ـ بلاد الشام والعراق ـ الخليج العربي ـ خليج عُمان ـ المحيط الهندي) حافظ على بعض نشاطه ثم لم يلبث أن استرجع الكثير من نشاطه السابق حتى في القرن السابع عشر.

الهوامش

(١) هذه المقدمة من بحث لنقولا زيادة بعنوان «تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي» في **دراسات الخليج والجزيرة العربية** العدد ٤ (١٩٧) ص ٦٩ ـ ٩٤. وهناك توجد المصادر والمراجع المعتمد عليها أصلاً.

(٢) عن الجغرافيين الكلاسيكيين الوارد ذكرهم هنا راجع عن سترابون:

E.H. Bunbury: *A History of Ancient Geograghy* vol. II (New York, reprint pp. 209-336, esp. pp. 209 272, 319-21, 321-26.

J. Oliver Thomson: *History of Ancient Geography* (New York, 1965) pp. 224-5.

عن ميلا: Bunbury, ibid, pp. 352-369

عن بليني: Thomson, ibid, pp. 225-6.

Bunbury, ibid, pp. 371-87, 417-29

Thomson, ibid, pp. 226-8.

عن مارينوس الصوري: Bunbury, ibid, pp. 519-45.

Thomson, ibid, pp. 229

عن بطليموس: Bunbury, ibid, pp. 546-60, 604-18.

Thomson, ibid, pp. 229-230.

(٣) حول دليل البحر الأرثري ومؤلفه راجع: Bunbury, ibid, pp. 443-77.

Thomson, ibid, pp. 228.

Wilfrid H. Schoff: *The Perriplus of the Errythrraean Sea.* Translated from the Greeck (NewYork and London, 1912), Introduction pp. 3-21.

(٤) الفصول (١٩ ـ ٣٦) مترجمة عن الترجمة الإنكليزية «لشوف» الوارد ذكرها في الهامش رقم (٣).

Schoff, pp. 29-37.

(٥) راجع عن موزا والملاحة في البحر الأحمر.

Pliny, *"Natural History"* vi, 23, 101-104.

(٦) Adolf Grohmann: *Arabien* (Munechen, 1963) p. 28.

(٧) عن الزعفران واستعماله راجع: pliny, N.H. XVI, 81.

(٨) راجع عن المراهم: pliny, N.H. XIII, 1,2.

(٩) Grohmann, ibid.

(١٠) عن اللبان وشجره وجمعه راجع: Herodotus, *Histories,* III, 107, II, 75, pliny, N.H. XII, 30.

(١١) Schoff, p. 147.

(١٢) Shoff, p. 147.

٢ ـ تجارة البحار الشرقية في العصور القديمة

إن تطور التجارة في البحار الشرقية في العصور القديمة يدرس في مناطق ثلاث هي: الجزء الغربي من المحيط الهندي والبحار والخلجان المتصلة به، والمنطقة الهندية الأندونيسية، وبحر الصين الجنوبي. وسنعرض هنا للمنطقة الأولى، فنستعرض تطور التجارة البحرية فيها إلى حوالى القرن السادس للميلاد. على أن نعود فندرس المنطقتين الأخريين في بحث تال.

أول ما يجب أن نقرره هنا أن العلاقات التجارية بين منطقة البحر المتوسط، من جهة والصين من جهة ثانية، هي قديمة العهد، والأصل فيها أنها كانت تتم في أغلب الأحوال براً، أي إن القوافل كانت تجتاز المسافة الممتدة من شواطىء البحر المتوسط الشرقية إلى شمال بلاد الصين عبر الأراضي الصعبة والجبال الوعرة والصحارى القاحلة. وهي مسافة لا تقل عن أحد عشر ألف من الكيلومترات. وكانت القوافل تحمل، على ما وصل إلينا من أخبارها، الحرير من الصين غرباً، والبخور وبعض العطور والزجاج إلى الديار الشرقية من الغرب.

لكن ذلك لا يعني أنه لم يكن للبحر وسفنه دور في هذه التجارة. فشواطىء الهند الغربية وسواحل فارس وشطآن الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر ومصر والقرن الأفريقي كانت تقوم بينها تجارة نشطة هي، من حيث طرقها، موازية للتجارة البرية. وهي في الواقع أكثر تنوعاً من التجارة البرية.

وليس أدل على الاهتمام بالطرق البحرية وما يمكن أن يفاد منها تجارياً (وعسكرياً) من العناية التي بذلها كل من داريوس (دارا) والإسكندر في محاولتهما استقصاء كل ما يمكن عن الطريق بين مصب نهر السند وبلاد العرب.

فقد انتدب دارا سكيلاكس للقيام بهذه المهمة وذلك سنة ٥١٠ق.م. فوضع في ذلك تقريراً وافياً. كما أن الإسكندر أرسل أمير بحره نيارخوس سنة ٣٢٦ق.م. للقيام بمهمة مماثلة. هذا، مع العلم أن دارا والإسكندر كانا يحكمان المنطقة التي تجتازها الطرق البرية من البحر المتوسط إلى أواسط آسيا.

وكان البطالمة حكام مصر (٢٧٦ ـ ٣٠ق.م). حريصين على أن تظل طرق البحر الأحمر مفتوحة وآمنة للسفن التي تنقل المتاجر من الهند وإليها. وقد بلغ من اهتمام أغسطوس قيصر الامبراطور الروماني (٢٧ق.م. ـ ١٤م) بالبحر الأحمر والمناطق المحيطة به أن أرسل حملة لاحتلال اليمن سنة ٢٤ ق.م. ولكنها فشلت.

وكانت السفن تنتقل من ميناء إلى آخر محاذية للسواحل والشواطىء، وكان الكثير من هذه خطراً بسبب السلاسل المرجانية (البحر الأحمر) والأماكن الضحلة المياه (الخليج العربي) والصخور الكثيرة في شواطىء فارس.

إلا أن النقل البحري بين جنوب الجزيرة العربية وأفريقيا من جهة والهند من جهة ثانية، تبدل بسبب اكتشاف مسير الرياح الموسمية في العقد السابع من القرن الأول للميلاد، وذلك على يد هيبالوس. عندها أصبح باستطاعة السفن الكبيرة القوية أن تنتقل رأساً من أحد موانىء الجزيرة العربية الجنوبية أو من مخرج البحر الأحمر إلى جزيرة سيلان (سري لانكا) أو إلى ساحل ملبار في غرب الهند.

وفي القرن الميلادي الأول كانت الموانىء الرئيسة في الجزء الغربي من المحيط الهندي هي: أرزينوي (قرب السويس الحالية) ولوكي كومي (الحوراء) على مقربة من ينبع في البحر الأحمر وعدن وقنا (عش الغراب) ورأس فرتك في الجزيرة وبربريكون (باهارديبور) وبريغازا (برواخ) وموزيريس (كرنغامور) في الهند.

وقد خلّف مؤلف مجهول دليلاً للبحر الأحمر، يرجح أنه وضع في مطلع القرن الثاني للميلاد، استعرض فيه جميع أصناف المتاجر التي كانت تجمع في كل منطقة، سواء في ذلك ما تنتجه هي أو ما يحمل إليها. والمناطق هي، في شرق البحر المتوسط ومصر والبحر الأحمر، وجنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا ومنطقة الخليج العربي وخليج عُمان وكرمان والهند وما جاورها. ولا يتسع المجال هنا لذكرها مفصلة ولكن لا بد من الإشارة إلى بعضها، وذلك بشكل عام. فمن الغرب كان ينقل زيت الزيتون والكهرمان والمرجان والخمور والأقمشة والزجاج والبخور والذَبَل (غلاف السلاحف) والحبوب والذهب واللؤلؤة والتمور.

وكان يحمل من الهند الذهب والفولاذ الهندي والنحاس والأخشاب والبتل والأرز والدهون الهندية والسكر والعقيق والياقوت الأزرق والكحل والقطن.

ونحن إذا قارنا بين هذه الطرق البحرية التي كانت تجتاز آسيا من البحر المتوسط إلى الصين في الفترة نفسها ـ أي في القرن الميلادي الأول، لوجدنا أن هذه الطرق البرية، كانت آمنة على العموم. فقد كانت هذه المنطقة الواسعة تتحكم فيها أربع دول كبرى هي الامبراطورية الرومانية في أقصى الغرب والصين في عهد أسرة هان (٢٠٦ق.م. ـ ٢٢٠م) في أقصى الشرق. وكانت دولة كوشان الهندية تحتل شمال الهند وأفغانستان (حول ٤٠ ـ ٢٢٠م) فيما كانت دولة الفرثيين تحكم إيران وما جاورها (حول ٢٥٠ق.م. ـ ٢٢٦م) وقد كان موقف هذه الدول من قضايا التجارة والتجار موقف المشجع والمنسق. وفي هذه الأحوال نشأت وازدهرت الطرق المعروفة بطريق الحرير.

وهناك ثلاثة أمور يجب أن تذكر بالنسبة للتجارة: الأولى أن اضطراب الأمن في أواسط آسيا في القرن الثاني للميلاد، شجع التجار على استعمال الطريق البحري. والثاني هو أن العرب، الذين كانوا يقومون بالنقل البحري يومها، حفظوا سر المهنة (إلى أن اكتشفت الرياح

الموسمية). والثالث هو أن المواد التي كانت تستورد من الهند وفيها التوابل والأخشاب النفيسة والحجارة الكريمة كان يدفع ثمنها ذهباً.

بين القرنين الرابع والسادس تطورت التجارة البحرية في المحيط الهندي الغربي بشكل يدعو إلى الاهتمام. ونحن عندما نستعرض الأحوال التي سادت في تلك المنطقة في هذه الفترة نقع على الأمور التالية:

١ ـ قيام الدولة الساسانية (٢٢٦م)، وهي الدولة الفارسية التي ظلت قائمة في إيران وما يليها شرقاً حتى الفتوح العربية. وقد توسعت هذه الدولة تدريجياً فاستولت على البلاد الداخلة قبلاً في أمبراطورية كوشان الهندية، والتي كانت تضم أفغانستان فضلاً عن شمال غرب الهند. وهذا التوسع مكّن الدولة الساسانية من السيطرة على طريق تركستان (إلى الصين) وعلى التفرعات الجانبية لهذا الطريق، وأهمها الطريق الموصل إلى حوض السند مروراً بتكسيلا. واستولت الدولة الساسانية على ساحل مكران الذي كان يعرف باسم غدروسيا، والمشهور بالنباتات الصيفية الزكية الرائحة.

٢ ـ أظهر الساسانيون، من أول الأمر اهتماماً بالبحر. فإن أول ملوكهم، أردشير (٢٢٦ ـ ٢٤٢م) عني بإصلاح بعض موانىء الخليج العربي. ولعل الساسانيين أدركوا أن أسلافهم القريبين ضعفوا أمام الرومان بسبب إهمالهم البحر وطرقه ووسائله. وهم أصلاً أقرب إلى البحر من هؤلاء الأسلاف، وأقدر على تفهم مهارة عرب غربي الخليج (العربي) في التعامل مع البحر، وكذلك على الإفادة من تجار موانىء كوشان في شمال غرب الهند.

٣ ـ كان من نتيجة تضعضع الأمبراطورية الرومانية أن ضعف دور مصر في التجارة في البحار الشرقية، ولم يعد لبحارة البحر الأحمر شأن كبير، فكان أن انتزع التجار العاملون في إطار الدولة الساسانية الأعمال البحرية. ولما استولت هذه الدولة على اليمن (٥٧٥م) تم لها الإشراف على المداخل البحرية للمحيط الهندي (الغربي). ومع أن دولة أكسيوم الحبشية قائمة وكان لها مجال تجاري مع أفريقيا ساحلاً وداخلاً، فإنها لم تكن في الفترة التي نتحدث عنها، أي من القرن الرابع إلى القرن السادس، على مثل ما كان لها من قبل خاصة، بعد أن أخرجها الساسانيون من اليمن.

٤ ـ وهنا نتساءل فيما إذا كان هذا التقدم البحري في التجارة يعود إلى تعطل الطريق البري عبر إيران وأفغانستان وأواسط آسيا؟ لأن المناسبات التي أقفل فيها الطريق البري معدودة. فهناك هجوم الهون على لو يانغ Lo Yang ونهبها وتدميرها سنة ٣١١م. وقد أدى ذلك إلى نقص في الطلب على البضائع الاستهلاكية المحمولة من الغرب براً. لكن هذا الأمر انتهى في العقد السادس من القرن نفسه. ولم يتعرض الطريق البري إلى خطر كبير إلا في النصف الأول من القرن السادس لما احتلت قبائل الهطل التركية الجزء الشمالي من الصين. ولكن في ذلك الوقت كانت التجارة البحرية في المحيط الهندي، وفي غربه خاصة، قد وصلت ذروتها أو قاربت ذلك. وحري بالذكر هنا أن الساسانيين كانوا في كثير من الأحيان يحصلون

على حاجاتهم من الحرير الصيني بواسطة تجار الصغد (باكتريا).

وإذاً فازدهار التجارة البحرية لم يكن رد فعل فقط لهذه الأشياء التي ذكرنا، ولا لأن الطريق البري، الذي كان قسم كبير منه تحت نفوذ الساسانيين، تعطل بحيث أصبح البحث عن طريق بديل أمراً محتوماً. وهنا يرى الباحثون أن لهذا الازدهار سببين: الواحد داخلي يتعلق بالساسانيين، ذلك بأنهم أرادوا التمكن من احتكار تجارة الحرير الصيني كلية، فأقبلوا على الطريق البحري وسيطروا عليه إلى درجة كبيرة، فكان الحرير الصيني بأجمعه تقريباً يمر تحت نفوذهم.

أما السبب الآخر فهو ازدياد الطلب من أسواق جديدة ـ على المتاجر الغربية، الأمر الذي نتج عنه هذا النشاط التجاري. ولنستبق البحث فنقول إن الأسواق الجديدة تمثلت بالصين الجنوبية. وقد تم الوصول إليها بحراً ـ من الهند إلى أندونيسيا إلى كنتون وغيرها.

وكانت جزيرة سيلان (سري لانكا) هي التي أفادت من هذا النشاط التجاري البحري، لأنها أصبحت المركز الأساسي لالتقاء التجار والبيع والشراء وتبادل السلع.

وكان من الطبيعي أن تفيد سيلان من موقعها الجغرافي في حالة توسع التجارة في المحيط الهندي، سواء أتى التوسع من الغرب أم من الشرق. ثمة إشارة إلى سيلان وإلى أنها تنتج القرفة والزنبق والهزونلو(؟) وغير ذلك من الطيوب. هذه الإشارة تعود إلى القرن الثالث للميلاد. ومن الواضح لدى الباحثين أن كلمة تنتج هنا استعملت خطأ. هذه السلع كان يمكن الحصول عليها في أسواق سيلان. ومما كشف عنه التنقيب الأثري، أن الحركة التجارية تعود إلى القرن الخامس إلى أيام الأباطرة أركاديوس (٣٩٥ ــ ٤٠٨م) وسلفه وخلفه. وهذا يعني وجود نشاط تجاري بزنطي مع سيلان، من حيث أنها مركز تجاري مهم.

ومما يدل على اتساع نطاق العمل التجاري في سيلان لحساب الساسانيين، ما ورد في أرشيف صيني يعود إلى النصف الأول من القرن الخامس، جاء فيه أن ملك البوسو (فارس) طلب يد ابنة ملك سو تأو ـ Ssu Tiao أي سيلان وبعث مع رسله إسورة ذهبية عربوناً للخطبة.

ويبدو أنه بدءاً من القرن الخامس أيضاً قامت علاقات مباشرة بين سيلان والصين الجنوبية، ولو أنها كانت محدودة. فمن ذلك أن الرسائل كانت تنتقل بين الواحدة والأخرى. ومن المؤكد أن اثنين من السياح الصينيين انتقلا إلى الصين مباشرة من سيلان وهما فاهسين Fa Hsien وغونافرين Guna Yapman، الاول عاد من سيلان إلى الصين سنة ٤٣١ وقد سافر بحراً دون تبديل الطريق البحري. ولكنه لم يسافر الطريق كله في سفينة واحدة. أما الثاني فهو أمير من كشمير وقد انتقل من المحيط الهندي إلى الصين بالطريقة ذاتها. ويبدو أن الاثنين اتخذا جزيرة جاوة نقطة انطلاق نحو الصين عبر بحر الصين الجنوبي. واستغرقت الرحلة في كل حالة خمسين يوماً تقريباً. ومن طريف ما حدث أن فاهسين رأى مروحة من صنع الصين في سوق في سيلان، فسالت دموعه (فرحاً أو شوقاً).

والوثيقة الرئيسة التي تعطينا معلومات تجارية عن سيلان في أوائل القرن السادس هي

ما دوّنه كوزماس الهندي Cosmas Indicopleustes نتيجة زيارته للجزيرة بين سنتي ٥٢٢ و٥٣٠(٩). كان كوزماس هذا عالماً لاهوتياً، ولعله كان راهباً نسطورياً، أراد أن يثبت ما ورد في الكتاب المقدس، أو ما فهم مما ورد فيه، من أن الأرض مسطحة. لذلك قام برحلة زار فيها مناطق المحيط الهندي الغربي (إذ ليس في ما كتبه ما يدل على أنه تجاوز جزيرة سيلان إلى الشرق)، ودوّن ما شاهده في رحلته. وخص سيلان وأسواقها بالعناية الكبيرة. والذي يهمنا نحن من هذا القسم من وصفه وحديثه، ما جاء عن الجزيرة. يقول كوزماس: «إن عدداً كبيراً من السفن من الهند وفارس والحبشة تقصد هذه الجزيرة، كما أنها تبعث هي بعدد من سفنها، وذلك لأنها تقوم في مركز متوسط. وتستورد تابرو بون (سيلان) من المناطق القاصية مثل تسينستا Tzinista (الصين) وغيرها من البلاد المصدرة للسلع المختلفة مثل الحرير وخشب الألو والقرنفل وخشب الصندل وغير ذلك». ويعنى كوزماس عناية خاصة بأن يوضح أن الاتجار بالحرير عبر الطريق البري كان أكبر حجماً من ذلك الذي ينقل بحراً. وهنا يتساءل الواحد منا، إذاً لماذا هذا الاهتمام من جهة الساسانيين بالطريق البحري؟ والجواب هو أن الساسانيين أرادوا أن يكون احتكارهم لتجارة الحرير تاماً، لذلك اهتموا بكل الطرق التي قد ينقل الحرير عليها من الصين إلى الغرب، ووضعوها تحت نفوذهم، على ما أشرنا إليه قبلاً.

ومن المعروف هو أن جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) أراد أن يخفف من قبضة الساسانيين على تجارة الحرير، فسعى لدى ملك أكسوم، الدولة الحبشية، أن يحمل التجار على ابتياع الحرير من سيلان وتصديره، عن طريق البحر الأحمر، إلى بزنطية. إلا أن ملك أكسيوم اعتذر فيما بعد بأنه لم يتمكن من شراء كميات من الحرير كافية للمشروع. إلا أن الباحثين يرون أن اعتذار ملك أكسوم كان ذراً للرماد في العيون، وأن الواقع هو أن اتفاقاً كان قد توصل إليه الفريقان ـ الساساني والحبشي ـ يقضي بأن يذهب كل الحرير الآتي من الشرق إلى الساسانيين تجاراً وأسواقاً، على أن يترك لملك أكسوم الاتجار بالتوابل والطيوب والأفاويه.

كانت الدولة الساسانية قد بلغت الحد الأقصى في الاتساع والنفوذ والسيطرة على الطرق التجارية البحرية والبرية، بحيث نسبت أشياء كثيرة للفرس ـ كالتجارة والسفن الكبيرة والسلع التي كانت تأتي من جهات مختلفة. وكانت تعتبر الدولة الأغنى. وقد شاعت مقولة في أوائل القرن السابع في الهند وربوع الشرق تتلخص في القول التالي: «يقال في تلك البلاد (الهند) إن العالم jambudripa يحكمه أربعة ملوك. ففي الشرق تقوم بلاد الصين وملكها يحكم الرجال. وفي الغرب توجد بلاد فارس، وملكهم يتحكم في الأشياء الثمينة. وتقوم الهند في الجنوب وملكها يحكم الفيلة. ويقيم هسين ـ يون Hsien- Yuin وهم الأتراك ومن لف لفهم في الشمال وهم يحكمون الخيول».

كان استيراد الخيول دوماً أمراً هاماً بالنسبة للهنود. فقد درج الأمراء منهم على استعمال الخيول في المواكب الرسمية لأنها أجمل أنواع الحيوان وأبهجها. والمهم، هو أن الخيول التي تستورد من الخارج (بلاد الأتراك وفارس وعُمان مثلاً) لا تقوى على مناخ الهند.

فهي قد لا تنجب، وإذا أنجبت كان النتاج هزيلاً، ولا يتجاوز ذلك جيلاً واحداً. لذلك فقد كان الهنود يبحثون باستمرار عن أسواق لاستيراد الخيول كي تكون مواكبهم كاملة دوماً.

هذا هو المسرح الأول أو المنطقة الأولى، مكاناً، وزماناً، للتجارة في البحار الشرقية في العصور القديمة.

أما مسرح الهند ـ أندونيسيا، ومسرح أندونيسيا الصين الجنوبية، فموضع الحديث عنهما في مكان آخر.

من المتعاف عليه عند الباحثين في تاريخ الصين وتطور الحضارة في تلك الديار هو أن العناصر الأولى للمدنية بدأت في الأجزاء الشمالية من البلاد، وفيها نمت ونضجت. وكان الشماليون يعتبرون أهل الجنوب «برابرة» و«متأخرين». وكان أهل الشمال هم الذين توصلوا إلى تبادل تجاري مع المشرق العربي تا ـ تشين Ta-chin منذ قرنين سابقين على أقل تقدير، وبذلك زادوا استمتاعاً بالسلع الاستهلاكية التي كانت تصلهم. ومع أن بعض هذه الأشياء تسرب إلى جنوب الصين، فإن القوم هناك لم يكونوا قد تحضروا بما فيه الكفاية ليفيدوا منها. ولكن شمال الصين أضر بها البدو الذين خرجوا من أواسط آسيا بقوة، وبذلك انقطع سيل هذه السلع الحضارية من المشرق، وخاصة منذ القرن الرابع الميلادي. إلا أنه في القرن المذكور وفي العقود الأخيرة من القرن السابق له، هاجرت أعداد كبيرة من سكان شمال الصين إلى الجنوب ـ إلى جنوب نهر يانكتسي. ويقدر الباحثون بأن ما يقارب ٦٠٪ إلى ٧٠٪ من الطبقة الثرية المتحضرة انتقلت إلى جنوب النهر. وإن كان الانقطاع يكاد يكون تاماً عن المشرق، وإذ توسع الصينيون وقتها نحو تونكنغ وفونان، فقد نشروا معهم عادات وتقاليد اعتادوها من قبل. وهنا جاء الطلب على هذه الحاجات التي كانت تأتي من أقطار المشرق العربي أو تاتشين (Ta-chin) أصلاً، ثم أصبحت الآن تتمركز في المحيط الهندي، وعلى التخصيص، في جزيرة سيلان (سري لانكا).

فمعرفة سكان تلك البلاد (الصين الجنوبية) بوجود هذه السلع، واهتمامهم بها، أديا إلى البحث عن الوسائل اللازمة، والبحرية بالطبع، لنقل ما يحتاجون إليه من سيلان إلى جنوب شرق الصين (ميناء كنتون وما إليها). أما السلع التي رغب فيها القوم والتي نقلت إليهم فهي التي مر بنا ذكرها.

ويبدو أن هذا النقل التجاري من المحيط الهندي إلى جنوب شرق الصين مر بدورين: الأول، كان العمل فيه يتم عن طريق خليج البنغال، حيث تنقل السفن البضائع من موانىء الهند وجزيرة سيلان (سري لانكه) إلى ميناء تون ـ سن (Tun-sun) الواقعة على الشاطىء الغربي لشبه جزيرة الملايو في أجزائه الشمالية، ومن هناك كانت تنقل السلع ثانية بحراً إلى فونان Funan في أقصى جنوب الصين الشرق، ومن فونان تحملها السفن إلى تونكنغ Tonking وكنتون Canton. وكانت هذه الأخيرة على ما يبدو الميناء الرئيس في المنطقة (وظلت كذلك مدة طويلة).

وقد نقل ولترز عن كتاب صيني اسمه ليانغ شو Liang shu وصفاً لما كانت عليه تون سن في القرن الثالث للميلاد، وهذه ترجمته:

«تقع مملكة تون سن على بعد يزيد عن ثلاثة آلاف لي (نحو ١٨٠٠ كيلومتر) عن الحد الجنوبي [لمملكة] فونان... والمملكة تمتد نحواً من ألف لي (٦٠٠ كيلومتر). أما المدينة فتبعد عشرة ليات (٦ كيلومترات) عن البحر. ويوجد في تون ـ سن خمسة ملوك (حكام!) وجميعهم يعترفون بالتبعية لفونان. وتتصل حدود تون ـ سن الشرقية بتونكنغ، والغربية بشمال الهند وبان ـ شي (دولة فرثية). وسكان البلاد الواقعة وراء الحدود جميعهم يأتون [إلى ثون ـ سن] ساعين وراء التجارة، ويحملون منها سلعها، إذ إن المدينة تنقل إليها السلع من المناطق البحرية التي تبعد عنها ما لا يقل عن ألف لي (٦٠٠ كيلومتر). وبحر تشانغ ـ هاي Chang-hai بحر متسع جداً، ولم تجتزه السفن البحرية بعد اجتيازاً. ومن ثم فإن الشرق والغرب يجتمعان في هذه السوق الكبيرة بأعداد ضخمة للحصول على السلع الثمينة والنادرة ـ إذ ليس من سلعة لا يمكن العثور عليها هنا» (في تون ـ سن).

وقد عثر في سنة ١٩٤٤، أثناء الحفريات الأثرية التي تمت في غواك إيو Go Oc Eo، ميناء فونان على مصنوعات هندية ورومانية وصينية منها خواتم ومجوهرات ومحفورات، وأكثرها من الحجارة الكريمة.

وهكذا، فإننا نجد في القرن الثالث للميلاد أن آسيا عرفت طريقين لنقل البضائع والسلع عبر هذه القارة ـ من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، الأول، الطريق البري، الذي كان له تاريخ أقدم، وكان يصل الصين الشمالية ببلاد الشام (في أيام الرومان) أو بموانىء البحر الأحمر عبر شمال الهند الغربي، أما الثاني، فهو الطريق الذي ذكرناه قبل قليل، وهو طريق بحري تجتمع السلع له من غرب المحيط الهندي ومتفرعاته وتنقل إلى سيلان. ومن هذه الجزيرة إلى موانىء الشواطىء الشمالية لشبه جزيرة الملايو، وأهمها تون ـ سن، ثم عبر البر إلى الجهة الأخرى ثم إلى فونان.

وقد كان يترتب على حكومة وو Wu ٢٢٢ ـ ٢٨٠م، [في جنوب الصين] وعلى حلفائها الاعتماد على الطريق البحري هذا، إلى أن بلغت التجارة البحرية في تلك المناطق أشدها، وأصبحت السفن تمخر عباب بحر الصين الجنوبي.

على أن الأمر لم يستمر على هذا النحو. فأندونيسيا كان عندها ما يمكن أن يباع للتاجر الهندي، والتاجر الهندي عنده ما قد يعجب الأندونيسي. وهناك بضعة أمور تستحق العناية لأنها توضح لنا تطور التجارة البحرية بين هاتين المنطقتين ـ الهند وأندونسيا.

أولاً: هناك أمر على غاية من الأهمية بالنسبة للتطور التجاري بين أي صقعين. وهو أن يكون الفريقان على درجة من الحضارة متساوية بحيث يكون التبادل التجاري بينهما أساسه استكمال ما قد يكون ناقصاً.

وقد كان الدارسون الأوائل للمناطق الآسيوية الواقعة جنوب شرق القارة يعتبرون أكثر ما

يقع في الأطراف متأخراً عن الهند مثلاً. فكانت محاولة تفسير العلاقات التجارية على أساس أن الهندي، بوصفه أعرق حضارياً، ينقل إلى أندونيسيا سلع الحضارة. وقد لا يستورد منها شيئاً. لكن هذا الأمر اتضح خطأه عند الباحثين، ووجدوا، بعد التعمق في دراسة المجتمع الأندونيسي، أنه كان متحضراً، لذلك فقد باع كما اشترى. فقد كان الأندونيسيون يستعملون المعادن في حياتهم.

ثانياً: ظُن بادىء الأمر أن التجارة كانت مرتبطة بانتشار البوذية ونشرها في أندونيسيا. لكن الدراسات الجادة الحديثة وجدت أن الأمر لا يعدو أن تقع مصادفة يكون فيها للبراهما علاقة بالتجارة والتجار.

ثالثاً: ولم يتضح للباحثين فيما إذا كانت هناك جاليات هندية تجارية في أندونيسيا. وقد يكون معنى هذا أن السوق المحلية، حيث يتم البيع والشراء، كانت تحت إشراف التاجر الأندونيسي ومؤسساته. ولعل الخلط بين التجار المسلمين والهنود هو الذي لم يحمل الأندونوسيين على تشجيع هؤلاء التجار على الإقامة في بلادهم.

رابعاً: لم يعثر الباحثون على معلومات مفصلة عن أنواع السلع التي كانت أندونيسيا تصدّرها إلى البلاد الغربية. ولكن المنطقة كانت تعتبر مصدراً مهماً للذهب. ويكفي أن البلاد (الجزر) سميت بلاد الذهب Chryse.

ومع ذلك فإن القليل الذي عثر عليه لا يمكن أن يستهان به. فقد كانت أندونيسيا غنية بخشب الصندل. وكان منه نوعان، الأبيض والأحمر. ذكر عنه في الهند أنه استورد من بلاد غريبة. والمتفق عليه اليوم أن البلاد الغريبة هي أندونيسيا. ومع أن الهند فيها خشب الصندل، يبدو أن الحاجة إليه كانت كبيرة في أسواق الغرب.

ومن السلع التي ورد ذكرها في القرن الرابع، القرنفل. ومع أن الهند كانت تنتج كميات كبيرة من الفلفل، فإنها استوردت فلفلاً من أندونيسيا، وقد أصبحت أندونيسيا من الأقطار المشهورة بانتاج الفلفل الجيد ـ الذي يفوق الفلفل الهندي ـ وذلك بعد سنة ٤٠٠م. ومثل ذلك يقال عن الكافور والبنزيون (اللبان الجاوي). صحيح أن الكميات التي استوردتها الهند لم تكن كبيرة، ولكن كان لها دور كبير في صناعة الطب في الهند. وقد كانت المهن الطبية المسماة ايورفيدك Ayurvedic، والتي تقوم على أساس استعمال النباتات في صنع العقاقير، نشطة جداً في الهند يومها.

كان من الطبيعي أن يتطلع الأندونيسيون، وهم يستعرضون السفن الهندية تنقل السلع والتجار عبر خليج البنغال إلى تون ـ سن في الملايو، إلى اليوم الذي يمكنهم فيه أن يروا هذه السفن نفسها تصل إلى بلادهم. كما كانوا يرون أنفسهم وهم يقودون سفنهم من مضيق ملقا ومن جزيرة سومطرة إلى الموانىء الهندية. فالبحر يقوم دوماً بجذب السكان الذين يعمرون شواطئه إلى آفاقه الواسعة. وعندما يبدأ القوم، حتى ولو بقارب صغير، لن يكون ثمة نهاية لطموحهم ولا خوف من أهوال البحر. والتجارة، وما فيها من ربح، هي دوماً الدافع الأساسي

لركوب البحر، ولقطع الصحارى واجتياز الفيافي. وهكذا، فالأمر الذي بدأ وكأنه رغبة عارمة للاطلاع على البلاد الغريبة ـ الهند ـ عند سكان كو ـ ينغ Ko-Ying في أواسط سومطرة، تحقق بشكل بعثات تجارية مستمرة، وعمل بحري نشيط. صحيح أن المعلومات عن هذه الفترة في تاريخ النشاط البحري الأندونيسي تكاد تكون معدومة، إلا أنه لا يمكن أن يفهم النشاط البحري القوي لهذا الشعب في القرن الخامس الميلادي إلا باعتباره نهاية شعور دقيق نحو البحر، وتمرس بأهواله وجماله وقتاً طويلاً حتى انتهى إلى ما انتهى إليه.

وهنا نأتي إلى المنطقة الثالثة في الطرق التجارية البحرية في جنوب شرق آسيا، وهي المنطقة التي يمكن الوصول إليها بحراً وبطريقة مباشرة باجتياز مضيق ملقا، ثم الاتجاه من جزيرة سومطرة رأساً إلى الشمال نحو كنتون. ولما أخذ البحارة يعملون على هذا الجزء من الطريق أصبح عملياً (لأن أحداً لم يعملها في الأزمنة القديمة) بإمكان سفينة أن تغادر ميناء ارزنوي في البحر الأحمر (الشاطىء المصري)، أو أي ميناء في تلك الجهات، متجهة عبر المحيط الهندي الغربي إلى سيلان أو ميناء في الهند، فيريح بحارتها، ثم تنتقل عبر مضيق ملقا إلى بحر الصين الجنوبي حتى تصل كنتون.

والسؤال هو: من قام بنقل المتاجر عبر بحر الصين الجنوبي؟ أي من كان البحارة؟

هذه التجارة ـ من حيث سلعها وطرقها كانت تسمى التجارة الفارسية بوسو Po-ssu. والتسمية، على ما ذكرنا قبلاً، تعود إلى النفوذ المادي والأدبي الذي كان الدولة الساسانيين الفارسية في القرن الخامس والسادس (ومطلع السابع). لكن السفن الفارسية لم تكن كثيرة العدد بالنسبة إلى البحار المصاقبة لفارس، بل من المستبعد أن يكون لها أسطول يتنقل من ميناء إلى ميناء حتى يصل كنتون. وإذن، فمن الطبيعي أن نبعد السفن الفارسية عن هذا الحقل.

ودور الصين في حمل المتاجر من منطقة أندونيسيا إلى الصين الجنوبية يمكن أن ينفى لسببين: أولهما أن الصينيين لم يكونوا يومها (وظلوا مدة حتى أصبحوا) أصحاب سفن تجارية، ولا كان لهم أسطول فيما بعد. أما السبب الثاني، فهو أن القوم لم يخرجوا ليتاجروا، وكل ما حدث هو أنهم، بسبب إقبالهم على هذه السلع، شجعوا على الاتجار بها، وفتحوا الأسواق لها، وأملوا في أن تنقل إليهم، وقد نقلت، وخاصة في القرنين الخامس والسادس للميلاد.

وليس ما يدل على أن سفناً هندية أو سيلانية طرقت تلك الجهات. فهذه قامت بدورها في العمل في المحيط الهندي غربي الهند وشرقيها إلى أندونيسيا.

ومع أن العرب كان لهم في تجارة المحيط الهندي دور كبير، فليس ثمة ما يدل على أنهم قادوا سفناً إلى بحر الصين الجنوبي في تلك الفترة.

وقد حسب البعض أن فونان، وخبرتها في تجارة البحر الصيني الجنوبي (ولو في جزء منه) معروفة، قد تكون نشطت فوسعت نطاق عملها التجاري. ولكن فونان كانت تعرضت في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس لهجمات التشام (وهم أجداد قبائل الفيتنام) بحيث أنه

لم يكن لها مقدرة على القيام بهذا الدور.

كان الصينيون يعتبرون الهدية التي ترسل إلى امبراطورهم في سبيل عقد معاهدة تجارية أو لتيسير أمور التجار في دولتهم، أنها ضريبة، وأن الذي يبعث بها ـ مهما كان له من سلطان ـ يظهر بذلك خضوعه. ولكن كانت هناك دول صغيرة تبعث إلى امبراطور الصين بهدايا هي في الواقع أقرب إلى الضريبة.

وقد نقل ولترز رسالة أرسلها حاكم دويلة في جزيرة جاوة (الأندونيسية) إلى امبراطور الصين الجنوبية سنة ٤٣٠م (في الشهر السابع). واسم الدويلة فهو هو ـ لو ـ تان Ho- Lo-Tan. والهدية كانت تشمل قماشاً من الهند وقندهار (في أفغانستان اليوم).

يقول الحاكم: «كانت بلادي من قبل مكتظة بالسكان وكانت مزدهرة... والآن أصبحنا ضعفاء، وجيراني يتنافسون فيما بينهم على الإيقاع بي. إنني أطلب من جلالتكم أن تشملوني برعايتكم عن بعد. وأرجو أيضاً أن لا يكون ثمة أيّ حدود على تنقل تجارنا في بلادكم. وبعد أن يطلب من صاحب الجلالة أن يأمر هؤلاء الجيران بكف الأذى عنه، ينهي رسالته بقوله: «آمل أن تصدر أوامرك إلى الموظفين في كنتون أن يعيدوا إلي سفينتي، وأن لا يسمح لهم بنهب [سفينتي] وأصابتها بأذى».

يتضح من هذه الرسالة:

١ ـ أن الأوضاع السياسية كانت مضطربة في الدويلات الأندونيسية.

٢ ـ أن هذه الدويلة كانت على اتصال تجاري مع الصين.

٣ ـ أن الموظفين في كنتون كانوا يتعاطون الرشوة والتلاعب بالأسعار.

والذي خلص إليه ولترز وآخرون هو أن السفن الأندونيسية كان لها دور كبير منذ القرن الخامس في استخدام طريق بحر الصين الجنوبي من اندونيسيا إلى كنتون والموانىء الأخرى.

وإذا تذكرنا أن بعض سفن الأندونيسيين كانت تعمل أيضاً بين الهند وأندونيسيا، كان معنى هذا أن الأندونيسيين كانوا في القرنين الخامس والسادس يعملون بنشاط على الخط البحري (كما نقول اليوم) بين الهند (وسيلان) وكنتون. وقد لا تذهب السفن نفسها الطريق كله، وقد تفرغ أحمالها وتبدل السفن، لكنها كانت تفيد من هذا كله.

ونحن نجمل هنا خلاصة البحث الدقيق الطويل الذي كتبه ولترز في كتابه عن تجارة أندونيسيا المبكرة، حول هذا الطريق بالذات فيما يلي:

١ ـ لم يكن ثمة تجارة صينية ـ أندونيسية حتى النصف الأول من القرن الثالث ميلادي، وكل ما عرف هو تجارة أندونيسية مع الهند.

٢ ـ لما أخذت شؤون الصين الجنوبية بالاستقرار تحت نفوذ أسرة تشن الشرقية East-ern Chin بين سنتي ٣١٧ و٤٢٠، أخذت السفن الأندونيسية تقوم بأعمال الريادة (البحرية) في بحر الصين الجنوبي.

٣ ـ في القرن الخامس زادت تجارة بحر الصين الجنوبي في هذه التجارة المسماة

فارسية وهي تجارة المحيط الهندي الغربي.

٤ ـ في القرن الخامس قفزت تجارة أندونيسيا الغربية قفزة نوعية كبيرة، وجعلت التجارة مصلحتها الخاصة.

٥ ـ استمر الحال على هذا النحو إلى أواخر القرن السابع. إذ تخلت السلطة الرئيسة في سومطرة عن الإشراف المحلي والتجاري (٩) للصين.

الهوامش

(١) Walters. pp. 39-42, 76-77 Bolonois, pp. 36, 70, 114, 127ff, 132.
(٢) Simkin, pp. 37-8. Walters, pp. 44-47.
(٣) Walters, p. 44.
(٤) Simkin, pp. 37-8, Walters 46-8.
(٥) Walters, pp. 65-6.
(٦) Walters, p. 64-5, Bolonois, pp. 93ff.
(٧) Walters, pp. 64-5.
(٨) Walters, p. 63.
(٩) Walters. PP. 65-70, 147.
(١٠) Walters, pp. 69-70.
(١١) ناقش ولترز هذه القضايا.

Walters, pp. 146-53.

(١٢) Walters, p. 151.
(١٣) Walters, p.151-3.
(١٤) Walters, pp. 157-8.
(١٥) Walters, p. 355.

٣ ـ تطور الطرق التجارية بين البحر الأحمر والمحيط الهندي

عرف العالم القديم في أول عهده بالحضارة، ثلاث مدنيات هامة هي: مدنية أرض الرافدين ومدنية مصر القديمة ومدنية السند. والذي نعرفه أن مدنية السند، على ما تتمثل في موهنجودارو وهربة، انتعشت على وجه التقريب بين سنة ٢٦٠٠ و١٥٠٠ ق.م. على ما تحدثنا به أعمال الحفر والتنقيب التي قام بها علماء الآثار. وفي هذه الفترة كانت صلات تجارية متينة تقوم بين حوض السند وبلاد الرافدين عن طريق الخليج العربي وخليج عُمان. وقد اتضحت نواحي هذا التبادل التجاري بعد أن نبش رجال الآثار، في السنوات الأخيرة، مواقع مختلفة على شطآن الخليجين المذكورين، الأمر الذي كنا نعرف عنه بعض الشيء من الاكتشافات الأثرية في العراق الجنوبي منذ أواسط القرن الماضي. ويمكن تلخيص هذه الصلات التجارية فيما يلي:

١ ــ إن بلاد ماغان (أو ماكان)، وهي عُمان وما إليها، كانت تصدّر النحاس إلى أرض الرافدين. ولعل بعض نحاسها نقل شرقاً إلى الهند.

٢ ــ إن مملكة دلمون (٢٥٠٠ ــ ٣٣٠ ق.م.) كانت منطقة واسعة. ولعل مدينة دلمون هي في البحرين الحالية. وهذه المنطقة كانت فيها المراكز الرئيسة للاتجار شرقاً وشمالاً.

٣ ــ كانت السفن تحمل، من بلاد السند، الأخشاب والقطن والعاج والعقيق الأحمر واللازورد. ويبدو أن القطن عرف أول ما عرف في منطقة السند[١].

ولكن انهيار المدنية السندية (حول سنة ١٥٠٠ ق.م.) أدى إلى توقف العلاقات التجارية بين أرض الرافدين وبلاد الخليجين[٢].

وإذا نحن انتقلنا إلى البحر الأحمر وجدنا أن المصريين كانت لهم صلات تجارية مع بلاد بونت (أوبون) حتى حول سنة ٢٠٠٠ق.م. وبلاد بونت هذه، في رأي أكثر الباحثين، تشمل المناطق العربية والأفريقية المحيطة بباب المندب في الجهة المطلة منه على المحيط الهندي. ومع أن صلات مصر التجارية الخارجية مع تلك الأصقاع تقلصت بعد السنة المذكورة، ولمدة تقرب من خمسة قرون، فإنها عادت إلى نشاطها أيام الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ــ ١٣٢٢ق.م.). وأهم البعثات التجارية إلى تلك المنطقة كانت تلك التي أرسلتها الملكة حتشبسوت والتي يرجح أنها وصلت إلى جزيرة سوقطرى والصومال، أو حتى إلى حضرموت. ولكن هذا النشاط التجاري المصري توقف مرة ثانية بعد الأسرة المذكورة[٣].

ولكن بعد أن ضعف شأن الامبراطورية المصرية في البحر الأحمر ظهر الفينيقيون هناك (في القرن العاشر ق.م.) كتجار كبار. فقد اتضح من البحوث الحديثة أن أحيرام ملك صور كان له أسطول تجاري يعمل في البحر الأحمر. وكانت السفن تبنى في تل الخليفة وهو

أيلة عند الجغرافيين العرب. وكانت السفن الفينيقية توغل في البحار إلى بلاد أوفير، وتعود محملة بالذهب والفضة والحجارة الكريمة وخشب الصندل والعاج والقرود والطواويس. ومع أن المؤرخين لم يتفقوا فيما بينهم على موقع أوفير، فهناك من يظن أن المقصود بذلك كان الهند بالذات[٤]. إلا أنه من الواضح أن الذهب، أو بعضه على الأقل، كان يحمل من مناجم مهد الذهب التي تقع في منتصف الطريق تقريباً بين مكة المكرمة والمدينة المنورة. وهي أشهر مناجم الذهب العربية في التاريخ. [قد ظل مهد الذهب يستخرج منه هذا المعدن إلى أيام الخليفة هارون الرشيد].

ومع هذا النشاط الذي ذكرناه بالنسبة إلى تجار أرض الرافدين ووادي النيل والفينيقيين، فإن الأمر انتهى بأن سيطر عرب جنوب الجزيرة على التجارة شرقاً وغرباً واحتفظوا بسر الطرق مدة طويلة بحيث أتيح لهم أن يحتكروا نقل المتاجر من الهند وما إليها وأن يقوموا بتوزيعها على من يحتاجها من البلاد الواقعة على شاطىء البحر الأحمر الغربي[٥].

ولما كانت الامبراطوريات التي قامت على أيدي الآشوريين والكلدانيين والفرس، امبراطوريات برية، فقد اهتمت بتأمين الاتصال البري بين أجزاء من آسيا شرقاً إلى شواطىء البحر المتوسط. ولعل هذا القول ينطبق على الامبراطورية الفارسية أكثر من غيرها، وهي التي امتدت حدودها من بلاد الأفغان الحالية شرقاً إلى مصر غرباً، فأصبحت الطرق البرية آمنة وتحولت التجارة في أكثرها إليها. أما تجارة البحر فقد ظلّت في أيدي عرب جنوب الجزيرة. وكانت عدن وقنا (بير علي على مقربة من حصن الغراب) الميناءين الرئيسين في تلك المنطقة. وجزيرة سوقطرى كان يتم فيها تجميع المتاجر. وفي مقدمة ما كان العرب يحتكرون تجارته البخور، بنوعيه اللبان والمر، والطيوب والأفاويه والحجارة الكريمة[٦].

على أننا نجد، بالرغم مما ذكر عن الامبراطورية الفارسية، أن الملك داريوس أرسل، حول السنة ٥١٠ق.م، بحاراً يونانياً ليكتشف الطريق البحري من السند إلى مصر حول الجزيرة العربية (على أن يتجنب الخليج العربي الذي كان الفرس يعرفونه جيداً). هذا البحار اليوناني هو سكيلاكس الذي بدأ رحلته من مكان على مقربة من مدينة أتوك الحالية ليكتشف مصب نهر السند أولاً ثم ليسير في محاذاة الشاطىء، على نحو ما كان يبحر الناس يومها وقبلها، غرباً إلى مصر. وكان على سكيلاكس هذا أن يقدم تقريراً مفصلاً عن رحلته، بعد انتهائها، إلى الملك داريوس. وقد فعل البحار اليوناني والرهط الذي رافقه ما طلب منه، ووصل بعد سنتين ونصف السنة من المغامرات إلى ميناء أرزينوي التي كانت تقوم على مقربة من مدينة السويس الحالية[٧]. ويبدو أن شيئاً من التجارة البحرية بين الخليج العربي، والبحر الأحمر ظل قائماً في العصر الفارسي، وأن العرب ظلوا هم المسيطرين على التجارة البحرية مع الهند بخاصة.

جاءت حروب الإسكندر وفتوحه فغيّرت وجه التاريخ في المنطقة الممتدة من بلاد اليونان إلى الهند عبر آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر وإيران. ولم يكن أثر الإسكندر في أنه

فتح بلاداً وقضى على دول، بل إن الناحية الأهم في ذلك هي أن الرجل أثار الحياة في المنطقة بشكل ديناميكي جديد، تظهر في بناء المدن ومحاولة نشر آراء جديدة ورغبة في التعرف إلى خفايا الجهات والأماكن. ومن ذلك اهتمامه بالكشف، من جديد، عن الطريق البحري من نهر السند إلى مصب الرافدين.

اختار الإسكندر لهذا العمل رجلاً من كبار أمراء البحر اسمه نيارخوس، وأعد لذلك أسطولاً ضخماً. بدا الأسطول سيره على نهر السند وكان الإسكندر يسير بجيشه محاذياً لشاطىء النهر حتى وصل المصب. وعندها ترك الإسكندر قيادة الأعمال البحرية لنيارخوس، وقاد هو جيشه إلى فارس رأساً، بعد أن اقتنع بأن بعض سواحل المحيط الهندي قاحلة بحيث أنها لا يمكن أن تزود جيوشه بحاجاتهم من المؤن.

كانت التعليمات المعطاة إلى نيارخوس تطلب منه أن يصل إلى بلاد بابل، وأن يتعرف إلى الطريق البحري تعرفاً دقيقاً، وأن يعين الأماكن التي يمكن للسفن أن تريح أو تتمون أو تتاجر.

بدأت بعثة نيارخوس في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ٣٢٦ ق.م. من ميناء الإسكندر، الواقعة على مقربة من كراتشي الحالية، وسار الأسطول محاذياً للشاطىء، بحيث يكون قريباً منه للتزود بالماء والمؤن، على أن لا تقترب السفن من الشاطىء كثيراً حتى لا تتعرض للأخطار. وهذه الأخطار كانت تكمن في الشواطىء الصخري الضحلة، والجزر الكثيرة هناك؛ كما كان السكان على استعداد للانقضاض على هؤلاء الأغراب فيما لو واتتهم الفرص. وقد زادت هموم نيارخوس، في الأجزاء الأولى من الرحلة، إذ بلغ الجوع والعطش والمرض والسغب والحرمان من جماعته مبلغاً كبيراً، فكان يخشى إذا اقتربت السفن من الشاطىء أن يفر رجاله إلى اليابسة.

وقد ظل الحال مراوحة بين الحصول على بعض المواد الغذائية بحيث ينال الرجال شيئاً قليلاً منها، وبين انعدام المؤن، حتى أن الجماعة كانت تضطر إلى الاكتفاء بأكل جذوع النخيل الرخصة، إلى أن وصل الأسطول شواطىء كرمانيا، فتوفر لهم الغذاء. ولما دخلوا خليج عمان، وداروا بجسك، تبدلت الحال. ومن ثم اتجهوا شمالاً فمروا برأس مسندم، واجتازوا مضيق هرمز، ثم ألقوا بالمراسي عند مصب نهر أناميس (ميناب اليوم) في منطقة خصبة غنية بكل أنواع الغلات باستثناء الزيتون، على ما روى أريان.

وفي المنطقة التي تقع على جانبي النهر المذكور أراحوا وطعموا وسقوا، فنسوا ما مر بهم من متاعب. وإذ عرف نيارخوس أن الإسكندر كان في داخل البلاد على مسيرة خمسة أيام من مكان وجودهم، ترك جماعته وسار إليه ليقدم له تقريراً عن الحالة والطريق. أما البحارة فاغتنموا الفرصة فتعهدوا السفن بالإصلاح والتشحيم والدهن وإصلاح الأشرعة أو تبديلها. فلما عاد نيارخوس كان القوم على أهبة الاستعداد للرحيل. فساروا في محاذاة الشاطىء مارين بمدينة أورغانا (هرمز) وجزيرة أوركتا (قسم) ثم جزيرة يسميها الرواة كاتيا (لعلها

جزيرة قيس). وأخيراً وصل الأسطول إلى منطقة بوشير ونزلوا إلى البر عند نهر رودهله ثم عند نهر هندياني. وكان الماء هنا ضحلاً والصخور كثيرة، فكانت السفن تتنقل بحذر كبير. وأخيراً ألقى الأسطول مراسيه على مقربة من الأهواز الحالية. وكان ذلك في ٢٤ شباط / فبراير من سنة ٣٢٥ق.م. وقد قضى الأسطول ١٤٦ يوماً في الطريق منها ثمانون يوماً بين ميناء الإسكندر والأهواز[٨].

كانت رحلة نيارخوس، على ما منيت به من خسائر في الأرواح والسفن وما كابده رجالها من الصعاب، رحلة ناجحة من حيث التثبت من الأماكن الصالحة للوقوف والتزود أو حتى لبناء الموانىء والمدن على شاطىء الخليجين ــ خليج عُمان والخليج العربي. إلا أن هذه المعرفة اقتصرت على الشاطىء الشرقي أي الفارسي. فأعد لذلك ثلاث حملات كبيرة السفن مع قلة في عددها. وكان في جملة ما فعله الإسكندر، استعداداً لهذا العمل، أن أرسل إلى صيدا في لبنان خمسمائة وزنة من الفضة لسكّها نقوداً كي يستأجر البحارة اللازمين للقيام بهذه الحملات. أما السفن فقد بنيت في مدن فينيقية وحملت أقساماً وأجزاء إلى تبسكوس على نهر الفرات، ثم على القوارب نهراً إلى رأس الخليج.

وصلت أولى هذه الحملات إلى جزيرة البحرين، والثانية تجاوزت هذه الجزيرة في بعض الطريق، ولعلها مست أبو ظبي؛ أما الثالثة فقد بلغت رأس مسندم ودارت به غرباً بجنوب بعض الشيء. وبسبب نجاح هذه الحملات أخذ الإسكندر نفسه بإعداد حملة أكبر بقيادة نيارخوس الذي أمر بالدوران حول بلاد العرب إلى البحر الأحمر، كما أن الإسكندر أمر أسطولاً آخر بالإبحار من السويس لاكتشاف شواطىء هذا البحر نفسه. وثمة من يرى أن هذا الأسطول وصل إلى بعض نواحي اليمن.

لكن الإسكندر توفي سنة ٣٢٣ق.م. وتوقف كل شيء[٩].

٢

الوحدة السياسية التي كان الإسكندر يمسك بزمامها تقطعت أوصالها بوفاته، وخلفه، على الأقل في المناطق التي تعنينا مباشرة في هذا البحث، السلاقسة في ديار الشام والعراق وإيران (وهذه المملكة تقلصت سلطتها عن الشرق تدريجاً) والبطالمة في وادي النيل وما إليه. وليس يعنينا الآن ما قام بين الدولتين من حروب ونزاع، وخاصة طيلة القرن الثاني ق.م. ولكننا نود أن نعرض هنا إلى الدور الذي قامت به كل من هاتين الدولتين في سبيل التعرف إلى البحار الشرقية.

ومن الطبيعي أن يكون للبطالمة يد كبرى في ذلك. فمصر تقع على البحر الأبيض المتوسط من الجهة الواحدة، وعلى البحر الأحمر من الجهة الأخرى. ولذلك فلا بد لملوكها، متى اطمأنوا إلى السلام في البلاد والأمن في البحر، من أن يحاولوا توسيع مجالهم التجاري جرياً على ما كان يحدث من قبل. وقد عرف القرن الثالث ق.م. ثلاثة من ملوك البطالمة، وكلهم شهروا بهذه الاهتمامات، وهم: بطليموس الأول سوتر (٣٢٣ ــ ٢٨٥ق.م.) وبطليموس

الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ ــ ٢٤٦ق.م.) وبطليموس الثالث ايفرغيتس (٢٤٦ ــ ٢٢١ق.م.).

كان بطليموس الأول أحد القادة الذين رافقوا الإسكندر في فتوحه الشرقية. وقد تعرف إلى مصب نهر السند شخصياً، كما أنه كان يعرف أخبار حملات نيارخوس. لذلك كان يرى أنه من الممكن إنشاء صلات تجارية مباشرة مع مدينة بلبوترا (بتنا) الواقعة على نهر الكنجز. وفي سبيل تحقيق ذلك كان لا بد من أن يقيم محطات ومراكز للتجار على هذا الطريق الطويل. ومن هنا نجد عناية البطالمة، في أيامه وأيام خلفائه، في إقامة هذه الموانىء البحرية: أرزينوي (قرب السويس الحالية) ومايوس هرموس (أبو سمر) ولوكس ليمن (القصير) وبرنيتسي وراس بناس وأدوليس (عدولي) قرب مصوّع وبطولمايس أو إصلاح ما كان منها قبلاً. هذا، بالإضافة إلى الاهتمام بمدن كانت على النيل كي تكون كل منها نقطة تصل الداخل بالساحل عند واحد من هذه الموانىء مثل قفط (كوبتوس).

هذه الموانىء خدمت البطالمة، بخاصة في القرن الثالث، في عدد من الأمور التي يمكن أن تلخص في ما يأتي:

١ ــ في أيام بطليموس الأول اكتشفت جزيرة صغيرة في البحر الأحمر وحمل منها الزمرد إلى مصر[١٠].

٢ ــ أصبح الاتجار بين مصر وبلاد سبأ ممكناً لوجود موانىء مصرية قريبة من جنوب غرب الجزيرة العربية.

٣ ــ شجع وجود هذه الموانىء التجار على محاولة الخروج من باب المندب إلى بلاد الصومال. وقد تمّ بعض هذا في أيام بطليموس الثاني، ولكنه كان أوسع نطاقاً في عهد خليفته.

٤ ــ كان البطالمة، كغيرهم من الملوك القدامى، يستعملون الفيل ــ دبابة العالم القديم ــ في الحروب. ويبدو أن الأفيال اللازمة كانت تأتي من الهند. ولما كانت الطرق البرية في متناول السلاقسة، فقد كان حصول هؤلاء على الأفيال أيسر. وكان نقل الأفيال من الهند إلى مصر يكلف البطالمة نفقات باهظة. لذلك فإن الاهتمام بموانىء البحر الأحمر وشواطىء الصومال كان المقصود منه الحصول على الفيلة من أفريقيا. ومع أن المحاولة الأولى تعود إلى بطليموس الأول الذي حصل على عدد من الفيلة بطريق بطولمايس، فإن الذي جنى النتائج الأكبر هو بطليموس الثالث. فقد أرسل عدداً من الخبراء لإنشاء مراكز بحرية لذلك على الشواطىء الأفريقية، حتى خارج باب المندب[١١].

٥ ــ اهتم البطالمة بالتعرف إلى الموانىء الشرقية للبحر الأحمر. وقد أرسلوا لذلك جماعات لاكتشاف هذه الشواطىء تمهيداً لحملات عسكرية لم تنته إلى احتلال أو فتح، لكنها يسّرت لحكام مصر معلومات أدق عن العلا وموانىء الحجاز والجزر المجاورة لليمن.

٦ ــ بسبب أن بطليموس الثاني تمكن من وضع حد لعمل القراصنة في البحر الأحمر، ويسّر للتجار التنقل، فقد تشجع بعضهم وخرجوا إلى الشواطىء الأفريقية للتفتيش عن «بلاد

القرفة» (وهي الصومال)، بعد رأس غردافوي. وقد استمر هذا في أيام بطليموس الثالث.

ومع جميع هذه المحاولات التي قام بها البطالمة وبحاروهم وتجارهم وسفراؤهم فإنهم لم يستطيعوا القيام بالمتاجرة المباشرة مع الهند. فقد ظل للعرب السيطرة الرئيسة على العمل التجاري طرقاً ومتاجر.

وإذا نحن انتقلنا إلى السلاقسة وتابعنا محاولاتهم البحرية بالنسبة للاتصال مع الهند، لوجدنا أن القرن الثالث ق.م. كان فيه نشاط محدود، بالمقارنة مع نشاط البطالمة. ولعل السبب الرئيس هو أن الدولة السلوقية، في أول أمرها على الأقل كانت مجاورة للهند. واستمر هذا حتى انفصل الجزء الشرقي من مملكة السلوقيين، وهو الذي قامت فيه الدولة الفارسية (بارثيا). ولذلك فالاهتمام بالبحر، عن طريق الخليج العربي وخليج عمان، لم يكن موضع عناية كبيرة.

ومع ذلك فإننا نجد أن سلوقس نيكاتور (٣١٢ ــ ٢٨١) أرسل ميغاثيتس إلى الهند ليكون سفيراً مقيماً له في بليبوترا (بتنا). والمرجح أنه ذهب إلى الهند بحراً. وقد ترك هذا السفير معلومات قيمة عن الشواطىء الهندية الشمالية الغربية[١٢].

لكن السلاقسة كانوا أقل احتفالاً بالخليجين الشرقيين من احتفال البطالمة بالبحر الأحمر. ونرجح أن السبب، كما قلنا، هو وجود طريق بري (أو طرق برية) يصل بين الهند والصين من جهة وملك السلاقسة من جهة أخرى. بينما كان البطالمة يعتمدون على البحر بشكل خاص للحصول على ما يريدون[١٣].

على أن السلاقسة كانوا ينقمون على أهل الجرها العرب لتفوقهم التجاري في الخليج العربي، الأمر الذي كان يمكنهم من السيطرة على النقل التجاري بين مدينتهم (في أواسط الأحساء اليوم) وبين الواحات الواقعة في مناطق شمال نجد إلى تيماء فالمدن السورية وغزة. وكان الفرس (الفرثيون)، وقد خرجوا عن السلطة السلوقية، عوناً للجرهيين في أعمالهم التجارية. لذلك نجد أنطيوخوس الثالث، الذي تمكن من توطيد السلطة السلوقية، يهاجم جرها (٢٠٥ ــ ٢٠٤ق.م.) ولكنه لم يقدر على القضاء عليها[١٤]. أما أنطيوخوس الرابع (١٧٦ ــ ١٦٤ق.م.) فقد أزعجه التجار العرب والفرس الذين تسلطوا على متاجر الخليج العربي وموانئه فأرسل من درس شواطىء الخليج العربية حتى وصل إلى قطر[١٥]. ولعله كان يعد العدة لحملة بحرية ضد تلك المناطق، لكنه لم يفعل ذلك.

في القرن الثاني ق.م. اضطربت أحوال البطالمة في مصر، لكن هذا لم يعق التجار. ذلك أن غرب البحر المتوسط، وبخاصة روما، زاد اهتمامه بالمتاجر الهندية. والذي نعرفه أن التجار اليونان زادت معرفتهم بشواطىء البحر الأحمر العربية، واتسعت تجارتهم بحيث إنهم اتصلوا بتجار في جنوب الجزيرة وفي بلاد الصومال، بل إننا نسمع أخبار جزيرة سوقطرى وجزر كوريا موريا. والمهم أن التجارة كانت هي الدافع الرئيس لذلك كله. ومع أن الاهتمام بالحصول على الفيلة ظل موضع عناية، فإن ذلك كان أقل منه في القرن السابق[١٦]. لكن

العرب ظلوا حاجزاً أساسياً بين الاتصال المباشر مع الهند. وقد خلّف لنا الأدب الجغرافي اليوناني الكثير من القصص البحرية، ولكن ذلك لا يهمنا بالنسبة إلى ما نحن فيه[١٧].

استمر الاهتمام التجاري بالهند وبضائعها في القرن الأول ق.م. على ما وصلت إليه مصر من ضعف سياسي. وفي مطلع القرن وصل يونانيو مصر إلى سوقطرى، ويبدو أن بطليموس الحادي عشر أوليتوس (٨٠ ــ ٥١ ق.م.) أرسل إلى تلك الجزيرة معمرين يونان ليقيموا فيها إما كحامية أو كتجار. وظل هؤلاء فيها قروناً طويلة[١٨]. وقد وصل التجار اليونانيون إلى أسيلا (لعلها قلهات شمال رأس الحد على خليج عمان). لكن منطقتين لم يستطيعوا التوغل فيهما وهما: الساحل الأفريقي جنوب رأس غودفروي والخليج العربي. أما الأول فبسبب وجود دويلات عربية وأثيوبية هناك، وأما الثاني فلأن السلاقسة والفرثيين والعرب كانوا يسيطرون على تجارته ومقدراته.

٣

كان قيام الأمبراطورية الرومانية، في النصف الثاني من القرن الأول ق.م. شيئاً هاماً في التاريخ. فقد حدث لأول مرة في تاريخ العالم أن انضمت هذه المجموعة الكبيرة من البشر تحت حكم واحد وفي إدارة واحدة. وكان معنى هذا، من الناحية السياسية، بدء عصر السلم الروماني الذي مهّد لانتقال الناس إلى العناية بالفنون والآداب والعمارة والحياة. أما من الناحية الاقتصادية فكان إيذاناً بنشاط كبير في الإنتاج والإنفاق. وبسبب اهتمام الناس، وبخاصة أصحاب الثراء، بالملبس والمأكل والمنزل المريح والمظهر الأنيق والمجتمع المتألق، فقد كثر اهتمام التجار في الحصول على كل ما يزيد هذه الأمور رونقاً وجمالاً وطعماً مثل الطيوب والأفاوية والبهارات والمجوهرات والحجارة الكريمة والخشب والعاج لاستعمالها في شؤون الحياة المختلفة. وإذ كانت هذه الأشياء تأتي من بلاد الصومال وجزيرة العرب والهند، فإن التاجر كان عليه أن يحصل عليها. ولما كانت مصر جزءاً من الامبراطورية من جهة، ومركزاً هاماً للتجارة مع تلك الأقطار من جهة أخرى، فقد ترتب على حكام مصر ــ على الوالي الروماني باسم الامبراطور ـ أن يؤمن هذه الحاجات والمتاجر.

وفي الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الرومانية تقتعد مكانها في إطار العالم المعروف غرباً، كانت الصين تتطلع نحو آفاق قريبة منها (أو أسواق بعيدة عنها تصلها بالواسطة) لتبيع حريرها وغيره. ومع أن الصين كانت تبعث بما عندها على الطرق البرية، فإن الطريق البحرية كان لها إغراؤها. ذلك أن الامبراطورية الفرثية (البارثية) كانت يومها تشغل الرقعة الممتدة من حدود أفغانستان اليوم إلى نهر الفرات وتسيطر حتى على الجزء الشمالي الشرقي من الخليج العربي. وعندما كانت تقوم الحرب بين الفرثيين والرومان (غرباً) أو بعض الهنود (شرقاً) فإن الطرق التجارية تتعطل. يضاف إلى هذا كله أن التجارة البحرية بين أجزاء من الهند ومصر كانت قد أصبحت مألوفة. ولكن الذي يجب أن يذكر هو أن هذه التجارة كانت تتم على أيدي التجار العرب في أغلب الأحيان. ولم يعرف في واقع الأمر أن تجاراً من مصر

ـ في أيام البطالمة أو حتى قبلهم ـ وصلوا إلى الهند إلا في ما ندر.

حريٌّ بالذكر أيضاً، أنه في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الرومانية تحتضن هذه المجموعة البشرية الكبيرة في إطار واحد، كانت الهند، وبخاصة الجزء الغربي والشمالي الغربي منها، وهو الذي يعنينا في هذا البحث، مقسمة إلى عدد من الدول هي، من الشمال إلى الجنوب: دولة ساكا ودولة بوتشى ودولة أنديرا ودولة شولا ودولة بنديا ودولة شرا. وقد تقتتل هذه الدول فيما بينها، وقد يسود بينها السلام، ولكن المهم أنها لم تكن تزاحم واحدتها الأخرى، ذلك أن منتوجاتها كانت مختلفة. ولذلك فقد كانت كل منها تجد تجاراً يهتمون بما تنتج.

ولعله من المفيد، ونحن نشير إلى هذه الوحدات السياسية المختلفة هذه الإشارة العابرة، أن نلتفت إلى جنوب الجزيرة العربية لنرى ما كان عليه الوضع في تلك الجهات في الزمن المذكور. فحول سنة ١١٥ ق.م. كانت دولتا معين [في الجوف وعاصمتها قرناو وهي خربة معين اليوم] وسبأ [التي تمركزت حول سبأ أولاً ثم اتسع سلطانها بحيث شمل جنوب الجزيرة بأجمعه تقريباً] قد انتهى أمرهما. أما دولة قتبان [بين منطقتي عدن وحضرموت وعاصمتها كانت تمنع وهي حجر كحلان اليوم] فقد بلغت ذروة مجدها في القرن الأول قبل الميلاد. والمعروف أنها سكت نقداً ذهبياً حول سنة ٥٠ ق.م. وقضت دولة حضرموت [كانت عاصمتها شبوة] في أواخر القرن الأول قبل الميلاد على دولة قتبان. والدولة التي كانت معاصرة للفترة التي نتحدث عنها هي دولة حمير التي قامت حول ظفار في اليمن ولم تلبث أن ضمت دولتي سبأ ومعين إليها. فكانت أوسع دول الجنوب نفوذاً. ومع ذلك فإننا نجد أن الكتّاب المعاصرين من الجغرافيين يذكرون سبأ كأنها دولة قائمة[١٩].

كان أغسطوس يود أن يستولي على جنوب الجزيرة لتتم له السيطرة على الطرق التجارية البحرية. لذلك نجده يرسل حملة عسكرية في سنة ٢٥ ق.م. بقصد احتلال اليمن. فأمر أغسطوس القائد العام في مصر (غالوس) بأن يسير إلى تلك البلاد في عشرة آلاف جندي، مع ألف جندي من الأنباط. وتولى سيلوس الوزير النبطي مهمة التموين والإرشاد.

بدأت الحملة من أرزينوي، على مقربة من السويس الحالية، ونقل الجنود عبر البحر الأحمر إلى لوكي كومي (الحوراء) على مقربة من ينبع. وبعد تأخر اضطراري بدأت الحملة سيرها في ربيع سنة ٢٤ق.م. وقد كان الطريق وعراً صعباً والماء قليلاً، فلقي الجنود الأمرّين في رحلة قضوا فيها ثلاثين يوماً في حمى ملك الأنباط وخمسين يوماً بعدها حتى وصلوا نجران، التي احتلوها ودمروها. ويبدو أن الجيش لقي بعد ذلك جماعة من العرب انتصر عليهم. ثم حاصر غالوس مدينة مريما (؟) لكنه عجز عن احتلالها، ولم يصل مأرب. وعاد أدراجه بعد ستة شهور من السير المضني مع الجوع والعطش والحر. أما في العودة، وفي الطريق ذاته، فقد احتاج الجيش إلى ستين يوماً فقط. وأخيراً نقل الجيش ـ أو ما تبقى منه ـ مرة ثانية عبر البحر الأحمر إلى ميوس هرموس (أبو سمر) في مصر ومنها إلى قفط

فالإسكندرية[٢٠].

وثمة ذكر لحملة أخرى تلت تلك وانتهت بتدمير ميناء عدن، ولكن المهاجمين لم يستطيعوا احتلال المنطقة.

ثمة حادث كان له أثر كبير في تطور النقل البحري بين جنوب الجزيرة العربية وأفريقيا من جهة، وبين الهند من جهة أخرى، وهو اكتشاف مسير الرياح الموسمية.

تم ذلك على يد هيبالوس، وعلى الأرجح في العقد السابع من القرن الأول الميلادي. وهيبالوس تاجر وملاّح يوناني كان على معرفة تامة بما شاع وذاع من أخبار البحر الأحمر وبحر العرب والخليجين وشمال المحيط الهندي، وكان يتنقل في تلك البحار ويتاجر فيها. ويبدو أنه تصور أن الهند تكون شبه جزيرة تمتد جنوباً في مياه المحيط الهندي، وكان يعرف مواقع الموانىء بالنسبة إلى بحر العرب. ولاحظ أنه بين شهري أيار/ مايو وتشرين الأول١٢٤ أكتوبر تهب رياح من الجهة الجنوبية الغربية إلى الجهة الشمالية الشرقية، وأن هذه الرياح منتظمة في سيرها واتجاهها. كما أنه لاحظ أن رياحاً أخرى، على شاكلتها انتظاماً، تهب من الجهة الشمالية الشرقية إلى الجهة الجنوبية الغربية بين شهري تشرين الثاني/ نوفمبر وآذار/ مارس.

هذا كله كان هيبالوس يعرفه. لذلك جازف في إحدى رحلاته البحرية التجارية. فخرج من عدن، ولما وصل مقابل رأس فرتك تخلى عن فكرة محاذاة الشاطىء ودفع بسفينته عبر مياه بحر العرب مفيداً من الرياح الموسمية الصيفية. فوجد أن نظرته كانت صائبة، إذ إن السفينة وصلت إلى مصب نهر السند رأساً، بدل أن تسير في محاذاة الشاطىء إلى خليج عمان، ثم تقطعه في أضيق أماكنه لتحاذي الشاطىء الكرماني والهندي إلى مصب السند وخليج كامبلي[٢١].

أصبح باستطاعة السفن، إذا كانت كبيرة وقوية وتعتمد الشراع المربع، أن تصل إلى بربريكون (باهارديبور) وبريغازا (برواخ). لكن كان ثمة أمران حريان بالاهتمام: الأول، أن مداخل الأنهار الكثيرة هناك ــ فروع نهر السند وغيرها ــ كانت خطرة لأن المياه ضحلة ولأن الصخور كثيرة. والأمر الثاني، هو أن المنطقة الهندية التي كانت تهم التجار الآتين من الغرب كانت المنطقة الجنوبية ــ في بلاد تاميل وساحل ملبار. وقد تمّ هذا للتجار المغامرين على درجتين: الأولى، جاءت على أيدي تجار كانوا يسيرون محاذين للشاطىء إلى رأس فرتك ثم يعبرون المياه الواسعة رأساً إلى أواسط الهند. والثانية، جاءت بعد ذلك إذ أصبح الربان الماهر يسير من عدن إلى موزيريس (كرنغامور) في جنوب الساحل الغربي من الهند متبعاً قوس الدائرة العظمى[٢٢].

هذا الطريق الأخير أصبح الطريق الذي يتبعه تجار عصر الأمبراطورية الرومانية في انتقالهم من الغرب إلى الشرق، من حصن الغراب (قنا) أو من عدن أو من راس غواردفوي أو حتى من مخرج البحر الأحمر إلى ساحل ملبار أو إلى سيلان (سري لانكا). وأصبح التوقيت

الزمني للسفن المصرية على الوجه التالي: تغادر السفينة ميناءً مصرياً في شهر تموز/ يوليو فتصل جنوب البحر الأحمر وتخرج منه في أوائل شهر آب/ أغسطس، فتدفع بها الرياح إلى ساحل ملبار فتصل في أوائل أيلول/ سبتمبر. وكانت الرحالة في جزئها الأخير تحتاج نحو أربعين يوماً. وهذه السفن التي تم لها هذا النجاح كانت تختلف عن السفن السابقة. فهذه كانت صغيرة، وكانت ألواح الخشب فيها مربوطاً واحدها بالآخر بحبال من ليف جوز الهند، ولم تستعمل المسامير الحديدية في بنائها قط.

أما السفن الجديدة فكانت أكبر وأقوى، ولذلك كان بإمكانها أن تصارع الأمواج العاتية هناك.

وقد استمر اهتمام الرحالة والتجار والملاحين اليونان في التعرف إلى الهند وشرق أفريقيا خلال القرنين الأولين بعد الميلاد. وكانت زيارة البعثة (التجارية) الرومانية التي أرسلها ماركوس أوريليوس سنة ١٨٤م إلى بلاط الأمبراطور الصيني هوان ــ تي قمة في تاريخ العلاقات بين جنوب شرق آسيا وغرب تلك القارة، ومن ثم مع عالم البحر المتوسط[٢٣].

٤

كان من المفيد، في رأينا، أن نضع هذه المقدمة بين يدي القارىء قبل التحدث عن التجارة بين البحر الأحمر وبلاد الهند في القرن الأول للميلاد. أما حديثنا عن التجارة بالذات من حيث موانئها ومراكزها ومتاجرها وطرقها فهو الذي ننتقل إليه الآن.

ونود أن نلفت إلى أن هذا القسم من البحث مبني على كتيب مجهول اسم مؤلفه، يعود وضعه إلى القرن الأول للميلاد. وهو وثيقة من نوع يكاد يكون فريداً في بابه.

والباحثون متفقون على أن هذا الكتيب هو من تأليف تاجر يوناني كان يعيش في مصر في القرن الأول للميلاد. ومع أن أكثر هؤلاء الباحثين يرى أنه عاش في النصف الثاني من القرن الأول، فهناك خلاف كبير في تحديد الزمن بشكل دقيق، بل ان منهم من يرجعه إلى قبل ذلك ببضعة عقود من السنين[٢٤].

واسم هذا الكتيب هو، مترجم إلى الإنكليزية Sea Periplus of the Erythraean. والكلمة التي تحتاج إلى توضيح هي Erythraean، وهي كلمة يونانية معناها الأحمر. ومع أننا نعرف بحراً يسمى البحر الأحمر، فالكلمة اليونانية كانت، في الفترة التي نتحدث عنها، تعني القسم الشمالي من المحيط الهندي والبحر العربي وخليج عمان والخليج العربي والبحر الأحمر وبحر الزنج. والواقع أن هذا الكتيب يتناول فيه صاحبه الموانىء الواقعة على شواطىء مجاميع المياه المذكورة بأجمعها. ولذلك، ومنعاً لأي لبس حول الموضوع، فإننا نفضل الاحتفاظ بالكلمة اليونانية معربة فنقول «الأرثري». وكلمة Periplus وهي رحلة أو دورة. ونحن مع اعترافنا بأن الكلمة التي نقترحها ليست ترجمة دقيقة، فإننا نفضل أن نستعمل «دليل» تجاوزاً من جهة، ومطابقة للفكرة التي وضع الكتيب من أجلها. ولذلك فإننا نقترح «دليل البحر الأرثري».

والكتيب مؤلف من ٦٦ فصلاً قصيراً. فمجموع صفحاته في ترجمته الإنكليزية ٢٨ صفحة[٢٥]. وهو كما يبدو من قراءته بتمعن، نتيجة معرفة جغرافية وتجربة تجارية. فالمؤلف يذكر الموانىء الهامة والمراكز البحرية الثانوية والمدن والأسواق الداخلية ويعدد ما يرتفع من كل من التجارات، ويعين المسافات بالستاديات (الستاديا عشر الميل الإنكليزي ونحو سدس الكيلومتر).

يعدد صاحب الدليل ثمانية وعشرين ميناء هاماً موزعة على الشكل الآتي:

البحر الأحمر (مصر) ٢، أفريقيا جنوب باب المندب مع شرق أفريقيا ٩، بلاد العرب ٥، الخليج العربي ٢، ساحل مكران ١، الصين ١. هناك مراكز تصلح لرسو السفن لكنها ليست ميناء ــ والميناء في عرفه، في غالب الحالات، ما وجد فيه سوق ومخازن للمتاجر. ويضاف إلى هذا كله المراكز الداخلية التي تزود الموانىء بمنتوجات البلاد من الداخل.

والأوصاف الجغرافية للمدن صحيحة في غالب الأحيان. ومع أن الكتاب صغير فإنه يتسع لتعليقات وإشارات مفيدة. فمن ذلك إشارته إلى الطريق الداخلي من أدوليس (عدولي) على الساحل الأفريقي إلى الداخل إلى نهر عطبرة ثم شمالاً عبر مناطق فيها كلأ وربيع، بدل الطريق الذي يصل الموانىء الشمالية بالمدن الواقعة على النيل، والذي يجتاز بقاعاً جافة[٢٦]. ومن ذلك وصفه الدقيق لمصب نهر الكنج والأخطار التي يتعرض لها البحارة الحديثو عهد بالوصول إلى تلك المياه. ثم يشير إلى الاهتمام الذي يوليه حكام تلك الجهات إلى إرشاد السفن[٢٧].

ولا بد لكتاب من هذا النوع، ولو كان قصيراً، من أن يقع واضعه في أخطاء. وعلى سبيل المثال يمكن القول إجمالاً إن المسافات التي يذكرها لا تنطبق على الواقع. إلى ذلك يضاف أخطاء تاريخية تتعلق بمملكة أكسوم وحمير وبعض ممالك الهند (٢٨).

والطريقة التي يلجأ إليها المؤلف في هذا الدليل هي أن يذكر الميناء (أو المدينة) فيصف الموقع ــ ليس دائماً ولكن غالباً ــ ويشير إلى المتاجر الموجودة فيها: المستورد منها والمعد للتصدير، ويذكر الطريق الذي يصلها بالداخل. ويعرض لشيء من التاريخ القريب إن كان لذلك علاقة بالتجارة. فالمؤلف تاجر قبل كل شيء، ويبدو أن ثقافته ــ كما نقول اليوم ــ لم تكن رفيعة. ولغته، كما يقول العارفون باليونانية، لغة رجل محدود الثقافة. لكن بقدر ما تيسر له، فإن معلوماته صحيحة. وسبب ذلك أنه عرف الموانىء ونزلها تاجراً أو زائراً ــ باستثناء موانىء الخليج العربي. أما أخباره عن موانىء شرق الهند وما هو أبعد من ذلك شرقاً فقد رواها على السماع. والرجل يقدم لنا معلوماته بدون صناعة أو تصنع.

ونحن إذا أخذنا ما زوّدنا به صاحب الدليل من المعلومات على أساس الغلات النباتية والمعادن والمنتوجات الصناعية التي عرفتها المناطق الممتدة من الهند إلى مصر وشرق أفريقيا عبر بحر العرب وخليج عمان والبحر الأحمر وبحر الزنج، أمكننا أن نجمل ذلك على الشكل التالي:

١ ــ منطقة شرق البحر المتوسط (باستثناء مصر).

الخمور: اللاذقية وإيطاليا (ف ٦).

زيت الزيتون: فلسطين، لبنان، سوريا، اليونان وإيطاليا.

الكهرمان: صقلية (كان يستورد من البلطق أيضاً).

المرجان: مصايد المرجان كثيرة في غرب حوض البحر المتوسط (ف ٢٨ و٣٢ و٤٩ وص ١٦٨).

الزجاج: من لبنان ومدن الساحل السوري (ف وص ٦٨).

الغار الأبيض: من اليونان وإيطاليا (ف ٤٩ ص ١٩٠).

القماش الأرجواني: صور (ف ٢٤ و٣٦).

٢ ــ مصر والبحر الأحمر (الساحل الأفريقي).

الأقمشة: (مصر) وخاصة الكتانية (ف ٦ و٧ و٨). وكانت مدينة أرزيوني (القلزم فيما بعد) مركزاً كبيراً للصناعة.

عصير العنب: (ف ٧ مصر).

الكحل: كان يصنع في مصر (ف ٤٩) ومادته تستورد من شرق الجزيرة العربية (ف ٤٩).

المرجان من البحر الأحمر (Huzayyin ص ٢١٠).

اللؤلؤ: من البحر الأحمر (Huzayyin ص ٢١٠).

الحجارة الثمينة الشفافة: الزمرد والياقوت الأصفر والعقيق الأحمر (ف ٦، و٣٩ ص ٦٨ و١٦٧).

٣ ــ جنوب الجزيرة العربية ــ من اليمن إلى حضرموت

البخور بنوعيه اللبان والمر (ف ٢٤ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣٧).

الذَبل (البري والبحري) وهو غلاف السلاحف (ف ٣٠).

الحبوب: من اليمن (ف ٢٤).

الخمور من التمر والعنب (ف ٢٤).

معدن الكحل من شرق الجزيرة (ف ٤٩).

المرمر أجوده من اليمن (ف ٢٤).

الذهب في أماكن كثيرة في الحجاز وشرق الجزيرة (ف ٣٦، ص ١٦٠).

الرماح التي كانت تصنع في منطقة موزا (مُخا) ويبدو أن الحديد أو الفولاذ المستعمل في صنعها كان ينقل من الهند (ف ١٧ و٣٩ ص وص ١٧٢).

٤ ــ شرق أفريقية (طبعاً المعروف آنذاك ولعله لم يصل جزيرة زنجبار)

القرفة (ف ١٠ و١٢ و١٤).

السمسم (ف ١٣ و٤١).

المر (١٢ و٣٧ و٤٩ و٥٦ وص ١٦٤ و٢١٣ ـ ٤).
العاج بكميات كبيرة (ف ١٦ و١٧).
الذبل (ف ١٣ و١٦ و١٧) وأنواعه جيدة.
قرن وحيد القرن (ف ١٧).
الرقيق (ف ١٣ و٣٦) لكن الأعداد لم تكن ضخمة.
٥ ـ منطقة الخليج العربي وخليج عُمان وكرمانيا
المرجان (Huzayyin ص ٢١٠).
اللؤلؤ (Huzayyin ص ٢١٠).
الخمور من شرق الجزيرة (لعلها منطقة القطيف) وعمان (ف ٣٦ و٤٩ و١٦٠).
التمر عمان (٣٦ و٤٩).
رهج الغار من كرمانيا (ف ٤٩ وص ١٩١).
القوارب المخيطة (ف ٣٦).
٦ ـ الهند وما جاورها
الذهب ـ غرب الكنج (ف ٦٣ وص ٢٥٨).
الفولاذ الهندي (ف ٦ و٣٩ وص ١٧٢) كان مطلوباً في المنطقة المحيطة بالمحيط الهندي.
النحاس ـ كان النحاس يصهر في عدد من مدن الهند الداخلية (ف ٣٦).
الأخشاب وبخاصة التيك والأبنوس (ف ٣٦ وص ١٥٢).
البتل (ف ٥٦ وص ٢١٧) وهو نبات يمضغه الهنود بعد الأكل.
الأرز بكميات كبيرة (ف ١٤ و٤١).
القمح (ف ١٤).
زيت السيرج (ف ١٤ و٤١).
الدهن الهندي (ف ١٤ و٤١ وص ١٧٦).
السكر (ف ١٤ وص ١٦٧).
الماس (ف ٥٦ وص ٢٢٤).
العقيق والياقوت من داخل البلاد بنوع خاص (ف ٣٩ و٤٨).
الياقوت الأزرق من الملبار (ص ٢٢٢).
اللؤلؤ في خليج منار (ف ٥٤ ـ ٥٨).
الكحل يصنع في الهند (ف ٤٩).
الموسلين من أراغورا (ف ٣٩ وص ١٦٨).
أقمشة من أنواع مختلفة (ف ٤٨).
الأواني الفخارية (ف ٤٩ و٥٦ وص ٢٢٠).

الذَبل

النيلة (ف ٣٩ وص ١٧٢).

الأفاويه ويدخل في عدادها الفلفل بأنواعه والقرفة. وكان ساحل ملبار المصدّر الأول لأكثر هذه الأنواع. ولكن مع الزمن تمكن التجار من الحصول على بعضها من أسام وبرما وإن كان مؤلف «الدليل» لم يصل تلك الجهات (ف ٣٩ و١ع و٤٩ و٥٦ وص ١٦٩ و١٩١ و٢١٣ ــ ٤).

الطيوب وهذه أيضاً كانت كثيرة الأنواع من العود إلى العطور (ف ٣٩ و٥٦ وص ١٧٠ و٢١٧).

٧ ــ الملايو والصين

الحرير (ف ٣٩ و٤٩ و٥٦ و٦٤ وص ٢٦٣ وما بعدها).

الحديد (Huzayyin ص ١٩٩).

الأواني الفخارية والصينية (ف ٥٦ وص ٢٢٠).

الغار (ف ٤٩ وص ١٩١).

٨ ــ يضاف إلى ما ذكر

اليشب الذي كان يؤتى به من أواسط آسيا (ص ٢٢٢ و٢٢٣) والفرو (من التبت ص ١٧١ و٢٥٧).

الرصاص من الشرق (ف ٤٩ وص ١٩٠ و٢٢١) والفيروز من خراسان (ص ١٧١) واللازورد الذي كان يأتي دوماً من شرق إيران وبكتريا (Montet ص ١٤٥).

٥

يذكر مؤلف «الدليل إلى البحر الأرثري» الموانىء التي عرفها شخصياً، وهي الموانىء الواقعة على البحر الأحمر وموانىء شرق أفريقيا وموانىء جنوب الجزيرة وخليج عمان وموانىء الهند الغربية. ويضيف إلى ذلك أخباراً نقلها سماعاً عن الموانىء الواقعة في الخليج العربي وشرق الهند وشيئاً عن بعض موانىء الصين. إلا أنه، عندما يتحدث عن الموانىء الهندية (الغربية) الكبرى يشير إلى ما ينقل إليها من صناعات المدن الداخلية أو غلات المناطق الداخلية والمجاورة. فالرجل كان، قبل كل شيء، تاجراً ــ يعرف الموانىء ومتاجرها، استيراداً وتصديراً، ويعنى بذلك.

والذي نريد أن نفعله الآن، رغبة منا في الإفادة قدر المستطاع من هذه الوثيقة الفريدة، هو أن نتناول الموانىء الهامة في الدليل، فنلخص بعض ما ذكره عنها.

١ ـ في البحر الأحمر ـ الساحل الأفريقي

الموانىء الرئيسة للتجارة هنا هي، من الشمال إلى الجنوب: ميوس هرموس (را أبو سمر) وبرنيتسي (خليج أم الكتف) وبطولمايس (جزيرة الريح) وأدوليس (عدولي). وقد كانت الأولى نقطة الانطلاق الأولى في أيام البطالمة للاتجار مع الساحل العربي وساحل أفريقيا

والهند، وكان اتصالها داخلياً مع قفط على النيل. ومثل ذلك يقال عن الثانية، التي كانت تتصل بقفط أيضاً. ومع أن الأولى فقدت بعض أهميتها في القرن الأول للميلاد، فإن الثانية ظلت الميناء الرئيس للاتجار مع الموانىء العربية[٢٩]. وكانت بطولمايس مركزاً للاتجار مع الداخل بخاصة للحصول على الفيلة اللازمة للبطالمة[٣٠]. ولكن لما أهمل استعمال هذه الحيوانات في الحروب قلّت أهمية هذا الميناء. أما أدوليس، وكانت على مقربة من ميناء مصوع الحالية، فقد كانت تتجمع فيها غلات السودان وأثيوبيا، فضلاً عن الكثير من منتوج الصناعة المصرية. ولذلك نجد أن صاحب الدليل يعدد الواردات التالية للمدينة: القماش من مصر والأثواب من أرزينوي والزجاج المصري ومنه ما هو شبيه بالحجارة الثمينة الشفافة من صنع ديوسبوليس (لعلها مدينة طيبة القديمة والأقصر الحالية)[٣١]. والنحاس الأصفر والأحمر والخمور من اللاذقية وإيطاليا وزيت الزيتون والحديد والفولاذ والأقمشة من الهند. أما ما كانت تصدره (بالإضافة إلى بعض ما تستورده مما ذكر) العاج والذبل وقرن وحيد القرن[٣٢].

٢ ـ في البحر الأحمر ـ الساحل العربي

تقع لوكي كومي (الحوراء) مقابل ميوس هرموس وبرنتسي على الشاطىء المقابل. وقد كان يصلها بالبتراء طريق بري تنقل عليه المتاجر التي تحملها السفن الصغيرة إلى هذه الميناء. وقد جرت العادة أن يقيم موظف من البتراء في الحوراء للنظر في الرسوم الجمركية وجمعها هناك تيسيراً لأمور التجار[٣٣]. إلا أن الميناء الرئيس للتجارة في ذلك الساحل هو موزا (مخا). مع العلم أن ميناءها لم يكن جيداً، لكن موقفها بالنسبة لليمن والجهة الأفريقية واتصالها بموانىء جنوب الجزيرة وما بعد ذلك جعل منها مركزاً تجارياً ممتازاً. ويعدد صاحب (الدليل) ما يرد إليها فيذكر: الأقمشة الأرجوانية والأردية اليمنية والزعفران والموسلين والأرز والطيوب والخمور والحبوب. أما ما يُبعث به فيشمل: المر الممتاز والمرمر والعاج والذبل (وهذان كانا ينقلان إليها من أفريقيا) والرماح والحراب[٣٤]. ويتاجر أهلها مع الساحل الأفريقي ومدينة بريغازا (برواخ) في الهند[٣٥].

٣ ـ في شرق أفريقيا

عندما تخرج السفن من البحر الأحمر، ميممة شطر شرق أفريقيا، تمر أولاً بأفاليتس (المرجح أنها زيلع الحديثة[٣٦]. ثم تأتي مالاو (بربرة)، وكانت تصدّر المر والقرفة والرقيق والعاج[٣٧]. وتنتقل السفن بعد ذلك إلى موسلوم (رأس هنترة؟) التي كانت مركزاً كبيراً لتصدير القرفة بحيث كانت تؤمها سفن كبيرة[٣٨]. وثمة أوبون (رأس هافون) التي كانت سوقاً للرقيق والذبل (من أفريقيا) والأرز والدهن الهندي والسيرج والأقطان والسكر (من الهند). وقد كانت هذه أكبر موانىء أفريقيا إلى الجنوب من رأس غودفروي[٣٩]. أما آخر ميناء في شرق أفريقيا يذكره صاحب «الدليل» فهو رابتا (لعلها كلوة)[٤٠]. ويبدو أن هذه المدينة كانت تستورد كميات كبيرة من رماح موزا (مخا) وحرابها وسيوفها. أما ما كانت تصدّره فلا يختلف عن الذي كان يصدر من غيرها من الموانىء الأفريقية مثل العاج بكميات كبيرة، لكن الصنف كان دون ما

يصدر من أدوليس (عدولي)، وقرن وحيد القرن والذبل (وهو أجود الأصناف بعد ذبل الهند) وزيت النخيل، ولكن بكميات محدودة.

٤ ـ في جنوب الجزيرة العربية

كانت هناك ثلاثة موانىء هامة: يوديمون (عدن) وقنا (حصن الغراب أو بير علي) وموشا (خور ريري) ومركزان تجاريان في جزيرة ديوسقورديا (سوقطرى) وجزر زنوبيا (كوريا موريا). أما يوديمون فقد كانت مركزاً لتبادل السلع المحمولة من الهند والسلع المنقولة من مصر وما وراءها، وذلك قبل اكتشاف الرياح الموسمية وقيام التجارة المباشرة (إلى درجة ما). وعلى كل، فيبدو أن المدينة دمرتها غزوة من الداخل قبل أيام صاحب «الدليل» بقليل. وكانت قنا من أكبر المراكز التجارية في جنوب بلاد العرب قبل أيام المؤلف، واستمرت على ذلك في أيامه وبعده. وكانت تجارتها تشمل البضائع الهندية والمصرية والأفريقية وما كان يأتي عن طريق الخليج العربي أيضاً. أما وارداتها، وهي أصلاً لحاجة سكانها وللتصدير، فهي القمح والأرز والخمر والثياب والأرز والأردنة والنحاس والقصدير. أما صادراتها فهي اللبان إذ إنها كانت أكبر موانىء تصدير هذا النوع من البخور الذي كان يحمل إليها من حضرموت وظفار على أنها كانت نقطة تبادل السلع المختلفة أيضاً. وموشا (خور ريري) كانت أيضاً مركزاً لتجميع اللبان بالدرجة الأولى. كما أن السفن العائدة من الهند كانت تشتو هناك إذا جاءت متأخرة بالنسبة للرياح. ويتبادل التجار عندها سلعهم من الأقمشة والقمح والسيرج مع موظفي أولي الأمر فيأخذون منهم اللبان.

ويتحدث المؤلف عن جزيرة ديوسقورديا (سوقطرى) فيصفها بأنها متسعة وأرضها في بعضها جاف لكن قسماً منها تغطيه المستنقعات التي تجتازها أنهار تكثر فيها التماسيح. كما أن الجزيرة تعرف العظايا الضخمة، التي يأكل الناس لحمها ويستعملون شحمها للتأدم به. وتصدر الجزيرة الذَبل البحري والبري. ذلك بأن تجار موزا (مخا) والتجار الذين تأتي بهم السفن مصادفة إلى الجزيرة يبتاعون هذه الأشياء. كما أنهم يحملون إليها حاجة السكان من الأرز والقمح والقماش الهندي والرقيق من النساء، ولكن بأعداد محدودة. أما جزر زنوبيا (كوريا موريا) فلم تكن لها أهمية تجارية خاصة، باستثناء الذَبل الجيد الذي يوجد فيها، والذي يبتاعه تجار قنا[٤١].

٥ ـ منطقة الخليجين ـ خليج عمان والخليج العربي

أما بالنسبة للخليج العربي فالمؤلف يذكر اسمين فقط وهما أبولوغوس (الابلة) وشراكس سبازيني (المحمرة). ويكتفي بالإشارة إلى عُمان بالنسبة إلى الخليج الآخر. ويذكِّرنا بأن عمان فيها تمر ونبيذ وسفن مخيطة، أو كما يبدو من الكلمة التي يذكرها، وهي «مادراتا» مدرعة على ما ارتأى غلازر، ولكن عمان الميناء كانت متجراً كبيراً إذ كان يأتيها النحاس وعود الند وخشب التيك والأبنوس والخشب الأسود (من الهند) والبخور (من قنا)، كما أنها كانت تصدر، بالمقابل، القوارب والسفن المدرعة (من جذوع النخل) واللؤلؤ (الآتي من الخليج

العربي) والثياب وبعض النبيذ والذهب والرقيق[٤٢].

٦ ـ الساحل الغربي

يذكر صاحب «الدليل» عدداً كبيراً من الموانىء الواقعة على الساحل الممتد من مصب السند إلى جنوب الهند. ولكننا سنكتفي الآن بذكر الأهم من هذه الموانىء وهي:

أ ــ بربريكوم (بهارديبور) الواقعة عند واحد من مصبات نهر السند المتعددة. والسفن التي تلقي مراسيها هناك تحمل إلى الميناء ومنه متاجر منوعة. أما ما تستورده المدينة فيشمل الأقمشة البسيطة والمطبّعة خاصة الكتانية منها (مصر) والياقوت والمرجان (من البحر المتوسط) والبخور والزجاج والأوعية الذهبية والفضية وبعض الخمور. أما ما تصدِّره فيدخل فيه عود الند والفيروز واللازورد والفرو والحرير والنيلة. وهذه الصادرات كان يحمل بعضها، مثل الفرو من التبت والحرير من الصين[٤٣].

ب ــ الميناء الثاني هو باريغازا (براوخ) الذي يقع على خليج كمباي. والطريق إليه تصعب الملاحة فيه. هذه المدينة تصدر عود الند والعاج واليشب والأقمشة القطنية المنوعة والقماش الحريري والفلفل الطويل. أما ما تستورده فلا يخرج عما تستورده جارتها الشمالية[٤٤].

ج ــ في ساحل الملبار تقع ثلاثة موانىء متجاورة بحيث إنه يمكن الإشارة إليها مجتمعة. وحريّ بالذكر أن هذا الساحل هو الذي كان يصدر البهارات والتوابل على اختلاف أنواعها، وبخاصة الفلفل، إلى جميع البلاد الواقعة إلى الغرب من الهند. أما الموانىء الثلاثة فهي موزيريس (كرانغامور) ونلسنده (كوتايام) وبكرا (يوركاد). وأكبر صادرات هذه المدن هوالفلفل، من حيث القيمة والكمية. يلي ذلك اللؤلؤ الجيد بكميات كبيرة والعاج والحرير (الصيني الأصل) وعود الند والحجارة الكريمة على اختلاف أنواعها والماس والذَبل. وكانت هذه الموانىء تستورد معدن الكحل (من شرق الجزيرة العربية) والنحاس والرصاص والقصدير.

لكن أكبر واردات تلك المنطقة كانت النقود ــ الذهبية والفضية[٤٥]. ذلك بأن السلع التي كانت تأتي من الامبراطورية خاصة لم تكن تساوي إلا جزءاً صغيراً من ثمن التوابل والأفاويه والعطور والطيوب والحجارة الكريمة وما إلى ذلك مما يستورده العالم الروماني بخاصة، وجيرانه الشرقيون[٤٦].

٦

يترتب علينا في نهاية هذا البحث، أن نشير إلى عدد من المسائل المتعلقة بالتجارة في القرن الأول للميلاد، والتي تحدث عنها صاحب الدليل وغيره.

١ ــ يذكر «الدليل» النقود في فصلين هما: ٤٩ و٥٦. ففي الفصلين يذكر الرصاص بين ما تستورده الهند. وقد علق «شوف» على ذلك بأن الرصاص كان يستعمل في الهند لسك النقود، إذ إن نقودهم كانت رصاصية، وظلت كذلك مدة طويلة[٤٧].

٢ ــ على أن الأهم من ذلك هو إشارة الدليل إلى النقود الفضية والذهبية التي كانت تصدّر إلى الهند من العالم الروماني. ففي فصل ٤٩ يذكر النقود الذهبية والفضية على أنها مما تستورده الهند(٤٨).

لكن في فصل ٥٦ يقول صاحب «الدليل»: يستورد في هذه الموانىء ــ الواقعة على الشاطىء الغربي للهند ــ في المقام الأول كميات كبيرة من النقود». وحري بالذكر أن العالم الروماني، الذي انصرف الكثير من سكانه إلى الاستمتاع بما كان في الشرق من أفاويه وطيوب وحجارة كريمة وما إلى ذلك، كان ينفق عليها الكثير. ذلك بأن صادراته إلى الشرق لم تكن كافية لسد النفقات. لذلك كان الميزان التجاري، وما يتبعه من عجز، في صالح الهند. وقد أشار بليني إلى ذلك إذ قال بأن القضية حرية بالاهتمام الجدّي إذ إن الذي تستنزفه الهند من ثروتنا لا يقل عن خمسمائة وخمسين مليون سسترسه(٤٩). وقد قدر شوف (سنة ١٩١٢) هذا المبلغ، بما قيمته اثنان وعشرون مليون دولار(٥٠). ومما يجب ذكره أنه في سنة ٢٢م. كان مثل هذا الأمر قد شغل بال الامبراطور طيباريوس الذي تذمر، في رسالة إلى مجلس الشيوخ الروماني، من جراء المبالغ الباهظة التي كان الرومان ينفقونها على ما يتزينون به. فأشار إلى صعوبة إصلاح الحال والعودة إلى البساطة القديمة. إذ كيف يمكن التحكم في الذوق فيما يتعلق بالملابس؟ وكيف العمل والناس مفتونون بالمجوهرات وهذه القطع الثمينة التي تستنزف ثروة الامبراطورية(٥١).

٣ ــ اقتصرنا في هذا البحث على ذكر الطرق التي كانت السفن تتبعها في تنقلها عبر شمال المحيط الهندي والبحر العربي وخليج عمان وبحر الزنج والبحر الأحمر، وذكرنا أهم الموانىء أو المراكز التي كانت السفن تقصدها، وأجملنا غلات المناطق المختلفة وأهم الصادرات والواردات في كل من الموانىء والمراكز. على أنه جدير بالذكر أن الموانىء مثلت نقاط التقاء بين ما تحمله سفن اليم وحيوان البر من متاجر، وما كانت تتبادله من بضائع، وأن كل ميناء، أو مجموعة من الموانىء على الأقل، كان لها خلفية أرضية تجمع ما تنتجه وتوزع ما تستورده عليها. والجمع والتوزيع كانا يقتضيان وجود تجارة برية وطرقاً برية.

هذا لم نتحدث عنه هنا، ونأمل أن نتناول قضية الطرق البرية التي كانت تربط أجزاء الجزيرة العربية داخلياً، والتي كانت تربط بين الجزيرة وجيرانها في الحقبة نفسها في المستقبل.

الهوامش

(١) راجع التفاصيل في: Geoffrey Bibby, *Looking for Dilmun,* London, 1970

(٢) *Glyn Daniel, The First Civilizations,* Perlian, London, 1971. pp. 134.

(٣) James H. Breasted ,*Ancient Records of Egypt,* Chicago, 1906-1907

(٤) راجع البحث القيّم عن الموضوع الذي وضعه الدكتور السيد يعقوب بكر تحت اسم «ملحق عن أوفير» في

ترجمته العربية لكتاب جورج حوراني، **العرب والملاحة في المحيط الهندي** (القاهرة، ١٩٥٦) وذلك في الصفحات ١١٦ ــ ١٧٠.

(٥) J. Oliver Thomson, *History of Ancient Geography,* New York, 1965, p. 134

(٦) Carl Rathjen,. Die *Weihranehstrasse in Arabien* pp. 275-289, Adolf Grohamnn. *Arabien.* Munchen, 1963. pp. 1-32.

(٧) Herodotus, 44; Cary and Warmington.

(٨) Arrian Indica 21-42.

(٩) Arrian Anabasis, VII, 1, 1-2

أخبار بعثة نيارخوس الكبرى والحملات الصغيرة الأخرى وصلتنا أصلاً عن طريق أريان، مؤرخ الإسكندر الذي عاش في القرن الثاني ق.م. وقد نقلها عن مظانها الأصلية بما في ذلك جريدة يبدو أن نيارخوس كان يدوّن فيها أخبار حملاته.

راجع: Cary and Warmington, pp. 263-4 notes 21 and 22.

(١٠) Pliny Vii, 208. xxxvii, 108.

(١١) Cary and Warmington, 88.

(١٢) إن ما دوّنه ميغاثيتش لم يصل إلينا، لكن عدداً من الذين كتبوا بعده نقلوا عنه، بحيث يمكن القول إن القسم الأكبر من أخباره ومشاهداته قد حفظ لنا. راجع: Strabo, II, 70, XV, 712, 719.
arrian, Indica, 2, 4, 7, Pliny, VI, 62, 69, 81.
Masson- Oursell, p. 35.

(١٣) Masson- Oursell, p. 110.

(١٤) Cary and Warmintgon, p. 93.

(١٥) من أجل الحصول على التفاصيل راجع: Pliny, VI, 447-9.

(١٦) Cary and Warmington, pp. 89-90, 264, notes 30 and 31.

(١٧) راجع: Thomson, pp. 175-6. Strabo, 41, 89-9, 103.

(١٨) روى أبو زيد السيرافي (من أهل القرن الثالث/ التاسع) خبر وجود نصارى من أصل يوناني في الجزيرة. راجع **من رحلات العرب** (إشراف نقولا زادة، دار الوحدة، بيروت، ١٩٧٤) ص ٧٥.

(١٩) راجع: O'Leary, pp. 86-103, Grohmann, pp. 21-31
Dietrich, p. 291 - 339, Montgomry Watt, pp. 4-15.

(٢٠) Strabo, XVI, 780-2. كانت تربط الجغرافي سترابو بقائد الحملة غالوس صداقة متينة، ولذلك زود القائد صديقه بمعلومات كثيرة. ومع ذلك فهناك اضطراب في ذكر مواقع البلدان.

(٢١) Pliny VI, 100-6, pp. 368-9, Pirenne, pp, 167 fr, Wheeler (1955) pp. 153 fr.

(٢٢) Cary and Warmington, pp. 95-8.

(٢٣) Cary and Warmington, pp. 89-107.

راجع أيضاً: pp. 266-7 notes 56-92.

(٢٤) راجع حول هذا المؤلف:

Franz Altheim, Die Araber in der alten Welt, Vol. 1 (Berlin, 1964) pp. 40-46, J. Pirenne, *Le Royaune Sud- Arab de Qataban et sa Datation* (Louvain, 1961) pp. 167-201, Thomason, p. 228.

جواد علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، الجزء الثالث (بغداد، ١٩٥٣) ص ٣٣٦ ــ ٣٤٨.

(٢٥) نعتمد في هذا البحث عل ترجمة: Wilfred H. Schoff
The Periplus of the Erythraean Sea
Travel and Trade in the Indian Ocean, by a merchant of the First century. Translated from the Greek and amotated by Wilfred H. Schoff (Longmans, Green and Co, New York, 1912).

(٢٦) Schoff c. 4 and p. 63.

(٢٧) Schoff c. 46.

(٢٨) Schoff cc. 4, 5, 27, 44

(٢٩) Schoff c, 1, p. 55.

(٣٠) Schoff, p. 60.

(٣١) Schoff c. 24, p. 68.

(٣٢) Schoff c. 4.

(٣٣) Schoff c. 19.

(٣٤) Schoff c. 24, pp. 110-4.

(٣٥) Schoff c. 21.

(٣٦) Schoff c. 7, p. 73.

(٣٧) Schoff c. 8, p. 79.

(٣٨) Schoff, c. 10, pp. 81 ff.

(٣٩) Schoff cc. 13, Cary and Warmington, pp. 9

(٤٠) Schoff cc. 16, 17, 18p. 94.

ويرى فلازر أن الاسم رابتا مشتق من «ربط» لأن بعض السفن المخيطة كانت تصنع فيها.

(٤١) Schoff cc, 26, 27, 28, 32.

(٤٢) Schoff cc. 30, 33.

(٤٣) Schoff cc. 32, 35, 36.

(٤٤) Schoff cc. 38, 39, p. 165 ff; Cary and Warmington, pp. 96 ff.

(٤٥) Schoff cc. 42, 43, 44, 45, 47.

(٤٦) Schoff cc. 49, 56.

(٤٧) عالج جواد علي التجارة البحرية في كتابه **«تاريخ العرب قبل الإسلام»** المجلد الثامن (بغداد، ١٩٥٩) ص ٦٥ ـ ٦٥ ـ ١٢٥.

(٤٨) راجع: Schoff, pp. 190 - 3, 219- 21.

(٤٩) راجع: Schoff pp. 192 - 3.

(٥٠) Pliny, VI, 26.

(٥١) Schoff, p. 219

القسم الثالث

إلى الصين

الامبراطور مو

١ ـ الأمبراطور مو (حوالى ١٠٠٠ق.م.)

تاريخ الأسر المالكة في الصين القديمة كان يعتمد، حتى بضعة عقود من السنين على تقاليد وروايات فيها مزيج من الأساطير والتاريخ القصصي. ولما أخذ المؤرخون أنفسهم بنقد المصادر التاريخية تمهيداً لاستخلاص الحقائق منها، قسوا على هذه المصادر فوصموها بأنها من صنع الخيال. وتشدد البعض منهم فقرر إهمالها والتخلي عما حوته من روايات. لكن أعمال التنقيب الأثري أعاد إلى هذه المصادر بعض أهميتها، إذ كشف الرفش والمعول آثاراً هي بقية ما خلّفته تلك العصور السحيقة.

ومن هنا فإن أسرة هزُيا التي تولت الحكم بين حوالى ٢٠٠٠ و١٥٠٠ق.م. تكاد تنال الاعتراف بشرعيتها التاريخية. وقد كان الامبراطور مو الذي حكم بين سنتي ١٠٠١ و٩٤٥ ق.م. واحداً من الأباطرة الذين كانوا يريدون أن يطلعوا على شؤون بلادهم اطلاعاً مباشراً. فلم يكتف بأن يتخفى ليلاً في شوارع المدينة وخاناتها وأزقتها، بل زار، في مركبته، زوايا ملكه الأربع.

لكن الكاتب الصيني الذي دوّن قصة هذه الزيارة الملكية في أحدث نسخة وصلتنا، والتي تعود إلى حول ٥٠٠ ق.م. لم يكتف بأن روى أخبار الزيارة الملكية للبلاد التي تقع تحت سلطة الملك. إن مثل هذه الزيارة لا تعطي الامبراطور مو المكانة المرموقة، ولا تتوج رأسه وتاجه بالهالة الإلهية. بل لعلّ الذين وسعوا نطاق أسفار الملك كانوا قد فعلوا ذلك خلال القرون الخمسة التي مرت بين الأسفار وتدوينها على ما وصلت إلينا. فالذي نقرأ، هو أن الامبراطور مو أراد أن يتعرف إلى أطراف الدنيا الأربعة ـ شمالاً وغرباً وجنوباً وشرقاً. ومع ذلك فإن الذي وصلنا من أخبار الأسفار ينتهي في الشمال وفي الغرب عند مناطق صينية، التي لعلها لم تكن يومها قد ضمت إلى السلطة المركزية. وبعد ذلك يترك للخيال أن يرافق الملك على أجنحة كل شيء سوى الواقع. ومن المؤسف أن الوثيقة التي يعرفها المؤرخون والعلماء اللغويون تنقصها الأجزاء التي تتحدث عن الجنوب، إلا في إشارة عابرة.

والرجل الذي نظر في المخطوطة على النحو الذي يقرأه العلماء اليوم هو هْسون هْسو. ويقول هذا في مقدمته للنص بأن الملك مو الذي كان يملك جوادين ممتازين، وكان عنده سائق للعربة على درجة كبيرة من المهارة والحيطة، تنقل حول العالم ودوّنت أخبار رحلته في كتاب تآكل بعضه مع الزمن. ولما وصل إلى هْسُون هسو كان قد فقد بعض أجزائه. فلم يستطع هذا إلا أن يحقق الجزء السالم منه. وهذا هو الذي يضعه بين أيدينا.

الرحلة

في اليوم المسمى مو ـ ين بدأ الامبراطور مو رحلته نحو الشمال، مجتازاً نهر تشانغ. وبعد يومين وصل... حيث احتفى القوم بالأمبراطور في مأدبة فخمة أقامها سكان تلك المنطقة على تل مرتفع. ولكن الامبراطور نفسه لم يغادر عربته الملكية. وبعد هذه الحفاوة البالغة انتقل الجميع بقضهم وقضيضهم حتى بلغوا أقدام جبل هْسِنغ في منطقة هوباي. وهذه تقع إلى الشمال من بكين.

وقد تساقط الثلج يوم كوي ـ وي. عندها خرج الأمبراطور ليمارس هوايته المفضلة وهي القنص، وذلك في الجهات الغربية من الجبل، واتجه شمالاً حتى بلغ الضفة الجنوبية لنهر هوتو، مجتازاً بذلك وادياً فبطن الجبل.

كانت تقيم هنا قبيلة بربرية أقامت مأدبة سخية للأمبراطور على الضفة الجنوبية لنهر تانغ. ولأن تساقط الثلج استمر، فقد أمر الأمبراطور أتباعه بوجوب الخلود إلى الراحة (ويبدو أنهم عادوا بعد ذلك إلى البلاط).

في يوم تشياوو اتجه الامبراطور غرباً ولم يلبث أن وصل تلال بوابة يو على الحدود. وفي يوم هسين ـ تشو سار الأمبراطور غرباً حتى وصل مملكة بنغ ـ جن. وقد تحدّر سكان هذه البلاد من نسل هو تْسُونغ وهو إله النهر الأصفر. فتقدم بوهْسو، أمير المنطقة، لاستقبال الضيف الملكي، حاملاً معه هدية لضيفه عشرة جلود فهود وستة عشر جواداً وقد أمر الأمبراطور أحد أمرائه بتلقي الهدية.

وصلت الجماعة يوم كوي ـ يو منطقة بحيرة تْشي، ونصبت خيامها هناك. ذهب الأمبراطور في رحلة لصيد الأسماك في النهر وزار بلاد التْشي ـ شيه.

أما في اليوم التالي فخرج الأمبراطور للقنص، وعاد ومعه ذئب أبيض وابن آوى أسود، فقدمهما ضحية لإله النهر. وبعد يومين أقيمت مأدبة كبيرة على شرف الملك الذي استعرض جيشه المؤلف من ست فرق. وتابع الأمبراطور سيره غرباً حتى وصل مساكن وو ـ بي، إله النهر، الذي كان قد أوجد أسرة ملكية هناك (ويضيف الكاتب هنا أن هذا الإله له وجه إنسان وأنه يركب تنّينين ويعيش تحت الماء في نهر يبلغ عمقه نحو تسعين متراً).

يوم مو ـ وو، هو يوم متميز في أيام السنة، ارتدى الأمبراطور حلته الكاملة ـ القبعة والرداء المطرز ولفة العنق والزنار، مع ما يتبع كل هذا من إضافات زخرفية. ثم اتخذ مكانه متوجهاً نحو الجنوب. ولما أتم المساعدون ترتيب الحيوانات المعدة للقربان، قدّم الهدية لإله النهر. ثم أغْرِقت الحيوانات القربانية وهي الثور والجواد والخنزير والخروف في النهر. بعد ذلك برز إله النهر من وسط الماء وخاطب الأمبراطور قائلاً: «يا مو، أيها الرجل ستظل أنت على العرش وسيكون حكمك عادلاً ومزدهراً». انحنى الأمبراطور مرات. واستمر إله النهر بعد ذلك قائلاً: «مو، أيها الرجل، اذهب إلى جبال كون لون كي تطلع هناك على أسرار الآلهة والأشياء الثمينة التي تخفيها بيوتها».

سار الأمبراطور وحاشيته عبر غابات من الأشجار الكبيرة، وأدغال من الأنجم حيث كانت الحيوانات تسرح وتمرح على طبيعتها. وأخيراً وصل الجميع جبال كون لون. هناك زار الجميع قصور الأمبراطور الأصفر (وهو في عرف الأسطورة الصينية أبو الجنس الصيني بكامله).

وتعددت رحلات الأمبراطور هنا وتفرعت. فهو في المنطقة التي تقول عنها المصادر الصينية إنها أغنى أجزاء البلاد: ثروة طبيعية وحجارة كريمة وجمال مناظر وجودة أخشاب. وأخيراً انتهى بالأمبراطور المطاف في زيارة الملكة الأم في الغرب. فتقدم منها وانحنى لها احتراماً وقدم هداياه، فقبلتها. وفي اليوم التالي أقام الأمبراطور مأدبة عند البحيرة الزمردية. وقد أنشدت الملكة الأم أثناء المأدبة:

اقتربي أيتها التلال والجبال،
كما ترتفع الغيوم المهلهلة إلى أجواز السماء.
إن بلدينا بعيدان الواحد عن الآخر،
إذ تفصل بينهما المياه والجبال المرتفعة.
إذا دامت لك الحياة ـ عد إلينا.

فأجاب الأمبراطور منشداً:

عندما أعود إلى الشرق [أي إلى بلاده]
حاملاً معي النظام والسلام للملايين من البشر؛
وعندما يتمتع هؤلاء بالخير واليسر
سأعود إليك؛
عدي ثلاثة أعوام من هذا اليوم،
وعندها سأعود إلى هذه البلاد.

حفر الأمبراطور على الصخور أخبار هذه الزيارة وزرع شجرة وسمى المكان «جبل الملكة الأم في الغرب».

عاد الأمبراطور شرقاً...

اتجه الأمبراطور بعد ذلك في رحلته نحو الشرق، فاجتاز غابات شاسعة ومستنقعات وبركاً تملأها المياه وسهولاً واسعة وهضاباً مرتفعة حيث تعشش أنواع الطيور المختلفة. أقام الامبراطور هناك ثلاثة أشهر، وكانت فرق الجنود الست قد نصبت خيامها في تلك البقعة. وانصرف الجميع إلى الصيد والقنص: الامبراطور والقادة وحتى متقدمو الجنود. وقد كانت حصة الأمبراطور حملة مائة عربة من فاخر الجلود والفراء.

واتجه الأمبراطور شرقاً، فاجتاز صحراء، وإذ لم يعثر فيها على ماء ليروي عطشه، عندها تقدم منه جندي وسقاه من دم صديق له.

تجنب الصحراء فاتجه جنوباً ووصل غابة واسعة تملأها أشجار السرو والأرز. يبدو أن

المناطق الشرقية لم تشجعه على الرحلة، وخاصة لما وصل الصحراء.

أما قصة أسفاره في الجنوب، إن كان قد اتجه نحو الجنوب، فقد تلفت قبل أن يضع هْسُون هْسُو يده عليها.

٢ ـ السفير تشانغ شين

ثمة من يلفظ اسمه تشانغ ـ كْين. وقد سفر هذا للملك/ الأمبراطور الصيني الذي حكم من سنة ١٤٠ إلى سنة ٨٧ق.م. واسمه وو ـ تي، وهو من أسرة هان التي حكمت الصين من سنة ٢٠٦ ق.م. إلى سنة ٢٢٠م.

في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد كانت المنطقة الواقعة بين جبال البامير جنوباً وبحيرة بلكاش شمالاً تغلي القبائل فيها وتتحفز للتنقل. ولعل السبب تبدل في الطقس أو ازدياد في السكان. وكانت قبائل الهون الأكبر عدداً والأكثر تحفزاً، لذلك اتجهت غرباً (إذ إنها لم تستطع الاتجاه جنوباً بسبب وجود الأمبراطورية الصينية القوية هناك). وفي انتقالها غرباً أزاحت قبائل يو ـ تْشي عن مساكنها، فاضطرت هذه إلى الاتجاه غرباً. وكان أن اصطدمت هذه بدولة بكتريا الإغريقية، التي كانت من بقايا الأمبراطورية التي أنشأها الإسكندر، والتي تقسّمت بعد وفاته، وانتهى الأمر بها إلى أن أصبحت دولاً مختلفة متفرقة. وهذه الدولة كانت تقوم حول مدينة بكترا وهي مدينة بَلْخ الحالية. وبسبب نشاط هذه الدولة فقد توسعت شرقاً فاحتلت فرغانة.

وتغلب اليو ـ تْشي على الدولة الإغريقية واحتلوا بلادها، وكان ذلك في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد. وكان من الشائع أن اليو ـ تْشي لا بد أن ينتقموا من الهون الذين أجلوهم عن أرضهم، وأنهم كانوا ينتظرون الأحوال المناسبة.

وكان أباطرة الصين يخشون بأس الهون، ويخشون أن يعيدوا الكرة في محاولة لاحتلال، ولو جزء، من بلادهم. لذلك فكر الأمبراطور وو ـ تي في أن يقيم اتصالاً مع اليو ـ تْشي أملاً في التحالف مع هذه القبائل للالتفاف على الهون، وحصرهم حتى ولو لم يمكن كسرهم.

كان تشانْغ شْين من رجال المجتمع الصيني الكبار بالنسبة للقصر وبالنسبة لعلمه ومكانته في الأسرة الكبيرة. لذلك لبى طلب الأمبراطور لما نوى هذا إرسال سفير إلى زعيم قبائل اليو ـ تْشي، وخرج في صحبة عدد من الرجال كان بينهم التتري كان فو الذي كان رفيقاً أميناً.

كانت مدينة كانسو نقطة انطلاقهم وهي مدينة تجارية ومركز على الطريق الرئيسي، وكانت محصّنة إذ عندها ينتهي السور الكبير غرباً. وهذا السور هو الذي أقامه ملوك أسرة هانغ لحماية البلاد من هجمات الهون بشكل خاص.

كانت بلاد الهون على الطريق إلى قبائل اليو ـ تْشي. وكان على تشانغ ـ شْين وصحبه أن يجتازوها. وقد اكتشف أمرهم وألقي القبض عليهم. وقد حفظ لنا السفير ما قاله له الخان الكبير (سلطان الهون): «إن اليو ـ تشي يقيمون إلى الشمال من بلادنا، فكيف يجوز

للصين أن تبعث بسفراء لهم؟ يا ترى لو أردت أن أبعث بسفراء إلى الأقوام التي تعيش شرقي الصين أو جنوبها، فهل كانت بلادهم تسمح بذلك؟».

وقد ظل السفير سجيناً مدة تتجاوز السنين العشر. وأزوجه الخان تترية، أنجبت له ولداً. وبعد هذه المدة الطويلة خففت الرقابة عليه وعلى جماعته؛ فاستطاعوا الهرب، واتجهوا غرباً، فوصلوا إلى بلاد القبائل التي هي مجاورة للهون ولليُو ـ تْشين. وإذ طمع السكان في المكافأة التي يمكن أن يحصلوا عليها من الصين الغنية أرشدوهم إلى أفضل الطرق للوصول إلى قبائل يو ـ تشي.

ولما وصل السفير إلى زعماء القبائل، وجد أنهم كانوا قد استولوا على ما كانت الأسرة اليونانية البكترية قد حكمته؛ وهي بلاد خصبة، كثيرة النتاج الزراعي والحيواني؛ ومن ثم فقد نعموا بحياة مريحة، وتخلوا عن فكرة الانتقام من الهون. فضلاً عن ذلك فإن الصين بعيدة، والاتصال معها صعب.

ظل تشانغ شين نحو سنة يحاول إقناع أولي الأمر بفائدة عقد حلف مع الصين، لكنه لم يفلح. فخرج مع زوجته وكان فو التتري، آملاً أن يتجنب المرور بأرض الهون. لكن الجماعة، على ما يبدو، أخطأت الطريق فوقع في أيدي خصومه وسجنوه نحو سنة. ولم يطل سجنه هذه المرة لأن اضطراباً شمل الهون بسبب الخلاف على العرش، فاغتنم الفرصة وهرب.

سفر تشانغ شين ثانية إلى البلاد نفسها، آملاً في إغراء الملك عن طريق الزواج من أميرة صينية. لكن حتى هذا لم ينفع.

والمهم أن السفير دوّن ملاحظاته وقدمها في تقرير للأمبراطور. وهذه وضعها في شكل نص منظم، مؤرخ صيني اسمه سو ـ ما شين، وكان ذلك حوالى سنة ١٠٠ ق.م. وهذا النص، وقد نقله إلى الإنكليزية فردرك هرث (سنة ١٩١٧)، هو الذي ننقل عنه الأخبار المارة والوصف التالي.

يتحدث السفير عن مناطق وبلاد زارها وهي فرغانة و وُو ـ سُنْ وصغديانا (بلاد الصغد) وبلاد اليو ـ تْشي وبكتريا. أما البلاد التي لم يزرها في المنطقة نفسها فهي فرثيا (باريتا) فنقل ما روي له عنها. ويحدثنا، عن طريق الرواية طبعاً، عن سوريا وبابل.

ولنكتف بنقل بعض المعلومات عن البلاد التي زارها فهي أولى بعنايتنا.

فرغانة: تقع هذه البلاد إلى الجنوب الغربي من بلاد الهون، كما تقع إلى الغرب من الصين على بعد يقارب ١٠,٠٠٠ لي (نحو ٦٠٠٠ كلم) سكانها مستقرون يعملون في الزراعة فينتجون الأرز والقمح. وعندهم الكثير من الكروم التي يصنعون منها الخمر. وتفلح الخيول في مروجها ومراعيها. مدنهم مسوّرة، ويقيمون في بيوت مبنية. ويبلغ عدد المدن في فرغانة، الكبير منها والصغير، نحو سبعين مدينة، يقطنها بضعة مئات الآلاف من السكان. وهم ماهرون في استعمال القوس، فيطلقونه وهم على صهوات الجياد.

تقع صغديانا إلى الشمال من فرغانة، وإلى الغرب يقيم اليو ـ تشي. أما بكتريا فتقع

إلى الجنوب الغربي. وفيما يحيط بالبلاد الوو ـ سن من الشمال الشرقي، فإن الشرق تحده منطقة خوطان.

والبلاد غنية باليشم (اليشب)، وهو حجر كريم مرغوب فيه.

وُو ـ سُن: تقع هذه على نحو ٢٠٠٠ لي (١٢٠٠كلم) إلى الشمال الشرقي من فرغانة. أهلها بدو يتبعون أنعامهم، ويشبهون الهون في عاداتهم. عندهم بضعة من عشرات الألوف من رماة القوس.

صغديانا (بلاد الصغد): تقع شمال غربي فرغانة على نحو ٢٠٠٠ لي (١٢٠٠ كلم)، وهي أيضاً تقطنها قبائل بدوية، ويشبه أهلها اليو ـ تشي في عاداتهم. لديهم من رماة القوس ما بين ثمانين وتسعين ألفاً. وهي مقسمة الولاء بين اليو ـ تشي غرباً والهون شرقاً.

اليوتشي: تبعد هذه عن فرغانة إلى جهة الغرب بين ألفين وثلاثة آلاف لي (١٢٠٠ ـ ١٨٠٠ كلم). السكان بدو، وتنقلهم كثير. عاداتهم شبيهة بعادات الهون. ولأنهم يتبعون أنعامهم فهم يبدلون مساكنهم أبداً، لكن في دورة معينة. وقد ظلوا يعيشون هنا إلى أن أجلاهم الهون، فانتقلوا إلى فرغانة ثم احتلوا بكتريا.

بكتريا: تبعد أكثر من ٢٠٠٠ لي (١٢٠٠ كلم) عن فرغانة إلى الجنوب الغربي. يقيم السكان في منازل ثابتة مبنية في مدن مسورة، مثل أهل فرغانة. ليس لهم ملك، بل إن كلاً من مدنهم لها حاكمها المحلي. التجار بينهم بعيدو النظر، لكن جنودهم ضعفاء ويخشون القتال. لذلك استطاع اليو ـ تشي التغلب عليهم بشيء من السهولة. قد يبلغ عدد سكان بكتريا المليون. لهم مدينة كبيرة يعتبرونها قاعدة لهم تسمى لا نسي، وتباع في أسواقها جميع أنواع السلع. وروى السفير أنه لما كان هناك، وجد في سوق المدينة قصباً هندياً.

وقد رجح السفير أن بكتريا قد تبعد ١٢,٠٠٠ لي (٧٢٠٠ كلم) عن الصين.

كان ابن السماء ـ وهو لقب أمبراطور الصين ـ يأمل، من احتلال المناطق الواسعة، فضلاً عن الحصول على ثروتها، أن ينشر مدنية الصين في ربوعها. فالصينيون كانوا دوماً، في تاريخهم الطويل، يعتبرون أنفسهم أصحاب المدنية، وأنه يتوجب عليهم أن يعلّموا البشر ما وصلوا إليه.

يبدو من الذي مرَّ بنا أن تشانغ شين لم ينجح كسفير سياسي. لكنه زوّدنا بمعلومات قيمة. وأولئك الذين تبعوه حملوا معهم إلى الصين الخيار والسمسم والجوز، كما أن آخرين نقلوا من الصين الإجاص والبرتقال والورد والأزاليا والقرنفل.

هكذا تتنقل النباتات والحيوانات والأشياء بين أجزاء العالم.

٣ ـ الكتاب والمكتبات في الصين القديمة

١

عرفت الصين الكتابة في زمن مبكر من تاريخها، ولعل ذلك يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وكانت المواد المستعملة للكتابة هي قصب البامبو والحرير. ويبدو أن إنتاج الورق في تلك البلاد النائية يعود إلى مطلع القرن الثاني الميلادي. ومن المرجح أن هذا الاختراع كان من عمل مجموعة متفرقة الأفراد. وبقي الورق ينتج في الصين وبعض جوارها، وتدخل في صناعته تحسينات كثيرة حتى بلغ أوجه في مطلع القرن السادس الميلادي. ولما انتقلت صناعته إلى سمرقند بعد معركة طلس بين العرب والصينيين (وهي المعركة الوحيدة التي واجه فيها جيش عربي جيشاً صينياً سنة ٧٥١م) وانتهت بانتصار العرب وأسرهم جماعة من الصينيين كان بينهم من يتقن صناعة الورق، فانتقلت منهم إلى سمرقند ثم اتجهت على أيدي العرب غرباً.

الكتابة الصينية بحروفها أو على الأصح بأشكالها ورموزها معقدة بسبب كثرة هذه الأشكال. ولذلك فقد كانت النصوص التي ترسم باليد على أيدي النسّاخ تتعرض للكثير من الأخطاء. ومن هنا جاءت الفكرة التي أعدت بموجبها قوالب خشبية كان تنقش عليها هذه النصوص ثم تطبع على الورق. ثم استعمل الحجر لنقش هذه النصوص بدل الخشب، لأن الحجر أصمد على عوادي الزمن.

في سنة ٥٨٩، في أيام أسرة سُوي القصيرة الأمد (٥٨١ ـ ٦١٨) بدأت في الصين فترة من الاستقرار السياسي والتوحيد لشمال الصين وجنوبها، امتدت قرناً ونصف القرن. وفي سنة ٦١٨م بدأ حكم أسرة تان الذي استمر حتى سنة ٩٠٦م. وتعتبر أيام هذه الأسرة المالكة من عهود الازدهار الكبيرة في تاريخ الصين، لا سياسياً واقتصادياً فحسب، بل في مجالات التكنولوجيا والفنون والدين. وعندنا من آثار هذه الأسرة، في عالم طبع الكتب على الخشب والحجر أشياء كثيرة، لعل من ألطفها كتاب يتضمن نصاً بوذياً يعود إلى سنة ٨٦٨م وهو كتاب «سوترا الماشية». وقد نقل الكسندر ستيبتشفيتس أن هذا الكتاب كانت في آخره عبارة تقول إن وانغ تشيه قد طبع هذا الكتاب «لأجل التوزيع المجاني عن روح والديه في اليوم الخامس عشر للشهر الرابع للسنة التاسعة من حكم هسين تونغ». وقد حسب هذا التاريخ فاتضح أنه يقابل ١١ أيار/ مايو سنة ٨٦٨م.

ومما يجب أن لا يغرب عن البال أن أسرة تان (٦١٨ ـ ٩٠٦) قامت في الفترة التي كان العرب فيها قد بدأوا يتقبلون، جزئياً أول الأمر، ثم كلياً، دعوة محمد بن عبد الله (ص)؛ ثم عصر حكومة المدينة في عهد الرسول وفترة الخلفاء الراشدين والأمويين والعصر العباسي

الأول. وإذا تذكرنا أن هذه هي الفترة التي بلغت فيها دولة الخلافة أقصى اتساعها وأنجزت الحضارة العربية أفضل ما عندها ـ أساساً وتوسعاً ـ فإنه يجدر بنا أن نحاول في المستقبل أن نتحرى عن صلات، ولو واهنة، بين الشرق الأقصى والمشرق العربي. خاصة وأن الاتجار كان قوياً وعلى خير ما يكون بين هاتين المنطقتين. والتجار كانوا دوماً حملة بذور المدنية مع سلعهم وبضائعهم.

٢

يقول بودو فيتهوف عن أسرة تانغ، ما خلاصته: لم تكن امبرطورية تانغ دولة انعزالية. فالموقف العام كان يتقبل العالم الخارجي بكل ما عنده. فالبوذية، وهي أهم مادة ثقافية دخلت البلاد في الألف الأول للميلاد، تمكنت من الانتشار. والآراء الجديدة التي وصلت إلى البلاد كان لها أثر كبير في تطور الصين. وهذه الآراء لم تكن دينية فحسب، بل كان عنصر الفلسفة فيها قوياً. وكان تأثيرها على اللغة الصينية بعيد الأثر. وقد دخل البلاد عدد من الأديان وكان يلقى رعاية أمبراطورية. فالمزدكية والزرادشتية وصلتا في القرن السادس. وكان البلاط التانغي في القرن الثامن يرعى نساطرة يبشرون بالمسيحية ومانويين ويهوداً. وقد عرف البلاط الأمبراطوري والأسواق الصينية عدداً من المسلمين. ومع أن أكثر هؤلاء كانوا غرباء، فقد كان البعض منهم يقيم في البلاد لبعض الوقت مثل السفراء ووكلاء التجار. وعندنا من الذين أقاموا إقامة دائمة عدد كبير من المرتزقة والممثلين والتجار والرهبان. ويقدر فيتهوف أعداد هؤلاء بعشرات الآلاف، ثم يضيف بل لعلهم بلغوا مئات الآلاف. فقد انتعشت التجارة الصينية في تلك الأزمنة على شكل لم تعرفه من قبل. وكان القسم الأكبر من هذه التجارة، البحري منها والبري، يقوم به الأجانب. ومن هنا فإن ما رغبنا فيه قبلاً من وجوب الاهتمام بدراسة هذه الظاهرة، بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية المتوغلة نحو الشرق والمتأثرة به.

في أواخر عهد أسرة تانغ أصيبت البلاد بضائقة مالية، فكان البوذيون نقدتها الأوائل. وهذا منح الكونفوشيين الفرصة للتقدم نحو حماية الأسرة والوطن، مشيرين إلى أن البوذية كانت أجنبية الأصل، وأن تبدلها بحيث دخلت في صميم الحياة الصينية لم يؤثر في موقف الكونفوشيين الذين كانوا يشغلون المناصب الحكومية الرئيسة. وقد اشتدت الحملة على البوذية في أواسط القرن التاسع بشكل عنيف، واضطربت أحوال الإدارة المركزية.

ومع انهيار أسرة تانغ بلغت الفوضى ذروتها. لكن أباطرة أسرة سونغ (٩٦٠ ـ ١٢٢٧) الأوائل أعادوا إلى البلاد أمنها وسلامها. ولعله من الطريف أن نلاحظ أن فانك تاو، الذي وزر بين سنتي ٩٣٢ و٩٥٣، قرر أن يضع بين أيدي الناس طبعة صحيحة لمؤلفات الحكماء الكلاسيكيين، لأن ما كان شائعاً قد أفسده النسخ. وقد عمل أعضاء الأكاديمية الذين اختارهم لذلك نحو عقدين من السنين قبل أن أعدوا النصوص المحققة التي نقشت على الخشب ثم طبعت.

فانك تاو نقل الطباعة بالقوالب الخشبية من أفراد عاديين إلى الدولة. وأخذت

الأكاديمية تطبع الكتب التاريخية والدينية. لكن احتكار الأكاديمية، أي الدولة، لطباعة الكتب لم يطل أمده. فقد ازداد الطلب على الكتب زيادة كبيرة. لذلك قامت مؤسسات خاصة بطبع كتب في الزراعة والطب وغيرهما.

ومع ظهور المؤسسات الخاصة بالطباعة قامت أيضاً «شبكة منظمة لتوزيع الكتب في البلاد... (فكانت) الكتب تباع في المكتبات والشوارع والساحات».

وهنا جاء دور المكتبة العامة، وفي مقدمتها المكتبة الأمبراطورية، التي كانت تحتوي كتب كونفوشيوس وغيرها من أمهات الكتب.

وجاء دور طباعة الكتب بحروف خشبية متحركة.

وهكذا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي كانت الصين قد اهتدت إلى القوالب الخشبية المتحركة الممثلة للرمز، وكانت الكتب نسبياً منتشرة وموزعة في أنحاء البلاد، وكانت ثمة مكتبات عامة.

ولكن اللغة الصينية ظلت على حالها، والكتابة لم تصل (وحتى اليوم) إلى الكتابة الحرفية. لذلك انتظرت الطباعة عبقرية أخرى، وفي بلاد فيها حروف معدودة لا رموز لا حصر لها، كي تتطور وتصبح على ما هي عليه الآن.

٤ ـ تكنولوجيا الصين تصل أوروبا

قد يبدو من الأمور المستغربة للكثيرين أنه قبل سنة ١٥٠٠ أن أهل المشرق العربي كانوا يتفوقون على سكان أوروبا في اكتشاف أمور تتعلق بالعلوم وحتى بالاختراع، وأن سكان الصين كانوا أبرع من الفريقين في الكشف على أمور كثيرة. فقد روى الفارس الإسباني روي دي كلافيو، الذي قام بزيارة دبلوماسية لبلاط تيمور في السنوات ١٤٠٣ ـ ١٤٠٥ «أن صنّاع كاثاي (الصين) كانوا الأمهر والأبرع من جميع الشعوب الأخرى».

لنبدأ بالحرير الذي انتقل مادة خامة وأقمشة مصنوعة مزوّقة ومزخرفة من الصين إلى أوروبا عبر الطريق البري ـ طريق الحرير ـ مروراً ببلاد الشام ومصر. ووصل على أيدي العرب إلى صقلية وإسبانيا ومن هناك وجد طريقه إلى إيطاليا وفرنسا.

والذي يراه الكثيرون من المؤرخين، وبينهم ج. نيدهام، أن الذي انتقل لم يكن دودة القز وطرق تربيتها فحسب، بل إن ذلك شمل أيضاً الأدوات الميكانيكية التي كانت صناعة الأقمشة الحريرية تتطلب وجودها. وأن هذه وصلت أوروبا عن طريق القبائل التي كانت تقطن عبر طريق الحرير والعرب والبزنطيين. ولعل المغزل (ودولابه) وما إليه هي التي انتقلت إلى الغرب، فالصينيون عرفوها قبل سنة ١٤٠٠ بفترة طويلة.

وما يقال عن الحرير يقال عن البورسلين الصيني بأنواعه المختلفة. ذلك بأن هذه القطع البورسلينية، على ما هي عليه من الرقة والدقة في الصنع، كانت تنقل عبر الطريقين البري (عبر آسيا) والبحري (عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر أو الخليج العربي) إلى المشرق العربي وأوروبا. وقد روى المؤرخون أن صلاح الدين، لما كان في مصر مندوباً عن السلطان نور الدين، أهدى هذا أربعين قطعة من البورسلين الصيني. وقد عرف أن ماركو بولو، الرحّالة الإيطالي، حمل معه إلى إيطاليا مجموعة من البورسلين من صنع ولاية فوكين، الذي اعتبره أجمل المصنوعات الصينية من البورسلين. وقد كان العارفون بشؤون البورسلين يفضلون ذلك النوع شبه الشفاف ذا اللونين الأزرق والأبيض من صنع أيام أسرة منغ (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤).

قد جرّب الصنّاع خارج بلاد الصين تقليد البورسلين الصيني، فكان لهم نجاح محدود في مصر وبلاد الشام وفي المصانع الإيطالية في البندقية وفلورنسا وسواهما. لكن الصنّاع لم يستطيعوا اكتشاف سر الصناعة، فكان عملهم تقليداً ظاهرياً، لكنه انتشر في شمال أفريقيا وإسبانيا وأوروبا (كان سر صناعة البورسلين قد عرف في الصين في القرن الثاني قبل الميلاد). ولم يصنع البورسلين الأصيل في أوروبا إلا في القرن الثامن عشر.

والمادة الثالثة الرئيسة التي انتقلت من الصين غرباً كان الورق. والورق انتقلت صناعته أصلاً من الصين إلى أهل سمرقند على يد فئة من الأسرى الصينيين الذين وقعوا في أيدي

العرب في معركة طلس أو طرس (سنة ١٣٣/ ٧٥٢). ومن هناك انتشرت هذه الصناعة في أنحاء العالم الإسلامي فنشأت هناك مصانع للورق في دمشق وطبريا (القرن الرابع/ العاشر) وفي إسبانيا في القرن التالي. وكان ورق شاطبة هو الأكثر مبيعاً، ومع أن الورق انتشر استعماله في أوروبا عن طريق إسبانيا الإسلامية، فإن شيوعه لم يتم في أكثر المدن الأوروبية إلا في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر.

هذه المواد الثلاث وصناعتها يكاد يكون الأمر مقطوعاً فيه من حيث أصلها الصيني وانتشارها غرباً. لكن هناك أمور فيها ترجيح، ولو أنه لم يتوصل العلماء إلى رأي قاطع حولها، مثل البارود، الذي كان قد صنع في الصين حوالى القرن الرابع عشر أو الذي يليه؛ ويبدو أنه قد عرف في أوروبا في الزمن نفسه. ومثل ذلك يقال عن المدافع، التي جاء اختراعها بعد التوصل إلى البارود. لكن ج. نيدهام يرى أن الاثنين ـ صنع البارود وصنع المدفع ـ صينيان في الأصل وقد انتقلا إلى أوروبا من تلك الأصقاع النائية.

والبوصلة البحرية صينية في أصلها، ومن المحتمل أن تكون انتقلت من الصين إلى أوروبا على أيدي الملاحين العرب.

وقد قامت خلافات بين مؤرخي «المطبعة» حول أصولها. إن الصينيين عرفوا نوعاً من الطباعة. لكن هل كانت هذه المعرفة هي أساس الطباعة الأوروبية؟ من المرجح بين الباحثين، أن اختراع الطباعة في أوروبا كان أمراً مستقلاً عن المعرفة الصينية. والطريف أن أول من قال بأن أسلوب غوتنبرغ في الطباعة صيني الأصل هو مؤرخ إيطالي. ويعود هذا الرأي إلى سنة ١٥٤٦. فقد درس هذا الرجل الكتب الصينية المطبوعة في الصين والتي حملها البرتغاليون من كنتون، وتوصل إلى هذا الرأي. إلا أن الدراسات الحديثة لم تؤكد وجهة نظره التي كانت تقوم على دراسة عدد محدود من المطبوعات. أما الدراسات الحديثة فتقوم على أساس فحص عدد كبير من المطبوعات الصينية ومقارنتها بما يعاصرها من النتاج الطباعي الأوروبي.

وبقطع النظر عن أدوات أو آلات متفرقة التي قد يكون أصلها من الشرق الأقصى، والتي قد تكون وصلت إلى أوروبا عن طريق العالم الإسلامي، أو لعلها اخترعت في الوقت نفسه في الصين أو العالم الإسلامي أو أوروبا، فالمهم الذي لا يجوز أن يغرب عن البال هو أن الباحثين يهتدون، بين الحين والآخر، إلى أداة أو مادة اكتشفت واستعملت في الصين ثم انتقلت إلى أوروبا.

والذي يجب أن يكون حاضراً في الأذهان هو أن الكثير من الآراء أيضاً انتقلت من الصين نحو الغرب، وأكثرها قد يكون مرتبطاً بالصناعات أكثر من الآراء النظرية. إذ إن هذه لم يعرفها الغرب قبل ١٥٠٠، ولعلها انتقلت عن طريق آخر غير طريق العالم الإسلامي. إذ إن البرتغاليين ضباطاً وجنوداً أو ملاحين وإداريين ومبشرين أخذوا يقيمون في مناطق الشرق الأقصى بعد تلك السنة؛ وكانوا قد وصلوا إلى الهند وتمركزوا في أكثر من مكان واحد.

القسم الرابع
العرب في المشرق الإسلامي

١ ـ العرب في ما وراء النهر/ معركة طلس

١ ـ معركة طلس

بعد وفاة الرسول (ص) انساحت الجيوش العربية تفتح بلاد الشام وما إليها غرباً، وأرض الرافدين وما جاورها شرقاً. وبعد ثلاثة عقود كانت الجيوش المتجهة شرقاً قد أتمت فتح العراق وإيران. لكن الحروب الأهلية التي لفحت دولة الخلافة بنيرانها، أوقفت الفتح من جهة، وسمحت لبعض أولي الأمر في إيران في أن ينفلتوا من القبضة الجديدة.

ولما هدأت العاصفة التي طال أمدها، كانت الأمور قد تغيرت في الدولة الجديدة. فخلافة الراشدين انتهى أمرها سنة ٦٦١/٤٤٠، وقامت دولة الأمويين؛ وانتقلت الإدارة المركزية من المدينة المنورة (عبر الكوفة) إلى دمشق. وبعد أن ركّز معاوية دعائم الحكم، وبعد أن تولى زمام الأمر عبد الملك بن مروان (٦٥ ــ ٨٥/ ٦٨٥ ــ ٧٠٥) تجدد النشاط الحربي في المشرق؛ وكان عبد الملك قد اختار الحجاج الثقفي والياً على العراق (٧٥/ ٦٩٤).

أعاد الحجاج هيبة الحكم في العراق، وعاقب الثائرين في خراسان (الجزء الشمالي من إيران) على يد نائبه المهلب بن أبي صفرة (٧٨/ ٦٩٧)، ثم اتجه نحو ما وراء النهر، وهي الرقعة من الأرض التي يحيط بها من الشمال نهر سيحون (سيرداريا) ونهر جيحون (امودايا) من الجنوب. فاجتاز نهر جيحون، ويبدو أنه وصل طشقند في بعض غزواته. ولما توفي المهلب (٨٢/ ٧٠١) خلفه في الإدارة ابنه ثم أخو هذا، وأخيراً انتدب الحجاج قتيبة بن مسلم للعمل في خراسان (٨٦/ ٧٠٤).

قد نجح قتيبة، خلال سنة واحدة، في إعادة هيبة العرب إلى مكانتها، ثم استعاد أقليم طخارستان (وعاصمته بَلْخ)، ثم اجتاز نهر جيحون ثانية لفتح ما وراء النهر من جديد. وكان الوليد بن عبد الملك قد تولى شؤون الخلافة (٨٦ ــ ٩٦/ ٧٠٥ ــ ٧١٥)، وكان محباً للتوسع، فشد أزر قتيبة في مخططه وحروبه، فانتشر هذا في ما وراء النهر واحتصل الصغد وهاجم فرغانة. وقد قال البلاذري عن قتيبة إنه هو الذي «غرس» العرب في ما وراء النهر واتخذ له في الشاش (طشقند) مركزاً للإدارة والحرب.

ومع ذلك فإن وفاة قتيبة (٩٦/ ٧١٥)، وتوقف اليد الحديدية عن الإمساك بالأمور، أعاد إلى ما وراء النهر بعض ما كان فيها من اضطراب، لكن الأمر لم يفلت بالمرة. إلا أن الحجاج كان قد توفي قبل ذلك بسنة (٩٥/ ٧١٤)؛ وهذا ترك الأمور في تلك الأنحاء النائية على شيء من الهوان. كانت الصين قد أخذت بالتوسع نحو حوض تاريم أيام دولة تانغ (٦١٨ ـ ٩٠٦م) وخاصة في أوائل القرن الثامن للميلاد. وتوغل الصينيون فيما بعد حتى بحيرة إسك ــ كول، حيث تغلبوا على فئات من الأتراك، بعد حروب طويلة؛ وبذلك وطّدوا سلطانهم في المنطقة.

وتم هذا بشكل خاص أيام الأمبراطور هسوان ــ تسونغ (٧١٣ ــ ٧٥٦). ومن ثم فقد كانت مواقعهم قريبة من مواطن العرب في ما وراء النهر.

وكان أن ظهرت في تلك المنطقة جماعات من قبائل تركية اسمها تورغوش، فاغتنمت تشتت العرب، وتصدّت لهم بعض الشيء. وكان أهل الصغد قد استجاروا بهؤلاء الأتراك لينقذوهم من العرب، ففعلوا. ومن هنا أراد مسلم بن سعيد، وكان على جند ما وراء النهر، أن يوقفهم عند حدّهم. فقاد حملة إلى فرغانة، ولكن الترك تغلبوا عليه، في معركة العطش سنة ١٠٦/ ٧٢٤. وسميت هذه المعركة بهذا الاسم بسبب ما أصاب الجنود العرب من انقطاع الماء عنهم، إذ حال الترك دونهم ودون النهر.

سوَّلت لخاقان التورغوش، واسمه سو ــ لو، نفسه، وقد استقر الأمر له في فرغانة، أن يجتاز نهر جيحون لقتال العرب في معاقلهم. إلا أن أسد القسّري الذي كان قد عُين على خراسان لفترة ثانية، تصدى له وأوقع به هزيمة منكرة سنة ١١٦ (أو ١١٧)/ ٧٣٤ (أو ٧٣٥). وحدث بعد ذلك أن اغتيل الخاقان، فتفرق التورغوش أيدي سبأ ولم يعد في مقدورهم أن يؤذوا العرب.

توفي أسد بن عبد الله القسري سنة ١٢٠/ ٧٣٧، وكان يومها هشام بن عبد الملك خليفة (١٠٥ ــ ١٢٥/ ٧٢٤ ــ ٧٤٣)، فاختار نصر بن سيّار ليكون أول والٍ يعين على ما وراء النهر، أي إن هذه الولاية خرجت عن كونها تابعة لوالي خراسان، أو، على الأصح العراق.

وكما ترتب على قتيبة أن يعيد فتح خراسان، فقد كان على نصر بن سيّار أن يفتح ما وراء النهر من جديد. صحيح أن البلاذري قال إن قتيبة بن مسلم قد «غرس العرب في ما وراء النهر» لكن من الناحية العملية لم ينتقل إلى تلك البلاد من العرب العدد الكافي لتثبيت السلطان تثبيتاً دائماً. ومن ثم فإن عمل نصر بن سيّار كان عملاً أساسياً؛ فإن الذين أبقاهم قتيبة كانوا نوعاً من المشرفين العسكريين الذين يتابعون الإدارة المحلية، ولكن لا يسيّرونها، أما بعد فقد كان العمل أتم. فقد وضع الأساس العملي لصيروة ما وراء النهر منطلقاً للسيادة الإسلامية في المنطقة.

إلا أن الأمر كانت له ملابسات من أنواع مختلفة. فالقبائل العربية التي كانت قد استقرت في خراسان وما وراء النهر داخلتها العصبية العنيفة، التي كانت كثيراً ما يذر قرنها في أنحاء مختلفة من مناطق انتشار العرب: قيس ويمن في الشام، وقيس ويمن في العراق، وقيس ويمن في الجزيرة الفراتية؛ فلماذا لا يكون قيس ويمن في خراسان وما وراء النهر؟ فالعنصر هو العنصر، والقيسية واليمانية متغلغلة في تضاعيف الجسم العربي، ومنتشرة فيه من رأس الدولة إلى أخمص قدم أيّ عربي فيها.

إلى هذا جاءت الدعوة العباسية، فاتخذت من خراسان مسرحاً لها. حملت على الأمويين فاتهمتهم بالخروج عن طرق الحق والعدل على ما أوصى بهما الإسلام؛ وأشارت إلى تفريق الأمويين بين المسلمين عرباً وموالي، وإلى إحسانها للأولين وإساءتها للآخرين؛ وقالت

بأن الأمويين اعتدوا على أصحاب الحق الشرعي في الخلافة. وهذه أمور كان من الممكن أن تلقى قبولاً، خاصة وأن «الدعاة» أنفسهم بلغوا الغاية في الدقة في التنظيم وفي نشر دعواتهم والتشهير بخصومهم. ومن ثم فقد انقسم القوم ــ عرباً وفرساً ــ في تلك الأنحاء إلى مؤيدين للدعوة العباسية، ومنهم من الأولين فئات، ومن الآخرين جماعات كثيرة، وإلى منافحين عن الأمويين، ولعلهم كانوا قلة من الفريقين بسبب إحكام الدعوة.

ونحن نعرف الدور الذي قام به أبو مسلم وأعوانه في المشرق الإسلامي، حيث قالوا الكثير وكالوا من التهم الأكثر؛ ثم نظّموا الجيوش وقادوا الحملات ضد الأمويين.

وتبدُّل الدول في أحوال عادية يتبعه اضطراب وفوضى، فكيف بالأمر وقد كان انقلاباً عسكرياً حربياً عقائدياً صاحبته لتقوية مركز القائمين به، دعوة دينية مبطنة بالدعوة للرضا من آل البيت؟ وهذه الناحية هزت عواطف الكثيرين وحملتهم على تأييد الانقلابيين، ولو أنهم اكتشفوا، بعد حين، أنهم خدعوا!

وقد تم الانقلاب، وقضي على الدولة الأموية سنة ١٣٢/٧٥٠.

كان من الطبيعي أن يكون القائمون على الأمر في خراسان وما وراء النهر يومها ممن ترعرع في أحضان الدعوة وأيدها، ومن هؤلاء زياد بن صالح أمير الحرب ومدبر السلم (إن وجد) في المنطقة.

وقد أصبح توسع الصين، الذي ألمحنا إليه قبلاً، عبئاً ثقيلاً على مركز السلطة الصينية، بحيث أصبح من البيّن أن الحفاظ على هذه الدولة «الممتدة فوق الحاجة» لم يعد أمراً ممكناً. وزاد في صعوبة الموقف أن العرب، وهم كانوا معنيين بالتوسع أيضاً، أصبحوا في شبه مواجهة للصين. وكان الصدام بين الفريقين محتمل الوقوع في أي وقت.

وقد وقع الصدام فعلاً في طلس (أو طرس). فاقتتل الفريقان ــ العرب والصينيون ــ على نهر طلس، الذي كان يومها رافداً من روافد نهر سيحون (سيرداريا). وهناك في مجرى نهر طلس الأعلى، آثار مدينة عرفت باسم طلس (أو طرس أو طرز)، وتقع على مقربة من مدينة أولاي ــ أتا الحالية. وكانت يومها على الطريق الذي كان يصل بين اسفيجاب (على نحو ١٣٠ كلم إلى الغرب) ومركي أو بركي (على نحو ١٦٠ كلم إلى الشرق). وطلس نفسها كانت، في القرن الرابع/ العاشر، مركزاً عسكرياً وتجارياً مهماً.

ومعركة طلس كانت معركة يوم واحد. تمت سنة ١٣٣/ ٧٥١ (أي في مطلع العصر العباسي)، وانتصر فيها العرب على الصين وكانت المعركة الوحيدة اتي وقعت بين الفريقين. ولم يرافق القتال شيء من الحماسة والعنف اللذين عرفا عن عشرات من المعارك العربية.

والعرب لم يتابعوا نصرهم، ولا حاول الصينيون أن ينتقموا لانكسارهم. ولكن ظلت مِركي (أو بركي) الموقع المتقدم للعرب في تلك الربوع لمدة طويلة.

وحتى معركة بلاط الشهداء (تور أو بواتييه) التي وقعت بين العرب والفرنجة سنة ١١٤/ ٧٣٢ كانت أعنف وأشد. ومع ذلك فثمة وجه للشبه بين المعركتين. في بلاط الشهداء كانت

موجة الفتوح التي بدأت باليرموك، وسارت عبر مصر وشمال أفريقيا وإسبانيا، قد بلغت غايتها واستنفدت قوتها: فكانت خاتمة مطاف!

صحيح أن معارك كثيرة حدثت في تلك الجهات، لكنها لم تكن تتمة الموجة ــ كانت أموراً محلية.

ومعركة طلس، بالنسبة للعرب، كانت نقطة بلغت موجة الفتوح المشرقية عندها غايتها. فلم تحدث زوابع ولا عواصف.

أدرك الصينيون، فيما يبدو، أنهم يجب أن يكفّوا عن العمل الحربي، فلبوا نداء الواقع، وتوقفوا عن الادعاء بأنهم يجب أن يضموا ما وراء النهر إلى أمبراطوريتهم الواسعة. بل إن الأمر تعدى ذلك. إن «مواقع الدفاع الأربعة» (وهي خوطان وكَشْغر وكوتْشي وقراشَهْر) عن الصين في تلك المنطقة انهارت. وبعد مدة خسرت الأمبراطورية الصينية ما يسمى «داخل آسيا». ولعل تقوقع الصين وتجنبها العالم الخارجي (إلى أيام المغول تقريباً) يعود إلى انكسار جيشها أمام العرب في معركة طلس سنة ٧٥١.

أما بالنسبة للعرب فقد جاءت هذه المعركة بعيد زوال الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية، فكأنها كانت أمراً ذكّر أصحاب الحل والعقد والقول والرأي، بأن التغيير الذي حدث هو شيء حري بالتأمل الداخلي. وكانت طلس بعيدة عن عاصمة العباسيين ومشاغلهم. وقد اكتفى الحكام بأن ضمت ما وراء النهر إلى عالم الإسلام.

ولما قامت الدول المختلفة في ظلال الخلافة العباسية في المشرق الإسلامي، توزعت مراكز العلم على عواصمها. فكانت بخارى، عاصمة السامانيين (٢٠٤ ــ ٣٩٥/ ٨١٩ ــ ١٠٠٥)، واحداً من أكبر هذه المراكز. وقد وضعت اللبنة الأولى لذلك لما ضم العرب ما وراء النهر نهائياً إلى دولة الخلافة.

على أن معركة طلس كان لها أثر حضاري كبير في تطور البشرية.

كان الكاغد (الورق) المصنوع من القماش والخيوط وورق التوت(؟) معروفاً في الصين، فهو من مخترعاتها. وكان أهل سمرقند يستعملونه للكتابة، ولو أن ورق البردي (البابيروس) والرق (الجلد الرقيق جداً) كانا الأساس في مواد الكتابة في العالم، وحتى في سمرقند بالذات.

أسر العرب عدداً من الصينيين في معركة طلس. ومن المهم أن نذكر أن حاجة الدولة الصينية إلى العدد الكبير من الجنود كان يحتم عليها أحياناً ان تجند الناس لا أن تترك لهم أمر التطوع للجندية. ومن ثم فقد كان بين الأسرى عدد من مهرة الصناع، وبينهم جماعة من صنّاع الكاغد. فعلّم هؤلاء هذه الصناعة لأهل. سمرقند؛ ولما أتقنت هناك نقلت غرباً.

يحدثنا الجغرافي العربي الكبير المقدسي أن طبريا ودمشق كانتا تنتجان الكاغد في أيامه (القرن الرابع/ العاشر).

ولنتصور الفائدة التي جناها العلماء العرب، أولاً وغيرهم فيما بعد، في مشارق الأرض

ومغاربها، لما أصبح بإمكانهم الحصول على مواد الكتابة التي يرغبون فيها. ولنتصور ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن ما أصاب العالم العربي فقط من اهتمام بالعلم والتدوين، كان يجب أن يقتصر فيه على أوراق البردي ـ القليل من جهة، والثقيل الحمل من جهة أخرى.

وهكذا فقد ظهرت آثار المعركة الهادئة في صناعة هادئة، لكنها كانت بالغة الأهمية بالنسبة للحضارة العالمية.

٢ ـ ورقات من لطائف المعارف

كانت نيسابور في القرن الرابع/ العاشر مركز اقتصاد رائج وعلم كبير. وفي هذا الجو ولد أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي سنة ٣٥٠/ ٩٦١، وفيها توفي سنة ٤٢٩/ ١٠٣٨. وكانت نيسابور تابعة للدولة السامانية حتى زوالها (٣٩٥/ ١٠٠٥).

تلقى الثعالبي العلم عن أهل نيسابور، ثم التحق ببلاط مأمون خوارزمشاه (٣٩٩ ــ ٤٠٧/ ١٠٠٩ ــ ١٠١٧) في كور كانج (الجرجانية) الذي كان هو نفسه عالماً، ومن ثم فقد كان يرعى العلماء. وكان وزيره أبو الحسن السهلي (أو السهيلي) كذلك من كبار أهل العلم والمعرفة. وفي هذا البلاط أقام ابن سينا بعض الوقت لما خرج من بخارى. ويبدو أن البيروني كان أيضاً من زوار البلاط.

ولما احتل محمود الغزنوي خوارزم (خيوه) سنة ٤٠٨/ ١٠١٧) كان البيروني فيمن ذهب معه إلى غزنة. أما ابن سينا، مثلاً، فقد هرب قبل ذلك.

أما الثعالبي فقد عاد إلى نيسابور حيث انصرف إلى التعليم إلى أن توفي سنة ٤٢٩/ ١٠٣٨. إلا أنه زار البلاط الغزنوي في عهد محمود أكثر من مرة، ويبدو أنه كان يلقى هنا الاحترام ويجزل له في العطاء.

حياة الثعالبي كانت مثقلة متعبة بسبب التقلبات السياسية التي شهدتها المنطقة في حياته. لكنها لم تكن كذلك بالقدر الذي عرفه ابن سينا مثلاً.

والثعالبي واحد من الأعلام في تاريخ الأدب العربي. ويكفيه أن تكون «يتيمة الدهر» من مؤلفاته. وكأني به قد حمل لواء الثقافة العربية عالياً في المشرق الإسلامي في الوقت الذي كان ثمة اتجاه إلى إحياء اللغة الفارسية وإنعاشها (القرن الرابع/ العاشر). إذ في بخارى ظهر دقيقي والرُدكي والفردوسي.

والثعالبي يمثل المؤلف العربي الذي يكون له باع طويل متخصص في ناحية من نواحي المعرفة المعاصرة ــ كأن يكون طبيباً أو فقيهاً أو محدثاً أو لغوياً ــ كالثعالبي ــ لكنه مع ذلك يكتب في موضوعات مختلفة. وفي هذه الحالة قد تكون كتبه ضخمة وقد تكون رسائل صغيرة.

هذا النوع من الكتب هو الذي نسميه «الأدب» بالمعنى الواسع البعيد عن التزمت. فكتاب «الحيوان» للجاحظ و«العقد الفريد» لابن عبد ربه، من كتب الأدب، إلا أنها تقع في مجلدات. فكتاب «الحيوان» ليس دراسة بيولوجية أو بيئية لهذا النوع من الأحياء الذي نسميه الحيوان، بل هو كتاب فيه الكثير من التاريخ والقصص والشعر عن الإنسان والأرض والنبات، وكذلك عن الحيوان.

أما الكتاب الذي أريد أن أتحدث عنه الساعة فهو من الكتب الصغيرة في هذا «النسغ» من الكتابة، الذي نسميه أدباً. إذ إنه دون الـ ١٥٠ من الصفحات. وهو مقسم إلى عشرة فصول أو أبواب: الأول في الأوائل والثاني في ألقاب الشعراء والثالث في سائر الألقاب الإسلامية والرابع في الكتّاب المتقدمين والخامس في الأعرقين من كل طبقة والسادس في الغايات من طبقات الناس والسابع في ظرائف الاتفاقات والثامن في فنون شتى والتاسع في ملح النوادر والعاشر في أنموذج من خصائص البلدان.

ولا بد من أن نتساءل: لمن وضع مثل هذا الكتاب؟ وقد يصعب أن نضع جواباً دقيقاً عن ذلك. ولكن يجب أن نذكر العصر الذي عاش فيه الثعالبي وغيره من أهل تلك القرون. كيف كان يمكن للمتعلم والذي يعمل في بلاطات الملوك وفي دوائر الحكم أن يحصل على نوع من الثقافة والدربة يعينه في عمله؟ لا مجلة ولا صحيفة ولا كتابَ مطبوعاً. فلم يبق لمثل هذا القارىء إلا أن يزود بمثل هذا الكتاب. وهذه كانت طريقة العلماء في التثقيف العام.

وقد أهدى الثعالبي كتابه إلى وزير الغزنويين الصاحب أبي القاسم.

من باب الأوائل ننقل ما يأتي:

١ ــ أول من سنّ للضيف صدر المجلس وسماه مهمان بهرام جور (٣٨٨ ــ ٣٩٩م) من ملوك الساسانيين. وتفسير مهمان سيد المنزل. وفي ذلك يقول الشاعر:

ما سمّت العجم المهمانَ مهمانا ... إلاّ لإجلال ضيف كان من كانا
فالمهُ أكبرهم، والمان منزلهم ... والضيف سيدهم ما لازم المانا

ولعل القراء يذكرون قول شاعر عربي:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا ... نحن الضيوف وأنت رب المنزل

٢ ــ أول من سمي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ر). وذلك أن أبا بكر (ر) كان يدعى خليفة رسول الله (ص). فلما توفي، وقد استخلف عمر على الأمة، قال عمر: «كيف يقال لي خليفة خليفة رسول الله، وهو يطول!» فقال له المغيرة بن شعبة: «أنت أميرنا ونحن المؤمنون، فأنت أمير المؤمنين».

قال: «فذاك إذن». وهو أول من أرّخ بالهجرة.

٣ ـ أول من نقش على الدراهم والدنانير بالعربية عبد الملك بن مروان. فإنه عني بذلك وكتب إلى الحجاج في إقامة رسمه (هذا بالنسبة إلى المشرق، أما بالنسبة للمغرب فقد صدر الأمر من دمشق مباشرة).

ومن باب ألقاب الشعراء الذين لقبوا بشعرهم.

٤ ـ أعصُر ــ هو منبه بن سعد لقب بذلك لقوله:

قالت أميمةُ ما لرأسك بعدما ... أفد المشيب أتى بلون منكرِ
أأميم إن أباك غيّر لونه ... مر الليالي واختلاف الأعصرِ

ومن باب سائر الألقاب.

٥ ــ نِفْطويه ــ هو أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي. ولُقِّب بذلك تشبيهاً له بالنفط لدمامته. وقُدِّر اللقب على مثال سيبويه لأنه كان ينسب في النحو إليه، ويجري في طريقه، ويدرّس شرح كتابه. وفيه يقول الشاعر:

لو نزل الوحي على نِفْطَويه ... لصار ذلك الوحي وَيْحاً إليه
أحرقه الله بنصف اسمه ... وجعل الباقي وَيْهاً عليه

(ويروى صُراخاً)

ومن باب الغايات من طبقات الناس.

٦ ــ رجل تزوج إليه أربعة من الخلفاء هو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان (ر). تزوج الوليد بن عبد الملك ابنته عُبْدة؛ وتزوج هشام بن عبد الملك ابنته رُقية؛ وتزوج سليمان بن عبد الملك ابنته عائشة؛ وتزوج يزيد بن عبد الملك ابنته أم سعيد.

٧ ــ امرأة لها اثنا عشر محرماً كلهم خليفة: هي عاتكة بنت يزيد بن معاوية. يزيد أبوها ومعاوية جدها، ومعاوية بن يزيد أخوها، وعبد الملك بن مروان زوجها، ومروان بن الحكم حموها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، الوليد بن يزيد ابن ابنها، وسليمان وهشام بنو زوجها، ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد ابنا ابن زوجها.

٨ ـ امرأة حجت لم يحج مثلها في إقامة المروءة ملك ولا ملكة. هي جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني (في الموصل ٣١٧ ــ ٣٥٨/ ٩٢٩ ـ ٩٦٩). حجت سنة ٣٦٦/ ٩٧٦ فصار عام حجتها مثلاً وتاريخاً. وذلك أنها أقامت من المروءة وفرقت من الأموال وأظهرت من المحاسن ونشرت من المكارم ما لا يوصف بعضه عن زبيدة وغيرها من حاجات بنات الخلافة والملك، ولا عن الخلفاء والملوك الحاجين. فأخبرني الثقات أنها سقت جميع أهل الموسم السَويق بالسكر والثلج. وكانت استصحبت البقول المزروعة في مراكن الخزف على الجمال، فضلاً عما سواها. وأعدّت خمسمائة راحلة للمنقطعين من رجّالة الحاج. ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار. واستصبحت فيها بشموع العنبر في مدة مقامها بمكة. وأعتقت ثلثمائة عبد ومائتي جارية. وأغنت المجاورين بالصلات الجزيلة. وخَلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب. وكان معها أربعمائة عمارّية مدبّجة لا يدرى في أيها كانت.

ومن فنون شتى من لطائف المعارف.

٩ ــ ذكر الغالب على ملوك بني أمية وكون رعاياهم على أخلاقهم. حدّث الهيثم بن عدي قال ــ كان الأغلب على عبد الملك بن مروان حب الشعر فكان الناس في أيامه يتناشدون الأشعار ويتدارسون أخبار الشعراء ويعنون بها. وكان الأغلب على الوليد بن عبد الملك حب البناء واتخاذ المصانع واعتقاد الضياع، وكان الناس في أيامه يخوضون في وصف الأبنية ويحرصون على التشييد والتأسيس ويولعون بالضياع والعمارات. وكان الأغلب على سليمان بن عبد الملك حب الطعام والنساء. فكان الناس في أيامه يصفون ألوان الأطعمة ويذكرون أطايبها وغرائبها، ويستكثرون من الحرص على أحاديث النساء ويتساءلون عن تزوج

الحرائر والاستمتاع بالسراري... وكان الأغلب على عمر بن عبد العزيز حب القرآن والصلاة والصوم. وكان الناس في أيامه يتلاقون فيقول الرجل لأخيه ما وِرْدك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن ومتى تختمه، وكم صليت البارحة؟ وصلاتك في المسجد الحرام أم في بيتك، وهل أنت صائم وما تصوم من الشهر؟ وكان يزيد بن عبد الملك يحب الخيل والقيان. وكان الناس يتنافسون في اختيارها ويتقربون إليه بانتخاب الأجود والأحسن منها وإهدائها إليه. وكان هشام بن عبد الملك يحب الثياب ونفائس اللباس وكان الناس يتبارون في التجارة فيها ويستبضعون ألوانها ويتواصفون أنواعها. وكان الوليد بن يزيد صاحب لهو وشراب وسماع وكان الناس في ايامه يتشاغلون بالملاهي ويقولون بالسماع. وقد صدق من قال إن الناس على دين ملوكهم، والسلطان سوق يجلب إليها ما ينفق فيها.

ومن ملح النوادر

٩ ـ خليفة ركب البريد: لا يعرف خليفة ركب البريد قط سوى الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦). فإنه كان غائباً بجرجان. فلما مات المهدي كتب إليه الرشيد بالخبر والبيعة ووجه مع الرسول الخاتم والقضيب والبردة. فلما بلغ جرجان في ثمانية أيام، ووافى موسى الهادي بغداد على البريد بعد ثلاثة عشر يوماً من موت المهدي. فقال سليم بن عمرو:

لما أتت خَير بني هاشم ... خلافة الله بجرجان
أسرع في الأرض وقد حازها ... إسراع ذي الريح سليمان
كانت لذاك الريحُ مأمورة ... وذا على سفواء مذعان

ومن خصائص البلدان.

١٠ ـ وحمير مصر موصوفة بحسن المنظر وكرم المخبر، وكذلك أفراسها. إلا أن بعض البلاد يشارك مصر في عتق الأفراس وكرمها، وتختص مصر بالحمير التي لا تخرّج البلدان أمثالها. وكان الخلفاء لا يركبون إلا حمير مصر في دورهم وبساتينهم. وكان المتوكل العباسي (٢٣٢ ـ ٢٤٧/ ٨٤٧ ـ ٨٦١) يصعد إلى منارة سر من رأى (سامراء) عل حمار مَريسيّ، ودرج تلك المنارة من خارج. ومُريس قرية بمصر واليها ينسب بشر المريسي.

١١ ـ سمرقند ـ لما أشرف عليها قتيبة بن مسلم رأى منها منظراً في نهاية الحسن تحار فيه العيون. فقال لأصحابه شبّهوها، فلم يأتوا بشيء. فقال: «كأنها السماء في الخضرة، وكأن قصورها النجوم الزاهرة، وكأن أنهارها المجرة». فاستحسنوا هذا التشبيه جداً، وتعجبوا من صدقه. ومن خصائص سمرقند الكواغيد [الأوراق] التي عطلت قراطيس مصر [البردي] والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق؛ ولا تكون إلا بها وبالصين. وقد رُوي أنه وقع من الصين إلى سمرقند في أسرى معركة طَلس (١٣٤/ ٧٥١) على مقربة من سمرقند، من اتخذ صناعة الكواغيد بها. ثم كثرت الصنعة واستمرت العادة حتى صارت متجراً لأهل سمرقند فعم خيرها والارتفاق بها في الآفاق. ونضيف نحن أن صناعة الكاغد انتشرت في العالم العربي بحيث أنها كانت في القرن الرابع/ العاشر مثلاً، تنتج في بغداد وطبرية ومصر.

وقد خرج توقيع طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٣٠ ـ ٢٤٨/ ٨٤٥ ـ ٨٦٢) من الدولة الطاهرية، مرة إلى وكلائه: إذا وجدتم البرذون الطخاريّ والبغل البردعي والحمار المصري والرقيق السمرقندي، فاشتروها ولا تستطلعوا رأينا فيها.

هذه نماذج من لطائف المعارف منتزعة كنماذج لما جاء في الكتاب.

القسم الخامس
العرب والصين

١ ـ نوافذ صينية على العرب في العصور الوسطى

لما تولى جستنيان عرش الأمبراطورية البزنطية (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) كانت شرانق الحرير قد أخذت تربى في جبال بلاد الشام وبعض مناطق آسيا الصغرى وبلاد اليونان وإيطاليا. ذلك أن بيوض أو «بزر» الشرانق نقلت في عصوين من القصب أفرغتا من محتوياتهما ووضعت البيوض مكان ذلك. كان ذلك في أواسط القرن السادس للميلاد، ولم تلبث تربية الشرانق أن انتشرت، وأصبح الحرير ينتج في المنطقة. ولكن هذا الذي كان ينتج لم يكن كافياً لسد الحاجات المتزايدة لسكان غربي حوض المتوسط وأوروبا. فكان من الطبيعي أن يستمر استيراد الحرير خيوطاً ونسيجاً وقماشاً من الصين. إلا أن الطريق المباشر بين الصين وإيران (كانت يومها تحت حكم الساسانيين) وبزنطية، كان مضطرباً، لذلك كان الحرير ينقل بحراً، في أكثر الحالات على الأقل. وكانت جزيرة سرنديب [سيلان أو سري لانكا اليوم] هي السوق الرئيسة للحرير وغيره من المتاجر.

ولعله من حسن حظنا أن زار الهند في أيام جستنيان «كوزموس» الملقب بالرحالة الهندي. وقد وضع فيما بعد كتاباً عن الجغرافيا العامة «نشر حوالى سنة ٥٤٠م». وكان كوزمس قد أقام مدة في سرنديب، لذلك تحدث بشيء من التفصيل عن الأجزاء التي زارها في سرنديب والهند. وأما عن المناطق الشرقية النائية فما «سمعه» من التجار عنها. وخلاصة ما ورد عند هذا المؤلف هو أن الصين كانت ترسل إلى سرنديب حريرها وخزفها المزخرف، كما كانت جزر الهند الشرقية «أندونيسيا» تزود تجار سرنديب بالتوابل. أما الأحجار الكريمة فكانت في غالبها هندية الأصل والطريق. هذه السلع كانت تنقل غرباً على أيدي التجار العرب، الذين كانوا المشرفين على هذه التجارة. وكان هؤلاء التجار يحملون البخور العربي، والمر الأفريقي، والدَبل، وقرن وحيد القرن، والعاج من أفريقيا، ودم الأخوين والعنبر من جزيرة سوقطرى إلى سرنديب، فيعود به التجار الشرقيون إلى الهند والصين وغيرهما.

والطريف في الأمر أن الحرير الصيني كان ينقل من سرنديب إلى الخليج العربي، ثم عن طريق دولة ساسان إلى المشرق، فيما كانت التوابل والطيوب تنقل عن طريق البحر الأحمر (وطريق الحجاز البري) إلى مصر وبلاد الشام. وقد حاول البزنطيون أن ينقلوا تجارة الحرير عن طريقهم هذا لكنهم لم ينجحوا. ذلك لأن التجار ألفوا حمل الحرير بطريق معين لمدة طويلة.

ومع أن الصينيين كان لهم يومها وحتى قبل ذلك، هذه التجارة الواسعة، فلم يعرف عنهم أنهم خرجوا إلى هذا العالم الواسع للتعرف إليه. ونحسب أن اتساع بلادهم وتنوع سكانها وكثرة وارداتها ونتاجها الصناعي والزراعي، كان فيه ما يكفيهم، كي لا نقول يقعدهم عن هذه

الزيارات. لذلك عندما نقع على كتاب صيني فيه معلومات عن العالم الخارجي نعتبره نافذة يتطلع منها الصيني ليرى كيف يعيش الآخرون.

وقد وقع في أيدي الباحثين كتاب يعود إلى القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد تحدث فيه كاتبه عن بربرا [الصومال] في الشرق الأفريقي. والذي ذكره هو ما بلغه من التجار والرحالين. و«الكتاب، ظل مطموراً في الصين إلى القرن السابع عشر».

يعود هذا الكتاب إلى أيام أسرة تانغ (٦١٨ ــ ٩٠٧م) وهي فترة من فترات الازدهار في تاريخ الصين. وجاء فيه «الموضوع سنة ٨٦٣» عن بربرا قول الكاتب: «بلاد بربرا تقع في البحر الجنوبي الغربي... سكان هذه البلاد يعتمدون على اللحوم في غذائهم، ولا يأكلون الحبوب. ثيابهم قليلة وتكاد تغطي ما تحت الخاصرة فقط. ونساؤهم نظيفات وعفيفات... وقد يقتصن ويبعن رقيقاً، وأسعارهن مرتفعة. والبلاد تنتج العاج والعنبر.. ولم يخضع السكان لأي عنصر أجنبي قط». ويرى الباحثون أن الكاتب يقصد الصومال بأكمله لا منطقة بربرا فقط.

وثمة كتاب آخر يعود إلى القرن الثالث عشر جاء فيه أن سكان تلك الجهات [اي الصومال] يعيشون في أربع مدن فقط، والباقي من السكان يعيشون في قرى صغيرة. ويشير إليهم على أنهم يعبدون السماء، أي إنهم مسلمون «ولسنا نحسب أن صينياً كان يمكنه أن يستعمل عبارة أخرى للتعبير عن عبادة الله». ويقول المؤلف إن البلاد فيها الكثير من الإبل والأغنام. وعندهم من السلع، العاج وقرن وحيد القرن. وتوجد النعامة في تلك الجهات، لكنها طائر بري.

أشرنا آنفاً إلى عصر أسرة تانغ وقلنا إن الكتاب الأول وضع في أيامها. أما الكتاب الثاني فيعود إلى عصر أسرة سونغ (٩٦٠ ــ ١٢٧٩م)، وهو العصر الثاني الذي عرفت الصين فيه الازدهار في العصور الوسطى. وحريّ بنا أن نتذكر بضعاً من الحقائق المتعلقة بهاتين الفترتين.

ــ في عصر أسرة تانغ كانت الصين تسيطر سيطرة تكاد تكون تامة على الطرق البرية التي تصلها بالمشرق العربي الإسلامي عبر أواسط آسيا. وفي هذه الفترة كانت الصين تصدّر، فضلاً عن الحرير، الشاي والخزف الصيني والورق. وحريّ بالذكر أن أسرة تانغ كانت معاصرة للعباسيين الأوائل، الذين كانوا يستهلكون الكثير من السلع.

ــ في عصر سونغ، أفلتت التجارة البرية من أيدي أهل الصين، لكن توسع الصين التجاري البحري كان فيه تعويض عن الخسارة. وقد بنى الصينيون أول أسطول بحري في هذه الفترة. فبعد أن كان لديهم إحدى عشرة سفينة صار عندهم عشرون سفينة كبيرة، وزاد عدد بحارتهم من ثلاثة آلاف بحار إلى اثنين وخمسين ألفاً من البحارة.

هذا الأمر بالذات مهم جداً بالنسبة إلى النوافذ التي أطل منها الصينيون على العالم، من دون أن يخرجوا إليه. ذلك بأن المدن والموانىء الرئيسة التي كانت تستقبل التجار

الأجانب، من عرب وغيرهم، وهي خانقو «كنتون» وهي الأقدم، وهانغ ـ تشو، ومنغ ـ تشو وتسوان ـ تشو، وهذه ورد اسمها زيتون (وفي وقت لاحق أضيفت فوتشو أيضاً). وهذه هي التي كانت تسمى الموانىء الرسمية، وكانت جميعها تقع في الجزء الجنوبي من البلاد.

وكان في كل من هذه مراقب للتجارة البحرية، ومكتب كان يتلقى من التجار الأجانب بيانات عن البضائع التي جاءوا بها وعن تلك التي ينوون نقلها إلى الخارج. ويتولى هذا المراقب الإشراف على دخول السفن إلى الموانىء وخزن المتاجر وتحصيل الرسوم المتوجبة عليها. وكان مندوب السلطان في الميناء يختار من البضائع والسلع ما يلزم للبلاط، ويدفع ثمنها. وبعد ذلك يباع الباقي. والذي نعرفه من إشارات متعددة هو أن البلاط الملكي والبلاطات الأصغر منه كانت أفضل زبائن للسلع المستوردة من الخارج، وفي أكثرها كانت هذه بضائع استهلاكية.

من هذه المعلومات التي دوّنها المفتشون والمسؤولون في هذه المدن ـ الموانىء، تجمعت للبعض منهم مادة كانت كافية لإلقاء الكثير من الضوء على التجار والمتاجرات من حيث الأنواع والأصناف وطرق التخزين وآداب المعاملة التجارية.

وقد وصلتنا ثلاث مدوّنات تعود إلى أيام أسرة سونغ (٩٦٠ ـ ١٢٩٧م)، منها اثنتان عنيتا بالتجار الآتين من الشرق والجنوب والجوار بالنسبة لهذه المدن الواقعة في المناطق الجنوبية من الصين. أما المدونة الثالثة فهي التي جاءت فيها أخبار عن العرب والمسلمين وديارهم وتجاراتهم. وهذه وضعها تشاوجو ـ كوا وسماها تشو ـ فان ـ تشي، أي وصف الشعوب الأجنبية.

طبع كتاب «جو ـ كوا» لأول مرة بالصينية سنة ١٨٠٥م. وفي سنة ١٩١١م صدرت له ترجمة إنكليزية طبعت في بطرسبورغ، وقد قام بالعمل فردرك هيرث وزميله. و.و. روكهل، مع ملاحظات وهوامش غنية جداً.

والباحثون متفقون على أن «جو ـ كوا» نقل بعض ما جاء في مدونته عن السابقين من الكتاب. ولكن المهم هو أن الرجل وضع كتابه بين سنتي ١٢٤٢ و١٢٥٨ أي بين ٦٤١ ـ ٦٥٦ للهجرة. فهو يلخص هذه المعرفة إلى ذلك الوقت.

فما الذي نجده عند «جو ـ كوا» عن العرب والمسلمين وديارهم وتجارتهم؟

قسّم المؤلف كتابه إلى قسمين جعل الأول منهما للأماكن والشعوب، وقصر القسم الثاني على السلع والبضائع وأصنافها وخصائصها ومنافعها وحتى أوجه استعمالها أحياناً.

وقد نالت بلاد العرب والإسلام حظاً لا يستهان به من الكتاب: «ست وثلاثون صفحة من أصل مائة وخمس وأربعين صفحة». وكان من الطبيعي، وقد جمع المؤلف مادته من روايات التجار والبحارة، أن يعتبر ديار العرب والإسلام واحدة. والكلمة التي يستعملها للدلالة على ذلك هي «تاشي». ويؤكد أن بلاد تاشي هذه تقع في الجهة الشمالية الغربية من الصين، لكن البلدين أو المنطقتين غير متجاورين، إذ إن «تاشي» بعيدة. ويشير إلى أن السفن تحتاج إلى

شهور كي تنتقل من الصين إلى سرنديب ثم إلى عُمان ومصر، فضلاً عن المغرب.

وكان من الطبيعي أن تكون الصورة الجغرافية لتلك البلاد النائية عند جو ـ كوا مضطربة. فهو يذكر موانىء الخليج العربي وبحر العرب وشرق أفريقيا مثل البصرة سيراف والبحرين والشحر وصحار والصومال (بربرا) وزنجبار، كما يشير إلى مكة المكرمة والموصل والمغرب العربي وصقلية. لكن نسبة المواقع إلى بعضها البعض ليست واضحة أبداً، وحدود الأقطار مضطربة وأوصاف المناخ مضحكة أحياناً.

ومع أن الأحداث التاريخية التي يرويها فيها كثير من الضبابية، فان جو ـ كوا يذكر أن النبي (ص) ولد في مكة وأن المسلمين يصلون خمس مرات يومياً وأنهم يصومون ويحجون. ونحسب أن المؤلف حصل على هذه المعلومات الأساسية عن طريق التواتر والمشاهدة، إذ لا بد أنه راقب المسلمين يقومون بأداء الصلاة في تلك المدن. لكن عندما يتحدث عن عاصمة «تاشي» أو حاكم تاشي فإنه يخلط بين الأمكنة والناس، بحيث تكاد أوصافه تنطبق على أي ملك، كما يسميه، وعلى أيّ عاصمة أو حتى على أي قصر.

فإذا انتقل جو ـ كوا إلى القسم الثاني من كتابه كان أدق وصفاً وأوفى معلومات. ذلك أن السلع التي كانت تحمل إلى الموانىء كانت تقع تحت عينيه لتسجيلها وجمع الرسوم المترتبة عليها. وهو يفرق بين ما كان تجار الجزيرة العربية يحملونه من نتاج بلادهم وما كانوا يحملونه من الأنحاء الأخرى. ولسنا نستطيع أن نورد جميع ما ذكره الكاتب، ولكن يجدر بنا أن نذكر بضعة أمثلة لتوضيح وجهة نظره.

فالمادة الرئيسة التي كانت الجزيرة العربية تزود الصين بها هي اللبان البخور من الصنف الممتاز. ويأتي بعد ذلك المر وهو البخور العادي. وهذا كان يأتي من شرق أفريقيا أيضاً. وكان لؤلؤ البحرين مما يعنى الصينيون بشرائه واقتنائه ويفضلونه على اللؤلؤ الهندي. أما ما كان التجار ينقلونه من خارج الجزيرة، فأهمه العاج والعنبر وقرن وحيد القرن من أفريقيا. والمرجان «الذي كان أجوده يحمل من الشواطىء المغربية». كما كان ثمة صنف أقل جودة يحمل من البحر الأحمر. والواقع أن المعلومات التجارية التي نعثر عليها عند «جو ـ كوا» مفيدة وطريفة.

في الفترة الممتدة من ١٣٦٨ إلى ١٦٤٤م، كانت أسرة «منغ» هي الحاكمة في الصين. هذه الأسرة عنيت بالبحر أكثر من سابقاتها من الأسر التي حكمت البلاد. ذلك بأن قيامها اتفق زمنياً مع الفترة التي انحلت فيها أمبراطورية المغول الكبرى، واضطربت الطرق التجارية البرية التي تصل الصين بالبحر المتوسط على نحو لم يعرف من قبل. فكان على التجار الصينيين أن يؤمنوا الحصول على السلع التي ألفها أهل البلاد، وبخاصة أغنياؤها وأمراؤها وبلاطاتها، من مصنوعات المناطق الغربية ونتائجها. وكان البحر هو السبيل. وليس من شك في أن تجربة الصين السابقة في أيام أسرة سونغ كانت مشجعة. ومن هنا نجد أن الأمبراطور الثالث من أسرة منغ، اسمه يونغ ــ لو، يرسل سبع حملات بحرية بين سنتي ١٤٠٥ و١٤٣٣م.

فما الذي حمله على ذلك؟

جاء في الحوليات الأمبراطوريّة الرسمية، أن الأمبراطور أرسل هذه الحملات البحرية للبحث عن ابن أخيه الذي اختفى بعد حادث سياسي يبدو أن الشاب لعب فيه دوراً لم يعجب الأمبراطور. وقيل إن هذا الشاب غادر الصين إلى مكان في الخارج، فكان لا بد من حملات عسكرية للبحث عنه.

ولكن مثل هذا الكلام، كما تقول جانيت مرسكي في كتابها عن الرحلات الصينية الكبرى، شفاف أكثر من اللازم. إذ ليس من الضروري إرسال حملات عسكرية مكونة من أعداد كبيرة من السفن التي زارت خمساً وثلاثين مدينة بحرية وبلداً من أجل البحث عن شاب، ولو أنه كان من الأسرة المالكة. خاصة وأن المعروف أن هذه السفن لم تقم بشن غارة على أي مكان لتخليص هذا الفتى.

هل كانت هذه الحملات ترسل من أجل ضمان التجارة وتأمين الطرق؟ هنا مجال للتساؤل. إذ إن النظرة الرسمية الملكية للتجارة كانت غريبة في الصين. التجارة كانت دون المستوى الاجتماعي ـ الديني للكبار، في المملكة، ولكن الكبار في المملكة، هم الذين كانوا يحبون الحصول على المتاجر الأجنبية. وإذن فيجب أن توضع القضية بشكل يمكّن هؤلاء الكبار في المملكة من الاتجار من دون أن تمس مكانتهم الاجتماعية. من هنا نجد أن البلاط لم يكن يتاجر. كل ما كان يحدث هو أن التجار الأجانب، مهما كان مقامهم، كانوا يأتون إلى الصين لتقديم هدايا التبعية للأمبراطور «وكانت هذه الهدايا يدفع ثمنها غالياً». ويقبل الأمبراطور هذه الهدايا تكرماً منه، ثم يسمح لهؤلاء الأجانب ببيع ما تبقى عندهم.

من هنا نجد من قال، في أيام الأمبراطور يونغ ـ لو، إن هذه الحملات كان القصد منها حماية أهل البلاد التي قبل الأمبراطور بخضوعها له. ولكن الذي حدث هو أن هذه الحملات لم تستمر بعد سنة ١٤٣٣م. ويرى المؤرخ أرنولد توينبي أن الصين لم تجد حاجة إلى الاستمرار في هذه الحملات لأنها لم تفد منها. فالبلاد كانت تكفي نفسها بنفسها، والسلع الاستهلاكية كانت تأتي من دون الحاجة إلى هذه الحملات البحرية الضخمة.

وقد يكون الأمر أن الأمبراطور يونغ ـ لو أصيب موقتاً بالرغبة في إظهار العظمة. فلما تم له ذلك، تخلى عن البحر، وعاد يدافع عن بلاده براً في حدودها الشمالية الغربية. فهناك كان مصدر الخطر على الصين.

أما أمير البحر الذي قاد الحملات السبع، فقد كان صينياً مسلماً من ولاية «يونان». والذي نعرفه هو أن تشنغ ـ هو أمير البحر، كان حريصاً على تدوين أخبار كل حملة بالتفصيل، من حيث عدد السفن والرجال والأماكن التي وصلتها والترحاب الذي قوبلت به الحملة أو الأزورار الذي أظهره بعض السكان نحو أي من هذه المحاولات. وكان يرفع تقاريره الرسمية هذه إلى الأمبراطور الذي كان يأمر بحفظها في المحفوظات الأمبراطورية. لكن هذه التقارير فقدت جميعها. والباحثون في تاريخ الصين لا يرون مثل هذا الأمر غريباً. فقد كان حدوث مثل هذه الأمور للرجال الناجحين أمراً مألوفاً معروفاً. فالرجال الناجحون لم يكونوا يعدمون

أعداء وخصوماً منافسين لهم يقومون بطمر الأخبار أو إتلاف الأوراق. وفي حالة تشنغ ـ هو اختار خصومه إتلاف الأوراق والتقارير.

لكن الرجل كان يعرف معاصريه ومنافسيه، وكان يدرك مدى ما قد يتعرض له على أيديهم. لذلك فقد لجأ إلى نقش خلاصة لأخبار هذه الحملات على حجر ضخم أقامه في ميناء تشانغ ـ لو، وهو الميناء الذي انطلقت منه الحملات السبع. فحصلنا على خلاصة للأخبار بدل امتلاك التفاصيل.

والحملات السبع يمكن تلخيص أخبارها على النحو التالي: الحملة الأولى (١٤٠٥ ـ ١٤٠٧م)، إلى جزيرة سرنديب «سيلان». والثانية والثالثة (١٤٠٧ ـ ١٤٠٩ و١٤٠٩ ـ ١٤١١م) زارتا المناطق الواقعة بين الصين وسرنديب، ثم اتجهتا غرباً إلى الخليج العربي ووصلتا إلى هرمز، التي كانت يومها أكبر موانىء الخليج وأغناها، ومركز الاتصال بين الأبلة شمالاً وما إلى الشرق من موانىء. والحملة الرابعة، التي كانت صغيرة نسبياً، والتي زارت بعض الأماكن الصغرى على الطريق إلى مدخل الخليج العربي بين سنتي (١٤١٣ و١٤١٥م)، كان فيها تراجمة وأدلاء مسلمون. ولعل هذه الحملة كانت حملة تجار للتفاوض أصلاً. أما الحملة الخامسة (١٤١٧ ـ ١٤١٩) فقد وصلت عدن وميلندا. وهذه المدينة الأخيرة تقع على الشاطىء الأفريقي الشرقي، ومنها انطلق فاسكو دي غاما للوصول إلى الهند بعد أقل من قرن من زيارة الحملة الصينية الخامسة لها. ويبدو أن وصول هذه الحملة إلى الشاطىء الأفريقي شجعت الأمبراطور على إرسال حملة أخرى إلى تلك المناطق، فكان أن أرسل الأمبراطور الحملة السادسة (١٤٢١ ـ ١٤٢٢م) إلى تلك الجهات فوصلت إلى مقديشو. والمرجح لدينا أن المسؤولين أو العارفين أدركوا أهمية هرمز، إذ كانت هذه هدف زيارة قامت بها الحملة السابعة (١٤٣١ ـ ١٤٣٣م).

كانت الحملات ضخمة. فالحملة الأولى اشتركت فيها اثنتان وستون سفينة وثمانية وعشرون الف بحار، عدا نحو سبعة آلاف قدّموا خدمات محلية في إعداد السفن والمؤن والأسلحة. صحيح أن الحملات الأخرى كانت أصغر عدد سفن وبحارة، لكن مع ذلك فإن إرسال سبع حملات كان يتطلب إعداداً كبيراً. وكان الأمر، فوق ذلك، يقتضي نفقات كبيرة. ولكن السؤال الذي يواجهنا هو: ماذا كانت الفائدة من هذه المحاولات؟ وقبل هذا يخطر في البال سؤال آخر: ماذا كانت الغاية من هذه الحملات؟

أما السؤال الثاني فقد حاولنا الإجابة عنه قبلاً. وأما السؤال الأول فالإجابة عنه هو أن الفائدة التي حصلنا عليها فعلاً كانت قليلة. قليلة من حيث المعلومات التي كنا نحب أن تصلنا عن البلاد التي وصلتها هذه الحملات. صحيح أن أربعة من الضباط البحريين الذين عملوا مع أمير البحر المذكور قد كتبوا فيما بعد عن بعض إنجازات هذه الحملات. وكان في الذي كتبوه بعض الفائدة. لكن ذلك كله كان متأخراً، إذ إنه كتب بعد ما لا يقل عن عشر سنوات بعد انتهاء الحملات، فضلاً عن أنه كان عن أمور شخصية أكثر منه عن البلاد التي زاروها.

هذه الإطلالات التي مررنا بها لم تعطِ الصينيين الصورة الكاملة عن العالم الخارجي. كانت نوافذ، والنوافذ في أكثر حالاتها تعطيك جزءاً من الصورة الأكبر. فكيف إذا كان الجو مشحوناً بالغيوم والضباب، كما كانت نوافذ الكتّاب الصينيين مثل جو ـ كوا؟

كان الصيني، على ما يرى الذين درسوا تاريخ الصين وآدابها، يعتقد اعتقاداً راسخاً في أمرين هامين بالنسبة له وهما: أن بلاده ظلت خلال تاريخها الطويل وحدة لم تتجزأ، ولو أنها عرفت فترات كانت فيها مقسمة. والتاريخ الصيني يؤيد هذا الاعتقاد. والأمر الثاني، هو أن الصين هي العالم أصلاً، وكل ما حولها يدور في فلكها. وهذا في رأينا ناجم عن اتساع رقعة البلاد وكثرة سكانها، وتنوع غلاتها وصناعاتها.

لذلك فإن حكام الصين، عندما يُعدمون عدواً يخاصمونه، قد يخطر في بالهم أن يعظموا في عيون أنفسهم. فيقودون الجحافل أو يعدون السفن الضخمة ويخرجون بها إلى حيث يحسون بأنهم أرضوا نفوسهم وحققوا صورة العظمة، ثم يعودون إلى بلدهم ومدنهم وقصورهم وآدابهم وعلومهم. وفي هذه، كان الكهنة والرهبان والعلماء، وحتى كبار الموظفين يجدون المتعة الحقيقية. وهكذا تكوَّن هذا الشعور عندهم نتيجة هذا التمازج بين الفعل والصورة والتدوين والعودة إلى الماضي.

٢ ـ العالم العربي في كتاب صيني

في عام ١٩١١ نقل رجلان إنكليزيان كتاباً من الصينية إلى الإنكليزية، وطبع الكتاب في مدينة بطرسبورغ. وفي الكتاب وصف لديار العرب، استقاه مؤلفه الصيني من التجار العرب الذين كانوا يصلون إلى الميناء الذي يعمل فيه. كان ذلك في القرن الثالث عشر، أما اسم الكتاب فهو «وصف الشعوب الأجنبية».

نشطت العلاقات التجارية بين الصين وديار العرب بدءاً من القرن السادس للميلاد بشكل خاص، وكانت جزيرة سرنديب (سيلان، سري لانكا) هي مركز التجمع للتجار العرب من جهة، والتجار الذين كانوا يحملون المتاجر الصينية (بحراً) من الجهة الأخرى. وقد تنوعت السلع المحمولة من الفريقين. وكان أهمها ـ من الشرق: الحرير الصيني خيوطاً ونسيجاً، والخزف الصيني، والقيشاني، والتوابل الآتية من جزر الهند الشرقية وأندونيسيا. أما من الغرب فقد كان البخور العربي والأفريقي والذبل وقرن وحيد القرن والعاج في مقدمة ما يحمل. وكانت سلع الشرق على العموم أكبر قيمة ـ يومها ـ على نحو ما كانت عليه أيام الرومان. وكان الغرب ـ على أيدي التجار العرب ـ يدفع الفرق بالفضة، كما كان يدفعها قبلاً (أيام الرومان) بالذهب والفضة.

وبالرغم مما كان هناك من نشاط تجاري، فإننا لا نعرف أن الصينيين خرجوا من ديارهم ليتعرفوا حتى إلى الأقطار القريبة منهم، بله ديار العرب، على نحو ما نعرف من وصول سليمان التاجر إلى كنتون [خانقو أو كوانغ تشو] ووصفه للطريق البحري وللميناء، وذلك في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

وصف الشعوب الأجنبية

يكبر سرورنا عندما نعثر على كتاب يتحدث عن ديار العرب والمتاجر التي تحمل منها إلى الصين، والكتاب الذي نحن بصدده اسمه بالصينية «تشو ـ فان تشي» ومعناه وصف الشعوب الأجنبية. أما مؤلفه فهو تشو جو كوا، ويعود وضع الكتاب إلى القرن الثالث عشر.

هذا الكتاب استقى مؤلفه مادته من التجار الذين كانوا يحملون بضائعهم إلى الميناء الذي كان هو يعمل فيه، وهو ميناء زيتون (تسوان ـ تشو)، حيث كان جو ـ كوا يشغل منصب مراقب التجارة البحرية هناك وكانت ثمة موانىء أخرى فيها مثل هذا المنصب، لكن مؤلفنا حصل على ما لديه من المعلومات والأخبار من التجار الذين هبطوا ميناءه. فقد كان على التجار الذين يصلون الميناء أن يبادروا إلى تسجيل ما لديهم من بضائع، كما كان عليهم أن

ينتظروا حتى تصل آخر السفن في الموسم التجاري المعين. كان مراقب التجارة يقتطع ٣٠٪ من المتاجر عيناً هي رسوم الميناء، ويعطي لممثل الأمبراطور الحق في أن يختار ما يراه مناسباً لسيده من المتاجر، وكان يدفع ثمنها، قبل أن تعرض للبيع. وعندما ينوي التجار الخروج من الميناء ومعهم ما ابتاعوه من السلع، كان عليهم أن يقدموا البيانات اللازمة للمراقب، ثم يترتب عليهم أن يدفعوا رسوم التصدير، قبل أن يؤذن لهم بالسفر.

وفي هاتين الحالتين كان المؤلف يتعرف إلى التجار ويدوّن أسماء بلادهم وما يحملون معهم من السلع. وهذه المعلومات هي التي دوّنها في كتابه.

الكتاب قسمان: يتناول المؤلف في الأول منهما الأقطار والشعوب التي تحمل متاجرها إلى زيتون، والثاني يتحدث عن المتاجر نفسها.

وفي ما يتعلق بالأقطار والشعوب، فإن (جو ـ كو) يبدأ بأقطار آسيا القريبة من جنوب الصين، ثم يتحدث عن كمبوديا فالملايو وسيلان والهند، وينتقل إلى البلاد العربية معدداً الموانىء والمدن المهمة، وهي صحار وعمان ومُخا وبغداد والموصل ومصر والإسكندرية ويشير إلى المغرب الأقصى. وتشغل أخبار هذه المدن (مع جزيرة قيس في الخليج العربي والصومال وآسيا الصغرى) أكثر من ربع القسم الأول.

أما فيما يتعلق بالقسم الثاني ـ أي المتاجر ـ فإن المؤلف يذكر ثلاثة عشر نوعاً من البخور تنقل إلى الصين. وفضلاً عن تعداد هذه المتاجر وذكرها منفردة، فإنه يعطينا وصفاً لطبيعتها وسبل استخدامها إن كانت طبيعية أو مركبة، أو عقاقير أو طيوباً.

اضطراب الجغرافيا والتاريخ

بلاد العرب والعرب وديار الإسلام والمسلمين يشير المؤلف إليها باسم تا ـ شي [وهو يستعمل هذه التسمية أحياناً للجاليات العربية والإسلامية المقيمة في جاوة وسومطرة] ويقول عن تلك الديار، «إنها بعيدة عن الصين مسافة «كبيرة». ويدل على ذلك بالإشارة إلى أن السفن تحتاج إلى مدة تتراوح بين ١٢٠ و١٣٠ يوماً كي تصل إلى سيلان (من زيتون).

ومن الطبيعي أن تكون معلومات جو ـ كوا مضطربة من حيث الجغرافيا. فهو ينقل معلوماته عن بحارة وتجار لم يكن دوماً باستطاعتهم أن يزوّدوه بالأخبار الدقيقة، لكنها أشد اضطراباً واختلاطاً من حيث التاريخ. ولعل الحدث التاريخي الوحيد الذي لم يخطىء فيه، أو لعله لم يخطىء في نقله هو أن النبي (ص) ولد في مكة المكرمة، وأن الكعبة فيها، وأنها تكسى بالديباج مرة في السنة.

يحدثنا المؤلف عن مرباط (في الجنوب العربي) ويقول إن بعض بيوتها يتكون من خمسة أدوار. ويؤكد جو ـ كوا على نشاط التجارة بين عُمان والبصرة، ويتحدث عن قوة العرب ونشاطهم.

ومن البضائع التي يذكرها المؤلف نشير إلى البخور بأصنافه وأجودها ما حمل من ظفار والشحر، ودم الأخوين والذَبل (من سوقطرى)، والزبد (من الحبشة وجنوب الجزيرة)

والعاج (من أفريقيا) واللؤلؤ. والجيد منه كان الغواصون يستخرجونه من جزيرة إوال (البحرين).

ويبيّن المؤلف المتاجر التي كان التجار العرب ينقلونها من الموانىء العربية (في الخليج العربي وخليج عمان والبحر الأحمر) ولكنها أصلاً آتية من الداخل أو من بلاد بعيدة مثل المرجان المحمول من البحر المتوسط، والبلور الذي كان يصنع ـ حسب روايته ـ في بغداد والشام. وهذا البلور أفضل مما يصنع في الصين، لأن الصنّاع في تاشي يضيفون البوراكس إلى المواد الخام، لذلك يكون أنقى وأنصع من البلور الصيني.

على أن هذا الموقف من الأقطار الخارجية تبدل إلى درجة كبيرة أيام أسرة منغ التي حكمت الصين من سنة ١٣٦٨ إلى سنة ١٦٤٤م.

الكونفوشية والتجارة

لا بد لنا أن نشير هنا إلى موقف الصين الرسمي، أي موقف الأمبراطور والحاشية من التجارة، ذلك بأن النظرية الكونفوشية كانت تعتبر العمل بالتجارة محطاً ولا يليق بابن ماء السماء. ومع ذلك فإن العمل بالتجارة في البلاد كان يتطلب إذناً من الأمبراطور. والأمبراطور كان شديد الحرص على هذه السلع الكمالية التي كان البلاط والحاشية والأمراء وكبار التجار يتشوقون إليها. وهنا جاء الحل ـ وهو أن هؤلاء التجار الذين بدأوا يحملون المتاجر من الصين وإليها، في القرن الأول للميلاد، إنما كانوا يحملون ضرائب للأمبراطور. وإذن فزياراتهم كانت لتقديم الطاعة وإظهار الخضوع، وعندها كان لأمبراطور يتلطف ويسمح لهم بالاتجار في بلاده، أي الاستمرار في حمل الضرائب إلى البلاط الأمبراطوري!

لذلك لما خرج الصينيون ـ أخيراً ـ إلى البلاد المختلفة، القريبة أولاً ثم النائية، فإنهم خرجوا ليبسروا الحماية للبلاد التي أظهرت الخضوع للصين، ولعل هذا ما يفسر الظهور، أو الخروج بشكل ضخم.

ذلك أن الصين أرسلت في الثلث الأول من القرن الخامس عشر، سبع حملات بحرية لتفقد هذه الأماكن التي كانت تتاجر، أو يمكن أن تتاجر مع الصين. وكانت بعض الأساطيل (في الحملة الواحدة) تتكون من اثنين وستين مركباً مختلفة الأحجام والأصناف. واشترك فيها سبعة وثلاثون ألف رجل بين مقاتل وبحار. وقد وصلت ثلاث من هذه الحملات السبع إلى غرب المحيط الهندي، وألقت مراسيها في هرمز وفي عدن وفي مُخا (على البحر الأحمر).

وضعت هذه الأساطيل في الحملات بأجمعها تحت قيادة صيني مسلم من ولاية يونان، كان خصياً في بلاط الأمبراطور، وكان اسمه تشنغ هو. وقد دوّن هو أخبار الحملات جميعها في تقارير رفعت إلى الأمبراطور، ثم وضعت في الأرشيف الرسمي، لكنها اختفت فيما بعد، وقد يكون الأمر متعمداً. فقد لاحظ الذين درسوا الأرشيف الصيني تكرار مثل هذه الحوادث في دور المحفوظات (حتى الملكية منها)، ذلك أن الغيرة والحسد يحملان رجلاً فاشلاً في محاولاته، على إتلاف تقارير الناجحين. وهكذا فإن ما دوّنه تشنغ هو، فقد بأكمله. إلا أن

نقشاً طويلاً نسبياً وضع في الميناء الذي كان نقطة انطلاق للحملات البحرية، وهذا النقش يحوي خلاصة للحملات من حيث إعداد السفن وعدد الرجال والأماكن التي تمت زيارتها وبعض المعلومات عن تلك الأماكن. هذا كل ما لدينا من معلومات مباشرة عن هذه الحملات.

ففيه نقرأ: «إن البلاد التي تقع خلف الأفق، وفي أطراف الأرض، قد قبلت جميعها أن تكون تابعة للأمبراطور (وذلك لأن تجارها حملوا الضرائب إلى البلاط) ولأن الأمبراطور كان راضياً عن ولائهم قابلاً بإخلاصهم، فإنه أمر تشنغ هو وغيره بأن يتولوا قيادة عشرات الآلاف من الضباط والجنود، وأن يكونوا في سفن القيادة، وأن يتجهوا إلى تلك البلاد حاملين لها هدايا من الأمبراطور».

في استقبال الزرافة

ولو أننا كنا نملك التقارير الأصلية، لكنا حصلنا على الكثير من المعلومات، لكن ما لدينا قليل. إلا أن التقارير التي كتبها أربعة من الخصيان الذين كانوا في حاشية القائد، تعوض قسماً لا يستهان به من الخسارة. وبعض هذه المدوّنات تحوي خرائط للمناطق التي زارتها الأساطيل.

هناك أمر مهم ترتب على إرسال هذه الحملات. وفي الواقع فقد حدث هذا بعد عودة الحملة الأولى. يومها فتحت مدرسة خاصة لتعلم اللغات التي يستعملها سكان البلاد التي زارتها الحملة، والمزمع زيارتها فيما بعد. وقد استمرت هذه المؤسسة في عملها قروناً طويلة، ولا تزال بعض خزائن الكتب الصينية تحتفظ ببعض الكتب الثنائية اللغة (الصينية مع لغة أخرى). لكن لم يعثر بعد على كتب ثنائية اللغة بالنسبة للغة العربية.

وكان للزرافة دور خاص في ذلك. فالزرافة تسمى بلغة الصومال جرين، وهي كلمة تلفظ بالصينية جلين أو شلين (لأن الصينية لم تعرف حرف الراء، ويستبدل دوماً حرف اللام به). وكلمة جلين أو شلين الصينية تعني الحيوان الخرافي الذي له جسم حصان ورأسه، وخلفيتا وعل، ويتوسط جبهته قرن واحد (يسمى باللغة الإنكليزية يونيكورن unicorn). وهذا هو حيوان الحظ عند الصينيين. فوصوله إلى مكان ما في الصين كان دليلاً على أن الحظ سيطل على البلاد، فضلاً عن أنه يعني أن الأمبراطور هو (يومها) رمز الفضيلة. وهذا أيضاً علامة خير للبلاد والعباد.

وبسبب من هذا الالتباس في اللفظ والتسمية، اعتبرت الزرافة التي حملت إلى الصين من ملندة في شرق أفريقيا حدثاً خاصاً في تاريخ الصين يومها.

فلما وصلت الزرافة (سنة ١٤١٤) خرج الأمبراطور إلى الباب الرئيس لاستقبالها، وخرج رجال الدولة معه.

وهل ثمة هدية أكبر من هذه يبعث بها أولئك الذين كانوا يريدون توثيق العلاقات التجارية مع الصين فيما كان القصر يرى في تقربهم منه رغبة في إظهار الولاء والإخلاص له!

٣ ـ الجزيرة العربية وجوارها في مؤلفات صينية

١ ـ شيء من التاريخ

مع أن المصادر الصينية المتعلقة ببلاد العرب، والتي ستكون موضع عنايتنا في هذا البحث، تخص القرنين السادس والسابع للهجرة [أي القرنين الثالث عشر والرابع عشر م]، فإننا نرى أن نشير إشارة موجزة إلى تاريخ الصين في الفترة السابقة لذلك أيضاً، إذ قد تكون ثمة حاجة إلى مثل هذه المعرفة.

كانت بلاد الصين قد عانت من غزوات خارجية أدت إلى انقسام في أجزائها المختلفة. لكن في العام ٥٨١م قامت أسرة سوي Sui التي أعادت إلى البلاد وحدتها. إلا أن هذه الأسرة لم تعمر طويلاً بسبب سوء التصرف الذي بدا من الأمبراطور الثاني فيها يانغ تي Yang Ti. ولما زالت خلفتها أسرة تانغ.

وقد حكمت أسرة Tang من سنة ٦١٨ إلى ٩٠٧ وكان أشهر ملوكها تاي تسونغ T'ai Tsung الذي تولى العرش من سنة ٦٢٩ إلى سنة ٦٤٩. وفي هذه السنة تولى العرش الأمبراطوري كاي تسونغ Kai Tsung الذي ظل على العرش إلى ٦٨٣. لكن الحاكم الفعلي للبلاد في أيامه، وحتى بعد وفاته بسنوات كانت الأمبراطورة ووتسي تيان Wu Tse T'ien التي كانت ذات شخصية قوية. وقد نظمت الجيوش وقادتها في المعارك، كما أنها كانت راعية للفنون والآداب. وكان من مشاهير أباطرة هذه الأسرة هسوان تسونغ Hsu'an Tsung الذي حكم من ٧١٢ إلى ٧٥٦. وفي أيامه حدثت معركة الطراز (على نهر طلس في ما وراء النهر) بين الجيوش العربية وجيش صيني، وقد كتب فيها النصر للعرب (٧٥١م).

ضعف شأن أسرة تانغ، وتردت البلاد في حرب أهلية ثم أنقذت مرة ثانية على أيدي الأسرالخمس (٩٠٧ ـ ٩٦٠). وتولت أمور الصين عندئذٍ أسرة سونغ Sung التي ظلت تتمتع بالسلطة من ٩٦٠ إلى سنة ١٢٧٩. على أنه من الواجب الإشارة إلى أن هذه الفترة بالذات تتكون من قسمين: الأول فترة سونغ الشمالية (٩٦٠ ـ ١١٢٦). والثاني عصر سونغ الجنوبية (١١٢٦ ـ ١٢٧٩). وهذه الأسرة قضى عليها جنكيز خان لما اجتاح بلاد الصين، كما اجتاح غيرها.

قد برز بين أباطرة أسرة سونغ، كوانغ ـ ين K'ung - Yin من سنة ٩٦٠ إلى سنة ٩٧٦ وتشن تسونغ (Chen Tsung) من سنة ٩٨٨ إلى سنة ١٠٢٢ وهوي تسونغ Hui Tsung من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٥.

وتعتبر فترة أسرتي تانغ وسونغ من أهم الفترات في تاريخ الصين بالنسبة إلى الكثير من الإنجازات الحضارية. وها نحن، نجمل هذه النواحي في النقاط التالية:

١ ـ في أيام أسرة تانغ تم الفصل بين الإدارة المدنية والحكم العسكري، فأصبح اختيار

موظفي الدولة المدنيين يتم عن طريق الدراسة والامتحانات الخاصة، فلم يعد بإمكان الضباط والعسكريين أن يصلوا إلى المناصب الإدارية. وهذا النظام ظل معمولاً به حتى العصور الحديثة.

٢ ـ في أيام تانغ كانت الصين تسيطر سيطرة تكاد تكون تامة على الطرق البرية التي تصلها بالمشرق العربي الإسلامي عبر أواسط آسيا. ولذلك فإن الثروة التي كانت تحصل عليها من ذلك كانت عظيمة. وكان أن اهتمت الصين في هذا الوقت بتصدير الشاي الصيني والورق فضلاً عن الحرير. كما اخترع الصينيون الطباعة في هذا العصر.

٣ ـ وإذا كانت التجارة الآسيوية البرية قد أفلتت من أيدي الصين في زمن أسرة سونغ الجنوبية، فإن التوسع التجاري البحري عوّض أهل البلاد عن خسارتهم. وقد بني أول أسطول بحري في هذه الفترة. وبين سنتي ١١٣٠ و١٢٣٧ ارتفع عدد وحداته من إحدى عشرة وحدة بحرية إلى عشرين وحدة، ومن ثلاثة آلاف بحار إلى٥٢ الف بحار.

٤ ـ في هاتين الفترتين عرفت الصين تقدماً في العلم والتكنولوجيا والفن والأدب على شكل لم يجار. ولعل الفترة التي بلغ التقدم في هذه الأمور أوجه هي القرنان العاشر والحادي عشر.

٥ ـ كان بعض الرحالين الصينيين قد وصلوا إلى الخليج العربي في العصور السابقة لذلك، وكان بعض التجار والرحالة قد جاءوا الصين من بلاد ساسان وبلاد الشام وروما. لكن الاتصال المباشر لم يتم حتى في أيام تانغ وسونغ. إلا أن الأمر المهم هو أن كثرة التجار الوافدين إلى الصين من فارس وبلاد العرب وغيرهما أثارت في نفوس الصينيين اهتماماً بالتعرف ـ بطريقة غير مباشرة ـ إلى تلك البلاد.

٦ ـ وكانت الموانىء الصينية الرئيسة فيها مراقبون للتجارة والتجار. وكان هؤلاء يدوّنون ما يصل إلى البلاد بشيء كثير من التفصيل (راجع ٢ ـ مراقبة السفن والتجار) وقد وصلتنا بعض هذه المدونات التي ورد فيها ذكر الموانىء والبلاد التي نقلت منها المتاجر إلى الصين وأنواع هذه المتاجر ومصادرها ووجوه استعمالها[١].

٢ ـ مراقبة السفن والتجار

يبدو أنه منذ القرن الثامن كانت السفن التي ترد كنتون (خانفو) بقصد نقل البضائع الصينية تخضع لتسجيل في مكتب مراقب التجارة البحرية Shi-po-shi. وكان على ربابنة هذه السفن أن يقدموا إلى المكتب المذكور بيانات عن البضائع التي ينوون نقلها إلى الخارج. ولا يسمح لهم بالخروج من الميناء، قبل أن يدفعوا رسوم التصدير والنقل[٢].

وقد ورد مثل هذا في وصف سليمان التاجر للتجارة البحرية في كنتون [خانفو أو كوانغ ـ تشو Kuang- Chou] فهو يقول: «وإذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم وصيروه في البيوت وضمنوا الدرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحريين»[٣]. وقد وضع سليمان أخبار رحلته هذه في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

ويبدو أن تنظيم هذه المكاتب أعيد النظر فيها في القرن الرابع (العاشر)، كما أن الموانىء التي فتحت فيها هذه المكاتب زاد عددها. فقد كان ثمة مراقبون في هانغ ـ تشو Hang - Chou ومنغ ـ تشو Ming Chou وتسوان ـ تشو Ts'uan - Chou الذي ورد اسمها زيتون. أما كنتون فقد تعطل العمل فيها(٤).

وفي القرن الثاني عشر عادت كنتون إلى ما كانت عليه بالإضافة إلى الموانىء الثلاثة المذكورة فوق وأضيف على ما يبدو، مكتب في فوتشو Foo Chow، وكان يطلق على هذه المدن الموانىء الرسمية(٥).

والواضح من مدوّنات المراقبين أن الشخص المسؤول، والذي كان يعمل نفر من الرجال تحت إمرته، كان يتولى الإشراف على دخول السفن إلى الموانىء وخزن السلع وتحصيل الرسوم المتوجبة عليها. وبعد أن يختار صاحب السلطان، بواسطة عملائه، ما يريد من البضائع يسمح ببيع الباقي(٦). ولعل هذا كان بالإضافة إلى ما ذكر قبلاً من مراقبة البضائع المصدرة.

وبسبب من العناية التي كان يوليها هؤلاء المراقبون لمصادر المتاجر الواردة إليهم، وصلت إلينا، على ما أشرنا إلى ذلك قبلاً، أخبار مستقاة من التجار الأجانب عن البلاد المتعددة التي كانوا يأتون منها.

٣ ـ مدونة تشاو جو ـ كاو

وصلتنا ثلاث مدوّنات رئيسة من النوع المذكور والتي تعطينا وصفاً جغرافياً يشمل فيما يشمل بعض موانىء الجزيرة العربية وبعض الجزر المحيطة بها. والمدوّنات الثلاث اثنتان منها تعودان إلى القرن الثاني عشر، والثالثة تعود إلى القرن الثالث عشر، وهذه ستكون موضع اهتمامنا الخاص في هذه الدراسة المتواضعة.

أما المدونة الأولى فاسمها بينغ تشو ـ كو ـ تان Ping-Chou K'o-tan وهي من وضع تشو يو Chu Yu'. وقد تم له ذلك بين سنتي ١١١١ و١١١٧، على ما يتضح من الإشارة إلى أحداث تاريخية تقع في هذه الفترة، وهي آخر ما دون فيها. وقد كان والد المؤلف موظفاً في كنتون في أواخر القرن الحادي عشر وإن كان الباحثون لم يعرفوا طبيعة الوظيفة التي كان يشغلها تماماً. لكن المؤلف كان دقيقاً في وصف ما كان يقوم به موظفو المال والجمارك من أعمال وما يدفعه التجار من رسوم تبلغ ٣٠ بالمائة، وإن كان الغالب عليها ١٠ بالمائة. والتفاوت بين قيمة الرسوم يتوقف على طبيعة البضاعة. فكلما ارتفع سعر السلع زادت الرسوم المدفوعة عليها(٧).

على أن هذه المدونة لا تفيدنا كثيراً فيما يتعلق ببلاد العرب.

والمدونة الثانية هي لنغ ـ واي ـ تاي ـ تا Ling-wai-tai - ta وقد وضعها تشو كوي ـ في Chou K'u- fei حول سنة ١١٧٨. وقد كان المؤلف من أهل وونشو Won- Chou، ولما وضع كتابه كان مساعداً إدارياً في عاصمة ولاية كوانغ ـ سي Kuang-si. ويبدو أنه جمع مادته لمدونته لما مر بكنتون في طريقه إلى مقر عمله(٨).

أما المدونة الثالثة فهي تشو ـ فان ـ تشي Chu- fan - chi التي كتبها تشاو جو ـ كوا ـ Chau Ju Kua وذلك في القرن الثالث عشر.

وإذا نحن قبلنا بالتفسير الذي تقدم به هرث Hirth وركهل Rockhill كان معنى هذا أن جو ـ كوا وضع هذا المؤلف بين سنتي ١٢٤٢ و١٢٥٨[٩].

والمؤلف متحدر من نسل أحد الأباطرة الذي عاش في أوائل القرن الحادي عشر. وكان المؤلف يشغل منصب «مراقب التجارة الخارجية» في ميناء تسوان ـ تشو Ts'uan- ch'ou على شاطىء فوكيين Fu-Kein شرق الصين. وهذا العمل هو الذي يسر له الحصول على المعلومات اللازمة من التجار الصينيين والغرباء على السواء. والذي دونه جو ـ كوا كان يتعلق بالبلاد الأجنبية ومن ثم فاسم كتابه، مترجماً إلى العربية، هو «وصف الشعوب الأجنبية»[١٠].

ومع أن هذا الكتاب نقل عنه كثير من المؤلفين الصينيين اللاحقين، فقد ظل أمره مغموراً. ويعود السبب في ذلك إلى أنه كان من المألوف عند الكتّاب الصينيين أن ينقلوا عن سابقيهم من دون الإشارة إلى أسمائهم أو أسماء كتبهم[١١].

وقد أفاد المؤلف كثيراً مما أورده تشو كو ـ فيي في كتابه، إذ نقل جملاً أو فقرات أو حتى فصولاً كاملة. لكن الذين انصرفوا إلى دراسة مقارنة لهذا النوع من الأدب الجغرافي التجاري يرون أن جو ـ كوا قد حصل على مادة جديدة كثيرة من التجار أودعها كتابه، وكان فيها فائدة كبرى لدراسة طرق التجارة والبلاد التي ارتبطت بالصين تجارياً، والسلع التي كانت تنقل وحتى أنواع السفن وبعض المعلومات عن البحارة[١٢].

ينقسم كتاب جو ـ كوا إلى قسمين: الأول، يتناول الأقطار والشعوب التي كانت لها علاقات تجارية مع الصين؛ والثاني، يبحث في السلع نفسها.

القسم الأول يبدأ فيه المؤلف بتونكنغ، وينتقل بعد ذلك إلى أنام فكمبوديا فالملايو فبورما وأندونيسيا وسيلان (سري لانكا اليوم) والهند والبلاد العربية والصومال ومصر وبعض مناطق البحر المتوسط وجزره كجزيرة صقلية. ويختم القسم بفصول عن جزر الفيليبين وكوريا واليابان. وفي هذا البحث يهتم المؤلف بالموانىء أو المدن التي يرتادها التجار أكثر من اهتمامه بالوصف العام للبلاد نفسها.

تنال البلاد العربية من هذا القسم حظاً لا بأس به. فالموضوعات التي يتعرض لها هي: العرب ومكة وصحار وعمان وبغداد والبصرة. والموصل ومصر (القاهرة) والإسكندرية والمغرب الأقصى. وإذا تذكرنا أن المؤلف كتب في وقت كان الإسلام فيه قد انتشر في رقاع أوسع من الرقعة العربية وأنه كان يعتبر بلاد العرب وبلاد الإسلام شيئاً واحداً (على ما سنرى فيما بعد)، فإنه يتحتم علينا أن نضيف ما ذكره من زنجبار والصومال وجزيرة كيش (قيس) وغزنة وآسيا الصغرى وجنوب إسبانيا وصقلية، وبذلك توفر لنا ست وثلاثون صفحة من أصل ١٤٥ صفحة هي جماع ما كتبه في القسم الأول. وليس ذلك بغريب. فإن اشتغال العرب والمسلمين بالتجارة في البحار الشرقية في ذلك الزمن وتبادلهم السلع مع الأقطار الواسعة أمر معروف.

أما القسم الثاني من الكتاب فهذا الذي يتناول المؤلف فيه أصناف البضائع التي كانت تحمل إلى الصين، ويعنى بذكر خصائصها ومنافعها وحتى أوجه استعمالها أحياناً. فعندما يحدثنا عن اللبان يذكر أنه يوجد منه ثلاثة عشر نوعاً مدرجة على أساس ما في كل نوع منها من الجودة وقوة الرائحة، ثم يوجز هذه الأنواع جميعها مركزاً على أجود ثلاثة منها[١٣]. أما خشب السابان sapan- wood، وهو المعروف عربياً باسم البقم، فيذكر أنه يستعمل في الدباغة[١٤]. ويذكر أن زيت الستوراكس، وهو صمغ يشبه المر، كان يستعمل في تهيئة المستحضرات الطبية[١٥]. وعندما يتحدث عن اللؤلؤ يصف الغوص للبحث عليه في الخليج العربي[١٦].

ضم كتاب جو ـ كوا مجموعة كبيرة من الأعمال الأدبية الصينية التي أعدت في أوائل القرن الخامس عشر. وفي سنة ١٧٨٣ طبع الكتاب لأول مرة بالصينية ثم طبع ثانية في سنة ١٨٠٥. والطبعتان تكادان أن تكونا متطابقتين.

وكان ج. بوتيه G.Pauthier أول باحث غربي اهتم بهذا الكتاب إذ نقل منه فصلاً يتحدث فيه المؤلف الصيني عن بطريرك النساطرة (١٨٥٧). كما نقل هوك Huc الفصل نفسه حول الوقت ذاته. وقد ترجم فردرك هيرث (Friedrich Hirth) الكتاب بأكمله (١٨٨٥ ـ ١٨٩٥). وفي سنة ١٩١١ ظهرت ترجمة إنكليزية كاملة مع الهوامش المفصلة، هي نتيجة العمل المشترك الذي قام به هيرث وزميله. و.و. روكهل W.W.Rockhill ونشرت في مدينة بطرسبورغ. وهذه هي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث، وهي معاد طبعها بدون تبديل أو تعديل في نيويورك (١٩٦٦).

٤ ـ العرب عند جو ـ كوا

يستعمل جو ـ كوا كلمة تاشي Ta-Shi بشكل عام بحيث أنها تعني العرب أو بلاد العرب أو المسلمين أو بلاد الإسلام[١٧]، بل يستعملها أحياناً في إشارته إلى الجاليات العربية أو الإسلامية التي كانت تقيم في جنوب شرق آسيا وخاصة في جاوة وسومطرة[١٨]. ولعل خير ما يمكن أن يفعل في هذه المناسبة هو تلخيص هذا الفصل المتعلق ببلاد تا ــ شي وتوضيح دلالة الألفاظ المختلفة، مشيرين إلى ما في أخبار جو ـ كوا، المنقولة عمن سبقه وعن التجار الزائرين لبلاده، من أخطاء.

١ ـ يقول المؤلف بأن بلاد تا ـ شي تقع إلى الغرب والشمال الغربي من الصين لكنهما لا تتجاوران، بل إن المسافة بين المنطقتين بعيدة، إذ إن السفينة تحتاج أربعين يوماً إلى مدينة لان لي (في جزيرة سومطرة) ثم إلى ستين يوماً إلى مدينة على ساحل حضرموت (جو ـ كوا ص ١١٤ و١١٩ هامش ٢).

٢ ـ بالنسبة إلى المناخ يذكر شيئاً واحداً وهو أن البرد في تا ــ شي شديد وأن الثلوج تتساقط فيها بكثرة(ص ١١٥). وهذا يدل على أن المؤلف جمع نتفاً تتعلق بما عرف عندهم باسم تاشي وضمه بعضه إلى البعض الآخر، ومن هنا كانت لديه هذه الإشارة الوحيدة إلى المناخ.

٣ ـ يعدد جو ـ كوا المناطق التي تتبع تاشي أو تعتمد عليها (ص ١٦٦ ـ ١١٧ و ١٢١ ـ ١٢٢ هـ ١١ و١٢ و١٣). وسنرى من الجدول التالي أنه لم تكن لديه فكرة واضحة عن المنطقة العربية الإسلامية بكاملها، بل إن الذي فعله هو أنه جمع في هذا الجدول كل الأماكن ـ الموانىء أو المدن أو المناطق الصغيرة ـ التي تقع إلى الغرب والشمال الغربي من الصين. وهذا هو الجدول الذي وضعه جو ـ كوا.

بالحروف العربية	الاسم الصيني بالحروف اللاتينية	ما يقابله بالحروف العربية
ما ـ لو ـ مو	Ma - lo no	مرباط
شي ـ هو	Shi - ho	الشحر
نو ـ فا	Nu - fa	ظفار
لو ـ سي ـ ميي	Lo - ssi'- me'	خوارزم
مو ـ كو ـ لان	Mu - Ku' - lan	مكران
كي ـ لي ـ كي	K'ie - li - ki	قلهات
بي ـ نو ـ بي	p'i - no ye	أفريقيا (أي المغرب العربي)
ا ـ لو	I - lu	العراق
باي ـ تا	pai - ta	بغداد
سي ـ لين	Ssi' - lien	سيراف أو شيراز
باي ـ لين	pai - lien	البحرين
تسي ـ كي	Tsi - ki	ميناء في مكران
كان ـ ميي	Kan - mei	جزر القمر
بو ـ هوا ـ لو	p'u - hua - lo	بخارى
تسونغ ـ با	Ts'ong - pa	زنجبار
بي ـ با ـ لو	pi- p'a - lo	بربرا (الصومال)
وو ـ با	Wu - pa	صحرا(؟)
وونغ ـ لي	wong - li	عُمان
(يونغ ـ مان)	(Yung - man)	عُمان
كي ـ شي	Ki - shi	جزيرة قيس
ما ـ كيا	Ma - Kia	مكة المكرمة
بي ـ سي ـ لو	Pi - ssi - lo	البصرة
كي ـ تسي ـ ني	Ki - tz'i - ni	غزنة(؟)
وو ـ سي ـ لي	Wu - ssi - li	الموصل أو مصر[١٩]

٤ ـ ومع أن جو ـ كوا يبدو متخبطاً أو مضطرباً في معلوماته الجغرافية، فإنه أكثر اضطراباً في ما يتعلق بالتاريخ بالنسبة إلى العالم الإسلامي. وقد أبدى هيرث وروكهيل استغرابهما لقلة ما وصل إلى المؤلفين الصينيين من معرفة عن هذه القضية مع وجود هذا الاتصال التجاري الواسع مع العرب والمسلمين (ص ١٢٢ هـ ١٤). والذي نجده عند جو ـ كوا، فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي هو أنه يذكر الرسول الكريم (ص) باسمه باللفظ الصيني ما ـ هيا ـ وو Mai-hia-wu. ويقول إن المسلمين يصلون إلى السماء (طبعاً لم يكن باستطاعة جو ـ كوا أن يعبر عن عبادة الله بغير هذه العبارة)، وأنهم يصلون خمس مرات في اليوم وأنهم يصومون ويحجون (١١٦). لكنه يقول إن الصيام يتم في بدء السنة. ولسنا ندري هل قصد السنة القمرية الهجرية (وهو خطأ طبعاً) أو قصد التقويم الصيني (وعندها تكون عبارته غير تامة لأن موقع شهر رمضان يتغير بالنسبة للسنة الشمسية). ويذكر تبدل الدولة من الأمويين إلى العباسيين. فبنو مروان يسميهم بون ـ ني ـ مو ـ هوان p'on- ni mo- huan ويسمي أبا العباس ا ـ پو ـ لو ـ با A- P'o - lo- pa . ويقول إن بني مروان كانوا يسمون «المتشحين بالبياض» وإن الذين جاءوا بعد أبي العباس كانوا يسمون «المتشحين بالسواد».

٥ ـ يصف سكان بلاد تا ـ شي بأنهم ممتازون وشجعان (ص ١١٥). وهذا بطبيعة الحال تعميم قد يكون له ما يبرره.

٦ ـ يشير جو ـ كوا إلى عاصمة تا ـ شي ويصفها (ص ١١٥) ولكنه لا يعينها بالاسم (ص ١٢٠هـ ٥). ويقول عن العاصمة(؟) إنها مركز كبير للتجارة وإن عرض الشوارع فيها نحو خمسة عشر متراً، وإن وسط الشارع فيه مسار خاص بالدواب، كما أن الأرصفة توجد على جوانبها لمصلحة المشاة ورجال الأعمال. ويقول عن البيوت إنها تشبه بيوت الصينيين، إلا أن أهل تا ـ شي يستعملون الحجارة بدل الطوب (الآجر). ويذكر أن أهل تا ـ شي يأكلون الرز وغيره من الحبوب ولحم الضأن ويصنعون منه أصنافاً مع المعجنات. ويأكل الكثيرون منهم السمك والخضار والفواكه. ويفضلون المآكل الحلوة على الحامضة ويشربون عصير العنب إما طازجاً أو مخمراً. ويتناولون شراباً ساخناً مصنوعاً من الأفاويه بالسكر أو العسل، وهذا يمنحهم الدفء.

٧ ـ يحدثنا جو ـ كوا عن الوفود التي ذهبت من بلاد تا ـ شي إلى بلاط أمبراطور الصين، وهي طبعاً وفود تجارية، وكانت عديدة. فقد ذكر عدداً منها وصل بلاد الصين في سنوات ٩٦٨ و٩٧١ و٩٧٣ و٩٧٤ و٩٧٥ و٩٧٦ و٩٧٧ و٩٩٩ و١٠٠٣ و١٠٠٤ و١٠٠٨ و١٠١٩م. الذي يجب أن يذكر دائماً أن المؤسسات الصينية الرسمية كانت تشير إلى هذه الوفود التجارية بأنها كانت تفد على الصين حاملة هدايا، وأن الأمبراطور كان يقبل هذه الهدايا ويجزي حامليها بالذهب أوالفضة أو الحرير أو الصيني. ذلك بأن المؤلفين الصينيين جرياً على ما كان ملوكهم يرون، لم يكونوا يعتبرون هذه الوفود تجاراً يحملون بضائع يودون مبادلتها بسلع صينية (كان هذا ينطبق على التجار الآتين من البلاد الأخرى طبعاً)، بل إنها كانت تتودد إلى الصين عن

طريق الهدايا. ولم تكن لهذه الوفود صبغة رسمية، بمعنى أن أحداً من أولي السلطة في بلاد تا ـ شي الواسعة قد أرسلها لاسترضاء البلاط الصيني. لكن مصادر صينية أخرى تذكر أن الوفد الذي وصل البلاط الصيني سنة ٩٧٦ جاء من قبل كبير البلاد (أي الخليفة) الملقب كو ـ لي فو K'o - li - fu. وأن الوفد كان برئاسة بو ـ لو هي Pu - lo - hai أي أبو حامد. كما أن وفداً ذهب إلى الصين من البلاط السامانى في بخارى (١٠٠٣م) (ص ١١٧ ـ ١١٨، ١٢٠هـ، ص ١٢٢ ـ ٣هـ ١٧ و١٨ و١٩ و٣٣م.

٨ ـ يصف جو ـ كوا ميناء كبيراً في تا ـ شي يبلغ عمقه ما يزيد على ستين متراً، ومفتوح على جميع الجهات ويقيم السكان على جانبي الميناء، وتقام هناك الأسواق وترسو السفن المحملة بكل أنواع المتاجر (ص١١٦). أما أين يقع هذا الميناء، فلا يُعرف. وقد اقترح الباحثون القلزم (مصر) أو الابلة أو البصرة (ص ١٢١هـ ٩).

٩ ـ من حيث أن جو ـ كوا كان يتحدث عن منطقة واسعة، ومن حيث أن جغرافية المنطقة قد اختلطت عليه، فإن ما ذكره عن ما تفعله أو تنتجه المنطقة اختلط عليه أيضاً. لذلك فهو، إذ يعدد ما تنتجه المنطقة (حتى في أوسع حدودها) يذكر أشياء سيلانية أو هندية أو أندونيسية أصلاً. فهو يورد اللؤلؤ واللبان والمر ودم الأخوين والبلور والقماش بين ما ينتج في المنطقة وهذا صحيح. لكنه ذكر ما كان أبناء المنطقة يتاجرون به على أنه مما ينتجه تا ـ شي مثل العاج وقرن وحيد القرن والكاسيا والزنجبيل وجوزة الطيب وغيرها، وهذا خطأ (ص ١١٦).

٥ ـ مدن الجزيرة العربية وموانئها

الأماكن التي ورد ذكرها في كتاب ـ جو كوا والتي هي من مناطق الجزيرة هي: مكة وصحار وعمان والشحر وظفار ومرباط وقلهات وجزيرة سوقطرى. وها نحن أولاً ننقل ما ورد في الكتاب عن هذه الأماكن.

أ ـ مكة (المكرمة) وترد عنده باسم ما ـ كيا Ma - kia ويقول عنها إنها تبعد مسيرة ثمانين يوماً عن مرباط (في حضرموت). وهذا الطريق الذي يشير إليه دون أن يصفه هو الطريق القديم لتجارة البخور. ويقول جو ـ كوا إن محمداً (ص) ولد في مكة ويورد اسمه هكذا ما ـ هي وو ـ Ma- hi-Wu، وأن فيها بيت العبادة (ويقصد الكعبة المشرفة)، وأنه يقام فيها الحج مرة في العام (ولكنه يخطىء إذ يربط بين تاريخ الحج ووقت وفاة الرسول (ص). ويذكر أن كسوة جديدة تعلق على الكعبة، وأن هذه الكسوة تصنع من الخز المزخرف بخيوط الذهب. ويضيف أنه على مسافة أبعد من ذلك يوجد قبر الرسول (ص). من دون أن يسمي المدينة المنورة بالذات (ص ١٢٤ ـ ١٢٥).

ب ـ يرد في الكتاب اسم ميناء هي وو ـ با Wu - pa ويقول عنها المؤلف إنها على الساحل وإن طريقاً برياً يصلها ببلاد تا ـ شي (ص ١٣) وعبارة يصلها ببلاد تا ـ شي لا تعني شيئاً محدداً بسبب ما ذكرنا من قبل من اختلاط الأمور الجغرافية والتاريخية على جو ـ كوا.

ولكن مترجمي الكتاب يريان أن هذا المكان قد يكون صحار لأنه يتفق مع أوصاف أخرى لأماكن ذكرت بهذا الشكل (ص ١١٧ و١٢٢ هـ ١٣).

ج ـ يذكر المؤلف بين المناطق التابعة لتا ـ شي ـ ما ـ لو ـ مو، وشي ـ هو، ون ـ فا، وكي ـ لي ـ كي (راجع الجدول فوق). وهذه الأماكن هي على الترتيب مرباط والشحر وظفار وقلهات.

وقد جاء في مدوّنة تشو ـ كو ـ فيي أن مرباط فيها بيوت تتكون من خمسة أدوار. وفي الميناء تتجمع السفن الكبيرة ويلتقي التجار الأغنياء. ويرد اسم هذه المدينة عند المؤلف المذكور ما ـ لو ـ يا ويقول إنها هي ما ـ لي ـ با ـ نفسها. وهذه التسمية أقرب إلى مرباط من ما ـ لو ـ مو الواردة عن جو ـ كوا (س ١٢١ هـ ١١) ونو ـ فا يرد اسمها في مصدر صيني آخر تسو ـ فا ـ ار Tsu - fa - ir (ص ١٢١ هـ ١٢).

د ـ وهناك اسم يرد بشكلين هو يونغ ـ مان Yung- man و وونغ ـ مان Wong - man والمنطقة هي عمان. وقد ورد في رحلة سليمان التاجر «فأما بالنسبة إلى المواضع التي يقصدها (التجار) ويرقون إليها فيذكر في هذا المجال أن المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرهما إلى سيراف. فيعبى في السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه. والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء مائة وعشرون فرسخاً. فإذا عبي المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء وخطفوا بالنسبة إلى المواقع وهذه لفظة يستعملها أهل البحر (يعني يقلعون) إلى موضع يقال له مسقط وهو آخر عمل عمان. والمسافة من سيراف إليه نحو مائتي فرسخ... وفي هذا البحر جبال عمان»[٢٠].

ويذكر المسعودي أن سفن سيراف وعُمان كانت تذرع بحار الصين والهند والسند والزنج واليمن والحبشة والقلزم[٢١]. كما أن جو ـ كوا يعيد إلى الأذهان أن عمان كانت تتاجر مع البصرة (ص ١٣٧). ويقول ابن بطوطة إن أسرع الخيول التي كانت تحمل إلى الهند كانت تأتي من اليمن وعُمان وفارس[٢٢]. ولعل المقصود بالنسبة إلى اليمن وفارس أن موانئها كانت نقاط تجمع الخيول من أماكن أخرى.

هـ يقول جو ـ كوا (ص ١٣١) إنه على مقربة من الصومال يوجد جبل أو جزيرة (فالإشارة الصينية للاثنين كانت واحدة). والمقصود بالجزيرة سوقطرى التي يبلغ محيطها نحو ٤٠٠٠ لي (وهو قياس للمسافة يبلغ طوله نحو ٥٣٥ متراً). وإذا صح هذا التفسير فالجزيرة أولى أن تعتبر جزءاً من الجزيرة العربية. والجزيرة مشهورة بدم الاخوين [dragon's blood]. وقد جاء عن سوقطرى في ياقوت ما يلي:

«سوقطرى.... جزيرة عظيمة كبيرة فيها عدة قرى ومدن تناوح عدن جنوبيها عنها وهي إلى بر العرب أقرب... والسالك إلى بلاد الزنج يمر عليها... يجلب منها الصبر ودم الأخوين وهو صمغ شجر لا يوجد إلا في هذه الجزيرة، ويسمونه القاطر وهو صنفان: خالص يكون شبيهاً بالصمغ إلا أن لونه أحمر... والصنف الآخر مصنوع من ذلك»[٢٣].

٦ ـ السلع المنتجة

يبدو، أنه في الوقت الذي وضع فيه جو ـ كوا كتابه، كانت السلع التي تنتجها الجزيرة العربية والتي كان التجار الصينيون يعنون بالحصول عليها قليلة. ونود أن نذكّر بأمرين: الأول، أن التاجر الصيني المقيم في بلده كان يعنى، بالدرجة الأولى، بالأشياء الكمالية، إذا جاز التعبير. والثاني، أننا في هذا البحث المقتضب، ننقل أخبار المؤلف الصيني بالنسبة إلى أجزاء معينة من بلاد العرب أو ديار الإسلام، أي الموانىء أو المدن أو المناطق الواقعة في الجزيرة العربية نفسها. أي أننا لا نتعرض للتجارة الصينية مع بلاد العرب والإسلام عامة.

ولعل المادة الكبرى التي كانت الجزيرة تزود بها الصين والبحار الشرقية بعامة هي اللبان (البخور من الصنف الجيد). وكان اللبان الذي يحصل عليه من جنوب الجزيرة أفضل أنواع البخور قاطبة. يقول جو ـ كوا بأن اللبان الذي يمكن الحصول عليه من مرباط والشحر وظفار، الذي يجمع من المناطق الجبلية الداخلية، هو أجود الأصناف. وكان هذا اللبان ينقل من موانىء حضرموت إلى بالمبانغ Palembang في سومطرة ومنها يحمل إلى الصين. وشجرة اللبان هذه مثل شجر الصنوبر. أما اللبان فهو عصارتها (ص ١٩٥ ـ ١٩٧). وكان ثمة نوع أدنى من البخور هو المعروف بالمر الذي كان يُنتج في جنوب الجزيرة، لكن الصنف الموجود هناك لم يكن جيداً، وإنما الجيد ما كان يأتي من الصومال (ص ١٩٧).

وكان دم الأخوين يمكن الحصول عليه من سوقطرى (راجع فوق). ومن سوقطرى كان يمكن الحصول على الـ aloes (ص ١٣١ و٢٢٥). كما كان جنوب الجزيرة العربية، وبخاصة مناطق ظفار، ينتج الـ aloes. وهناك الزبد، وهو مسك يفرزه حيوان خاص يوجد في منشوريا وما إليها، كما يوجد في جنوب الجزيرة العربية وفي الحبشة (ص ٢٣٤). ومنطقة قلهات في عمان كانت تنتج نوعاً جيداً من الزبد (ص ٢٣٥). وكان الذَبل يكثر في سوقطرى (ص ٢٣٨)، ولكن بلاد العرب نفسها لم تكن فيها السلاحف الكبيرة التي يمكن الحصول على الذبل منها.

وأخيراً فهناك اللؤلؤ. وكان الجيد منه، بالنسبة إلى الجزيرة العربية، الذي يغاص للبحث عنه في جهات جزيرة أوال (البحرين) وهو أفضل اللؤلؤ إطلاقاً (٢٢٩). ويصف جو ـ كوا الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي وصفاً دقيقاً، مما يدل على أن التجار كانوا دقيقين في نقل المعلومات لتأكيد جودة اللؤلؤ الذي يحملونه (ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠).

٧ ـ السلع المنقولة

كان تجار الجزيرة العربية ينقلون الكثير من السلع والبضائع بين الشرق والغرب. وقد أورد جو ـ كوا من المعلومات ما يؤيد الدور التجاري الكبير الذي كان هؤلاء التجار يقومون به.

فقد كانوا ينقلون من الصومال المر (ص ١٩٧) والعاج (ص ١٢٧ و٢٣٢) والعنبر (ص ٢٣٧). كما كانوا يحملون الذَبل من الأماكن المذكورة آنفاً (ص ٢٣٨)، وكذلك قرن وحيد القرن (ص ٢٣٣).

ومع أن المر كان من منتوجات جنوب الجزيرة العربية (إلى الشرق من خليج عدن) فإن

المر الذي كان يأتي من الصومال كان أجود. وكان الطلب عليه كثيراً في البلاد الشرقية، لذلك كان ينقل من الصومال على أيدي التجار العرب من الحضارمة وغيرهم، إما رأساً إلى سيلان مثلاً أو إلى موانىء الجزيرة أولاً، ثم يحمل منها إلى الهند وغيرها.

والعاج كان يجمع من الصومال وزنجبار، وهما المورد الرئيس للعاج الجيد، ويحمل إلى مرباط ومنها إلى الهند والصين (ص ١٢٧ و٢٣٢)، مع العلم بأن العاج كان يمكن الحصول عليه من الملايو وجاوه وسومطرة.

أما العنبر فكان يجمع في بحر الزنج وبحر العرب (أو بحر عمان كما يسمى أحياناً). والعنبر يفرزه الحوت الذي يعيش في البحار الدافئة. وهذه المادة المفرزة تتجمع على شواطىء أفريقيا كالصومال وما إليها.

وهناك كان يجمع ويحمل إلى الموانىء العربية، ثم ينقل إلى البحار الشرقية. ومن رأس الحوت، الذي كان القوم يصطادونه هناك كان يستخرج دهن يستعمل في طلي السفن، الأمر الذي كان يعرفه البحارة في اليمن وعدن وفارس. وكان العنبر يستعمل في الطهو من قبل. لكن استعماله الأساسي في أيام جو ـ كوا، كان، على ما يبدو، في صنع العطور(٢٤).

كان قرن وحيد القرن مادة يمكن الحصول عليها من مناطق مختلفة في المشرق مثل تونكنغ وأنام والملايو وجاوه والهند وزنجبار. لكن أجود أنواعه كان يأتي من الساحل الأفريقي. وكان القرن الواحد منه يزن سبع كتيات أو ثماني أي نحو ستة كيلوغرامات (ص ٢٣٣). أما سن الفيل فكان واحده يزن نحو ستين كيلوغراماً.

والذَبل، وهو بيت السلاحف، كان يأتي من الشاطىء الأفريقي، ولو أن جزيرة سوقطرى وغيرها من الأماكن كانت تعده للبيع (ص ٢٣٨). وعلى كل حتى الذي كان يجمع من الشاطىء الأفريقي كان يحمل إل سوقطرى تمهيداً لنقله إلى الخارج.

وأورد جو ـ كوا أسماء بضائع أخرى كانت تمر بالموانىء العربية المذكورة آنفاً وهي اللبان الجاوي الذي كان التجار يحملونه من بلاده الأصلية إلى الهند وغيرها وموانىء الجزيرة العربية (ص ١٩٨ ـ ١٩٩). كما ذكر الزبد [civet] الذي عرف في قلهات وغيرها من أقطار الجزيرة العربية الجنوبية (ص ٢٣٤). والستوراكس السائل كان يؤتى به من بغداد وآسيا الصغرى (ص ٢٠١). ومثل ذلك يقال بالنسبة عن صمغ يجمع في فارس وما إليها ويسمى أسا فوتيدا وينقله تجار العرب إلى المشرق (ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥).

والشاه بلوط، وهو شجر تركي فارسي كان ينقل إلى المشرق في سفن تخرج من موانىء الجزيرة (ص ٢١٥ ـ ٢١٦).

وكان أجود أنواع المرجان هو الذي يجمع من البحر المتوسط، وخاصة عند الشواطىء المغربية، وإن كان ثمة أنواع تجمع في جهات أخرى مثل البحر الأحمر (ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧).

كانت صناعة البلور، المزخرف منه والبسيط، منتشرة في أماكن مختلفة من المشرق العربي كمصر وبلاد الشام وبغداد. ويبدو أن جو ـ كوا قد عرف شيئاً عن صناعة الزجاج

هناك، لذلك فإنه يصفها. ويقول إن الطريقة لا تختلف عن طريقة صنعها في الصين، ولكنه يضيف إلى ذلك قوله بأن صناعة الزجاج في الصين تعتمد على نترات البوتاس وأوكسيد الرصاص والجبس، أما في بلاد تا ـ شي فإن الصنّاع يضيفون البوراكس ومن ثم فإن ما يصنعونه هو أجود مما يصنع في الصين (ص ٢٢٧). ويرى مترجما الكتاب أن كلمة ليو ـ لي [Liu - li] الصينية كانت تعني أصلاً الزجاج (أو البلور) الملون. وكان هذا الصنف من الزجاج مما يرغب الصينيون في الحصول عليه. وفي القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) كان الزجاج البغدادي، ولعله المقصود ما كان نقل عن طريق بغداد، يعتبر أجود من غيره (ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨). وحري بالذكر أن المؤلف وسابقه تشو ـ كو ـ في يشيران إلى أن الزجاج والبلور كان ينقل بحراً على أيدي التجار العرب. ولعل الموانىء العربية التي مر ذكرها كانت تعمل على تجميعه ونقله.

٨ ـ خاتمة

هذه خلاصة لما جاء في كتاب جو ـ كوا عن الجزيرة العربية وموانئها ومدنها ومنتوجاتها، والسلع التي كانت تنقل عبرها إلى الصين. وقد يبدو أن المتاجر كانت قليلة، ولكن الواقع هو أنها كانت كبيرة في كميتها، ثمينة في أسعارها، بحيث أن الصين شعرت بأن كمية الفضة والذهب التي كانت تدفع ثمناً للحرير والشاي والصيني كانت كبيرة جداً.

والذي أود أن أقوله بهذه المناسبة هو أن المؤلفات والنقوش الصينية القديمة (ومثلها ما وضع في الهند) التي يمكن أن يفاد منها في دراسة تاريخ الجزيرة العربية لا يستهان بها. وإلى أن يقوم بيننا من يدرس اللغة الصينية دراسة وافية لمتابعة النصوص في مظانها فلا بأس من أن نعتمد الترجمات إلى اللغات الأجنبية. فتاريخنا طويل في الزمان متسع في المكان، وحري بنا أن نفتش عنه حتى «ولو في الصين».

الهوامش

(١) C.P. Fitzgerald: *History of East Asia* (London, 1974) pp. 69-87.
L.C. Goodrich: *A short History of the Chinese people* (New York, 1959) pp. 120, 137, 151.
Jannette Mirsky: *The Great Chinese Travelers* (Chicago, 1964) pp. 13-25, 237-248.
F. Needham: *History of Science and Technology in China* (Cambridge). vol. I, pp. 120ff.
K. Pratt: *Visitors to China* (London, 1968), pp. 26-46.
C.G.F. Simkin: *The Traditional Trade of Asia* (London, 1968), pp. 85-99.
E.H. Varmington: *The Commerce between the Roman Emprire and India*, 2ne ed, (London, 1974) pp. 84ff.

(٢) Chau-Ju-Kua-Chu-Tan-chitrs, and Friderich Hirth and W.W. Rockhill (St. Burg Peters, 1911, newprint, New York, 1966), p.9.

(٣) **أخبار الصين والهند** لسليمان التاجر تحقيق (باريس، ١٩٤٨) Sauvaget ص ١٦؛ من رحلات العرب (نقولا

زيادة) (بيروت ١٩٧٤) ص ٣١.

(٤) Ju-Kua, p.2c.

(٥) Ibid, p. 22. Miksin, p. 98.

(٦) Ju-Kua, pp. 21, 29.

(٧) Ju-Kua pp. 16, 21-22.

وقد دفعت رسوم بلغت ٤٠/ (سنة ١٤٤) و٥٠/ (سنة ١١٧٥).

(٨) Ibid, p. 22.

(٩) Ibid, p. 136 n.2.

(١٠) Ibid, pp. 35-36.

(١١) Ibid, p. 36.

(١٢) Ibid, p. 41.

(١٣) Ibid, pp. 195-6.

(١٤) Ibid, p. 217.

(١٥) Ibid, p. 200.

(١٦) Ibid. pp. 220-230.

(١٧) Ibid, pp. 114-119.

(١٨) Ibid, pp. 204, 205b. 1, 124, n.25.

(١٩) Ibid, pp. 124-6.

(٢٠) **أخبار الصين والهند** ص ١٧ **ومن رحلات العرب** ص ٣٣.

(٢١) نقولا زيادة، **الجغرافيا والرحلات عند العرب** (بيروت ١٩٦٢) ص ١٣٦ ـ ١٤٣.

(٢٢) نقولا زيادة، **الرحالة العرب** (القاهرة ١٩٥٧) ص ١٤٨ وما بعدها.

(٢٣) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مادة سوقطرى.

(٢٤) Ju- Kua pp. 128, 131, 237.

القسم السادس

المشرق الإسلامي في عصر الفارابي

عصر الفارابي

١ ـ مقدمة

كاد يجمع الباحثون المحدثون[١]، استناداً إلى الروايات التي وصلتنا من القدامى[٢]، فيما يتعلق بحياة الفارابي، على الأمور الآتية:

أولاً: إن الذي نعرفه عن حياة هذا الفيلسوف، بالنسبة إلى مكانته العلمية وأثره في تطور الفكر العربي الإسلامي، ضئيل جداً. فالرجل لم يخلّف لنا ترجمة لحياته، والذي رواه القدامى قليل.

ثانياً: اسمه محمد وكنيته أبو نصر ولقبه الفارابي. أما تسلسل أسماء آبائه ففيه خلاف.

ثالثاً: ولد في مدينة وسيج[٣]. من أعمال فاراب، ومن هنا جاء لقبه. فهو تركي عنصراً.

رابعاً: توفي الفارابي في دمشق سنة ٣٣٩ (٩٥٠ ـ ٩٥١) وقد ناهز ثمانين سنة، فيكون مولده إذن حول سنة ٢٥٩ (٨٧٢ ـ ٨٧٣).

خامساً: إن الفارابي دخل بغداد حول سنة ٣١٠هـ، وكان يومئذٍ يناهز الخمسين[٤].

سادساً: قضى الفارابي نحو عشرين سنة في بغداد، وفيها وضع أكثر كتبه، وانتقل سنة ٣٣٠ (٩٤١ ـ ٩٤٢) إلى بلاط سيف الدولة الحمداني. ومن ذلك الوقت، إلى حين وفاته، كان كثير التنقل والسفر. فزار مصر(؟) ودمشق وغيرهما.

سابعاً: كان الفارابي يعيش عالمه الخاص، بعيداً عن الأضواء. فلا اتصل ببلاط، ولا عمل عند سلطان. وهذا القليل يترك أمامنا مجالاً لعدد كبير من الأسئلة:

١ ـ ما الذي تعلمه الفارابي قبل دخوله بغداد وأين تعلمه؟ فالذي عليه قدامى الرواة أنه دخل بغداد وهو يعرف التركية والفارسية. ثم يختلفون في قضية معرفته للعربية. فهل تعلمها في بغداد أم أنه أتقنها في العاصمة العباسية؟ ليس من المعقول أن يعيش الفارابي خمسين سنة دون أن يثقف نفسه، والرجل لم يدخل بغداد إلا وقد اتصل بالكثير من شؤون المعرفة. والمعرفة في ذلك الوقت، كانت العربية سبيل الحصول عليها. فنحن نأخذ بالرأي القائل بأن الرجل كان يعرف العربية متعلماً قبل دخوله بغداد، ولكن الذي تم له في العاصمة العباسية هو إتقان العربية لاستعمالها معلماً ومؤلفاً. وثمة فرق بين الأمرين.

٢ ـ هل من الممكن تحديد الأماكن التي استقى فيها الفارابي معارفه قبل وصوله بغداد؟ إذا كان الفارابي ولد في فاراب في حوض نهر سيحون (سرداريا)، وتنقل حتى وصل بغداد، فالمنطقة التي تنقل فيها تشمل رقعة واسعة تمتد من بلده، عبر ما وراء النهر وفارس. وقد كان في هذه الرقعة مدن مختلفة فيها مدارس وشيوخ ومدرسون.

٣ ـ من هم شيوخ الفارابي وأساتذته في هذه المنطقة وفترة العقود الأولى من حياته؟

ولا شك في أن الإجابة عن هذا السؤال صعبة، إن لم تكن مستحيلة، على أساس ما بين أيدينا من المصادر.

وفي سبيل محاولة توضيح بعض الأمور المتعلقة بالسؤال الثاني أولاً، والسؤال الأول ثانياً، نود أن ندرس عصر الفارابي زماناً ومكاناً، أي من ناحيتيه التاريخية والجغرافية. ونحن نستميح القراء العذر إن نحن أطلنا في ذلك. إذ لا بد من التعرف إلى المنطقة والفترة والمجتمع (أو المجتمعات) التي عاصرها الفارابي، ولا نشك في أنه اتصل بها.

ولنبادر إلى القول بأن المنطقة التي تعنينا بشكل خاص، بادىء بدء، هي التي سماها الجغرافيون العرب ما وراء النهر وخراسان، والتي تضم اليوم جمهوريات أزبكستان وتركمنستان وخزكستان والجزء الغربي من أفغانستان والجزء الشمالي الشرقي من إيران.

٢ ـ بلاد ودول

تكون المنطقة التي حددنا، رقعة اتصال بين الشرق (الصين والهند) والغرب (من إيران إلى البحر المتوسط) وبين الشمال، حيث كانت تقوم قبائل رحل متنقلة، هي التي أطلق عليها الترك والمغول (وثمة أجزاء منها لا تزال كذلك) والجنوب الذي غلبت عليه، منذ آلاف السنين، حياة مستقرة مدنية. وإذا كان سكان الشمال يعتمدون الرعي أساساً لمعيشتهم، فقد كان سكان الجنوب يعتمدون على الزراعة في ذلك. وقد كان لكل من الفريقين صناعاته الخاصة به.

وبسبب من وقوع هذه المنطقة في مركز الاتصال، فقد كانت دوماً على الطريق، وكانت التجارة تعبرها من جميع الجهات. ومع التجارة كانت تنتقل عناصر حضارية مختلفة.

إلا أن التجارة لم تكن السبيل الوحيد لنقل العناصر الحضارية. ذلك بأن الدول والأمبراطوريات التي قامت في الرقعة الكبيرة الممتدة من البحر المتوسط إلى تخوم هندكوش والبامير، ومن الخليج العربي إلى بحري قزوين (الخزر) وآرال ـ هذه الدول والأمبراطوريات كانت عاملاً قوياً في توسيع رقعة الحضارة حتى قبل قيام الدولة العربية الإسلامية.

ولسنا نريد أن نوغل في مجاهل التاريخ القديم جداً، إذ لا حاجة إلى ذلك. والذي نريد أن نفعله هنا هو أن نضع أمام القارىء جدولاً تاريخياً بالدول التي كان لها تأثير في المنطقة، ثم ننتقل بعد ذلك إلى تتبع ما عرفته المنطقة من تطور حضاري نتيجة لقيام هذه الدول وما حملته معها إلى المنطقة ومنها.

١ ـ الدولة الأولى الحرية بعنايتنا هي الأمبراطورية الفارسية القديمة التي قامت في أواسط القرن السادس واستمرت إلى أوائل الرابع ق.م. لما قضى عليها الإسكندر. وقد شملت رقعة هذه الدولة إيران الحالية وجزءاً من أفغانستان اليوم ومنطقة ما وراء النهر (نهر جيحون أو أموداريا)، هذا فضلاً عن أن هذه الدولة شملت أرض الرافدين وديار الشام ووادي النيل غرباً.

٢: توغل الإسكندر، بعد قضائه على أمبراطورية الفرس، في منطقة ما وراء النهر (٣٣٠ ـ ٣٢٧ ق.م). وكان من جراء ذلك أن ضمت تلك الأرجاء القاصية إلى أمبراطوريته، التي توزعها بعده خلفاؤه. فكانت المنطقة التي يهمنا أمرها الآن جزءاً من الأمبراطورية التي أقامها سلوقس سنة ٣١٢ق.م، بعد نزاع طال أمده بين خلفاء الإسكندر، والتي امتدت من المتوسط إلى حدود الهند. إلا أن هذه الأمبراطورية الواسعة خرج عنها، مما يهمنا أمره، جزءان: أولهما بارثيا (أو فرثيا) التي نشأت عنها دولة الفرثيين القوية (٢٥٠ق.م. إلى ٢٢٦م) والتي حكمت أخيراً إيران وبلاد الرافدين وكانت عاصمتها أصلاً نيسا (هيكاتومبوليس؟) وأخيراً ضمت دولتهم منطقة الصغد من ما وراء النهر. وانتقلت العاصمة فيما بعد إلى مكان على مقربة من المدائن. أما الجزء الثاني فقد كان بكتريا، التي ظلت إغريقية عرشاً وإدارة، والتي شملت المنطقة الممتدة من مرو إلى البامير ومن سمرقند إلى هندكوش. وهذه الدولة ظهرت أيضاً سنة ٢٥٠ق.م. إلا أن أمرها انتهى حول سنة ١٤٠ق.م. وكانت بكترا (بلخ) عاصمتها.

٣: كان الدور الآن للمنطقة الشمالية الشرقية التي دفعت بجماعات من رعاتها المعروفين باسم يوي ـ تشي Yue-che جنوباً. وكانت نتيجة هذه التحركات المتتابعة القضاء على دولة بكتريا حول سنة ١٤٠ق.م. ومع توزع هذه الجماعات في جهات مختلفة قامت دولة كوشان التي بلغت ذروتها في القرنين الأولين للميلاد. وكان أكبر ملوكها كاشنكا (١٢٠ ـ ١٤٠م).

٤: بين سنتي ٢٢٦ و٦٤٢م سيطرت الدولة الساسانية على المنطقة الممتدة من أرض الرافدين إلى حدود أفغانستان ونهر سيحون (سرداريا). وقد قام الهطل Hephthalites، وهم قبائل من الترك والمغول الشرقيين بالهجوم على الجزء الشرقي من الأمبراطورية وأسسوا لأنفسهم دولة على شيء من المنعة (أواسط القرن الخامس). إلا أن جماعة من الأتراك الغربيين هاجمتهم من الشمال، والساسانيين أعادوا عليهم الكرة من الغرب، فقضوا عليهم. لكن الأتراك عادوا وأقاموا لأنفسهم ملكاً فيما وراء النهر.

هذه هي التجربة التاريخية العسكرية السياسية التي مرت على المنطقة المعني بها الآن في الاثني عشر قرناً التي سبقت الفتح العربي لتلك الجهات[٥].

٣ ـ التجربة الحضارية

إلا أن المهم ليس ما تم هناك من حروب وقتال وقيام دول وذهابها ومعاهدات ومحالفات. المهم في رأينا هو التجربة الحضارية التي عرفتها المنطقة في هذا الزمن المديد. وهذا ما نود أن نعرض له هنا.

أولاً: تذكر النقوش التي خلّفها دارا الكبير على المباني التي شادها في سوسة عاصمة ملكه أنه جلب الذهب من بكتريا واللازورد والعقيق الأحمر من بلاد الصغد والفيروز من خوارزم. وهذا دليل واحد فقط على مدى الاهتمام بالتجارة ـ ونقصد التجارة البرية الشرقية ـ الذي نجده عند الفرس القدماء. وكان معنى ذلك الاهتمام بالطرق أيضاً. ففي حدود

الأمبراطورية نفسها كان ثمة «الطريق الملكي» الممتد من أفسس، في غرب آسيا الصغرى، إلى سوسة والذي بلغ طوله نحو ٢٥٠٠ من الكيلومترات؛ والطريق الأطول الذي كان يصل بابل بهمدان (اكبتانا) وكابل (هذا بالإضافة إلى طرق ثانوية). والطريقان الرئيسان كانا يصلان الأمبراطورية الفارسية بالطرق الشرقية إلى الهند من جهة، وإلى مناطق حوض تاريم (والصين؟). وكانت السلطة المركزية، على الأقل في أيام بعض ملوك تلك الأسرة، قوية منظمة: فقد كان ثمة مفتشون ينتقلون إلى الولايات المتحدة للاطلاع على الإدارة والمحافظة على الطرق ومراقبة الأعمال والمشاريع المختلفة.

وحريٌّ بالذكر أن التجارة الخارجية الفارسية ـ شرقاً وشمالاً ـ كانت واسعة ومنوعة. فالمتاجر المختلفة كالخيول والجمال والأبقار والصوف والجلود كانت تصل إيران عبر المنطقة التي يعنينا أمرها. ولعل النحاس وأشياء أخرى كانت تنقل من إيران إلى المنطقة المذكورة. ومن المرجح أن الحرير كان معروفاً في إيران في القرن الخامس ق.م. ومعنى هذا وجود تبادل تجاري مع الصين.

ثانياً: كان ثمة اهتمام بالمشاريع الزراعية. ولعل أهم ما نقله الفرس القدامى إلى شرق الأمبراطورية وولاياتها الشرقية الشمالية هي القنوات المحفورة في جوف الأرض (وتسمى واحدتها قناة أو كارز). وهذه القنوات، فضلاً عن أنها قد تنقل المياه، فإنها تسمح للتربة الكلسية أن ترشح المياه منها بشكل بطيء ثم تتجمع، أو تنضم إلى المياه الأخرى، وتصبح كسباً للزراعة والزراع.

يضاف إلى ذلك أن الأمبراطورية القديمة قامت بدور انتقال النباتات من الشرق إلى الغرب. ومع أن القضية لم تُدرس بشكلها النهائي، فإن الباحثين يؤكدون مثلاً على أن الدراق والمشمش وصلا الأصقاع الإيرانية، في طريق انتقالهما من الصين، في أيام دارا الكبير. ويبدو أن الأرز وصل حتى بلاد الشام قبل وصول حملة الإسكندر إليها، وأن نقله من مشارف الهند إلى هذه المناطق هو من عمل الأمبراطورية. كما أن انتاج الفستق نقل إلى حلب، والسمسم حملت زراعته إلى مصر. ولعل الدجاجة والطاووس يعود وصولهما للغرب، إلى هذه الأمبراطورية.

وما هو هام جداً هو أن الفرس القدامى نقلوا عن مملكة ليديا (في آسيا الصغرى) سك النقود. وهذا الأمر أتاح لهم إدخال عنصر النقد في الاقتصاد ـ سواء في دفع الضرائب أم في التبادل التجاري. وهذا، بدوره، شجع الصيرفة. ومما هو جدير بالاهتمام هو أن الأمبراطورية الفارسية القديمة، باتصالاتها التجارية المختلفة الاتجاهات والنشاطات، شجعت لا التجارة في السلع الثمينة فحسب ـ مثل البخور العربي والحرير الصيني والكتان المصري والبهارات والطيوب الهندية ـ بل إنها فتحت الأبواب الواسعة أمام المتاجرة في الأشياء التي يحتاج إليها الناس عادة ـ مثل الحبوب والأقمشة الرخيصة والفخار[٦].

ثالثاً: كان احتلال الإسكندر للمنطقة التي تعنينا وقيام دولة يونانية ـ بكترية ودولة

سلوقية، مدعاة لانتقال الحضارة اليونانية وما فيها من آراء وفنون إلى تلك المنطقة. ولا بد من أن نذكر أن الإسكندر أنشأ عدداً من المدن في الجهات التي فتحها منها الإسكندرية في أريانا (أريجانا، هراة فيما بعد) والإسكندرية التي أقامها على نهر سيحون (سرداريا أو جكسارتس). وتبع خلفاؤه سنّته في إنشاء المدن. وقد ذكر بارتولد أن المدن التي حملت أسماء الإسكندر وانطيوخوس وسلوقس وغيرهم كثيرة. فهناك إنطاكية شمالي سرداريا (سيحون) ومدينتان بالاسم نفسه في حوض مرغاب، وهما اللتان أصبح اسمهما فيما بعد: مرو الروذ ومرو الشاهجان[٧]. وهذه المدن كان سكانها يتألفون ـ بالإضافة إلى من قد يقطنها من أهل البلاد الأصليين ـ من اليونانيين الذين كانوا يرافقون الجيوش اليونانية (أيام الإسكندر وخلفائه) والجماعات اليونانية التي نقلها الإسكندر من مصر وآسيا الصغرى إلى تلك الجهات، ومن التجار اليونان الذين ساروا على خطى رجال الحرب ليفيدوا من وجودهم هناك. وفي أيام الدولة الساسانية كان الأسرى من الدولة الرومانية الشرقية (البزنطية) يوزعون على المدن، هذه وغيرها.

في هذه المدن الحديثة، وفي سواها من المدن القديمة، تطورت الصناعات بدافع مما حملته الحضارة الهلينية إلى تلك الجهات. وأصبح الفن تظهر فيه مؤثرات يونانية، حتى في بلاد ما وراء النهر[٨].

رابعاً: نعرف من رحلة تشانغ تشئين Chang Ch'ien التي قام بها في عهد وو ـ تي أمبراطور الصين (١٤٠ ـ ٨٧ق.م)، ومن الحملات التي أرسلها هذا الملك لتأمين الحصول على خيول فرغانة اللازمة لجيوشه، أموراً أهمها: أن الاتصال بين الصين الشمالية وشمال إيران كان معروفاً وإن كان الطريق غير مضمون دائماً. وهذا الطريق كان يبدأ من شمال الصين وبعد أن يجتاز مدينة إنسي كان يتفرع إلى طريق شمالي وآخر جنوبي. وهذا كان ضرورياً لتجنب صحراء تكلا مكان. فالشمالي كان يمر بواحات أهمها طرفان وكوشا حتى يصل كشغر، والجنوبي كان يمر بواحات نيا وخوطان ويركند إلى كشغر. أما التفرع بعد كشغر إلى الغرب فكان يصل إلى الكثير من مدن إيران وأرض الرافدين. وهذا الطريق، مع زيادة في المراكز والمحطات، واهتمام أصحاب الأمر به، ظل المحور الرئيس للتجارة بين الصين وما وراء النهر وخراسان حتى مطلع القرون الحديثة[٩].

خامساً: في أيام الدولة الفرثية ظهرت أمور هامة تتعلق بالكتابة والأدب (إما مباشرة أو بالوساطة). فمع مجيء الإسكندر واليونان انتشرت اللغة اليونانية (والقانون اليوناني) في كثير من المدن. واستمرت اللغة اليونانية لغة رسمية، للنقوش والنقود وغير ذلك، في أيام الفرثيين. ومن هنا كان ثمة أثر يوناني مباشر في الحياة الأدبية. وإذا تذكرنا أن الزرادشتية يعود ظهورها إلى أيام هذه الدولة، كان معنى هذا تمازج في الآداب الدينية المعروفة والمتلاحقة في تلك المنطقة ـ البوذية والزرادشتية والأساطير اليونانية وأخبار الأبطال الأسطوريين من شمال إيران نفسها وغيرها. وكل هذا كان ينقله الشاعر ـ المغني[١٠].

سادساً: في أيام دولة بني ساسان كان ثمة إحياء وتقوية وتنظيم للتجارة عن طريق تحسين الطرق القديمة وزيادة الخانات (الفنادق) في الطرق والعناية بالآبار وتجميع المياه وإقامة مراكز التعشير أي المراكز الجمركية. فضلاً عن أن الساسانيين وضعوا حداً، ولو موقتاً، للهجوم الشمالي وبذلك حافظوا على الأمن، وهذا يسر للتجارة الجو المناسب[١١].

وما دمنا نشير إلى العمران الساساني، فلنذكر أن أردشير وشابور، وهما أول ملكين من الأسرة الجديدة، كانا شديدي الاهتمام بتمصير المدن. وقد عدد فراي سبعاً وثلاثين مدينة في الأمبراطورية الساسانية بنيت أو عمرت أو وسعت أو أصلحت أو سورت في عهدهما[١٢]. وكان الملك الثاني، شابور، قد انتصر على الرومان مرات، وكان يبعث بالأسرى لاستيطان المدن والاهتمام بها عمارة وفناً وتسويراً.

سابعاً: يبدو أن البوذية وصلت الصين في القرن الأول الميلادي، وزاد انتشارها مع الزمن، بحيث أن الكثرة من السكان كانت في القرن الرابع، تدين بالبوذية. وقد ظل أتباعها يعتبرون الهند المحجة الروحية لهم. ولا بد أن كثيرين من بوذيي الصين زاروا الهند للتزود بالكتب المخطوطة وآثار كبار البوذيين، لكن الزمن حفظ لنا روايتين لرحالين صينيين زارا الهند. أولهما فا ـ هسين Fa-hsien الذي بدأ رحلته سنة ٣٩٩م. والثاني هو هسوان ـ تسانغ Hsuan-tsang الذي بدأ برحلته سنة ٦٣١م. ولسنا ننوي أن نتابع هذين الرحالين في تنقلهما، فذلك أمر يطول، ولكننا نود أن نشير إلى بضعة أمور مرتبطة بالحياة الثقافية في المنطقة التي نعنى بها الآن[١٣].

فمن ذلك أن المدارس التي تعنى بتعليم البوذية كانت متعددة، ولم تقتصر على التعليم الديني، بل كانت مراكز للرياضيات والفلك. وكانت الثقافة السنسكريتية عميقة الجذور في أماكن مختلفة (أوديانا في الهند وكوشا وكشغر). وكان سكان خوطان يقدرون أهل المعرفة والبحث ويحبون الموسيقى[١٤]. ويبدو أنه كان في بخارى دير ـ مدرسة[١٥].

أما الصناعات، وخاصة ما يتعلق بالأقمشة على اختلاف أنواعها وصناعة المعادن، فقد بلغت حد الإعجاب عند رحالينا.

والذي نود أن نقوله هو أن هذه المنطقة كان قد مر عليها، منذ قيام الدولة الفارسية الأولى حتى القضاء على دولة الساسانيين، تجارب حضارية هيأتها للقيام بدور هام كنقطة اتصال بين الصين وتركستان وإيران والهند وما يجاور هذه كلها من بلاد وشعوب.

٤ ـ ثقافة وفكر

نود أن نضع بين أيدي القراء ملاحظ مقتضبة تتعلق بالحياة الفكرية والثقافية في المنطقة. على أن هذا يقتضي أن نجمع أموراً تتعلق بغرب إيران وأرض الرافدين وبلاد الشام، إذ إن الكثير مما عرف طريقه إلى الشرق والشمال الشرقي من دولة الساسانيين كانت المناطق الغربية نقطة انطلاقه.

أولاً: في الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى أواخر القرن السادس للميلاد كانت للإسكندرية مكانة خاصة في الحياة العلمية ـ في الطب والفلسفة والرياضيات، هذا فضلاً

عن نواح متعددة من اللاهوت المسيحي. وكان هناك مدرستان تشاركان الإسكندرية شيئاً من مكانتها هما إنطاكيا وغزة. والمتعارف عليه أن المناهج التعليمية في إنطاكيا كانت، بدءاً من القرن الرابع، تقليداً للمناهج الإسكندرية.

ثانياً: في القرن الرابع أنشئت في نصيبين مدرستها الأولى التي كانت تعنى بالدراسات اللاهوتية. إلا أنه مما يجب أن يذكر دوماً هو أن الدراسات اللاهوتية، سواء في ذلك النسطورية أو اليعقوبية، كانت تعتمد نواحي من المنطق (والفلسفة) اليوناني في تفاسيرها وتلاحيها وجدلها. ومن ثم فقد كان هناك حركة ترجمة إلى اللغة السريانية لما يحتاجه القوم من المنطق والفلسفة عند اليونان. هذه المدرسة مرت بها، في اواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس، فترة ضعف، بحيث أننا لا نرى الكثير من آثار معلميها العلمية. لكن نشاطها عاد إليها في أواخر القرن الخامس. علماؤها يشتغلون بالأمور اللاهوتية والترجمة(؟) طوال القرن السادس وحتى إلى القرن السابع.

ثالثاً: كان في أدسا (الرها) مدرسة تعود إلى القرن الرابع. وقد أصبحت هذه المدرسة منذ القرن الخامس مركزاً علمياً كبيراً لنشر المعرفة بحيث تخرج فيها عدد كبير من الأساقفة والأدباء والعلماء. وقد كان بعض أساتذة نصيبين قد انتقلوا إليها أيام تقهقهر حالة هذه المدرسة الأخيرة. وفي هذه المدرسة ازدهر الأدب السرياني من حيث إنه أدب ترجمة وأدب ديني وأدب شعري ونثري فني وأسطوري. إلا أن هذه المدرسة التي كانت نسطورية في مذهبها الديني، لم يرض عنها الأباطرة البزنطيون دوماً. لذلك أمر الأمبراطور زينون بإغلاقها (٤٨٩). عندها هاجر أساتذتها إلى نصيبين التي كانت تقع في الأمبراطورية الساسانية. وتعتبر هجرة هؤلاء بمناسبة إحياء فعال لمدرسة نصيبين على ما نجده في قوانينها الجديدة (٤٩٦). وهذه المدرسة ظلت تقوم بعملها العلمي الكبير حتى القرن السابع للميلاد. ومن هنا كانت الأسقفيات النسطورية المختلفة تزود بأساقفتها، كما كانت المدارس النسطورية في الدولة الساسانية تزود أساتذتها منها. وقد كان في مدرسة نصيبين في أواخر القرن السادس نحو ٨٠٠ تلميذ!

رابعاً: إن المنازعات الدينية بين اليعاقبة والنساطرة كانت خيراً على الحركة العلمية في المراكز المختلفة. وكان للنساطرة نشاط تبشيري أقوى في الجهات الشرقية من الأمبراطورية الساسانية. فقد كانت مرو منذ أواخر القرن الخامس مركزاً لأسقفية نسطورية. وفي سنة ٥٤٠ عيّن ثيودور (النسطوري) أسقفاً (أي مطراناً) لمرو. وكان في مرو أكاديمية علمية دينية، مع ما يقتضى ذلك من الاهتمام بالعلوم الدنيوية المساعدة كالمنطق والفلسفة، والنافعة كالطب والرياضيات. كذلك كان في كل من سلوقيا وحرّان ومنبج وحمص مدرسة واحدة على الأقل. وقد انتشرت الثقافة اليونانية بين أهل حران حتى إن جيرانهم أطلقوا على مدينتهم اسم «هيلينوبولس» (ومعناه مدينة الهلينيين، وكان يقصد بذلك «المدينة الوثنية»).

خامساً: مع أن كسرى (٥٣١ ـ ٥٧٨) كان يشن الغارات والحروب ضد البزنطيين، فقد

كان معجباً بالحضارة اليونانية الرومانية، وكان حريصاً كل الحرص على أن يدخلها إلى بلاده. فهو الذي استضاف سبعة من الفلاسفة اليونان لما أقفل جستينيان مدرسة أثينا سنة ٥٢٩ (ولكن هؤلاء لم يألفوا الجو الجديد ففضلوا العودة إلى بلادهم ٥٣٣). إلا أن ذلك لم يحل دون كسرى وتجديد السعي لإنشاء أكاديمية يونانية الصبغة على غرار أكاديمية الإسكندرية في بلاده، وانتهى به الأمر إلى إنشاء أكاديمية جنديسابور. وقد نقل إليها المنهاج الإسكندري في الطب والرياضيات. ولعله من الممكن أن هذا المنهاج قد نقل إما عن مدرسة إنطاكيا أو عن مدرسة حمص، وكانت كلتاهما قد نقلتا منهاج الإسكندرية. على أنه ليس ما يمنع من أن يكون النقل قد تم عن طريق العلماء الذين رحلوا من الإسكندرية إلى بلاد الشام أو أرض الرافدين. وحري بالذكر أن تعليم الطب في جنديسابور كان يقوم على الملاحظة العملية (السريرية) في المستشفى. على النحو الذي انتشر فيما بعد في الدولة العربية الإسلامية.

سادساً: أشرنا من قبل إلى وجود أكاديمية (مدرسة) نسطورية في مرو. ونود أن نشير هنا إلى بعض المدن التي وصلتنا أخبارها وأخبار مدارسها. فمنها ريشهر وشيز (في أريجانا أو أريانا). ويبدو أن الأولى كان فيها مكتبة ضخمة. وكانت بلخ مركزاً دينياً كبيراً للبوذية وللزرادشتية، مع ما يرافق ذلك من أديرة ومدارس ورهبنات وتعليم. وقد كان في مدينة خوارزم وما حولها زرادشتيون ومسيحيون نسطوريون أصلاً (وإن كان هناك بعض الأرثوذكس) وبوذيون. ويرى الباحثون، مما ذكره البيروني، أن بقايا قوية من الحضارة الإيرانية كانت تتناقل هناك، وإن كنا لم نحصل على آثار مكتوبة لها. وكانت بخارى في أيام الزرادشتيين تعتبر بأنها «مثابة العلوم كلها».

يتضح من هذا العرض المقتضب للتجربة السياسية والحضارية والثقافية التي بلغتها المنطقة التي حددناها في مطلع هذا الحديث، والتي كانت تشمل في المصطلح الجغرافي العربي خراسان (الشرقية) وبلاد ما وراء النهر، بالمعنى الواسع لهذا التعبير، أنها ــ على العموم ـ كانت تفيد من حالات الاستقرار والأمن فتقوم فيها المدن الكبرى، وتنشط فيها الزراعة والصناعة والتجارة، وتتعرف إلى المنجزات الحضارية التي تصل إليها من الصين والهند والفرس واليونان، وتتصل بالحركات الفكرية المرتبطة بالأديان التي انتشرت فيها كالبوذية والزرادشتية والمانوية والمسيحية. وقد عرفت تيارات متنوعة. ومع أنها كانت تتعرض كثيراً إلى قيام دول من الشرق والشمال تطغى عليها، أو تهاجمها جماعات من رعاة السهوب الشمالية فتعزل بعض أجزائها، إلا أن ذلك كله لم يمنع المؤثرات الخارجية أن تتوطن فيها وتنتج فنوناً وصناعات محلية متأثرة بالآتي من الخارج[١٦].

٥ ـ وجاء الإسلام

لما أتيح للعرب أن يفتحوا تلك البقاع وتستقر لهم دولة، وينتشر الإسلام في أجزائها، أصبحت تلك المنطقة جزءاً من الدولة العربية الإسلامية، واتسعت المجالات أمامها بحيث استطاعت أن تسهم إسهاماً كبيراً في المنجزات الحضارية الجديدة. وأصبح اتصالها بالأجزاء

الغربية من الدولة الجديدة لا يحول دونه حائل. وعندئذٍ أصبح دورها، كنقطة للاتصال مع الصين والهند، أوسع مدى وأبعد أثراً، ومصرت فيها مدن جديدة، كما عمرت مدن كانت قد تضررت بسبب الأحداث المنوعة. وهذا هو ما نريد أن ننتقل إلى الحديث عنه الآن.

بعد معركة نهاوند (٢١/ ٦٤٢) انهارت المقاومة الساسانية المنظمة، ووجد يزدجرد (الثالث آخر ملوك بني ساسان نفسه شريداً، واقتصرت المقاومة للجيوش العربية على جيوب محلية، لكنها لم تكن، في غالب الأحيان، شيئاً يذكر. وقد تمّ النصر الأولي في خراسان بسبب قيام جيشين عربيين اتجها نحو تلك المنطقة في وقت واحد. ففي سنة ٢٩/ ٦٤٩ سارت قوة من الكوفة بقيادة واليها سعيد بن العاص متخذة طريق همذان والري قاصدة جرجان وخراسان، كما خرجت في الوقت نفسه قوة من البصرة بقيادة أميرها عبد الله بن عامر متجهة إلى واحة طبس عبر فَرْس وكرمان. وعلى يد هذين القائدين تم الاستيلاء على نيسابور وسرخس وطوس وهراة ومرو. وسار الربيع بن زياد إلى سيستان (سجستان) واستولى عليها. ونجح الأحنف بن قيس في فتح بلخ.

إلا أن الخلاف الذي نشب في الدولة بين سنتي ٣٥ و٤٠ (٦٥٦ ـ ٦٦١) أدى إلى التراجع من خراسان وضعف في السيطرة على الأمور في تلك الجهات. على أنه ما كاد معاوية يتولى الخلافة حتى عاد النشاط هناك إلى ما كان عليه. ولما ولي زياد بن أبي سفيان البصرة، قسم خراسان إلى أربعة أرباع سمي كل منها باسم المدينة الرئيسة فيه وهي: نيسابور وبلخ ومرو وهراة. ولما عيّن عبد الله بن زياد على خراسان عاد التقدم العربي الحربي إلى سابق زخمه فجازت جيوش العرب نهر جيحون (أمودايا ـ أكسوس) وتغلبوا على حاكم بخارى. وتذكر بعض الروايات أن امرأة تسمى «خاتون» هي التي كانت تحكم المدينة يومها. واستمرت الغزوات في ما وراء النهر بقيادة سلم بن زياد (ولي الأمر في سنة ٦١/ ٦٨١) فقاد حملات موفقة ضد خوارزم، ثم وصل إلى سمرقند.

وقد اضطرب أمر الفتوح أيام الخلاف بين الخليفة عبد الملك وعبد الله بن الزبير (٦٤ ـ ٧٣/ ٦٨٣ ـ ٦٩٢) لأن أثر الخلاف وصل إلى القبائل العربية التي استقرت في خراسان. ومع ذلك فقد استولى موسى بن عبد الله على ترمذ من شاطىء جيحون الشمالي. فلما عاد السلام إلى الدولة بعث الخليفة المهلب بن أبي صفرة إلى خراسان الذي جاز النهر إلى كش (شهرسابز) ونسف (نخشاب). ولما توفي المهلب ولي ابنه يزيد مكانه. إلا أن العمل الحربي المنظم في بلاد ما وراء النهر تم على يد قتيبة بن مسلم الذي تمكن من فتح المنطقة بشكل منظم، وأرسى الجند العربي في الشاش (طشقند) شمالي نهر سيحون (سرداريا ـ جاكسارتس) ومنها هاجم إسفيجاب. وفي الوقت ذاته استولى أخوه عبد الرحمن على دولة خوارزم. وقد قضى قتيبة نحبه في تلك الأنحاء.

توقف العمل العسكري هناك بعد وفاته، وبدأت دعوة أبي مسلم تشغل الناس، كما أن قبيلة من الأتراك تسمى ترغش قامت شمال نهر سيحون وقاومت الفتح العربي، بل لعلها

استرجعت أكثر المناطق الواقعة خلف نهر جيحون. لكن أمور ترغش اضطربت، فلما ولي الأمر نصر بن سيار (١٢٠/ ٧٣٧) استرجع المنطقة وفرض فيها النظام والأمن.

وفي الوقت الذي كان فيه أبو مسلم يعد الجيوش في خراسان ضد الأمويين، كانت قوى صينية تقاتل العرب في ما وراء النهر. لكن زياد بن صالح، الذي تولى الحرب بعد قيام الدولة العباسية نجح في رد هؤلاء على أعقابهم وتغلب عليهم في معركة طلس الفاصلة (١١٣/ ٧٥١)، بحيث لم يتدخل الصينيون بعدها في شؤون ما وراء النهر.

على أن مما يلفت أن هذه المنطقة التي نتحدث عنها كان حكام بعض أجزائها أول من انتزعوا السلطة محلياً وأداروا البلاد إدارة مستقلة، ولو أن غالبهم ظلوا يعترفون بخلافة بغداد ولو اسمياً.

كان أول من أسس واحدة من هذه الدول طاهر بن الحسين الذي كان قائد جيش المأمون في خلافه مع أخيه الأمين. فلما انتصر المأمون ولاّه خراسان فانفرد بأمرها. وحكمت هذه الدولة من سنة ٢٠٥ إلى ٢٥٩ (٨٢١ ـ ٨٧٣). وكانت العاصمة أولاً مرو، لكنهم نقلوها فيما بعد إلى نيسابور. وقد قلّد الأمراء الطاهريون عاصمة الخلافة فاتخذوا لهم بلاطاً وشجعوا العلماء والشعراء.

وثمة دولة أخرى أنشأها يعقوب بن ليث الصفار (٢٥٣/ ٨٦٧) في سجستان ودام أمرها إلى ٢٩٨ (٩١١) إذ استولى عليها السامانيون. أما ما حدث لأمرائها بعد ذلك فليس يعنينا أمره من الناحية السياسية. إلا أن هؤلاء القوم كان منهم من عني بالعلم والعلماء وأشهرهم خلف بن أحمد الملقب بولي الدولة (٣٥٢ ـ ٣٩٣/ ٩٦٣ ـ ١٠٠٣).

على أن أهم الدول التي قامت في المنطقة التي نعنيها هي الدولة السامانية (٢٠٤ ـ ٣٩٥/ ٨١٩ ـ ١٠٠٥). وكانت بخارى عاصمتها، مركز طرق القوافل الآسيوية، وكعبة للعلم في تلك الديار.

لسنا نود أن نؤرخ للدول التي قامت في ظلال الخلافة العباسية، فليس ذلك مما نعنى به الآن. ولكن لا بد من الإشارة إلى دولة الحمدانيين، وذلك لارتباط سيف الدولة بحياة الفارابي. والدولة الحمدانية كانت في الموصل أصلاً، لكن الذي يهمنا منها هو إقامتها في حلب (٣٣٣ ـ ٣٩٤/ ٩٤٥ ـ ١٠٠٤)[١٧].

٦ ـ ملاحظ تمهيدية

قبل أن ننتقل إلى وصف المنطقة جغرافياً واقتصادياً على ما كانت عليه في عصر الفارابي، نود أن نضع النقاط التالية أمام القراء:

أولاً: الصورة التي ننوي أن ننقلها الآن منتزعة أصلاً من ثلاثة من الجغرافيين البلدانيين العرب وهم، على ترتيب الزمن الذي صنفوا فيه، الأصطخري صاحب كتاب «المسالك والممالك» (كتب بين ٣١٨ و٣٢١/ ٩٣٠ و٩٣٣) وابن حوقل، الذي وضع «صورة الأرض» (ألف كتابه في النصف الأول من القرن الرابع/ العاشر) والمقدسي مؤلف «أحسن التقاسيم في

معرفة الأقاليم» (٣٧٥/ ٩٨٣). إلا أننا لن نغفل أولئك الذين سبقوهم من المسالكيين مثل ابن خرداذبه (توفي حول ٢٧٢/ ٨٨٥) واليعقوبي (توفي حول ٢٨٨/ ٨٩١) وابن رسته (توفي بعد ٢٩٠/ ٩٠٣) وقدامة بن جعفر (توفي بعد ٣١٠/ ٩٢٢).

ثانياً: من الواضح أن ابن حوقل والمقدسي توفيا بعد الفارابي، لكن المعلومات التي يقدمانها لنا فيها ما تعكس العقود الأولى من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي)، أي إنها معاصرة لبعض عقود من حياة المعلم الثاني.

ثالثاً: الغاية من تفصيل الصورة الجغرافية الاقتصادية، هي توضيح المنطقة التي ولد فيها الفارابي وعاش قبل أن يدخل بغداد. وسنرى أن مدناً كثيرة من هذه المنطقة كانت غنية، إذ احتفظت بالكثير من التقاليد الزراعية والتجارية والصناعية القديمة التي سارت إلى الأمام حين استقرت أمور الدولة العربية الإسلامية. كما أن هذه المدن احتفظت بتقاليدها من حيث الاهتمام بالعلم والثقافة، وإن كانت هذه، بطبيعة الحال، قد صبغت بالصبغة العربية الإسلامية، بسبب انتشار الإسلام هناك.

رابعاً: سيمرّ بنا، في هذا الوصف الجغرافي، فيما يتعلق بالمدن المذكورة هناك، أن بعضاً من تلك المدن الكبرى كانت تتكون، من حيث طوبوغرافيتها، من الأقسام التالية: المدينة والقهندز (القلعة) والربض. والأول هو المدينة الداخلية والثاني حصن المكان وقلعته والثالث ما يحيط بالاثنين (غالباً)، وهو ضواحي المدينة. وقد يكون للمدينة سورها الخاص وللقهندز سور خاص. وقد يحيط بالمدينة والقهندز والربض سور خارجي. وثمة عناصر ثلاثة هامة توجد في المدن وهي المسجد الجامع ودار الإمارة (في الحواضر) والحبس. وهذه تكون في المدينة غالباً، لكن الحبس قد يكون داخل دار الإمارة[١٨].

خامساً: البلدانيون الثلاثة لا يتفقون تماماً على تحديد كل من خراسان وما وراء النهر. فالأصطخري وابن حوقل يعتبران بلاد الختل من خراسان. فيما يعتبر المقدسي المنطقة كلها (أي خراسان وما وراء النهر) إقليماً واحداً يسميه إقليم المشرق، ويقسمه إلى قسمين: جانب هيطل (الختل) وجانب خراسان[١٩]. أما نحن فسنتحدث هنا عن المنطقة تحت عنوانين: أولهما يتناول خراسان، وثانيهما يتناول ما وراء النهر. وتجنباً للتكرار لن نعدد ما يدخل في كل منهما الآن لكننا سنوفي ذلك حقه عندما نصل إليه.

٧ ـ خراسان في عصر الفارابي

كانت خراسان في أيام ابن حوقل لآل سامان، وكان فيها ثلاثون عملاً ونيف، «وكل عمل منها لا يخلو من قاض وصاحب بريد وبندار وصاحب معونة. هذا إلى غير عمل من أعمالها فيه قضاة يتصرفون عن قاضي الناحية التي هو بها، وأصحاب أخبار وبرد ينهون أخبارهم إلى صاحب ناحيتهم، وجباة للخراج... وأعظم هذه النواحي منزلة وأكثرها جيشاً وشحنة وأجلها منزلة وجباية نيسابور ومرو وبلخ وهراة»[٢٠]. وهذا التعيين يتفق مع ما مر بنا من أن خراسان قسّمت أربعة أرباع، كل ربع فيها سمي باسم المدينة الرئيسة فيه.

«ونيسابور[٢١] مدينة في أرض سهلة أبنيتها من طين وهي كانت مفترشة البناء نحو فرسخ مثله ولها مدينة وقهندز وربض، وقهندزها وربضها عامران ومسجد جامعها في ربضها بمكان يعرف بالمعسكر. ودار الإدارة بمكان يعرف بميدان الحسين والحبس عند دار الإمارة. وبين الحبس ودار الإمارة وبين المسجد الجامع نحو ربع فرسخ، ودار الإمارة بها من بناء العاتي عمرو بن الليث، ولقهندزها بابان وللمدينة أربعة أبواب، فأما أسواقها فإنها خارج من المدينة والقهندز في الربض وخيرة أسواقها سوقان: أحدهما تعرف بالمربعة الكبيرة والأخرى بالمربعة الصغيرة... وفي خلال هذه الأسواق خانات وفنادق يسكنها التجار بالتجارات، وفيها الخانبارات للبيع والشرى. فيقصد كل فندق بما يعلم أنه يغلب على أهله من أنواع التجارة. وكل فندق منها لا يضاهي أكابر أسواق ذوي جنسه. ويسكن هذه الفنادق أهل اليسار ممن في ذلك الطريق من التجارة، وأهل البضائع الكبار والأموال الغزار. ولغير المياسير فنادق وخانات يسكنها أهل المهن وأرباب الصنائع بالدكاكين المعمورة والحجر المسكونة والحوانيت المشحونة بالصناع: كالقلانسيين في سوقهم غير فندق فيه الحوانيت والحجر المملوءة بهم، وكذلك الأساقفة والخرازون والحبالون إلى غير ذلك في إضعاف أسواقهم والفنادق المملوءة بذوي الصنائع منهم. وأما فنادق البزازين وخانباراتهم بها وبيعهم فيها وشراهم فأكثر البلدان يشركهم في ذلك ولا يقصرون عنهم. وشرب البلد ومياهه فأكثره من قني تجري تحت مساكنهم وتظهر خارج البلد في ضياعهم، ومنها قني تظهر في البلد وتجري في دورهم وبساتينهم بقصبة نيسابور. ولهم نهر كبير يعرف بوادي سغارذ ويجتمع إليه كثير من قنوات البلد فيسقى منه بعض أجنة البلد ورساتيق كثيرة. وعلى هذا الوادي قوام وحفظة عليه وعلى قنبهم في عمق الأرض، وربما كان منها شيء بينه وبين وجه الأرض مائة درجة، ويزيد وينقص في نيسابور نفسها. وليس بخراسان مدينة أصح هواء وأفسح قضاء وأشد عمارة وأدوم تجارة وأكثر سابلة وأعظم قافلة من نيسابور. ويرتفع عنها من أصناف البز وفاخر ثياب القطن والقز وما ينقل إلى سائر بلدان الإسلام، وبعض بلدان الشرك لكثرته وجودته، لإيثار الملوك والرؤساء لكسوته إذ ليس يخرج من بلد ولا ناحية كجوهريته ولا يشاكله لرفعته وخاصيته.

«ولنيسابور حدود واسعة ورساتيق عامرة وفي ضمنها مدن معروفة.

«وكانت دار الإمارة بخراسان في قديم الأيام بمرو وبلخ إلى أيام الطاهرية فإنهم نقلوها إلى نيسابور، فعمرت وكبرت وغزرت وعظمت أموالها عند توطنهم إياها وقطونهم بها،حتى انتابها الكتّاب والأدباء بمقامهم بها وطرأ إليها العلماء والفقهاء عند إيثارهم لها، وقد خرّجت نيسابور من العلماء كثرة ونشأ بها على مر الأيام من الفقهاء من شهر اسمه وسمق قدره وعلا ذكره.

«ومدينة مرو قديمة تعرف بمرو الشاهجان أزلية البناء. وهي في أرض مستوية بعيدة من الجبال فلا يرى جبل بالقرب منها وليس في شيء من حدودها جبل. وأرضها سبخة كثيرة الرمال وأبنيتها من طين. فيها ثلاثة مساجد للجمعات فأما أول مسجد أقيمت فيه الجمعة

فمسجد بني داخل المدينة في أول الإسلام، فلما كثر الإسلام بني المسجد المعروف بالمسجد العتيق على باب المدينة ويصلي فيه أصحاب الحديث، وبني من بعد ذلك المسجد الذي على ماجان. ويقال إن ذلك المسجد والسوق ودار الإمارة من بناء أبي مسلم. ودار الإمارة على ظهر هذا المسجد. وفي هذه الدار قبة بناها أبو مسلم كان يجلس فيها وفيها يجلس أمراء مرو[٢٢]. وبها قهندز خراب ومقداره مقدار مدينة وهو مرتفع وقد سقيت إليه قناة ماء يجري فيه إلى يومنا هذا، وربما زرع عليها مباقل ومباطخ وغير ذلك. فأما أسواقها فعلى قديم الأيام كانت على باب المدينة جنب الجامع، فنقلها أبو مسلم إلى ماجان. وهي من أنظف الأسواق وأوجدها لسائر ما يحتاج إليه من ليل ونهار. ومصلى العيد في محلة رأس الميدان في مربعة أبي الجهم ويطوف به من جميع جوانبه ونواحيه البنيان والعمارات... والبلد أرباع معروفة الحدود ولأرباعه أنهار معروفة فمنها نهر هرمزفره، وهو نهر عليه أبنية كثيرة من البلد وهو مما يلي سرخس. وللمدينة الداخلة أربعة أبواب...

«ولمرو نهر عظيم تتشعب هذه الأنهار منه وأنهار الرساتيق عنه ومبتدأه من وراء الباميان، ويعرف بنهر مرغاب... ومجرى هذا النهر على مرو الروذ وعليه ضياعهم... ومقاسم الماء من زرق قرية بها مقسم ماء مرو. وقد جعل لكل محلة وسكة من هذا النهر ساقية صغيرة عليها ألواح خشب فيها ثقب مقدرة لا يترك أحد يزيد فيها ولا ينقص، ويأتي كل قوم من شربهم بمقدار إن زاد الماء دخلت عليهم الزيادة وإن نقص نقصوا بأجمعهم لا إيثار لقوم على قوم. ومتولي هذا الماء أمير مفرد وهو أجل من وإلى المعونة بمرو. وبلغني أنه يرتزق على هذا الماء زيادة على عشرة آلاف رجل لكل واحد منهم على هذا الماء عمل.

«وكانت مرو معسكر الإسلام في أول الإسلام ومنها استقامت مملكة فارس للمسلمين... ويرتفع من مرو الابريسم والقز الكثير، ويقال إن أصل الابريسم بجرجان وطبرستان على قديم الأيام وقع من مرو. ومنها يرتفع القطن الذي ينسب في سائر الأقطان إليها جودته وهو الغاية في اللين، والثياب التي تجهز منها إلى كثير من البلاد ـ ولها منابر مضافة إليها وبرسمها. وبالسوسقان منبر وهذه منابر مضافة إليها ومدنها القريبة منها.

«وأما هراة فهو اسم المدينة وكان عليها حصار وثيق، وخارجها وداخلها مياه ومن داخلها القهندز، ولها ربض ومسجد الجامع بها ودار الإمارة خارج الحصن بمكان يعرف بخراسان أباذ منقطع عن المدينة. وبينها وبين المدينة نحو ثلث فرسخ على طريق بوسنج من غربي هراة، وبناؤها من طين. والمدينة مقدار نصف فرسخ في مثله وكان لمدينتها الداخلة أربعة أبواب... وعلى كل باب سوق وفي داخل المدينة والربض مياه جارية. وللحصن أربعة أبواب بحذاء كل باب من أبواب المدينة باب لهذا الحصن. وخارج الحصن جدار يطوف بالحصن كله أطول من قامة وكان بينهما أكثر من ثلاثين خطوة... والمسجد الجامع في المدينة وحواليه الأسواق والسجن على ظهر قبلة مسجد الجامع، وليس بخراسان وما وراء النهر وسجستان والجبال مسجد أعمر بالناس على دوام الأيام من مسجد هراة ومسجد بلخ

وإليه مسجد سجستان، فإن بهذه المساجد كثرة من الفقهاء وزحمة من أرباب القرآن على رسم الشام والثغور. وهي فرصة لخراسان وسجستان وفارس.

«والجبل من هراة على فرسخين على طريق بلخ، ومحتطبهم من مفازة بينهم وبين اسفزاز وليس هذا الجبل محتطب ولا مرعى وإنما يرتفقون منه بالحجارة للأرحية والفرش وما أشبه ذلك. وعلى رأس هذا الجبل بيت نار يدعى سرشك وهو معمور، وبينه وبين المدينة بيعة للنصارى وليس بينها وبين المدينة مياه ولا بساتين سوى نهر المدينة، على باب المدينة، فإذا عبرت القنطرة لم تر بعدها ماء ولا خضرة إلى البلد. وعلى سائر الأبواب والجهات مياه جارية وبساتين...

«وأكبر مدينة بنواحي هراة بعد هراة كروخ وأوفه، ويرتفع من كروخ الكشمش المجلوب إلى الآفاق والزبيب الطائفي المحمول إلى العراق وسائر البلاد ومعظمه يرتفع من مالن. وكروخ مدينة قصدة وأهلها شراة... وبناؤها من طين وهي في شعب بين جبال مقدار عشرين فرسخاً وجميعها مشتبكة البساتين والمياه والأشجار والغياض والقرى العامرة. وأوفه أهل جماعة وهي نحو كروخ في القدر، ولها بساتين ومياه وبناؤها من طين أيضاً. ومالن أصغر من كروخ وهي أيضاً مشتبكة البساتين والمياه والأشجار والكروم عامرة. وخيسار قليلة الأشجار والمياه، وهي أصغر من مالن وأهلها أهل جماعة. واستربيان أهلها خوارج وهي أصغر من مالن، ولها مياه وبساتينهم قليلة والغالب عليهم في غلاتهم الزروع دون الكروم وهي في جبال وعرة. ومارإباذ فكثيرة البساتين والمياه وهي مدينة أصغر من مالن، ويرتفع منها أرز كثير يجلب إلى النواحي...

«وأما بوسنج ففيها من المدن خركرد وفركرد وكره، وأكبرها بوسنج وهي مدينة نحو نصف هراة وهي هراة في مستواة، ومن بوسنج إلى الجبل نحو فرسخين وهو الجبل الذي من هراة إليه فرسخان، وبناؤهم من جبل وليس كبناء هراة ولهم مياه وأشجار كثيرة، ولهم من أشجار العرعر ما ليس بجميع خراسان في بلد ويحمل هذا الخشب إلى سائر النواحي. وماؤهم من نهر هراة وهو النهر الذي يجري إلى سرخس وينقطع دون سرخس في أكثر الأوقات، وينضب في الصيف ويصل إليها الماء في الشتاء فيمر في وسط البلد. ولبوسنج حصار وعليه خندق وله ثلاثة أبواب: فباب يعرف بباب علي يفضي إلى طريق نيسابور، وباب هراة يشرع إلى هراة، وباب قوهستان يأخذ إلى قوهستان. وأكبر المدن بها بعد بوسنج كوسرى وهي مدينة خصبة ولها ماء وبساتين قليلة، وهي نحو الثلث من بوسنج وبناؤهم من طين. وخركود لها ماء وبساتين كثيرة وهي أصغر من كوسرى. وفركرد أصغر من خركرد وماؤها الجاري قليل وهم أصحاب سوائم وليس لهم بساتين كثيرة. وكره لها بساتين ومياه كثيرة وهي نحو فركرد في الكبر.

«وباذغيس بها من المدن جبل الفضة...

«وكنج رستاق مدينتها بين ولها كيف وبغشور، ومنها أبو منصور البغوي صاحب بريد

نيسابور وأيسر من بخراسان وأكثرهم كتباً وأحسنهم إنشاء، ولكنهم بالعربية وأفصحهم بالفارسية، وهو أخطر من رأيت بخراسان وأكثرهم صامتاً وناطقاً وتجارات وضياعاً وكراعاً وأوثقهم عند سلطانه حكاية. وسلطان هذه الناحية مقيم ببين وهي أكبر هذه المدن.

«وأما الغور فإنها دار كفر وإنما تذكر في الإسلام لأن بها مسلمين، وهي جبال عامرة ذات عيون وبساتين وأنهار وهي حصينة منيعة وفي أوائلهم مما يلي المسلمين قوم يظهرون الإسلام وليسوا بمسلمين... وجميع البلاد المطيفة به للمسلمين من جميع النواحي وليس في جميع بلدان الإسلام ناحية كفر يشتمل على أقطارها وحدودها المسلمون غير الغور، وهم في وسطهم. وأكثر رقيق الغور يقع إلى هراة وسجستان ونواحيها. وتمتد جبال الغور في حدود خراسان وظاهر الباميان إلى البنجهير حتى تدخل بلاد الترك على حدود الشاش إلى خرجيز، وهذا الجبل من أوله إلى آخره معادن للفضة والذهب وأغزر معادنه ما قرب من خرخيز ومر على نواحي فرغانه واشروسنه، ولو عمل لزاد على ما بالبنجهير.

«وأما سرخس فمدينة بين نيسابور ومرو وهي في أرض سهلة، وليس بها ماء جار إلا نهر يخرج إليهم فضله في بعض السنة ولا يدوم ماؤه، وهو فضل مياه هراة وزروع سرخس بخوس وهي مدينة تكون نحو نصف مرو عامرة صحيحة التربة، والغالب بعد الزرع على نواحيها المراعي وهي قليلة القرى ومعظم أملاكهم الجمال والأغنام وهي مطرح لحمولات ما وراء النهر، ومدن خراسان وماؤهم من آبار وأرحيتهم على الدواب وليس بها طواحين الماء وجميع أبنيتهم من طين. ونسا مدينة خصبة كثيرة المياه والبساتين وهي في الكبر نحو سرخس ومياهم جارية في دورهم وسككهم وهي نزهة ولها رساتيق واسعة خصبة، وهي في إضعاف جبال. وفراوه مدينة ثغر في وجه البرية على الغزية وهي منقطعة عن القرى وفيها منبر ويقيم بها المرابطون، وهم عدد يسير إلا أنهم يرجعون إلى عدة وافرة وينتابهم الناس للرباط عنهم، وليس لهم قرية ولا يتصل بهم عمارة ولهم عين ماء يجري ومنها شربهم وممرها في وسط القرية، وليس لهم بساتين ولا زرع ولا مباقل ويكونون دون ألف رجل ذي بأس.

«وبلخ مدينة يتصل بعملها طخيرستان والختل وبنجهير وبذخشان وأعمال الباميان وما يتصل بها....

«وأما بلخ فمدينة جليلة مثل مرو وهراة، وهي في مستواة وبينها وبين أقرب الجبال إليها نحو أربعة فراسخ، وهي يريضها نحو فرسخ في مثله. وبناؤها الطين ولها أبواب فأشهرها: باب النوبهار وباب بختى، وعليها سور يشرع منه هذه الأبواب. وربضها حسن آخذ من شرقها وجنوبها وغربها وقد حف بها. ومسجد جامعها فالمدينة في وسطها وأسواقها تحف بمسجد جامعها وهو مسجد معمور بالناس على مر الأوقات وتعاقب الأيام والساعات. ولها نهر يدير عشر أرحية ماراً على باب النوبهار ويسقي رساتيقها وتحتف بأبوابها كلها البساتين والكروم. وسور المدينة من طين وهي مدينة قديمة أزلية تجمع جميع التجارات وتقصد بالأمتعة من سائر الجهات، وفي أهلها علم ويغلب عليهم الأدب ودقة النظر في الفقه والعلوم الغامضة وقد

خرجت غير رئيس وعرف من أهلها غير نفيس.

«وليس للباميان حصار وهي على جبل ويجري بين مدنها نهر كبير ويقع إلى غرجستان، وفواكههم تجلب إليهم وليس لهم بساتين وتنقل الثمار من أرسف وغيرها. وليس بنواحي الباميان مدينة على جبل سواها وجميعها ذوات أنهار وأشجار وثمار إلا غرنه فإنه أيضاً لا بساتين بها ولا نهر. وليس بهذه النواحي والمدن التي هي في نواحي بلخ أكثر مالاً وتجارة من غزنه لأنها فرضة الهند، وإن كانت قد تغيرت في سنة خمس وخمسين... ومدينة كابل لها قهندز موصوف بالتحصن والمنعة وإليه طريق واحد وفيها المسلمون ولهم ربض فيه الكفار واليهود... وهي أيضاً فرضة للهند وطريقها سابل إلى كل جهة لهم ويباع بها من النيل في كل حول مما يعمل بقصبتها وسوادها دون الباقي منه بأيدي التجار على ما يذكره تجارهم بألفي ألف دينار وزائد. والذي شاهدت دون ذلك لأسباب جرت من الفتن بدخول الجيش مع الحاجب إليهم، والخلاف بينه وبين الملوك المجاورين لها ومطالبتهم بما بعد عهد سلفهم به من الضرائب القديمة والكلف السالفة، وجباية الأموال الجسيمة كالجزية عن رؤوسهم والأخرجة من بلادهم. ويرتفع من كابل ثياب من القطن حسنة يعمل منها السبنيات الفاخرة والشرابيات المثمنة وتخرج إلى خراسان وتدخل إلى الصين وتنبث بالسند وأعمالها، وبها معادن حديد كثيرة. وكابل جروم ولا نخيل بها ويقع في بعض نواحيها ثلج.

«ويرتفع من بلخ وأعمالها في نفسها النوق المتقدمة على سائر ما في جنسها لصحة مراعيها وخلوص نتاجها والبخاتي التي بها فتختار، غير أن بخت سمرقند أصلب وأشد وأبدن من نوق بلخ ولا نظير لها في جميع الأرض. وبها الأترج الحسن الفائق الكباب والنينوفر وقصب السكر وما لا يكون إلا بالبلدان الحارة الجرومية غير أنه لا نخيل لها. وبها من أنواع النواوير الحسنة المختلفة الأشكال الطيبة الأرائيج والأصباغ ما ليس بكثير من الأماكن كهو ويقع بها وفي نواحيها الثلوج العظيمة وهي من أكابر بلاد الصرود ويجمد بها الماء.

«وأكثر السوائم بخراسان من الإبل بناحية سرخس وبلخ، وأما الغنم فأكثرها ما يجلب إليهم من بلاد الغزية ومن الغور والخليج. وبخراسان من الدواب والرقيق والأطعمة والملبوس مما يحتاج إليه ما يسعهم ينقل إلى سائر الأقطار عنهم. وأما الدواب فأنفسها ما يقع من نواحي بلخ، وأنفس الرقيق ما يقع من بلاد الترك ولا نظير لرقيق الترك في جميع رقيق الأرض، ولا يدانيه في القيمة والحسن، غير غلام رأيته قد بيع بخراسان بثلاثة آلاف دينار، وتبلغ عندهم الجارية التركية ثلاثة آلاف دينار. ولم أر بجميع أقطار الأرض من الرقيق ما بلغ هذه القيمة من غلام ولا جارية رومية ولا مولدة، ولا سمع في خبر ولا أثر إلا ما كان معه آلة السماع مع الحذق البارع والأداء الصحيح، ومن هذا الجنس كثير في دور آل سامان وعند الجلة والقواد من أهل خراسان. وأنفس ثياب القطن والأبريسم ما يرتفع من نيسابور ومرو. وأخيراً لحمان الغنم وألذه ما يجلب من بلاد الغزية، وأعذب المياه عندي وأخفها ماء جيحون وذلك أن البرد يسرع إليه والحم في أقرب وقت من الزمان. وأيسر أهل خراسان أهل نيسابور،

وأنجب بلدان خراسان أهل بلخ ومرو في الفقه والدين والنظر والكلام، وأزكى أراضي خراسان سقي نيسابور والأعذاء ما بين هراة ومرو الروذ. وليس بخراسان جروم إلا ما كان بناحية قوهستان فيما يلي فارس وكرمان وأشدها برداً وثلوجاً نواحي الباميان».

٨ ـ ما وراء النهر في عصر الفارابي

الجزء الذي أطلقنا عليه، متبعين في ذلك بعض الجغرافيين البلدانيين، ما وراء النهر من المنطقة التي نعنى بدرسها، يشمل: نهر جيحون وما عليه وخوارزم والصغد (السغد) وأقاليم نهر سيحون.

وحدود ما وراء النهر وميزات الإقليم فقد ذكرها الأصطخري بقوله:

«وأما ما وراء النهر[٢٣] فيحيط به من شرقيه: فأمر وراشت، وما يتاخم الختل من أرض الهند على خط مستقيم، وغربيه بلاد الغزية والخرلخية من حد طراز، ممتداً على التقويس حتى ينتهي إلى فاراب ويسكند وسغد سمرقند ونواحي بخارى إلى خوارزم، حتى ينتهي إلى بحيرتها [بحيرة أرال]، وشماليه الترك الخرلخية من أقصى بلد فرغانة إلى الطراز على خط مستقيم، وجنوبيه نهر جيحون من لدن بذخشان إلى بحيرة خوارزم على خط مستقيم، وجعلنا خوارزم والختل في ما وراء النهر لأن الختل بين نهر جرياب ووخشاب، وعمود جيحون جرياب، وما دونه من وراء النهر. وخوارزم مدينتها وراء النهر، وهي إلى مدن ما وراء النهر أقرب منها إلى مدن خراسان.

«وما وراء النهر من أخصب أقاليم الإسلام وأنزهها وأكثرها خيراً، وأهلها يرجعون إلى رغبة في الخير، واستجابة لمن دعاهم إليه، مع قلة غائلة وسلامة ناحية، وسماحة بما ملكت أيديهم، مع شدة شوكة ومنعة وبأس وعدة وآلة وكراع وسلاح. فأما الخصب بها فإنه ليس من إقليم ذكرناه إلا بقحط أهله مراراً قبل أن يقحط ما وراء النهر، ثم أن أصيبوا ببرد أو جراد أو آفة تأتي على زروعهم ففي فضل ما يسلم في عرض بلادهم ما يقوم بأودهم، حتى يستغنوا عن نقل شيء إليهم من غير بلادهم. وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مدن أو قرى أو مباخس أو مراع لسائمة، وليس شيء لا بد للناس منه ما يقيم أودهم ويفضل عنهم لغيرهم، فأما أطعمتهم فمن السعة والكثرة على ما ذكرناه، وأما مياههم فإنها أعذب المياه وأخفها، وقد عمت المياه العذبة جبالها وضواحيها ومدنها، وأما الدواب ففيها من النتاج ما فيه كفاية لهم مع كثرة ارتباطهم لها، وكذلك البغال والحمير والإبل، وأما لحومهم فإن بها من النتاج ما يجلبونه ومن الغزية والخرلخية، وما يتصل بهم من حواليها ما يفضل عن كفايتهم، أما الملبوس ففيها من ثياب القطن ما يفضل عنهم، حتى ينقل عنهم إلى الآفاق ولهم الفراء والصوف والأوبار، وببلادهم من معادن الحديد ما يفضل عن حاجتهم في الأسلحة والأدوات، وبها معدن الفضة والذهب والزيبق، الذي لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدن في سائر بلدان الإسلام إلا بنجهير في الفضة. وأماالزيبق والذهب وسائر ما يكون في المعادن فأغزرها ما

يرتفع مما وراء النهر، وليس في شيء من بلدان الإسلام النوشاذر والكاغد إلا في ما وراء النهر، أما فواكههم فإنك إذا تبطنت السغد واشروسنة وفرغانة والشاش رأيت من كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق، حتى يرعاها لكثرتها دوابهم، وأما الرقيق فإنه يقع إليه من الأتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم، وينقل إلى الآفاق من بلادهم، وهو خير رقيق يحيط بالمشرق كله، وبها من المسك الذي يجلب إليهم من تبت وخرخيز ما ينقل إلى سائر الأمصار منها، ويرتفع من الصغانيان إلى واشجرد من الزعفران ما ينتقل إلى الآفاق، وكذلك الأوبار من السمور والسنجاب والثعالب وغيرها، مما يحمل إلى أقصى الغرب، مع طرائف من الخدنك والخنو والبزاة، وغير ذلك مما يحتاج إليه الملوك... وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير إلا القليل منهم. وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة إلا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه. وبلغني أن بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط، في كثير منها إذا نزل النازل أقيم علف دابته وطعام نفسه إن احتاج إلى ذلك، وقل ما رأيت خاناً أو طرف سكة أو محلة أو مجمع ناس في الحائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبل. ولقد أخبرني من يرجع إلى خبره أن بسمرقند في المدينة وحائطها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على ألفي مكان، يسقى فيها ماء الجمد مسبلاً، من بين سقاية مبنية وجباب منصوبة. وأما بأسهم وشوكتهم فإنه ليس في الإسلام ناحية أكبر حظاً في الجهاد منهم، وذلك أن جميع حدود ما وراء النهر إلى دار الحرب.

«أما من خوارزم إلى ناحية أسبيجاب فهم الترك الغزية، ومن أسبيجاب إلى أقصى فرغانة الترك الخرلخية، ثم يطوف بحدود ما وراء النهر من السندية وبلد الهند من ظهر الختل إلى حد الترك في ظهر فرغابه. فهم القاهرون لأهل هذه النواحي، ومستفيض أنه ليس في الإسلام دار حرب هم أشد شوكة من الترك. فهم ثغر المسلمين في وجه الترك، يمنعونهم من دار الإسلام، وجميع ما وراء النهر ثغر، يبلغهم نفير العدو. ولقد أخبرني من كان مع نصر بن أحمد رحمه الله في غزاة شاوغر، أنهم كانوا يحزرون ثلاثمائة ألف... وبلغني أن بالشاش وفرغانة من الاستعداد ما لا يوصف مثله عن ثغر من الثغور، وهم على بعد دارهم أول سابق إلى الحج، لا يدخل البادية قبلهم أحد، ولا يخرج منهم بعدهم أحد «... حتى دعا ذلك الخلفاء إلى أن استدعوا مما وراء النهر رجالاً. وكانت الأتراك جيوشهم، لفضلهم على سائر الأجناس في البأس والجرأة والشجاعة والاقدام، ودهاقين ما وراء النهر قوادهم وحاشيتهم وخواص خدمهم... فصاروا حاشية الخلافة وثقاتهم ورؤساء عساكرهم، مثل الفراغنة والأتراك الذين هم شحنة دار الخلافة، والأتراك الذين كانوا لبأسهم ونجدتهم غلبوا على الخلافة مثل الأفشين وآل أبى الساج ـ من أشروسنة، والأخشيذ من سمرقند، والمرزبان بن تركسفي وعجيف بن عنبسة من السغد، والبخارا خذاه وغيرهم من أمراء الحضرة وقوادها وجيوشها، والملوك على هذا الإقليم وعلى سائر خراسان آل سامان، وهم من أولاد بهرام جوبين الذي

سار ذكره في العجم بالبأس والنجدة. فلمثل هذه الأسباب ليس في الإسلام ملك أمنع جانباً ولا أوفر عدة ولا أكمل أسباباً للملك منهم، لأنه ليس في الإسلام جيش إلا وهم شذاذ القبائل والبلدان والأطراف، إذا تفرقوا في هزيمة وتمزقوا في حادثة لم يلتق منهم جمع بعد غير جيش هؤلاء الملوك، فإن جيوشهم الأتراك المملوكون.

«وأما نزاهة ما وراء النهر فإني لم أر ـ ولا بلغني في الإسلام ـ بلداً أحسن خارجاً من بخارى، لأنك إذا علوت قلعتها لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على خضرة، تتصل خضرتها بلون السماء، فكأن السماء بها مكبة خضراء مكبوبة على بساط أخضر، تلوح القصور فيما بينها كالنوائر فيها، وأراضي ضياعهم مقومة بالاستواء كأنها المرآة، وليس بما وراء النهر وخراسان بلد أحسن قياماً بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى، ولا أكثر عدداً على قدرها في المساحة منهم، وذلك مخصوص بهذه البلدة. ويحيط ببخارى وقراها ومزارعها سور قطره عشرة فراسخ في مثلها كلها عامرة. وأما سغد سمرقند فإنها من حد بخارى على وادي السغد يميناً وشمالاً تتصل إلى حد اليتم ولا تنقطع. ومقدارها في المسافة ثمانية أيام، مشتبكة الخضرة والبساتين، فهي ميادين وبساتين ورياض مشتبكة، وقد حفت بالأنهار الدائم جريها، والحياض في صدور رياضها وميادينها، مخضرة الأشجار والزروع، ممتدة على جانبي واديها. ومن وراء الخضرة من جانبيها مزارع تحرسها، ومن وراء هذه المزارع مراعي سوائمها. والقلعة من كل مدينة وقرية بها تبص في أضعاف خضرتها، كأنها ثوب ديباج أخضر، قد سيرت بمجاري مياهها، وزينت بتبصيص قصورها. وهي أزكى بلاد الله وأحسنها أشجاراً وثماراً، وفي عامة مساكنهم البساتين والحياض والمياه الجارية، قل ما تخلو سكة أو دار من نهر جار. وبفرغانة والشاش وأشروسنة وسائر ما وراء النهر من الأشجار الملتفة والثمار الكثيرة والرياض المتصلة ما لا يوجد مثله في سائر الأمصار. وبفرغانة ـ في الجبال الممتدة بينها وبين بلاد الترك ـ من الأعناب والجوز والتفاح وسائر الفواكه مع الورد والبنفسج وأنواع من الرياحين، كل ذلك مباح لا مالك له ولا مانع دونه، وكذلك في جبالها ما وراء النهر من الفستق المباح ما ليس في بلد غيره. وباشروسنة ورد يتصل إلى آخر الخريف».

وقد قسم الجغرافيون كلاً من الأقاليم الرئيسة كوراً ونواحي (على اختلاف فيما بينهم في تصنيف الكور والنواحي). ونهر جيحون، وما عليه، هو أول ما يصادف الذاهب من خراسان إلى أواسط آسيا، وقد أشار إليه كثير من الجغرافيين على أنه حد بين توران (أي الأتراك) وإيران (أي الفرس)[٢٤]. ونهر جيحون فإن عموده هو نهر جرياب إلا أنه تجتمع إليه أنهار كثيرة من بلاد الختل والوخش فيصير بذلك نهراً عظيماً[٢٥]. وينتهي إلى خوارزم وبحيرتها.

«ولا ينتفع بماء هذا الوادي[٢٦] بالختل والترمذ إلى ناحية زم أحد، فتعمر به زم وآمل وفربر، ثم ينتهي إلى خوارزم فيعمر خوارزم، وعامة نفعه لأهل خوارزم، فأول كورة على جيحون مما وراء النهر: الختل والوخش، وهما كورتان غير أنهما مجموعتان في عمل واحد، وهما ما بين نهر جرياب ووخشاب، فمن مدن الختل: هلبك ومنك وتمليات وفارغر وكاربنج واندجاراغ

ورستاق بنك، ومدن الوخش: هلاورد ولاوكند، ومقام السلطان بهلبك، ومنك وهلاورد هما أكبر من هلبك، غير أن مقام السلطان بهلبك. والذي يتاخم الوخش والختل ووخان والسندية وكران، وهي دور كفر يقع منها المسك والرقيق. وبوخان معادن من الفضة غزيرة، وفي أودية الختل ذهب يجمع في السيول من بلاد وخان، وبين وخان وتبت قريب، وأرض الختل ذات زروع كثيرة ومياه وثمار، وهي على غاية الخصب والسعة، وبها دواب ومواش كثيرة».

وقد رأينا أن ننقل، ببعض الإيجاز، ما قاله الاصطخري عن ما وراء النهر(٢٧).

«فإذا جزت الختل والوخش إلى نواحي واشجرد والقواذيان والترمذ والصغانيان وما في أضعافها فإنها كور مفردة بالأعمال، وأما الترمذ فإنها مدينة على وادي جيحون لها قهندز ومدينة وربض، ويحيط بالربض أيضاً سور، ودار الإمارة في القهندز، والحبس خارج القهندز في المدينة في السوق، والمسجد الجامع في المدينة، والمصلى داخل السور في الربض، وأسواقها في مدينتها. وابنيتها طين، ومعظم سككها وأسواقها مفروشة بالآجر، وهي عامرة آهلة، وفرضة تلك النواحي على جيحون، وأقرب الجبال إليها على نحو مرحلة، وماؤهم للشرب من جيحون ونهر يجري من الصغانيان، وليس لضياعهم من جيحون شرب، وشرب ضياعهم من نهر الصغانيان، ولها من المدى صرمنجن وهاشم جرد، والقواذيان مدينة لها كورة، وهي أصغر من الترمذ، ولها من المدن نودز، والواشجرد نحو الترمذ في الكبر، وشومان، أصغر منها، ويرتفع من واشجرد وشومان إلى قرب الصغانيان زعفران كثير، يحمل إلى الآفاق ويرتفع من القواذيان الفوة، والصغانيان مدينة أكبر من ترمذ، إلا أن الترمذ أكثر أهلاً ومالاً، وللصغانيان قلعة. وأما أخسيسك فهي بحذاء زم، وزم في أرض خراسان إلا أنهما مجموعتان في العمل، والمنبر بالزم، وهي مدينة خصبة صغيرة، والغالب على أطرافها السوائم من الإبل والغنم، وعلى ظهر كل واحدة منهما مفاوز وآبار ومراع. وأما فربر فهي مدينة من بخارى، وقد وصفناها في جملة بخارى.

«وأما خوارزم فإنه اسم الإقليم، وهو إقليم منقطع عن خراسان وعما وراء النهر، وتحيط به المفاوز من كل جانب، وحدها متصل بحد الغزية فيما يلي الشمال والمغرب، وجنوبيه وشرقيه خراسان وما وراء النهر. وهي في آخر نهر جيحون، وليس بعدها على النهر عمارة إلى أن يقع في بحيرة خوارزم، وهي على جانبي جيحون، ومدينتها في الجانب الشمالي من جيحون، ولها في الجانب الجنوبي مدينة كبيرة تسمى الجرجانية، وهي أكبر مدينة بخوارزم بعد قصبتها. وهي متجر الغزية، ومنها تخرج القوافل إلى جرجان والخزر وإلى خراسان.

«فأما قصبتها فإنها تسمى بالخوارزمية كاث، ولها قلعة ليست بعامرة، وكانت لها مدينة فخربها النهر، وبنى الناس من وراء المدينة، وقد قارب النهر القلعة ويخاف على تهدمها، والمسجد الجامع على ظهر القلعة، ودار خوارزم شاهد عند المسجد الجامع، والحبس عند القلعة. وفي وسط المدينة نهر جردور يشق المدينة، والسوق على جانبي هذا النهر، وطولها نحو ثلث فرسخ في نحوه. وأما أبوابها فقد تهدم بعض المدينة وذهب أبواب ما تهدم منها،

والباقي قد بنى خلف ما تهدم على الوادي. وأول حد خوارزم يسمى الطاهرية مما يلي آمل، فتمتد هذه العمارة في جنوبي جيحون؛ وليس في شماليه عمارة، إلى أن ينتهي إلى قرية تسمى غارابخشنه، ثم يكون من غارابخشنه بستة فراسخ نهر يأخذ من جيحون، فيه عمارة الرستاق إلى المدينة... عرضه نحو خمسة أنوا [لعلها أبواع]، وعمقه نحو قامتين فيحمل السفن، ويتشعب منه بعد أن يجري خمسة فراسخ نهر يعمر به بعض الرساتيق، وليس للعمارة على شط جيحون من الطاهرية إلى هزاراسب كبير عرض. يعرض بهزاراسب فيصير عرضه نحواً من مرحلة إلى مقابل المدينة، ثم لا يزال يضيق حتى يصير بالجرجانية نحو فرسخين... وبعده نهر خيو.

«وخوارزم مدينة خصبة كثيرة الطعام والفواكه، إلا أنها لا جوز بها، ويرتفع منها من ثياب القطن والصوف أمتعة كثيرة تنقل إلى الآفاق، وفي خواص أهلها يسار وقيام على أنفسهم بالمروة الظاهرة، وهم أكثر أهل [المنطقة] انتشاراً وسفراً، فليس بخراسان مدينة كبيرة إلا وبها من أهل خوارزم جمع كبير، ولسانهم لسان مفرد، وليس بخراسان بلد على لسانهم، وزيهم القراطق والقلانس، وخلقهم لا يخفى فيما بين أهل خراسان، ولهم بأس على الغزية ومنعة، وليس ببلدهم معادن ذهب ولا فضة ولا شيء من جواهر الأرض، وعامة يسارهم من متاجرة الترك واقتناء المواشي، ويقع إليهم أكثر رقيق الصقالبة والخزر والاها مع رقيق الأتراك، والأوبار من الفنك والسمور والثعالب والخز وغير ذلك من أصناف الوبر.

«فهذا ما على جيحون من الكور، فنبدأ مما وراء النهر في كورة بخارى، لأنها أول الكور وبها دار إمارة خراسان، وهي مستقيمة على ترصيف كورما وراء النهر. أما بخارى واسمها نومجكت، فهي مدينة في مستوى، وبناؤها خشب مشتبك، ويحيط ببنائها قصور وبساتين وسكك وقرى تكون اثني عشر فرسخاً في مثلها. ويحيط بجميع ذلك سور يجمع هذه القصور والأبنية والقرى والقصبة، فلا يرى في أضعاف ذلك كله مفازة ولا خراب. ومن دون هذا السور ـ على قصبة المدينة وما يتصل بها من القصور والمساكن والمحال والبساتين التي تعد من القصبة، ويسكنها من يكون في جملة القصبة شتاء وصيفاً ـ سور آخر قطره نحو فرسخ في مثله، ولها مدينة داخل هذا السور، يحيط بها سور حصين، ولها قهندز خارج المدينة يتصل بها مقدار مدينة صغيرة، وفيه قلعة أخرى، ومسكن ولاة خراسان من آل سامان في هذا القهندز. ولها ربض، والمسجد الجامع على باب القهندز في المدينة، وحبسها في القلعة، وأسواقها في ربضها. وليس بخراسان وما وراء النهر مدينة أشد اشتباكاً من بخارى، ولا أكثر أهلاً على قدرها، ولهم في الربض نهر السغد يشق الربض وأسواقها، وهو آخر نهر السغد، فيفضي إلى طواحين وضياع ومزارع، ويسقط فاضله في مجمع ماء يجاور بيكند إلى قرب فربر يعرف بسام خواش، وأما المدينة فلها سبعة أبواب حديد... ومياههم من النهر الأعظم، وينشعب من هذا النهر في المدينة أنهار للشرب والري.

«وأما رساتيق بخارى فمنها الذر وفرغيدد وسخر ورستاق الطواويس وبورق خرغانة

السفلى... فهذه الرساتيق داخل الحائط، وخارج الحائط جزه وشابخش ويسير رستاق - وغيرها .... ويتشعب من عمود نهر السغد في حد بخارى خارجاً عن القصبة من الحائط الخارج بناحية الطواويس إلى أن ينتهي إلى باب المدينة أنهار كثيرة، تتفرق في القرى والمزارع في الحائط، وعليها عمارة قرى بخارى... وما فضل من ماء نهر السغد فإنه يجري في نهر يعرف بالذر، وهو النهر الذي يشق ريض بخارى، ومنه أنهار المدينة، وأكثر هذه الأنهار تحمل السفن كبراً وغزارة، وكلها تأخذ من النهر داخل حائط بخارى من حد الطواويس إلى أن تنتهي إلى المدينة... وأبنية قرى البخارى كلها على اشتباك البناء والتقدير في المساكن وارتفاع أراضي الأبنية، وهي محصّنة بالقلاع بالأبنية المجموعة، وليس في داخل هذا الحائط جبل ولا مفازة، وأقرب الجبال إليها جبل وركه، ومنه حجارة بلدهم للفرش والأبنية، ومنه طين الأواني والنورة والجص، ولهم خارج الحائط ملاحات، ومحتطبهم من بساتينهم وما يحمل إليهم من المفاوز من الغضا والطرفاء. وأراضي بخارى كلها قريبة إلى الماء لأنها مفيض ماء السغد، ولذلك لا تنبت الأشجار العالية فيها مثل الجوز والدلب والحور وما أشبهه، فإذا كان منه شجر فهو قصير غير نام. وفواكه بخارى أصح فواكه ما وراء النهر وألذها طعماً، ومن عمارة بخارى أن الرجل ربما قام على الجريب الواحد من الأرض فيكون منه معاشه، ومن كثرة عددهم أن ما يرتفع من بلادهم يقصر عن كفايتهم، لوفور عددهم وتضاعفهم على ما يخرج من أراضيهم، فيحمل إليهم المير من الطعام وسائر ما يحتاجون إليه من سائر ما وراء النهر.

«ولبخارى مدن داخل حائطها وخارجاً عنه، فأما داخل حائطها فالطواويس، وهي أكبر منبر بعد القصبة، وثومجكث وزندنه ومغكان وخجادة، وخارج الحائط بيكند وفرير وكرمينيه وخديمنكن وخرغانكت ومذيامجكث. فأما الطواويس فإنها مدينة لها سوق، ومجمع عظيم ينتابه الناس من أقطار ما وراء النهر في وقت معلوم من السنة، ويرتفع منها من الثياب القطن ما ينقل إلى سائر المواضع، وهي مدينة كثيرة البساتين والماء الجاري خصبة. ولها قهندز ومدينة ومسجد جامعها في المدينة، وأما المدن التي داخل الحائط فهي متقاربة في الكبر والعمارة، ولكل منها حصن، وأما كرمينية فهي أكبر من الطواويس وأعمر وأكثر عدداً وأخصب، وخديمنكن من كرمينية، وبحذائها خرغانكث ومذيامجكث، وهي متقاربة من الكبر والعمارة، ولكرمينية قرى كثيرة، وكذلك لكل منبر قرى ومزارع، إلا بيكند فإنها وحدها، غير أن بها من الرباطات ما لا أعلم في بلدان ما وراء النهر أكثر عدداً منها، وبلغني أن عددها نحو من ألف رباط، ولها سور حصين ومسجد جامع تؤنق في بنائه وزخرف محرابه، فليس بما وراء النهر محراب أحسن زخرفاً منه، وفرير مدينة قريبة من جيحون، ولها قرى وهي عامرة خصبة.

«وأما لسان بخارى فإنه لسان السغد إلا أنه يحرف بعضه، ولهم لسان الدرية، وأهلها يرجعون من الأدب إلى ما يفضلون به ما وراء النهر. ونقودهم الدرهم ولا يتعاملون بالدينار فيما بينهم... ولهم داخل الحائط وخارجه أسواق متصلة معلومة في أوقات من الشهر دارة، يجرى فيها من الشراء والبيع للثياب والرقيق والمواشي وغير ذلك مما يتسع به أهلها. ويرتفع

من بخارى ونواحيها من ثياب القطن ما ينقل إلى الآفاق وكذلك البسط والمصليات وثياب من الصوف تستحسن. ويتحدث أهل بخارى أن من بركة القلعة أنه لم تخرج منها جنازة وال قط، وما عقدت فيها راية خرجت فهزمت، وهذا من الاتفاق العجيب إن صح، ويقال إن أصل أهل بخارى في قديم الأيام ناقلة اصطخر، وسكن ولاة خراسان من السامانية مدينة بخارى، لأنها أقرب مدن ما وراء النهر إلى خراسان، فمن كان بها فخراسان أمامه وما وراء النهر وراءه، ولهم من حسن الطاعة وقلة الخلاف على الولاة ما يؤدي إلى اختيار المقام بينهم على سائر ما وراء النهر. وأول ولاة خراسان من آل سامان إسماعيل بن أحمد، جاءته ولاية خراسان وهو ببخارى فاستدام المقام بها، فبقيت الولاية بها في أولاده، وقد كان ولاة ما وراء النهر يقيمون قبل ذلك إما بسمرقند وإما بالشاش وفرغانة في وجوه الترك، وكان عمل ولاة بخارى يحزر مفرداً من خراسان إلى أن زالت أيام آل طاهر.

«ويتصل ببخارى من شرقيها السغد، وأولها إذا جزت كرمينية الدبوسية ثم ربنجن والكشانية واشتيخن وسمرقند، وكل هذا قلب السغد، وقصبة السغد سمرقند، وهي مدينة على جنوبي وادي السغد، مرتفعة علية، ولها قهندز ومدينة وربض، فأما القهندز ففيه الحبس ودار الإمارة عامران. وأما المدينة فلها سور وأربعة أبواب... ولها أسواق ومساكن وماء جار يدخل إليها في نهر من رصاص، وهو نهر قد بنيت له مسناة عالية من حجارة، يجري عليها الماء من الصفارين حتى يدخل من باب كش، ووجه هذا النهر رصاص كله، وذلك أن حوالى المدينة خندقاً قد تسفل، لأنه استعمل طينه في سور المدينة، فبقي حواليها خندق عظيم، فاحتيج إلى مسناة في هذا الخندق يجري الماء عليها إلى المدينة، وهو نهر جاهلي في وسط السوق بموضع يعرف برأس الطاق، وهو أعمر موضع بسمرقند. وعلى جنبات هذا النهر غلال موقوفة على مرمات هذا النهر، وعليه حفظة من المجوس عليهم حفظه شتاء وصيفاً. والمسجد الجامع في المدينة بينه وبين القهندز عرض الطريق، وفي المدينة مياه من هذا النهر وبساتين، وفيها دار الإمارة لآل سامان غير دار الإمارة بالقهندز والمدينة من الربض على جانبه، قريب من وادي السغد الذي هو بين الربض والمدينة، وذلك أن سور الربض ممتد من وراء وادي السغد، والوادي للربض كالخندق مما يلي الشمال، ويكون قطر السور المحيط بربض سمرقند فرسخين. غير أن الربض شر به ومجمع أسواقه رأس الطاق، ثم تتصل به الأسواق والسكك والمحال، وفي تضاعيف ذلك قصور وبساتين، فليس من سكة ولا دار إلا وفيها ماء جار إلا القليل، وقل دار تخلو من بستان. حتى إنك إذا صعدت أعلى قهندزها لم تبد المدينة للنظر، لاستتارها بالبساتين والأشجار، وأكثر الأسواق والتجارات في الربض إلا شيئاً يسيراً في المدينة. وهي فرضة ما وراء النهر ومجمع التجار، ومعظم جهاز ما وراء النهر يقع بسمرقند، ثم يتفرق إلى سائر الكور، وكانت دار إمارة ما وراء النهر بها إلى أيام اسماعيل بن أحمد (السامانى) فنقلها إلى بخارى. ولسور ربضها أبواب... وتربة سمرقند من أصح تربة وإيبسها، ولولا كثرة البخارات من المياه الجارية في سككهم ودورهم وكثرة أشجار الخلاف

بينهم لأضر بهم فرط يبسها، وبناؤها طين وخشب. وأهلها يرجعون إلى جمال بارع ورزانة، وهم من الإفراط في إظهار المروة وتكلف القيام على أنفسهم ما يزيدون على سائر بلاد خراسان، حتى يجحف ذلك بأموالهم. وبسمرقند مجمع رقيق ما وراء النهر، وخبر الرقيق بما وراء النهر تربية سمرقند، وبينها وبين أقرب الجبال نحو مرحلة خفيفة، إلا أنه يتصل بها جبل صغير يعرف بكوهك يمتد طرفه إلى سور سمرقند، وهو مقدار نصف ميل في الطول، ومنه أحجار بلدهم، والطين المستعمل في الأواني والنورة والزجاج وغير ذلك، وبلغني أن به ذهباً وفضة غير أنه لا يتسوغ العمل فيه. والبلد كله طرقه ومحاله وسككه إلا قليلاً مفترش بالحجارة، ومياههم من وادي السغد، وهذا الوادي مبدؤه من جبال البتم على ظهر الصغانيان... ومنه تتشعب أنهار سمرقند، ورساتيق تتصل بها من غربي الوادي من جانب سمرقند.

«وأما رساتيق سمرقند فإن أولها بنجيكث ومدينتها بنجيكث... والساودار هو الجبل الذي عن جنوبي سمرقند، وليس بنواحي سمرقند رستاق أصح هواء ولا زرعاً وفواكه منه، وأهلها أصح الناس ألواناً وأبداناً، وطوله زيادة على عشرة فراسخ، وبالساودار عمر للنصارى يعرف بوزكرد، ورستاق الدرغم أزكى هذه الرساتيق في الزروع، ويفضل من أعنابها ما يحمل إلى غيرها من الرساتيق، وأما أبغر فإنها مباخس، غير أن قراها أكثر عدداً من رساتيق سمرقند وأراضيها منجبة، وبلغني أن القفيز البذر يريع بها مائة قفيز وبها مراع كثيرة.

«وأما أشروسنة فاسم الإقليم، كما أن السغد اسم الإقليم، وليس ثمة مدينة بهذا الاسم، والغالب عليها الجبال. حدود أشروسنة: غربيها حدود سمرقند، شماليها الشاش وبعض فرغانة، جنوبيها بعض حدود كش والسغانيان وشومان وواشجرد وراشت، شرقيها بعض فرغانة... ومدينتها التي يسكنها الولاة هي بونجكث، وبناؤها طين وخشب، وهي مدينة داخلها مدينة أخرى على كل منهما سور، وللمدينة الداخلة بابان، ويجري في المدينة الداخلة نهر كبير وعليه فيها رحى، ويشتمل حائطها على دور وبساتين وقصور وكروم، وقطرها نحو فرسخ، وأبوابها أربعة... ولها ستة أنهار، كلها من منبع واحد، هو من المدينة على أقل من نصف فرسخ... وليس بجميع أشروسنة نهر تجري فيه سفينة.

«والبتم جبال شاهقة منيعة، وأكثرها تغلب عليها البرد، وبالبتم حصون منيعة جداً، وفيه معدن الذهب والفضة والزاج والنوشاذر، وهو جبل فيه مثل الغار يبنى عليه بيت ويستوثق من أبوابه وكواه، فيرتفع من الغار بخار يشبه بالنهار الدخان وبالليل النار، فإذا تلبد هذا البخار قلع منه وهو بالنشاذر، ولا يتهيأ لأحد أن يدخله من شدة حره، إلا أن يلبس لبوداً ويدخل بها كالمختلس، وهذا البخار يتنقل من مكان إلى مكان فيحفر عليه حتى يظهر، فإذا انقطع من مكان حفر عليه من مكان آخر فظهر منه. وبالبتم جبال تسمى البتم الأول والأوسط والداخل، وماء سمرقند والسغد ونجارى من البتم الوسطى. ومينك الموضع الذي قاتل فيه قتيبة بن مسلم، وحصار الأفشين هناك.

«وأما الشاش وإيلاق فإن مقدار عرضهما مسيرة يومين في ثلاثة، وهي كثيرة القرى العمارات والمنابر، وهي في أرض سهلة كثيرة المراعي والرياض، وبالشاش وبإيلاق مدن كثيرة ذوات أبواب وأسوار وأرباض وقلاع وأسواق وأنهار تخترق بعض المدن، ومدن الشاش كثيرة... والشاش وإيلاق متصلتان لا فصل بينهما، وبإيلاق معدن ذهب وفضة، وأكبر مدن إيلاق نوكث وتونكت، وليس بما وراء النهر دار ضرب إلا بسمرقند وتونكت. وأما أسبيجاب فمدينة نحو الثلث من تونكت، وفي ربضها بساتين ومياه، وأبنيتها طين وهي في مستوى من الأرض وبينها وبين أقرب الجبال إليها ثلاثة فراسخ. وللمدينة أربعة أبواب فباب منها يعرف نوجكث وباب فرخان وباب سواكراثة وباب بخارى وأسواقها في المدينة الداخلة وهي مدينة على غاية الخصب ولا أعلم بمكان بخراسان كلها وما وراء النهر بلد لا خراج عليه إلا أسبيجاب ومما يقع من المدن في نواحيها بدخكث وسبانيكث والطراز وأطلخ وشلجى وكدر وبيكسند وشاوغر وصبران ووسيج فأما سبانكيث فإنها قصبة كورة كنجيدة وأما كدر فإنها قصبة كورة فاراس ووسيج أيضاً من مدن فاراب، وصيران هي مدينة تجتمع بها الغزية للصلح والتجارات إذا كانوا صلحاً وهي مدينة حصينة وفاراب اسم الناحية ومقدارها في الطول والعرض أقل من يوم إلا أن بها منعة وبأساً وهي ناحية سبخة لها غياض ولهم مزارع في غربي الوادي أخذ من نهر الشاش وبيسكند بها منبر على غربي وادي الشاش وهي مجمع الأتراك وقد أسلموا من أجناس للغزية والخرلخية ولهم بأس ومنعة في الأتراك وبين فاراب وكجنده... أبنية ابتناها نحو من ألف بيت من الأتراك قد أسلموا وهم مقيمون بها في خركاهات لهم، والطراز متجر للمسلمين من الأتراك وحواليها حصون منيعة منسوبة إليها ولم يتجاوزها أحد... لأنك إذا جزتها دخلت في خركاهات الخزلخية فهذا هو حد الشاش ونواحيها وأما خجنده فإنها متاخمة لفرغانة.... في جملة... متاخمة منفردة الأعمال عنها وهي على نهر الشاش في غربيه وطولها أكثر من عرضها وتمتد على فرسخ كلها دور وبساتين وليس في عملها مدينة غير كند وهي بساتين ودور مفترضة ولها قرى يسيرة ومدينة وقهندز وجامعها في المدينة ودار الإمارة في الميدان بالربض والحبس في القهندز وهي مدينة نزهة بها فواكه تحمل إلى سائر النواحي وفي أهلها جمال ولهم مروة وهي بلد يضيق عما يقيمهم من الزروع والجلب إليهم من سائر فرغانة وأشروسنة ما يقيم أودهم تنحدر إليهم السفن في نهر الشاش وهو نهر عظيم من أنهار تجتمع إليه حدود الترك والإسلام وعموده نهر يخرج من بلد الترك في حد أور كند ثم يجتمع إليه نهر خرشاب ونهر أوسن وقبل نهر جدغل وغيرها فتجتمع ويعظم فيمتد على أخسيكث ثم على بناكث فيجري إلى فاراب فإذا جلوز حد صبران جرى في برية يكون على جانبه الأتراك القرية الحديثة على فرسخ منها ثم يقع في بحيرة خوارزم على مرحلتين من القرية الحديثة وهذا نهر إذا امتد يكون نحواً من الثلثين من جيحون وتحمل فيه المير إلى القرية الحديثة إذا كانوا صلحاً والقرية الحديثة فيها مسلمون غير أنها دار المملكة للغزية ويقيم بها في الشتاء ملك الغزية وبقربها جند وخواره وفيهما قوم مسلمون غير أن السلطان

بها للغزية وأكبر هذه الثلاثة مواضع الحديثة وهي من خوارزم على عشر مراحل ومن فاراب على عشرين مرحلة.

«وفرغانة اسم الإقليم عمل موضوع على سعة مدنها وقراها وقصبتها أخسيكث وهي مدينة على شط نهر الشاش على أرض مستوية بينها وبين الجبال نحو فرسخ وهي على شمالي النهر ولها قهندز ولمدينتها ربض ودار الإمارة والحبس في القهندز والجامع خارج من القهندز ومصلى العيد على شط نهر الشاش وأسواقها في مدينتها وربضها وأكبر الأسواق بالمدينة ومقدارها في الكبر نحو ثلث فرسخ وبناؤها طين وعلى ربضها سور وللمدينة الداخلة خمسة أبواب... وفي ربضها مياه جارية وحياض كثيرة وكل باب من أبواب ربضها يفضي إلى بساتين ملتفة وأنهار جارية لا تنقطع مقدار فرسخين ويلي أخسيكث في الكبر قبا وهي مدينة من أنزه تلك المدن وهي تقارب أخسيكث في الكبر ولها قهندز ومدينة وربض إلا أن القهندز خراب والمسجد الجامع في القهندز وأسواقها في ربضها ودار الإمارة والحبس في الربض وعلى الربض سور محيط ولها بساتين كثيرة ومياه جارية تزيد على بساتين أخسيكث ومياهها. ويلي قبا في الكبر أوش وهي تقارب قبا في الكبر ولها مدينة عامرة وقهندز عامر ودار الإمارة والحبس في القهندز وللمدينة ربض وعلى الربض سور وهي ملاصقة للجبل الذي عليه مرقب الأحراس على الترك ولها ثلاثة أبواب وأوزكند آخر مدن فرغانة مما يلي دار الحرب».

٩ ـ الأتراك والعالم الإسلامي إلى عصر الفارابي

مع أن نهر جيحون كان يعتبر الحد الفاصل بين طوران (توران) وإيران ـ شعوباً ولغات، فالواقع هو أن الشعوب التركية وشعوب إيران كانت، منذ أقدم الأزمنة، على اتصال. وقد يكون الاتصال هجوماً من الرعاة الأتراك على الأجزاء الزراعية، وقد ينتهي باستقرار القادمين وتبلدهم، وقد يكون الاتصال سلمياً، قوامه التجارة وتبادل المنافع، وهو الأكثر استمراراً. ومعنى هذا أنه لم يقم في وقت من الأوقات خط أوحد فاصل ثابت بين الفريقين. وهذا الوضع ينطبق على شرق خراسان بخاصة بسبب جوارها لما وراء النهر أولاً، ولأن الأرض أيسر اجتيازاً في أودية معينة ودروب معروفة. وكان تبادل السكان بين المنطقتين وما وراءهما أمراً مألوفاً.

فمن السلع التي كانت المناطق المتحضرة الزراعية تصدرها إلى بدو الشمال ـ أي تركستان ـ الطحين والقمح والشعير والسكر والأفاويه والأسلحة والأقمشة. أما البدو أنفسهم فقد كانوا يسوقون قطعانهم ومواشيهم إلى المدن القريبة من الحدود ليبيعوها لأهل هذه المدن. فكان هؤلاء يحصلون على حاجتهم من الخيول والأغنام والحمير والبغال من الغز والخرلخية مثلاً. وكان هؤلاء البدو يقومون بحراسة القوافل عبر السهوب[٢٨].

ولعل من أهم ما كان يحمل من مناطق الشمال هو الرقيق التركي. ويبدو أن هذا الرقيق عرف في أيام الخلافة الأموية، نتيجة للاتصال الحربي والتجاري بين العرب المسلمين وسكان تلك الأماكن النائية. ولم تلبث تجارة الرقيق أن أصبحت تجارة رائجة رابحة بحيث إن

السامانيين، مثلاً كانوا يمنحون جوازاً من السلطان للسماح للغلمان والجواري إذا كانوا أتراكاً[٢٩]. وقد كان حكام الأقاليم الشرقية يبعثون إلى الخلفاء ببغداد هدايا من الرقيق. كما كان في بغداد، إلى جانب الرقيق، جماعة من التجار الصغار والصنّاع من الأتراك! إلا أن الأتراك دخلوا الباب الواسع كجنود، بحيث أصبح الخلفاء يعتمدون عليهم دون العرب والفرس[٣٠].

والذي يعنينا في هذا البحث هو أن الأتراك الغز (أو الأغز أو الطقوز أغز) الذين وصلوا إلى حوض نهر سيحون في القرن الثامن للميلاد بأعداد وافرة، ورثوا حضارة مستقرة الصفات عمن سبقهم ونموها، بحيث أن البحوث الأثرية التي قام بها تولستوف تثبت أن حضارة المدن الواقعة في حوض سيحون لا يظهر فيها أي انقطاع بين أيام الهيطل (أو الختل) في القرنين الخامس والسادس من جهة والقرن العاشر للميلاد من الجهة الثانية[٣١]. ويبدو أن تأثر هذه المدن بالمسلمين المجاورين في خوارزم وما إليها دفع تطورها الحضاري إلى الأمام.

١٠ ـ المدن الكبرى والمراكز العملية

أولاً: يبدو، مما مر بنا، أنه كان ثمة، على الأقل، ست مدن كبرى في منطقة ما وراء النهر وخراسان هي: سمرقند وبخارى ونيسابور ومرو وهراة وبلخ. وكل من هذه المدن كانت تقع على الطرق التجارية الرئيسة التي تصل بين الصين أو الهند من جهة، وإيران وما إلى الغرب منها من جهة ثانية.

ثانياً: في هذه المدن كان يجتمع التجار والسفراء ورجال الدين وأهل العلم مشرقين ومغربين.

ثالثاً: إن أكثر هذه المدن كانت لها مكانة علمية في ناحية من النواحي قبل الفتوح العربية وانتشار الإسلام في تلك الربوع.

رابعاً: إن المنطقتين الواقعتين إلى المشرق (الصين والهند) وإلى الغرب (إيران وبلاد الرافدين وما إلى ذلك) من البلاد التي تقوم بها هذه المدن، كانت لهما حضارات وفلسفات وعلوم، حرية بأن يتبادلها سكانهما، وقد تم هذا التبادل على أشكال مختلفة.

خامساً: إن الفتوح العربية وقيام الدولة العربية الإسلامية (ونشوء الدويلات فيما بعد) وانتشار الإسلام كانت عوامل فعّالة في توسيع مجال الاتصال بين هذه المدن والمناطق الواقعة إلى الشرق والغرب (وحتى الشمال) منها.

سادساً: إن الدويلات التي قامت في المشرق، والدولة السامانية في مقدمتها، كانت تسير على غرار البلاط العباسي في الاهتمام بالعلم والعلماء، مفيدة من تقاليد تليدة عرفتها المنطقة حتى قبل وصول العرب والإسلام إليها. والذي حدث أن العامل الفعّال في التطور الفكري والعلمي والحضاري أصبح الآن الإسلام، وصارت اللغة العربية هي لغة العلم والأدب، إلى أن عاد للفارسية دورها الأدبي في القرن الرابع/ العاشر.

سابعاً: يمكن أن نضيف إلى هذا الأمر أمراً آخر، وهو أن ما أصاب العالم الإسلامي في

القرون الثاني والثالث والرابع/ الثامن والتاسع والعاشر من خلافات فكرية دينية في الإسلام نفسه، عرفتها المنطقة وتأثرت بها وأسهمت فيها. وهذا معناه مشاركة فعلية في جميع الاتجاهات والتيارات العقلية والفقهية والشرعية والأدبية التي عرفتها بغداد ودمشق وحلب والفسطاط وغيرها من أمهات المدن العربية الإسلامية.

ثامناً: عرفت خراسان وما وراء النهر مدارس بالمعنى الإسلامي (الفقهي الخ) في أيام الفارابي وقبله. وقد بحث ناجي معروف هذا الموضوع بحثاً وافياً في كتابه **مدارس قبل النظامية** (بغداد، ١٣٩٣/ ١٩٧٣). وخلص من بحثه إلى نتائج هامة يمكن تلخيصها فيما يلي:

أ ـ إن المدارس الأولى التي بنيت في خراسان وما وراء النهر كانت «آحادية» أي بنيت لمذهب واحد من المذاهب الفقهية الأربعة. وكان أغلبها للشافعية والحنفية» (ص ١٥).

ب ـ «وقد اتخذت المدارس في خراسان وما وراء النهر لسكنى المدرسين والطلبة وفي بعض الأحيان كان ينزلها العلماء الطارئون» (ص ١٧).

ج ـ كانت الأوقاف على هذه المدارس كثيرة، وكانت تستخدم «لعمارتها وإجراء الجرايات على أربابها من المدرسين والعلماء والطلبة من المتفقهة وأهل الحديث والوعّاظ والمذكرين والصوفية والأئمة والمؤذنين وغيرهم. فقد جعل ابن حبان التميمي المتوفى سنة ٣٥٤ (٩٦٥) لطلاب مدرسته جرايات دارة يستنفقونها» (ص ١٩).

د ـ «ولما كانت خزائن الكتب في المدارس من الأمور التي تساعد على الدرس والبحث فقد أكثر مؤسسو المدارس من إيقاف الكتب على اختلاف علومها وفنونها في المدارس، وأنشأوا لها المباني الخاصة والحجرات العديدة وأقاموا عليها الخزان والمشرفين والنظّار... فقد سبّل أبو حاتم البستي التيمي كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها» (ص ١٩ ــ ٢٠).

تاسعاً: بيّن لنا الدكتور معروف في دراسته المذكورة المدارس التي يعنينا أمرها (من حيث أنها كانت قائمة في عصر الفارابي) ومنها:

أ ـ مدرسة حسّان بن محمد القريشي بنيسابور. وقد توفي سنة ٣٤٩/ ٩٦٠ (ص ٢٥). وتاريخ وفاته يأتي بعد عشر سنوات من وفاة الفارابي.

ب ـ مدرسة ابن حبان التميمي بنيسابور. وقد توفي صاحبها سنة ٣٥٤/ ٩٦٥ (ص ٢٦).

ج ـ مدرسة أبي حفص ببخارى التي درّس فيها ابن شاهويه المتوفى سنة ٣٦١/ ٩٧١. ومعنى هذا أن المدرسة كانت قائمة أيام تدريس ابن شاهويه فيها. وهذا الرجل كان إماماً بنيسابور ثم خرج إلى بخارى ثم عاد إلى نيسابور وحدث بها وتوفي هناك سنة ٣٦١هـ (ص ٢٦).

د ـ مدرسة مرست في بنج ديه في منطقة مرو الروذ. وقد درّس فيها ابن إسماعيل القفال الكبير الشاشي (الطشقندي) المولود سنة ٢٩١/ ٩٠٢ والمتوفى سنة ٣٦٥/ ٩٧٥. فهو معاصر ـ بعض الوقت ـ للفارابي.

هـ ـ بالإضافة إلى هذه المدارس التي كانت قطعاً قائمة في أيام الفارابي، ذكر الدكتور معروف مدارس أنشئت قبل سنوات معينة، وقد تكون قديمة بحيث عاصرها الفارابي أو قد تكون متأخرة عن أيامه. ولنذكر منها على سبيل المثال: مدرسة محمد الحمشاذي (نيسابور) أنشئت قبل سنة ٣٨٨/ ٩٩٨ بقليل. المدرسة الدقاقية (نيسابور) بنيت في سنة ٣٩١/ ٩٩٩ (ص ٢٨ ـ ٣٠). وفي الصفحات التالية عدد آخر من المدارس أُنشىء بعد ذلك.

عاشراً: خزائن الكتب كانت في تلك المدن. وفقد ذكر ياقوت أن مرو كان بها عشر خزائن للكتب. ويبدو من رواية ياقوت أن اثنتين منها كانتا قد أنشئتا قبل زيارته لمرو(٣٢).

حادي عشر: يقول المقدسي عن نيسابور (ويسميها إيرانشهر) أنه قد اجتمع لها من الخلال الكثير منها المدارس الرشيقة، وأنه يرحل إليه في العلم والتجارات(٣٣). وقد نقل لسترانج عن ابن بطوطة أن مدارس بلخ، بعد أن هدم جنكيز خان المدينة، باقية الرسوم(٣٤).

ثاني عشر: لعل المدينتين اللتين كانتا تتقدمان سواهما في المنطقة في عصر الفارابي هما نيسابور في خراسان وبخارى في ما وراء النهر. على أننا نقع على أسماء علماء ومحدثين منسوبين إلى مدن أخرى أو جهات معينة: كالسمرقندي والشاشي والبستي والبلخي والفارسي والبوشنجي والنسوي. ونحن نقتصر هنا على أسماء توفي أصحابها سنة ٤٠٠هـ (٣٥).

وقد كان فيما نقلناه عن نيسابور (ابن حوقل) وعن بخارى (الاصطخري) الكفاية لما كان لهاتين المدينتين من أهمية تجارية وصناعية وسياسية وعلمية. إلا أننا نود أن نلفت القراء إلى ما كتبه بوزورث وشبولر عن نيسابور(٣٦) وما جاء عن بخارى عند فراي(٣٧). نود أن ننقل هنا بعض ما جاء في كتاب فامبري «تاريخ بخارى(٣٨)». فقد جاء فيه قوله:

«إن بخارى التي اشتهرت أيام الزرادشتيين بأنها «متابعة العلوم كلها» اشتاقت كذلك لاسترداد صيتها القديم في ظل الإسلام. وسرعان ما أصبحت تعرف باسم «بخارى الشريفة التقية»... وكان النشاط العقلي السائد في ذياك الوقت وقفاً على علوم الدين. وبهذا كان أوائل المشاهير الذين ازدانت بهم تلك المدينة التي تقع على نهر زرفشان هم من الأولياء الذين لا تزال قبورهم هناك أعظم المزارات حتى اليوم. ومن هؤلاء أبو حفص البخاري المولود عام ١٥٠/ ٧٦٧، وكان من العلماء الذين تزعموا الحركة الفكرية في مدينة بخارى زمناً طويلاً. وهو من تلاميذ الإمام محمد شيباني، وقد شهد له بأنه كان أقدر تلاميذه. ومات أبو حفص عام ٢٢٧/ ٨٤١، وترك من بعده ذكرى خالدة لنشاطه العقلي تمثلت في تلميذه عبد الله الفقيه الملقب بالبخاري شيخ المحدثين المسلمين الذي ولد عام ١٩٤/ ٨٠٩ في بخارى. ويعد كتابه الكبير «جامع الصحيح» أعظم مرجع للحديث في الثقافة الإسلامية كلها. ويذكر ابن خلكان أن أكثر من سبعين ألفاً من طلبة العلم درسوا هذا الكتاب على هذا الشيخ، وأن هذا الكتاب يحوي ستمائة ألف حديث أنفق البخاري ستة عشر عاماً في جمعها وتصنيفها. ومات في نواحي سمرقند عام ٢٥٦/ ٨٦٩. ويأتي من بعده محمد السبدموني العلاّمة قاضي القضاة في عصر إسماعيل، ومات عام ٣٠٤/ ٩١٦م، ثم محمد بن الفضل أعظم فقيه في عصره، وغير هؤلاء

ممن صارت بهم بخارى، ومدن العالم الإسلامي الأخرى تحسدها على وجودهم بها. ويقول مقرظو إسماعيل إن صيت بخارى بهؤلاء العلماء هو الذي حدا بالأمير الساماني الكبير إلى أن يتخذها حاضرة له بدل سمرقند. ومهما يكن، فقد عرف إسماعيل نفسه بالتقوى والاستمساك بالشرق وبرعايته للعلماء حتى قدم إليه كثير منهم من أماكن بعيدة ليستكملوا دراستهم في مدرسته أو ليقضوا حياتهم في التأمل والبحث بدار كتبه التي حبس عليه الحبوس.

«ويحدثنا التاريخ عمن يدعى حاشد الصوفي وكان أميراً عالي المقام بدمشق، قدم بخارى ليقضي بقية أيامه في عزلة وتأمل ديني. وبقي هناك حتى مات عام ٢٤٦/ ٨٠٩. وما عدا هذا الشعور القومي الذي بعث من جديد بإيران في ظل السامانيين، بالإضافة إلى انعطافاته الدينية، إن خطا أول خطوة لإحياء اللغة الفارسية وآدابها من جديد، فانتعش اللسان الفارسي المتناسق مرة أخرى في عهد نصر وإسماعيل بعد أن كان حكام العرب قد حرّموه على الناس لأكثر من مائتي عام. وعلى خلاف ما حدث عند شعوب آسيا التي دخلت في الإسلام في وقت متأخر فدخل في لغاتهم، مع الثقافة الإسلامية، قدر كبير من الكلمات والمصطلحات العربية، فإن الشعر الفارسي قد احتفظ بنقائه تاماً، ذلك النقاء الذي هو سر الجمال في أشعار أبي الحسن الرودكي وأغلب أشعار الفردوسي الخالد الغنائية.

«كان إسماعيل (أو الأمير إسماعيل على ما كان يلقبه المؤرخون الشرقيون باعتبار استقلاله الظاهر عن بغداد) هو الرجل الوحيد الجدير بهذه الحقبة المشهورة في تاريخ آسيا الوسطى. فلم يكن في شجاعته دون مؤسسي دول الصفاريين أو الديالمة أو البويهيين، كما كان يشتهر فوق ذلك بتقواه وعدله ورحمته وميله إلى العلم. ولقد ترامى إلى سمعه ذات يوم أن جباة الخراج في الري يطففون بموازين ثقيلة زائفة، فبعث برسوله من فوره ليأتيه بتلك الأثقال في حرز إلى بخارى ويوقف الجابي عن عمله ويغلق إدارته حتى تصب الأثقال على حقيقتها وتعاد إلى هناك...

«أشرنا من قبل إلى كلف إسماعيل بتلك المدينة الواقعة على زرفشان وتفضيله لها على غيرها. وهو وإن لم يستطع أن يبلغ بها ما بلغه تيمور مثلاً، بسمرقند، إلا أن ذكراه ستبقى ماثلة على الدوام في أذهان سكان بخارى الأصليين بوصفه الأمير العظيم الحقيقي الوحيد. ونذكر من بين المنشآت التي أقامها إسماعيل، أولاً، ذلك القصر الذي يقع على ريغستان. وكان قد شُرع في بنائه أصلاً قبل الإسلام، حتى جاء إسماعيل فقام بتوسيعه وزخرفته ليصير بذلك مقراً للأمير الحاكم وكبار رجال الدولة. ويأتي من بعده قصر موليان الذي أقامه على ضفاف القناة التي تعرف بهذا الاسم في بذخ يليق بعظمة الأمراء. ويشتهر هذا القصر بروعة بنائه. وكانت تحيط به الحدائق والمروج وأحواض الزهر وفيها النافورات والغدران الجارية. وعانى إسماعيل مشقة شديدة لمدّه بالماء الذي جلب إليه في قنوات أجروها، بدقة، إليه من النهر الذي يجري بأعلى المدينة. كذلك مد إسماعيل أسوار المدينة وحصّنها، وكانت هذه قد بناها الحاكم أبو العباس الطوسي في عهد الخليفة المهدي.

«ويقال إن عدد المدارس الجامعة ببخارى كان في عهد إسماعيل يزيد على نظائره في كل مدن آسيا، حتى لنرى بلخ وهي التي تعرف بقبة الإسلام، لم تستطع أن تبرز لتنافسها إلا بعد ذلك بكثير. وأخذت هذه المدينة التي تقوم على شاطىء زرفشان، والتي غدت قلب نصف آسيا الإسلامية، تزدهر ويعلو قدرها يوماً عن يوم بوصفها قصبة المال والعلم ومركز إنتاج الحرير الذائع الصيت كذلك. ولقد جنى إسماعيل خير الثمار من وراء حروبه الطويلة وإن لم يمتد به الأجل طويلاً بالملك، فقد نزل به الداء في قصره الواقع على قناة موليان فنصحه طبيبه أن يغادر المكان لرطوبته إلى مصطاده في زرمان، حيث وافاه الأجل به بعد قليل مساء الثلاثاء من صفر عام ٢٩٥/ ٩٠٧ وهو في الحادية والستين من عمره، بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاماً قضى بضع سنين منها عاملاً لأخيه على بخارى، وكان في باقيها حاكماً مستقلاً على القسم الشرقي من آسيا الإسلامية».

١١ ـ الخاتمة

لا نود أن نكثر من النقل عن الجغرافيين البلدانيين ما ذكروه عن مدن خراسان وما وراء النهر. فذلك من المتيسر الحصول عليه في مظانه[٣٩]. كما أننا لا نعتزم البحث عن الحياة العلمية في بغداد وحلب ودمشق وغيرها في عصر الفارابي، فتلك أمور كتب فيها الكثير الكثير.

ولكن الذي رمينا إليه من هذه العجالة هو أن نضع بين أيدي القارىء فكرة، ولو مقتضبة، عن البلاد التي عاش فيها الفارابي الخمسين سنة الأولى من حياته، وهي السنون التي كوّنت الأسس الأولى لشخصيته العلمية والفكرية وهيأته لأن يعب مما عرفته بغداد شبعه، ثم يعكف على الكتابة والتأليف، بحيث تبوأ هذا المقام الرفيع في عالم الفكر الإسلامي.

فنحن إذاً، لم نأخذ برأي ولتزر بأن الفارابي قد يكون عرف بغداد لما كان أبوه قائداً فيها[٤٠]. أو برأي من قال بأن الفارابي لعله اتصل بيوحنا بن حيان أيام كان هذا في مرو، وهي رواية ضعيفة. فنحن يتوجب علينا القول بأن الرجل قد التقى الكثيرين من أهل العلم والمعرفة، من المسلمين وغيرهم، في هذه الرقعة الواسعة الممتدة من فاراب، شمالي نهر سيحون، إلى بغداد على دجلة، والتي كانت عامرة بالجوامع والربط والمدارس والديارات ومليئة بالمحدثين والفقهاء والفلاسفة والعلماء والتجار الذين كانوا يفدون إليها من الصين والهند وتركستان وإيران والعراق وغيرها. وكل واحد من هؤلاء كان يحمل معه آراء وأفكاراً ومعرفة.

والفارابي الطلعة كان يتزوّد من كل هؤلاء.

أما في أي مدرسة جلس على أقدام أهل العلم، ومن هم شيوخه الذين نقل عنهم، ومن هم معلموه من غير المسلمين، فهي أسئلة لا يمكن الإجابة عنها في حدود ما بين أيدينا من المصادر.

الهوامش

(١) راجع مثلاً مصطفى عبد الرازق، **فيلسوف العرب والمعلم الثاني** (القاهرة، ١٩٤٥)، ص ٥٥ ــ ٦٤، وقد ناقش روايات القدامى مناقشة علمية ووصل إلى استنتاجات منطقية؛ سعيد زايد ــ **الفارابي** (القاهرة، ١٩٦٢) ص١٤ ــ ١٧، وهو يقبل آراء عبد الرازق؛ ماكس مايرهوف «من الإسكندرية إلى بغداد» في ترجمة عبد الرحمن بدوي ــ **التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية** (القاهرة، ١٩٤٠) ص ٧٨ ــ ٨٠؛ راجع كذلك R. Walzer, al-Farabi in E.I.2

(٢) راجع مثلاً ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا (بيروت، ١٩٦٥) ص ٦٠٣ ــ ٦٠٩؛ ابن خلكان ــ **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس (بيروت، ١٩٧٢) م ٥ ص ١٥٣ ــ ١٥٧ ك البيهقي، **تاريخ حكماء الإسلام** (دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٤٦) ص ٣٠ ــ ٣٥؛ القفطي، **تاريخ الحكماء** (ليبزغ، ١٩٠٤) ص ٢٧٧ ــ ٢٨٠؛ ابن النديم، **الفهرست** (ليبزغ، ١٨٧١).

(٣) ابن حوقل، **صورة الأرض** (طبعة كرامر) نشر بيروت (لاتا) ص ٤١٨. وابن حوقل هو الوحيد، فيما وصل إلينا، الذي ذكر ذلك على التخصيص.

(٤) يرى و. والتزر ان الفارابي قد ذهب إل بغداد قبل ذلك. راجع المصدر السابق.

(٥) راجع: W. Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion* (London, 1928), pp. 180-186; W. Barthold- *Four Studies on the History of Central Asia;* vol. I (Leiden, 1956), pp. 1-17; Richard N. Frye- The Heritage of Persia (New York, 1966), pp. 79-262, Gregoire Frumkin- *Archaeology in Soviet Central Asia* (Leiden/Koeln, 1970), passim, Gavin Hambly (ed) *Central Asia* (New York, 1969), pp. 19-62, C.G.F. Simkin, *The Traditional Trade of Asia* (London, 1968) pp. 1-61.

(٦) Simkin, pp. 2-7, Hambly, pp. 22ff.

(٧) Barthold, *Four Studies,* I pp. 3-4.

(٨) Edgar Knobloch, *Beyond th Oxus* (London, 1972), pp. 52-53, Frye, ibed, pp. 170-2, 194-204.

(٩) Simkin, pp. 29-38.

(١٠) Hambly, pp. 49-50, Frye, ibed, pp. 225-234.

(١١) Simkin, p. 58.

(١٢) Frye, ibed, p. 289 (map) and p. XV (notes)

(١٣) راجع: Simkin, pp. 63-73 وقد أورد المؤلف هناك مصادره ومراجعه فيمكن الاستئناس بها.

(١٤) المكان نفسه.

(١٥) راجع: Frye, *Bukhara* (Norman, 1965) pp. 8-10. وكذلك أرمينوس فامبري ــ **تاريخ بخارى**، الترجمة العربية، لأحمد محمود الساداتي ومراجعة يحيى الخشاب (القاهرة، لاتا) ص ٥١.

(١٦) في سبيل الحصول على تفاصيل تتعلق بهذا الجزء من البحث؛ يراجع: مقال ماكس مايرهوف المذكور آنفاً، وكتاب فامبري المذكور ص ٣٧ ــ ٥٦؛ De Lacy O'leary, *How Greek Sciences Passed to the Arabs* (London, 1948), pp. 19-95, 110-119, R; Segal - Edessa, *The Blessed City* (London, 1973) pp. 149-152, 165-172, 210-212, Articles in E.I. (1) Nishapur Orfa, Samarkand and Tashkent and in E.I.(2) Balkh, Bukhara, Harran and Khwarizm; Knovloxh, op. cit, pp. 48-60; Glanville Downey, Gaza in the Early Sixth Century (Norman, 1963), pp. 99-162; Glanville Downey, *History of Antioch* (Princeton, 1961); Richard N. Frye- *Heritage of Persia* (New York, 1966) pp. 205-262, Joseph Needham Science and Civilization in China, vo. I (Cambridge, 1954) pp. 170-214; E.H; Shafer, *The Golden Peaches of Samarkand* (Berkely) Bertold Spuler- *Iran in Frueh- Islamischer Zeit* (Wiesbaden, 1952) pp. 3-132; C.E. Bosworth, *Islamic Dynasties,*

Edinburgh, 1976) pp. 49-51, 99-111.

(١٧) يمكن العثور على تفاصيل تتعلق بالفتوح التي قامت في المنطقة التي تعنينا في، على سبيل المثال، البلاذري ـ **فتوح البلدان** تحقيق صلاح الدين المنجد الجزء الثالث (القاهرة، لاتا) ص ٤٤٩ ــ ٥٢٩؛ فيليب حتي، **تاريخ العرب المطول**، الطبعة الثالثة، الجزء الأول (بيروت، ١٩٦١) ص ٢٠٩ ــ ٢١٤، ٢٧٣ ــ ٢٧٦؛ الجزء الثاني الطبعة الثالثة (بيروت، ١٩٦١) ص ٥٥٤ ــ ٥٥٧.

Barthold, *Thurkastan,* pp. 180-235,

Bertold Supler, *Iran in Frueh - Islamischer Zeit,* (Wiesbaden, 1952) pp. 3-132; C.E. Boswo-rth- *Dynasties* (Edinburgh, 1967) pp. 49-51, 99-111.

(١٨) راجع، على سبيل المثال، اليعقوبي، **كتاب البلدان** (ليدن، ١٨٩١) ص ٢٨٨، ابن حوقل ص ٣٦٢، ٣٦٦، ٣٩٤، ٣٩٨، ٤٠٦، الاصطخري ص ١٦٧.

(١٩) الاصطخري ـ **المسالك والممالك** تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني (القاهرة، ١٣٨١/ ١٩٦١) ١٥٣، ١٥٧، ابن حوقل ٣٥٨.

(٢٠) المقدسي، **أحسن التقاسيم** (ليدن، ١٩٠٦)، ص ٢٦٠ ــ ٢٦١، ٢٩٣.

(٢١) ابن حوقل ٣٦٠ ــ ٣٦١.

(٢٢) ابن حوقل ص ٣٦١ ــ ٣٧٧، راجع أيضاً الاصطخري ص ١٤٥ ــ ١٥٨.

(٢٣) راجع وصف القبة عند الاصطخري ص ١٤٧.

(٢٤) الاصطخري ١٦١ ــ ١٦٦.

(٢٥) كي لسترنج، **بلدان الخلافة الإسلامية** (الترجمة العربية من عمل بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤) ص ٤٧٦.

(٢٦) راجع ابن رسته ص ٩٢ و٩٣، الاصطخري ص ١٦٦ ــ ١٦٧؛ المقدسي ٢٠٣.

(٢٧) الاصطخري ١٦٧.

(٢٧) الاصطخري ص ١٦٧ ــ ١٨٦.

(٢٨) راجع: C.E. Bosworth, *The Ghaznawids* (Edinburgh, 1963) pp. 154-5, 206-9, 214-15

أحمد بن فضلان، **رسالة ابن فضلان**، تحقيق سامي الدهان (دمشق، ١٣٧٩/ ١٩٥٩) ص ٨٦ ــ ٨٨.

(٢٩) المقدسي، **أحسن التقاسيم** (ليدن، ١٩٠٦) ص ٣٤٠.

(٣٠) للحصول على تفصيل لور ود الأتراك إلى دار الخلافة، وللاطلاع على المصادر الأصلية للأخبار، راجع زكريا كتابجي، الترك في مؤلفات الجاحظ (بيروت ١٩٧٢) ص ٩٣ ــ ١٨٤.

(٣١) Bosworth, pp. 211-13.

(٣٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مادة مرو.

(٣٣) المقدسي ص ٣١٥.

(٣٤) لسترانج (الترجمة العربية) ص ٤٦٤.

(٣٥) ناجي معروف، **مدارس قبل النظامية** (بغداد، ١٣٩٣/ ١٩٧٣) ص ٦٩ ــ ٧٠.

(٣٦) Bosworth, *The Ghaznavids* pp. 149-202, Spuler, op. cit, Passim.

(٣٧) Frye, *Bukhara*, pp. 50-100.

(٣٨) فامبري ص ١٠٥ ــ ١١٠.

(٣٩) يمكن الرجوع إلى الذين لم نقتبس عنهم على الوجه الآتي: نيسابور ــ ابن رسته ص ١٧١؛ المقدسي ص ٣٠٠، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢٩. مرو ــ اليعقوبي ص ٢٨٠؛ المقدسي ٢٦٩، ٢٩٨، ٣١٠، ٣١٢، ٣٣٠، ٣٣، ٣٣١، هراة ــ ابن رسته ص ١٧٣، المقدسي ٣٢٩، ٣٣٠. بلخ ــ اليعقوبي ص ٢٨٧، ٢٨٨. سمرقند ــ المقدسي ص ٢٧٨. خوارزم ــ المقدسي ص ٢٨٤ ــ ٢٨٦. وهنا موضع للإشادة بكتاب لسترانج، **بلدان الخلافة الشرقية**، في ترجمته العربية. فالمؤلف أصلاً اعتمد على المصادر العربية والإسلامية في وضع كتابه، وقد قام المترجمان بنقل المادة نقلاً صحيحاً دقيقاً ثم علقا عليها بفوائد كثيرة لم يكن لسترانج قد وقع عليها لما نشر كتابه في أصله الإنكليزي (سنة ١٩٠٥). والقسم الخاص ببحثنا من هذا الكتاب هو المشمول بالصفحات ٤٢٣ ــ ٥٣٢.

(٤٠) راجع مقاله من الفارابي في: E.I.(2).

القسم السابع
ما وراء النهر

في عصر ابن سينا ٩٨٠ ـ ١٠٣٧

١ ـ مقدمة

كانت الفترة التي عاش فيها ابن سينا، بالنسبة إلى التاريخ العربي الإسلامي، معقدة إلى حد كبير. والمنطقة التي ولد فيها وتعلم وعلّم وتنقل وألف، وهي التي تمتد من بخارى في أواسط آسيا إلى أصفهان في جنوب غرب إيران، كانت تختصر هذا التعقيد كله.

فالخلافة العباسية كان قد مر عليها نصف قرن تقريباً وهي تحت نفوذ بني بويه (٣٢٢ ـ ٤٥٤/ ٩٣٢ ـ ١٠٦٢)، التي اتخذت من أصفهان مستقراً لها.

على أن بلاد الخلافة الشرقية كانت في القرن الرابع/ العاشر قد قامت فيها دويلات مستقلة تماماً عن الخلافة إلا في المظاهر ـ أي ذكر اسم الخليفة على المنابر، والاعتراف له ـ أحياناً ـ بالسيادة الاسمية. هذه الدول يدخل في عدادها الدولة السامانية (٢٠٤ ـ ٣٩٥/ ٨١٩ ـ ١٠٠٥) التي كانت بخارى، في أواسط آسيا، عاصمتها، والدولة الصفارية (٢٥٣ ـ ٤٢٠/ ٨٦٧ ـ ١٠٢٩) التي قامت في سجستان، لكنها اتسعت بحيث امتدت إلى كابول (في أفغانستان اليوم) شرقاً وانتزعت خراسان (شمال إيران) من الدولة الطاهرية (١٩٤ ـ ٢٥٩/ ٨٠٩ ـ ٨٧٣) واحتلت عاصمتها نيسابور. واعتباراً من سنة ٤٢٠/ ١٠٢٩ خضعت الدولة الصفارية، أجزاءً أو كلية، للدولة الغزنوية، ثم للدولة السلجوقية فيما بعد.

ومن الدول التي ظهرت في القسم الشرقي من الخلافة العباسية، في فترة ابن سينا، الدولة الزيادية (٣١٥ ـ ٤٨٣/ ٩٢٩ ـ ١٠٩٠) التي قامت في السواحل المحيطة ببحر قزوين حول الجزء الجنوبي الشرقي منه، وكانت جرجان مستقر هذه الدولة. وثمة دولة خوارزم شاه (٣٨٢ ـ ٤٠٨/ ٩٩٢ ـ ١٠١٧) التي ظهرت في وادي نهر أمودريا الأسفل، وكانت خوارزم (أو غورغانج أو الجرجانية وهي خيوة الحديثة) العاصمة.

وتتوج الدولة الغزنوية زمنياً هذه الدول إذ إنها ظهرت سنة ٣٦٦/ ٩٧٧، لكنها استمرت حتى سنة ٥٨٢/ ١١٨٦. إلا أن الدولة الغزنوية (واسمها مشتق من اسم عاصمتها غزنة في أفغانستان اليوم) كانت تتجه شرقاً، لذلك توسعت في حوض السند واحتلت لاهور وما يليها شرقاً وجنوباً.

ذكرنا هذه الدول الآن لإعطاء فكرة عامة عن الجو السياسي الذي عاش فيه ابن سينا. على أننا عندما نعرض لحياة هذا المفكر، سنتحدث بشيء من التفصيل عن الأمراء أو الملوك أو السلاطين الذين كانت له بهم علاقة ونشير بكثير من الاهتمام إلى المدن التي استقر فيها، وما الذي كان يعمله فيها.

على أن هذه الأجزاء الشرقية من الخلافة العباسية كانت تنتشر فيها أمور أخرى، وتقوم

في أنحائها حركات مختلفة بحيث كانت جميعها تكوِّن المناخ الديني والفكري والأدبي الذي تأثر به ابن سينا وأثر فيه. فمن هذه، أن الإسماعيلية كان لهم حضور كبير في المنطقة. ولا شك أن استقرار الدولة الفاطمية في مصر منذ أواسط القرن الرابع/ العاشر، واهتمامها بالدعوة في رقاع مختلفة من بلاد الخلافة العباسية، نشّط هذه الدعوة في نواح مختلفة. ومن هذه الأمور أن الدولة الغزنوية (والسلجوقية بعدها) كانت تعنى بالسنّة. والذي يجب أن يفهم من هذا، أنه كانت هناك تيارات فكرية آخذة في التفاعل في شرق بلاد الخلافة.

ومن الأمور الهامة أن العرب والمسلمين تعرفوا في تلك الفترة لأول مرة، إلى ما كان عند الهنود من فلسفات. وكان التعرف صحيحاً على يد البيروني (توفي ٤٠٠هـ/ ١٠٤٨م).

ولعل مما يجب أن يذكر أيضاً الاهتمام بإحياء اللغة الفارسية الذي بدت آثاره على أيدي دقيقي وغيره من الشعراء، ثم اتضحت على يد الفردوسي صاحب الشاهنامه [أو كتاب الملوك].

وحريّ بالذكر أن البلاطات المختلفة التي ظهرت في تلك الفترة ـ في عصر إبن سينا ـ كانت تعنى بناحية أو أكثر من نواحي العلم والمعرفة، وكانت لها عناية بالعمارة والفن.

وكما قلنا قبلاً، هذه ملاحظات عامة نضعها بين يدي قراء هذا الحديث، تمهيداً لفهم حياة ابن سينا وأعماله.

٢ ـ حياة ابن سينا في بخارى

هو أبو علي الحسن بن عبد الله بن علي بن سينا. كان أبوه عبد الله من أهل بلخ. وقد تولى عملاً للدولة السامانية، وعاصمتها بخارى، إلا أنه أقام في قرية يقال لها خَرْمَيْثَن ومعناها بالفارسية «أرض الشمس». وكان بقربها قرية يقال لها أَفْشَنه وتزوج أبوه سِتارة، ومعناها النجم بالفارسية، وهي من هذه القرية. وفي خَرميْثن ولد ابن سينا سنة ٣٧٠/٩٨٠.

انتقلت الأسرة فيما بعد إلى بخارى. وهناك جيء بمعلم للقرآن وآخر للأدب للعناية بالطفل. ولما أتم العشر من عمره كان قد حفظ القرآن وأتى على كثير من الأدب، حتى كان يُقضى منه العجب.

وكان أبوه ممن أجاب داعي المصريين (الفاطميين)، وكان يعد من الإسماعيلية. ويبدو أن أخاه، وهو الأصغر من الابنين الوحيدين لعبد الله بن علي، كان قد استجاب لهذه الدعوة أيضاً. وكان الجميع ـ الداعية والأب والابن ـ يتناقشون في شؤون الإسماعيلية على مسمع من ابن سينا. وكان هو يتابع مذكراتهم، لكن نفسه لم تقبل هذه التعاليم. ثم دعاه أبوه وأخوه للسير معهما لكنه لم يقبل.

كان هؤلاء يجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند. وأراد أبوه أن يعلّمه حساب الهند هذا، فوجهه إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند كي يتعلمه منه.

واشتغل ابن سينا بالفقه وتردد على إسماعيل الزاهد، وكان من أجود السالكين. وفي هذا التردد ألف الفتى طرق المطالبة ووجوه الجدل والنقاش وأساليب الاعتراض على المجيب

على النحو الذي جرت به عادة القوم، من أهل الشريعة والكلام.

وهبط بخارى أبو عبد الله الناتلي، وكان يُدعى المتفلسف. وأراد الوالد أن يتعلم ابنه من الناتلي هذا فأنزله دارهم. وهنا بدأت دراسات الفلسفة عند ابن سينا.

كان «الإيساغوغي» أول ما بدأ به مع الناتلي. وأثناء قراءة هذا الكتاب ذكر الناتلي أن «حد الجنس» إنما هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع، وأن ذلك إنما هو جواب عن السؤال: ما هو؟ فلما اتضح هذا الحد لابن سينا أخذ في تحقيق هذا بما لم يسمع الناتلي بمثله. وتعجب من معرفته كل العجب. ذلك أن معرفة ابن سينا بطرق الجدل التي أتقنها من قبل، وإدراكه الآن ظواهر المنطق، يسرا له السير قدماً في هذه التحقيقات المتعلقة بحد الجنس على أنواع مختلفة من المعرفة. ويبدو من الذي عرفناه من ترجمة ابن سينا أن معلمه لم يكن يستطيع مجاراة تلميذه الذكي النشيط الذهن. ولذلك فإن ما تعلمه ابن سينا من الناتلي في شؤون المنطق كان في الظواهر. إذ يبدو أن المعلم لم تكن له خبرة بدقائق المنطق وما تخفيه.

حفزت هذه التجربة الأولى مع كتاب الإيساغوغي ومع الناتلي في المنطق الفتى على السير قدماً في قراءة الكتب على نفسه. وأخذ يطالع الشروح حتى أحكم علم المنطق. وعندها انتقل إلى الهندسة. وكان الكتاب الذي يعتمد عليه في ذلك هو «الأصول» لإقليدس في ترجمته العربية. وقد بدأ ذلك مع الناتلي. فقرأ معه من أول الكتاب خمسة أشكال أو ستة. والمقصود هنا بالأشكال نظريات إقليدس. ثم انصرف الفتى إلى قراءة بقية الكتاب وحل أشكاله بأسرها.

انتقل ابن سينا بعد ذلك إلى المجسطي. وهذا هو ترجمة لكتاب بطليموس القلوذي في الجغرافيا والفلك فقرأ على الناتلي مقدمات الكتاب الأولى. فلما انتهى إلى الأشكال الهندسية أي الفلكية، نصحه الناتلي أن يتولى قراءتها بنفسه ويهتم بحلها على أن يعرضها فيما بعد عليه ليبين له الصواب من الخطأ. ويبدو أن الفتى أدرك أن الناتلي ما كان يقوم بالكتاب أي إنه لم يقدر عليه.

انصرف ابن سينا إلى حل ما في الكتاب من أشكال. وكانت ثمة أشكال كثيرة لم يكن المعلم يعرفها، إلى أن كان التلميذ يعرضها عليه ويُفهمه إياها.

بعدها غادر الناتلي بخارى متوجهاً إلى غورغانج (أي الجرجانية).

وكان الفتى قد مرن على القراءة في الكتب الصعبة وحذق أساليب فهمها وحل ألغازها ورموزها. فلم يقعده عن العمل انعدام «المعلم». فاشتغل بتحصيل المعرفة من النصوص والشروح مباشرة معتمداً على نفسه. فكانت كتب العلم الطبيعي والإلهي في جملة ما أتقنه. وصارت أبواب العلم تتفتح عليه.

ورغب ابن سينا في علم الطب، فأخذ يقرأ المصنفات فيه. ولم يجد في ذلك صعوبة قط. إذ إنه برّز فيه بحيث أن فضلاء الطب أخذوا يقرأون عليه علم الطب. وتعهد المرضى فأتاح له ذلك تجربة فريدة للتعرف إلى أبواب من المعالجات العملية ما كانت تتاح لغيره.

على أن ابن سينا لم ينقطع عن مجالس الفقه. فكان يناظر فيها الأقران من أهل البلد أو القادمين.

بلغ ابن سينا هذا وهو فتى يافع من أبناء ست عشرة سنة.

وأراد الشاب النابه أن يتأكد من سيطرته لا على جزئيات المعرفة فحسب، بل على القواعد الضابطة لها. لذلك عاد إلى التوفر على العلم والقراءة، وقضى عاماً ونصف العام في ذلك. فأعاد قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة. وفي خلال ذلك لم ينم ليلة واحدة بطولها، ولم يشتغل في النهار بغير العلم.

ونحن عندما نتمعن في الذي فعله ابن سينا خلال هذه السنة ونصف السنة، نجد أنه كان يعمد إلى كل حجة، في أي من أنواع المعرفة هذه، فيثبت لها مقدمات قياسية يرتبها في الظهور التي يجمعها بين يديه، ثم ينظر فيما عسى أن ينتج عنها. فكان يراعي شروط المقدمات بحيث تحقق له الحقيقة في المسألة المعروضة.

وقد نقل مترجمو ابن سينا أن الشاب كان كلما تحيّر في مسألة ولم يظفر فيها بالحد الأوسط، أي الأساس، يذهب إلى الجامع فيصلي ويبتهل إلى مبدع الكل، حتى يُفتح له المنغلق ويُيسَّر المتعسّر. وكذلك روي عنه أنه كان يعود بالليل إلى داره فيضع السراج بين يديه ويشتغل بالقراءة والكتابة، فمهما غلبه النوم أو شعر بضعف كان يعدل إلى شرب قدح من الشراب. فإذا عادت إليه قوته رجع إلى القراءة. ويبدو أن انشغال ذهن ابن سينا بالقضايا والمسائل وسهره المستمر ولجوءَه إلى الصلاة؛ جميع هذه كانت أموراً نفسية كانت تسمح للمسائل بأن تظل موضع عناية العقل. وكثيراً ما كانت الحقيقة تتكشف له في حلم.

إلى هنا، وابن سينا لم يبلغ الثامنة عشرة من حياته، أصبح صاحب درجة متميزة في العلم والمعرفة، فاستحكمت معه العلوم جمعاء، مدركاً إياها بحسب الإمكان الإنساني.

ولما أحس ابن سينا أنه أحكم على علم المنطق وعلى العلم الطبيعي والرياضي، انتقل إلى العلم الإلهي، أو كما كان يسمى أحياناً، ما وراء الطبيعة. ووقع له كتاب أرسطو فيما وراء الطبيعة. وقد روى ابن سينا فيما بعد ما تأتّى له مع هذا الكتاب قال: «وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة. فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليَّ غرض واضعه. حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً. وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به. وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الورّاقين، وبيد دلاّل مجلد ينادي عليه. فعرضه عليَّ فرددته رد متبرم، معتقداً أن لا فائدة من هذا العلم. فقال لي الدلال: «اشتر مني هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاج إلى ثمنه. واشتريته فإذا به كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض ما بعد الطبيعة. ورجعت إلى بيتي وأسرعت في قراءته. فانفتح عليَّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب (أي كتاب أرسطو) بسبب أنه كان لي محفوظاً على ظهر القلب. وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء، شكراً لله تعالى».

خطر لنا أن نرى ما الذي أفاده ابن سينا من كتاب الفارابي. فهذا الكتاب صغير لا يشرح ما كتبه أرسطو في كتاب ما بعد الطبيعة، ولعله لم يكن أكثر من فهرسة مرتبة لكتاب أرسطو. والذي نراه هو أن هذا هو الذي كان ابن سينا يفتقده في الكتاب الأصلي المترجم عن أرسطو. فابن سينا كان قد عوّد نفسه، في الفترة التي أعاد فيها قراءة المنطق والفلسفة في أجزائها الطبيعية والرياضية، على أن تنتظم الأمور والمسائل والمشكلات أمامه فيما يصح أن نسميه مخططات منطقية. فلما علق ابن سينا بكتاب الفارابي وجد فيه ضالته، أي هذا الترتيب الذي كان ينشده. وعندها وضع الأجزاء في المحال الخاصة بها، فاستوعبها.

كان ابن سينا، منذ أن حذق الطب، يتولى علاج المرضى. ويقول المؤرخون إنه كان يعالجهم «تأدباً لا تكسباً»، أي إنه لم يكن يتقاضى منهم أجراً. على أننا نود أن نضيف تفسيراً آخر لكلمة تأدباً ـ لعل ابن سينا كان يؤدب نفسه في صناعة الطب بمعالجة هؤلاء المرضى، ومن ثم فهو يتعلم ولكنه لا يتكسّب.

واتفق أن مرض أمير بخارى يومها، نوح بن منصور، وحار الأطباء في مرضه. ولما كان اسم ابن سينا قد اشتهر بين هؤلاء الأطباء، أجروا ذكره بين يدي الأمير، فأُحضر بين يديه، وشاركهم في مداواته. وأعجب الأمير بالطبيب الشاب فضمه إلى حاشيته.

وكانت لدى أمراء بخارى خزانة كتب ضخمة، تعتبر من خير ما وجد في المدن العربية الإسلامية. فطلب ابن سينا الإذن بدخول دار الكتب هذه. ووصف ابن سينا في وقت لاحق ما شاهده هناك قال: «فسألته [الأمير] يوماً الإذن في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب. فأذن لي فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض. في بيت منها كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه وكذلك في كل بيت كتب علم بمفرده.

«فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجب منها. ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط، وما كنت رأيته من قبل، ولا رأيته أيضاً من بعد. فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه».

يخيّل إلينا أن ابن سينا أصبح بعد هذا كله على استعداد لأن ينتقل من درجة التعلّم إلى دور التعليم. وقد جرّب ذلك في الطب. لكن بخارى لم يكن فيها مؤسسة لتبادل الرأي على نحو ما عرفت بغداد في بيت حكمتها والقاهرة في دار علمها. والمكتبة التي وضعها ابن سينا كانت للاستعمال الخاص المقصور على أشخاص معيّنين. وحتى هذه المكتبة شبت بها النيران وجاءت على كل ما فيها من الكتب. بل يجب أن نذكر أيضاً أن الاجتماعات الفكرية الخاصة كانت موضع شبهة على نحو ما مر بنا من اجتماع والد ابن سينا وأخيه مع الداعية الإسماعيلي.

لذلك لما طلب جار لابن سينا أن يكتب له شيئاً، لبى طلبه حالاً. وهذا الجار الذي كان على ما يبدو، أول من تقدم من ابن سينا بمثل هذا الطلب، هو أبو الحسين العروضي. وقد

طلب منه أن يصنف له كتاباً جامعاً في هذا العلم (أي علم الطبيعة والرياضيات وما بعد الطبيعة) فوضع له كتاباً في سائر العلوم سوى العلم الرياضي. وصنف ابن سينا كتابه «المجموع» وسماه باسمه. وكان سن ابن سينا يومها إحدى وعشرين سنة.

وجاء دور الجار الثاني، وهو أبو بكر البرقي المولود في خوارزم، وكان فقيه النفس (أي فقيهاً في أعماق ذاته) متوحداً في الفقه والتفسير والزهد، وكان يميل إلى هذه العلوم. هذا الجار طلب من ابن سينا شرح الكتب له. فوضع كتاب «الحاصل والمحصول» في قريب من عشرين مجلدة. ثم صنف له كتاباً في الأخلاق سماه «كتاب البر والأثم» ولم يصنع لا ابن سينا ولا أبو بكر نسخاً من هذين الكتابين.

مات والد ابن سينا، وتولى هو شيئاً من أعمال السلطان، لكنه لم يجد بداً من الخروج من بخارى.

٣ ـ حياة ابن سينا فترة تنقل

خرج ابن سينا من بخارى وهو في أوائل العقد الثالث من عمره. ذلك أن أباه توفي وهو في سن الثانية والعشرين (١٠٠٢/٣٩٢م) وقضى، على ما يبدو، فترة قصيرة بعد وفاة والده، ثم ذهب إلى كوركانج (الجرجانية)، قاصداً بلاط علي بن مأمون (٣٨٧ ـ ٣٩٩/ ٩٩٧ ـ ١٠٠٩) من أمراء خوارزم شاه.

هنا يصح أن نتساءل: لماذا ترك ابن سينا بخارى، مع أنه كان يشغل وظيفة في الدولة؟ والذي يمكن أن يفسر لنا هذا الخروج هو قيام الدولة الغزنوية (في أفغانستان اليوم)، وذلك سنة ٩٧٧/٣٦٦ واهتمام السلطان محمود (٣٨٨ ـ ٤٢١/ ٩٩٨ ـ ١٠٣٠) بالتوسع شمالاً وغرباً. واتفق هذا مع الضعف الذي استحوذ على الدولة السامانية يومها. وكان ابن سينا يعرف موقف الغزنويين السنّة من أي شخص له علاقة بالإسماعيلية. فآثر العافية وخرج يطلب مكاناً آخر يستقر فيه.

وثمة سؤال آخر. لماذا قصد كوركانج؟ صحيح أن أميرها يومئذٍ (علي بن مأمون) كان يرعى العلماء والأدباء في بلاطه (منهم الثعالبي مثلاً) فكان من الطبيعي أن يتجه ابن سينا إليه. وكان وزير البلاط يومها أبو الحسين السهلي الذي كان يعرف عن ابن سينا كثيراً. إلا أننا نود أن نذكّر أنفسنا بأن الناتلي، معلم ابن سينا في بخارى كان قد رحل من عاصمة السامانيين إلى هذه المدينة. فهل كانت ثمة علاقة بين ذهاب المعلم أولاً وذهاب الطالب فيما بعد إلى بلاط علي بن مأمون؟ قد يكون ثمة بعض العلاقة، لكننا لا نعرف، مثلاً، أن الرجلين اجتمعا هناك.

وصل ابن سينا كوركانج وكان على زي الفقهاء بطيلسان وتحت الحنك. وإذ قُدِّم إلى الأمير أثبت هذا له مشاهرة تكفل له أوده. وأقام هناك عشر سنوات، أي حتى بعد وفاة علي.

لكن ابن سينا يخرج من كوركانج بعد فترة تقرب من السنوات العشر. والإشارة الوحيدة الواردة في ترجمته هي «ثم دعت الضرورة إلى الانتقال» من كوركانج.

إلا أن رواية طريفة أوردها مؤرخ فارسي لعل فيها ما يوضح هذا الخروج. تقول الرواية إن السلطان محمود الغزنوي غضب غضباً شديداً بسبب خروج ابن سينا من بخارى (أي هربه من وجه السلطان). وعلم السلطان محمود فيما بعد أن بلاط الأمير مأمون بن مأمون يقيم فيه نخبة من أهل الفكر، كان يود أن يزينوا بلاطه. ومن ثم فقد أرسل السلطان إلى الأمير طالباً منه أن يبعث إليه البيروني والخمّار والمسيحي وابن سينا، وهم أهل العلم والمعرفة والطب، وشخصاً آخر اسمه العرّاق كان معروفاً بمقدرته على النقش. وجاء في رسالة السلطان أنه أراد لهؤلاء «أن يتشرفوا بحضور جلساتنا وأن تدخل معرفتهم وإنجازاتهم السرور إلى قلبنا».

وتذهب هذه الرواية إلى أبعد من ذلك فتقول إن الأمير أدرك أن تكون مهمة الرسول إليه تحمل مثل هذا الطلب، فجمع هؤلاء وقال لهم إن السلطان قوي جداً، ولا قبل له بمقاومته، وإنه يطمح في الاستيلاء على الإمارة، ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يغضبه. وكأن الأمير ترك لهم الخيار. وكان البيروني والخمّار والعرّاق قد بلغتهم أخبار كرم السلطان ورعايته للعلم والعلماء، فقبلوا أن يذهبوا إليه. لكن ابن سينا رفض ذلك وانضم المسيحي إليه. وعندها قبل هذان أن يغادرا كوركانج بعد إقامة عشر سنوات هنيئة في بلاط الأمير.

ولهذه الرواية خاتمة طريفة. ذلك أن السلطان أحنقه إفلات ابن سينا من يده، لذلك طلب من العرّاق المصور أن يرسم ابن سينا، وصنع من هذا الرسم نحو أربعين نسخة وزعت في أنحاء البلاد، وصدرت الأوامر إلى المسؤولين بوجوب إلقاء القبض على صاحبها وإرساله مخفوراً إلى بلاط السلطان.

خرج ابن سينا والمسيحي، ومعهما دليل هو أحد أقارب السهلي الوزير، وتنقلا متخفيين من مكان إلى آخر. وفي اليوم الخامس من خروجهم من المدينة لفّت بهم عاصفة رملية هوجاء، نتج عنها أن أضاعوا معالم الطريق، ولم يستطع المسيحي تحمل الحر الشديد فمات عطشاً. ونجح ابن سينا والدليل في الوصول إلى باوَرْد، حيث عاد الدليل أدراجه وسار ابن سينا نحو طوس.

ثم إن ابن سينا استمر في تنقله حتى دخل جرجان وكانت غايته أن يلجأ إلى بلاط قابوس الزياري أمير جرجان وطبرستان الذي كان يحفل بالعلماء ويحتفي بأهل الأدب، إذ إنه كان هو نفسه يتمتع بقدر وافر من الثقافة. إلا أنه بلغ ابن سينا أن قابوس كان قد أُسر وحبس في إحدى القلاع حيث قضى نحبه (٤٠٢/ ١٠١٢). فذهب إلى دهستان، حيث ألم به مرض شديد، فعاد إلى جرجان (حوالى ٤٠٢/ ١٠١٢). وهناك احتضنه رجل ثري يحب العلوم هو أبو محمد الشيرازي، فاشترى لابن سينا داراً في جواره وأنزله بها.

وفي جرجان اتصل به أبو عبيد الله الجوزجاني الذي ظل معه، حتى إنه كان يدخل السجن معه عندما يسجن، إلى أن توفاه الله (٤٢٨/ ١٠٣٨).

في جرجان نعِمَ ابن سينا بحياة علمية هادئة. فقد كان تلميذه أبو عبيد الله يختلف إليه

يومياً يقرأ المجسطي عليه. وهناك أملى ابن سينا على تلميذه كتاب «المبدأ والمعاد» الذي صنّفه لراعيه الشيرازي. ووضع كتاب «الأرصاد الكلية»، ولعل هذا كان أيضاً هدية للشيرازي.

على أن ابن سينا، الذي كان ذا ذهن وقاد سريع التفكير، والكتابة، أملى على تلميذه، وهو في جرجان، «المختصر الأوسط» في المنطق و«مختصر المجسطي»، وبدأ في وضع كتابه «القانون» في الطب.

انتقل ابن سينا بعد ذلك إلى الري. وكانت الري عاصمة فرع من بني بويه أنشأ الحكم فيها فخر الدولة (٣٦٦ ـ ٣٨٧/ ٩٧٧ ـ ٩٩٧) وجعل من بلاطه موئلاً لأهل العلم والأدب. وقد كان ابن العميد وابن عباد ممن عمل في بلاطه. ومع أن فخر الدولة كان قد توفي قبل أن ينتقل ابن سينا إلى الري، فإن هذا كان يأمل أن يلقى هناك رعاية يستحقها، أو لعل ابن سينا شعر كأنه لم ينل بعد ما يستحقه، فأراد أن يعوض عن ذلك. فهو قد عرف رعاية ثري مهتم بالعلم في جرجان هو الشيرازي، لكن هذه الرعاية لن تشبع طموحه. لذلك أراد أن يلجأ إلى بلاط، على نحو ما كان عليه الأمر في بلاط ابن مأمون في كوركانج (الجرجانية). ومن هنا كان اتجاهه نحو الري. ويروي تلميذه الجوزجاني أنه كان يحمل إلى أصحاب الأمر في الري رسائل تعرّف به. لكننا لا نعرف من زوّده بهذه الرسائل.

هبط ابن سينا الري وكان مجد الدولة قد ورث الحكم عن أبيه (٣٨٧ ـ ٤٢٠/ ٩٩٧ ـ ١٠٢٩) لكن مجد الدولة كان قاصراً لما توفي والده. وقامت بالأمر أمه التي لقبت بالسيدة. ومع ذلك فإن «السيدة» لم تتنازل عن سلطانها لما بلغ مجد الدولة أشده. وكان هذا قد انصرف إلى اللهو، كما كانت تغلب عليه السوداء، فانصرف ابن سينا إلى معالجته.

وضع ابن سينا كتاب «المعاد» وهو في الري، إذ قضى هناك سنتين أو ثلاث سنوات. ثم خرج من الري. جاء خروجه إثر مهاجمة شمس الدولة البويهي صاحب همذان (٣٨٧ ـ ٤١٢/ ٩٩٧ ـ ١٠٢١) لمدينة الري. وشمس الدولة هذا هو ابن فخر الدولة وأخو مجد الدولة. ولكن هل كان خروج ابن سينا بسبب هذه الغزوة؟ لسنا نعتقد ذلك. لكن ابن سينا أوغر صدر «السيدة» عليه لأنه كان يصر على وجوب تخليها عن السلطة لصاحب الحق الشرعي وهو ابنها مجد الدولة. فرأى العافية في أن يخرج، سيما وأن «السيدة»، على ما يبدو، لم تكن تترفع عن إيقاع الأذى بمناوئيها. فقصد قزوين ثم ذهب إلى همذان.

٤ ـ حياة ابن سينا في همذان

جاءت إقامة ابن سينا في همذان في أيام شمس الدولة، أخي مجد الدولة صاحب الري. ومن الطريف أن ابن سينا، إذ عرض خدماته على البلاط، أنه اتصل بخدمة كَذْبانوِيَه، وهي زوج شمس الدولة للتدقيق في أسبابها أي حساباتها. وتعرف إلى شمس الدولة بسبب قولنج كان قد خالطه، فعالجه ابن سينا حتى شفاه الله. وبعد أن أقام في دار الأمير أربعين يوماً بلياليها، رجع إلى داره وقد فاز من ذلك القصر بخلع كثيرة، فضلاً عن أنه صار من ندماء الأمير.

ولما خرج الأمير لقتال قرميسين (قرمنشاه) اصطحب ابن سينا معه. لكن الحملة كانت فاشلة، وعاد الأمير إلى همذان مهزوماً.

وهنا يبدأ فصل جديد في حياة ابن سينا. ذلك بأنه سئل تقلّد الوزارة فاستجاب لذلك. وقد قُلد الوزارة بكل ما في ذلك من سلطة ونفوذ. إلا أن هذا الأمر لم يرق للجند، الذين لعلهم خشوا أن ينالهم منه تضييق، وهو الأمر الذي لا يحبونه. ولم يستطع الأمير شمس الدولة أن يسترضيهم، فكبسوا داره وأخذوه إلى الحبس وأغاروا على ما كان عنده فأخذوه كله. وطلبوا من الأمير أن يقتله، فامتنع، ولكنه قبل بنفيه عن الدولة طلباً لمرضاتهم. فتوارى ابن سينا في دار لأحد أصدقائه أربعين يوماً. فعاود الأمير شمس الدولة القولنج، فطلب ابن سينا، فحضر مجلسه، واعتذر إليه عما حدث. وعالجه وأقام عنده. وأعيدت الوزارة إليه ثانية.

هنا ألحّ عليه تلميذه الجوزجاني أن يشرح كتاب أرسطو طاليس. ولكنه تمنع بسبب ضيق الوقت، إلا أنه رضي بأن يقوم بتصنيف كتاب أورد فيه ما صح عنده من هذه العلوم بلا مناظرة المخالفين ولا اشتغال بالرد عليهم. ولما قبل تلميذه ومريدوه ذلك، ابتدأ بالطبيعيات من كتاب سماه «الشفاء» وكان على ما مر بنا، قد صنّف الكتاب الأول من القانون.

وقد وصف لنا التلميذ مجالس التدريس في دار ابن سينا قال: «وكان يجتمع كل لية في داره طلبة العلم، وكنت أقرأ من «الشفاء»، وكان غيري يقرأ من القانون نوبة. فإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم وهيىء المجلس للسرور. وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير. فقضينا على ذلك زمناً».

وهنا رواية أخرى عن يوم العمل عند ابن سينا جاءت عند مؤرخ متأخر. فقد كان برنامج العمل عند الرجل، إذ كان يتولى الوزارة، على النحو التالي: كان يصحو يومياً قبل الفجر فيكتب بضع صفحات من «الشفاء»، ثم يدعو طلابه ويقرأ معهم بعض ما كتبه بقطع النظر عن زمنه. فإذا حان موعد خروجه من داره يكون جميع الذين يريدون مقابلته قد تجمعوا خارجها. فكان يسير في مقدمتهم (على ظهر حصانه) إلى ديوانه، حيث ينظر في جماع قضاياهم وقضايا الدولة إلى الظهر. عندها يعود إلى الدار حيث يتناول طعام الغداء في صحبة عدد كبير من الضيوف. فإذا فرغ من ذلك واستراح، كان يذهب إلى البلاط حيث يخلو بالأمير للبحث في شؤون الدولة والبلاد.

ويبدو من هاتين الروايتين أن ابن سينا كان جم النشاط متنوع الهوايات الفكرية والعملية. كما يبدو أن الرجل لم يكن متزمتاً في تصرفه، فلم يمتنع عن السماع والموسيقى.

وحدث أن توجه شمس الدولة في حملة جديدة، واصطحب ابن سينا. وعاوده القولنج واشتد عليه، وانضاف إلى ذلك أمراض أخر جلبها سوء تدبيره، وقلة القبول من ابن سينا. وخشي العسكر وفاته فرجعوا به إلى همذان، وهو محمول في مهد، فتوفي في الطريق.

ثم بويع ابن شمس الدولة بالإمارة وهو تاج الملك (ويعرف أيضاً بسماء الدولة) وقد حكم من ٤١٢ إلى حوالى ٤١٩ (من ١٠٢١ إلى حوالى ١٠٢٨) وقد كان تحت نفوذ الكاكويين

بدءاً من السنة ٣٩٨/ ١٠٠٨، لما استولى علاء الدولة (٣٩٨ ـ ٤٣٣/ ١٠٠٨ ـ ١٠٤١) على همذان وأصفهان.

طلب ابن شمس الدولة من ابن سينا أن يَزِرَ له فأبى. وكاتب علاء الدولة حاكم أصفهان (وهمذان فيما بعد) سراً يطلب خدمته والمصير إليه والانضمام إلى جوانبه. وقام في دار أبي غالب العطار متوارياً.

كان الجوزجاني تلميذاً ملحافاً، ولذلك ألحّ على ابن سينا أن يتم كتاب «الشفاء». ومع أن الرجل كان متهماً، ومطارداً إلى درجة ما، ومتخفياً، ومنزعجاً، فقد لبى طلب تلميذه، لأنه هو كان يريد ذلك. ويصف هذا التلميذ ما حدث على النحو التالي: «استحضر ابن سينا أبا غالب مضيفه وطلب الكاغد (الورق) والمحبرة فأحضرهما. وكتب الشيخ (ابن سينا) في قريب من عشرين جزءاً على الثُمنْ بخطه رؤوس المسائل. وبقي فيه يومين حتى كتب رؤوس المسائل كلها بلا كتاب يحضره ولا أصل يرجع إليه، بل من حفظه، وعن ظهر قلبه. ثم ترك الشيخ (ابن سينا) تلك الأجزاء بين يديه وأخذ الكاغد. فكان ينظر في كل مسألة ويكتب شرحها. فكان يكتب كل يوم خمسين ورقة حتى أتى على جميع الطبيعيات والإلهيات، ما خلا كتابي الحيوان والنبات. وابتدأ بالمنطق وكتب منه جزءاً».

اتهمه تاج الملك بمكاتبته علاء الدولة، فأنكر عليه ذلك. وحث في طلبه، فدل عليه بعض أعدائه. فأخذوه وأرسلوه إلى قلعة يقال لها قردجان، حيث بقي أربعة أشهر. وقد نظم ابن سينا قصيدة يصف حاله جاء فيها قوله:

دخولي باليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

قصد علاء الدولة همذان ليضمها إلى أصفهان، ومع أنه نجح في حملته، الأمر الذي حمل تاج الملك على الفرار إلى قلعة قردجان، فإن علاء الدين عاد وانسحب يومها (تولى حكم همذان فيما بعد). ولما عاد تاج الملك إلى همذان حمل ابن سينا معه.

نزل ابن سينا في همذان في دار العلوي. وانصرف إلى التأليف. فكتب المنطق من كتاب الشفاء، وكان قد صنّف كتاب الهدايات وهو بالقلعة، كما صنّف رسالة حي بن يقظان وكتاب القولنج (أما الأدوية القلبية فوضعه أول وروده على همذان).

كان تاج الملك يمني ابن سينا بمواعيد جميلة، وإن كنا لا نعرف ما هي هذه المواعيد. فالوزارة قد رفضها ابن سينا مثلاً، وهي أعلى منصب في الدولة، ولم يف تاج الملك بوعد من وعوده.

وعلى كل فإن ابن سينا لم يكن يشعر بالطمأنينة في همذان. فالجند كانوا يشغبون عليه منعاً له من أن يولى الوزارة ومع أنه اعتذر عنها، فلم يكن ما يضمن له أن يرغم على ذلك.

ومن هنا جاءت رغبته المفاجئة في أن يغادر همذان، على أن يتم له ذلك وهو متخف، حتى لا تقبض عليه جماعة تاج الملك. فخرج متنكراً ومعه أخوه وتلميذه الجوزجاني وغلامان.

وكان التخفي في زي الصوفية. والطريق من همذان إلى أصفهان وعرة إذ تجتاز، في القسم الأكبر منها، إقليم الجبال. ولذلك قاست الجماعة الشدائد في الطريق.

كان الأمير علاء الدولة منتظراً مقدم الشيخ، لذلك لما وصل الجمع إلى طبران كان أصدقاء ابن سينا وندماء الأمير وخواصه في استقبالهم. وحملت إليهم الثياب واقتيدت المراكب الخاصة، وأنزلوا في دار لعبد الله بن بابى Baba، كانت عامرة بالآلات والفراش على أفضل ما تمناه ابن سينا.

وكان إذا حضر مجلس علاء الدولة لقي الإعزاز والاحترام الذي يستحقه. ورسم علاء الدولة ليالي الجمعات مجلس النظر بين يديه بحضرة سائر العلماء على اختلاف طبقاتهم، وابن سينا من جملتهم. فما كان يُطال في شيء من العلوم.

٥ ـ حياة ابن سينا في أصفهان

قضى صاحبنا أربع عشرة سنة في أصفهان، لم يشغل خلالها منصباً رسمياً في البلاط، لكنه كان دائم الصلة بعلاء الدولة، الذي كان على ما يبدو، يستشيره كثيراً بحيث أن بعض من كتب عنه ذكر أنه وَزِرَ للأمير.

لكن الشغل الذي انصرف إليه في أصفهان هو العمل في الكتب الكثيرة التي أنشأها من جديد أو تلك التي كان قد بدأها وأتمها هنا. فقد أتم هناك كتاب الشفاء، ففرغ من المنطق والمجسطي وكان قد اختصر إقليدس والأرتماطيقي والموسيقى. وأورد في كل كتاب من الرياضيات زيادات رأى أن الحاجة إليها ماسة. فعلى سبيل المثال فقد أورد عشرة أشكال في اختلاف القطر في المجسطي، كما أورد في آخره في علم الهيئة أشياء لم يسبق إليها. وأورد في إقليدس شبهاً لذلك. أما الأرتماطيقي فقد أضاف خواص حسنة. كما أن ما أضافه إلى الموسيقى كان مسائل غفل عنها الأولون. وهكذا تم كتاب «الشفاء» ما خلا كتابي النبات والحيوان. فإن هذين أتمهما وهو في صحبة علاء الدولة في حملته إلى سابورخواست. وفي تلك الرحلة صنّف أيضاً كتاب «النجاة».

عزم علاء الدولة على قصد همذان. وخرج ابن سينا في الصحبة. فجرى ليلة بين يدي علاء الدين ذكر الخلل الحاصل في التقاويم (الأزياج) المعمولة بحسب الأرصاد القديمة. فأمر علاء الدولة ابن سينا الاشتغال برصد الكواكب وأطلق له من الأموال ما يحتاج إليه. وابتدأ ابن سينا بذلك وولى تلميذه (الجوزجاني) اتخاذ الآلات واستخدام الصنّاع حتى ظهر كثير من المسائل. فكان الخلل يقع في أمر الأرصاد القديمة لكثرة الأسفار وعوائقها.

وصنّف ابن سينا في أصفهان الكتاب العلائي، هدية لعلاء الدولة.

كان علاء الدولة قد تولى حكم أصفهان سنة ٣٩٨/ ١٠٠٨، ولم يلبث أن استولى على همذان وأصبح سيد إقليم الجبال. على أن ذلك لم يكن يعني، في تلك الأيام، أن الأمير يطمئن إلى الهدوء في رقعة حكمه. فالعناصر المختلفة تقوم بحركات وثورات مستمرة، والأمراء الطامعون بالحكم يقاتلون القائمين عليه لانتزاعه منهم. وإلى الشرق كانت طلائع الغزنويين

تقترب من المناطق الغربية، وكان السلاجقة يتهيأون للانسياح غرباً.

في حملة قام بها علاء الدولة ضد تاش فراش، في سنة ٤٢٦/ ١٠٣٥، رافق ابن سينا الأمير. وفي الطريق أصاب الأول قولنج. وكان حريصاً على أن يشفى، حتى إذا ما أصاب الأمير انهزام لم يتأخر ابن سينا عن السير بسبب مرضه. لذلك فقد عالج نفسه بأن حقن نفسه في يوم واحد ثمان كرات. فتقرح بعض أمعائه وظهر به تقشر. ومع ذلك سار مع علاء الدولة فظهر به الصرع الذي يتبع علة القولنج. إلا أنه ظل يدبر نفسه ويحقن نفسه لعلاج التقشير وبقية القولنج.

فأمر يوماً باتخاذ دانقين من بزر الكرفس في جملة التركيبة العلاجية. ولكن أحد الأطباء الذي كان يتقدم لمعالجته أخطأ فطرح من بزر الكرفس خمسة دراهم (أي ما يزيد على عشرة أضعاف المطلوب). وليس هناك ما يرشدنا إلى السبب في ذلك، هل كان فعله عمداً مقصوداً أم كان خطأ؟ فازداد التقشير من حدة البزر. وكان يتناول المترود من أجل الصرع. فقام بعض غلمانه وطرح شيئاً من الأفيون فيه. فأكل ابن سينا ذلك. وكأن ذلك كان مقصوداً، فإن الغلمان كانوا قد نهبوا مالاً كثيراً من خزانته، فقصدوا هلاكه ليأمنوا شر أعمالهم.

حُمل ابن سينا إلى أصفهان، فاشتغل بتدبير نفسه، وكان من الضعف بحيث لا يقدر على القيام. ولم يزل يعالج نفسه حتى قدر على المشي وحضر مجلس علاء الدولة. إلا أنه، بسبب إهماله وتخليطه (في أمر المجامعة)، لم يبرأ من العلة. فكان ينتكس ويبرأ مداورة.

وقصد علاء الدولة همذان، وسار ابن سينا في صحبته. فعاودته علته في الطريق. ولما وصل همذان أدرك أن قوته قد سقطت، وأنها لا تقوم بدفع المرض. فأهمل مداواة نفسه. وكان يكرر قوله «إن المدبر الذي كان يدبر بدني قد عجز عن التدبير، والآن فلا تنفع المعالجة».

وظل على ذلك أياماً، ثم انتقل إلى جوار ربه. وكان ذلك سنة ٤٢٨/ ١٠٣٧، ودفن بهمذان (ولو أن رواية متأخرة تقول إنه نقل إلى أصفهان ودفن فيها).

ولما مات ابن سينا من القولنج، قال فيه بعض أهل زمانه:

رأيت ابن سينا يعادي الرجال ... وبالحبس مات أخس الممات
فلم يشف ما ناله بالشفا ... ولم ينج من موته بالنجاة

[الحبس = انحباس البطن بسبب القولنج
الشفا = كتاب من مؤلفات ابن سينا
النجاة = أيضاً من مؤلفات ابن سينا]

ننقل هنا قصتين عن ابن سينا تدلان دلالة لا بأس بها على شخصيته واستجابته للتحدي.

الأولى: «كان ابن سينا جالساً يوماً من الأيام بين يدي الأمير (علاء الدولة) وأبو منصور

الجبائي الإمام اللغوي حاضر. فجرى في اللغة مسألة تكلم فيها الشيخ (ابن سينا) بما حضره. فالتفت أبو منصور إليه يقول: إنك فيلسوف وحكيم، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك. فاستنكف الشيخ (ابن سينا) من هذا الكلام وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان من تصنيف أبي منصور الأزهري. فبلغ الشيخ (ابن سينا) في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها. وأنشأ ثلاث قصائد ضمّنها ألفاظاً غريبة من اللغة. وكتب ثلاث كتب أحدها على طريقة ابن العميد والآخر على طريقة الصابي والثالث على طريقة الصاحب ابن عباد. وأمر بتجليدها وإخلاق جلدها. ثم أوعز إلى الأمير فعرض تلك المجلدة على أبي منصور الجبائي. وذكر إنّا ظفرنا بهذه المجلدة في الصحراء وقت الصيد. فيجب أن تتفقدها وتقول لنا ما فيها. فنظر فيها أبو منصور وأشكل عليه كثير مما فيها. فقال له الشيخ (ابن سينا) إن ما تجهله من هذا الكتاب فهو مذكور في الموضع الفلاني من كتب اللغة. وذكر له الكثير من الكتب المعروفة في اللغة، كان الشيخ (ابن سينا) قد حفظ تلك الألفاظ منها. وكان أبو منصور مجزفاً فيما يورده من اللغة غير ثقة فيها، ففطن أبو منصور أن تلك الرسائل من تصنيف الشيخ (ابن سينا)، وأن الذي حمله عليه ما جبهه فيه في ذلك اليوم، فتتصل واعتذر إليه. ثم صنّف الشيخ (ابن سينا) كتاباً في اللغة سماه لسان العرب لم يُصنَّف في اللغة مثله، ولم ينقله إلى البياض حتى توفي، فبقي على مسودته لا يهتدي أحد إلى ترتيبه».

والقصة الثانية: كان الشيخ (ابن سينا) قد صنّف «المختصر الأصغر في المنطق» ووقعت نسخة منه إلى شيراز، فنظر فيها جماعة من أهل العلم هناك فوقعت لهم الشُبُه في مسائل منها، فكتبوها على جزء. وكان القاضي بشيراز من جملة القوم فأنفذ «بالجزء» إلى أبي القاسم الكرماني مع كتاب على يدي ركابي قاصد (أي رسول خاص) وسأله عرض «الجزء» على الشيخ (ابن سينا) واستيجاز أجوبته فيه. فدخل أبو القاسم على الشيخ (ابن سينا) عند اصفرار الشمس في يوم صائف، وعرض عليه الكتاب «والجزء» فقرأ الكتاب ورده عليه، وترك «الجزء» بين يديه، وهو ينظر فيه والناس يتحدثون. ثم خرج أبو القاسم. وعندها أمر الشيخ (ابن سينا) بإحضار البياض وقطع أجزاء منه. فشدّ تلميذه الجوزجاني خمسة أجزاء كل واحد منها عشر أوراق. وصلى الجميع العشاء، وقدّم الشمع (فأمر بإحضار الشراب) وأجلس ابن سينا أخاه وتلميذه هناك، وابتدأ هو بجواب تلك المسائل. وكان يكتب إلى نصف الليل حتى غلب النوم الأخ والتلميذ، فأمرهما بالانصراف. وعند الصباح قرع الباب عند التلميذ فإذا رسول ابن سينا يستعجله، فحضره وهو على المصلى، فقال له: خذ هذه الأجزاء الخمسة وسر بها إلى الشيخ أبي القاسم وقل له إني استعجلت في الأجوبة عن الأسئلة حتى لا يتعوق الركابي. فلما حملها التلميذ إلى أبي القاسم تعجب كل العجب، وأخبر الركابي بذلك وأنفذ معه الأجوبة».

٦ ـ ابن سينا بعد ابن سينا

أثر ابن سينا كان كبيراً بين الذين جاءوا بعده في دنيا العرب والإسلام، كما كان أثره

كبيراً جداً في أوروبا العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة.

كان لابن سينا تلاميذ بررة أخذوا بآرائه وفلسفته وحاولوا توضيحها. لكن الذي يبدو من استعراض الأجواء السياسية والثقافية والفكرية التي شغلت الناس في الفترة التي عقبت ابن سينا، هو أن الفلسفة، من حيث أنها فلسفة، فقدت سوقها في المشرق.

وابن سينا لقي العنت على أيدي المتصوفة والفقهاء والكلاميين. فالأول اتهموه بأنه لم يدرك التصوف لا مبنى ولا معنى، وأن شطحاته كثيرة. أما الفريق الثاني فقد تصدر له مناقشاً فيما سماه علة الوجود. فقد خالف ابن سينا القواعد الإلهية، في الوحي، والحديث، في محاولته التوفيق بين الشريعة والحكمة.

كان أشد خصومه، وأقدرهم على مقارعته، وأعندهم وأكثرهم صموداً له (ولمن سبقه) الغزالي (توفي ٥٠٥/ ١١١١)، وذلك في كتابه «تهافت الفلاسفة». وقد كانت الأجواء تيسر لتهافت الفلاسفة أن يسير قدماً وأن يقبل أساساً للجدل (طبعاً للغزالي كتب أخرى أهمها إحياء علوم الدين، لكن تهافت الفلاسفة كان تفنيداً منطقياً لابن سينا).

وحتى لما قام ابن رشد (توفي ٥٩٤/ ١١٩٨) في المغرب وانتصر للفلسفة ورد على الغزالي في كتابه «تهافت التهافت»، لم يجد عمله صدى له في المشرق. كان الناس قد فقدوا ثقتهم بالفلسفة أسلوباً لحل المشكلات.

ونود أن نشير هنا إلى كتاب «القانون في الطب». بالنسبة للمشارقة كان له دور كبير. صحيح أنه لم يكن وحيداً في الميدان، فالحاوي للرازي والملكي لعلي عباس وغيرهما من الكتب الأصغر حجماً كان لها دور أيضاً. لكن الذي نود أن نقوله هو أنه يوجد في الهند وباكستان إلى الآن مدارس للطب (هي جزء من الجامعات) تدرس الطب العربي، وإن كانوا يسمونه «طب يوناني» ويحصل الطلاب على شهادات رسمية ويمارسون التطبيب ممارسة قانونية. والذي يحمل شهادة من هذه الكليات يسمى حكيم. والذي أعرفه هو أن أكثر الذين يتعلمون هذا النوع من الطب هم من المسلمين؛ وقد زرت كلية طبية في جامعة عليكره بالهند وفي جامعة كراتشي في الباكستان. وهؤلاء «الحكماء» لا يعتمدون العلاجات الكيماوية أساساً للمعالجة، بل يعتمدون على أدوية مفردة ومركبة من الأعشاب والحيوان والمعادن، يقومون هم بإعدادها (عن طريق مؤسسات تجارية خاصة).

أما في الغرب الأوروبي فقد كان لكتاب القانون في الطب دور كبير جداً. ومع أن الغرب قد عرف «الحاوي» للرازي و«الملكي» لعباس علي، فقد سبق «القانون» كليهما. ترجم القانون إلى اللاتينية على يد جيرار الكريموني الذي قضى سنوات طويلة من حياته في طليطلة في القرن الثاني عشر (توفي ١١٨٧). وحظي القانون بترجمة ثانية، كانت مثل الأولى، إلى اللاتينية، وذلك على يد أندريا الباغوي Andrea Alpago (توفي ١٥٢٠). والمعروف أن القانون أصبح المتن الرئيس في مدارس الطب مثل بولونيا ومونبليه، بحيث إنه طبع ست عشرة طبعة (منها واحدة بالعبرية) قبل نهاية القرن الخامس عشر وطبع على الأقل عشرين مرة في القرن

السادس عشر. وقد ظل القانون المتن الطبي الأول إلى سنة ١٦٥٠ على التأكيد، ولعله ظل في أماكن أخرى بعد ذلك. وهذه الطبعات هي للترجمة اللاتينية، وهي تشمل الكتاب بكامله أو بأكثره. لكن كانت هناك طبعات كثيرة لأجزاء منه. فضلاً عن أن أعمالاً طبية أخرى لابن سينا ترجمت وطبعت.

لكن الشيء الذي يدعو إلى العناية هو أن القانون طبع (أو في أجزاء كبيرة منه على الأقل) باللغة العربية في روما قبيل نهاية القرن السادس عشر.

وقد كان الاهتمام بترجمة القانون وكتب ابن سينا الطبية الأخرى كبيراً، بحيث أنه حجب، لبعض الوقت، ما كان من أثر لابن سينا في المجال الفلسفي ومن أثر في تطور الفكر الغربي.

كان من المعروف أن أجزاء من «الشفاء» ومن كتاب «النجاة» وعدداً من الأعمال الفلسفية الصغرى قد وجدت طريقها إلى الغرب. ولكن الذي طغى على كل هذه النواحي هو الدور الذي شغله ابن رشد، شارح أرسطو الأول، في الفكر الفلسفي الغربي.

ولكن مع الوقت أخذ الباحثون يعثرون على آثار قوية لابن سينا في تطور التفكير اللاهوتي (لا في مادة اللاهوت) المسيحي في أوروبا. وقد طال هذا حتى توما الاكويني، زعيم الفكر اللاهوتي في القرن الثالث عشر.

وكان ممن وجد في ابن سينا ما أثار نزعته الفلسفية والفكرية روجر بيكون (توفي حوالى ١٢٩٤). وهكذا فإن ابن سينا ترك أثراً كبيراً.

٧ ـ ملاحظات عامة حول ابن سينا

إن الترجمة التي وضعناها لابن سينا تعتمد روايات مباشرة عنه وعن تلميذه. لكن أموراً كثيرة فيها غير واضحة. وقد جرّبنا أن نوضح بعض حالاتها من مصادر أخرى.

والواضح من الذي مر بنا أن ابن سينا قضى حياة مضطربة، وكأنه كان دوماً على سفر. ولم يكن سفره، في أغلب الحالات، سفراً مطمئناً. فكثيراً ما كان يهرب ويخرج متخفياً. وليس من شك في أن هذا أثر في أعماله الكتابية تأثيراً كبيراً.

لكن قوة عارضته وقدرته العجيبة مكّنتاه، مع ذلك من وضع عدد من الكتب، صنف بعضها وهو على سفر أو في السجن، أو في التخفي. وكان سريع الكتابة، قادراً على التركيز العقلي، بقطع النظر عن الظروف التي كانت تحيط به. وكان إلى ذلك يكتب أكثر من كتاب واحد في الوقت ذاته. فكتاب الشفاء والقانون ــ والأول فلسفي والثاني طبي ــ كتبا معاً. ومن هنا، كما يقول دارسوه، يبدو الشبه في التخطيط والترتيب والتصنيف في هذه الكتب.

ثمة أمر آخر حري بعنايتنا وهو أن ابن سينا كان فقيهاً وفيلسوفاً وصوفياً وطبيباً وعالماً في الرياضيات والفلك ولغوياً، وفضلاً عن ذلك فقد كان شاعراً. وقد كتب ابن سينا أكثر كتبه باللغة العربية، ولو أنه كتب بالفارسية أيضاً. وكانت بضاعته الشعرية بالفارسية أكثر من بضاعته النثرية بها.

وإذا تذكرنا أن اثنين من الفلاسفة المسلمين سبقا ابن سينا، وهما الكندي والفارابي، فإننا يتوجب علينا أن نعترف لابن سينا بأنه كان من أولئك الذين صقلوا العربية لاستيعاب التعابير الفلسفية وما إليها. صحيح أن الكندي كان أوّل من وضع قاموساً فلسفياً عربياً، وأن الفارابي هو الذي يسّر لابن سينا تفهم ما وراء الطبيعة لأرسطو، لكن الصحيح أيضاً أن المدى البعيد والآفاق الواسعة التي اكتشفها ابن سينا جعلت منه «مفكراً» فذاً في عالم الفكر العربي الإسلامي.

وقد تبدو لغته في بعض الأحيان صعبة فجة، وقد لا يتفق الكثيرون على معنى ما ذهب إليه من أمور، ولكن هذه أمور طبيعية في الكثير من الكتابات الفلسفية. فكيف وابن سينا كان يقوم بفتح جديد تقريباً، وقد وضع مؤلفاته وهو في جو مضطرب كما رأينا.

وابن سينا أول فيلسوف إسلامي تولى الوزارة، أي إنه انخرط في الحياة العامة انخراطاً تاماً. ومع أنه لم يكن وزيراً لعلاء الدولة بالمعنى الوظيفي الدقيق، فقد كان يحضر مجلسه ويرافقه في حملاته ورحلاته، وما نحسب إلا أنه كان يستشار في أمور كثيرة.

وحتى في حياته الخاصة لم يكن من أولئك الذين يقبعون في بيوتهم كي يتأملوا ويكتبوا. لقد كانت حياته حياة رجل يحب العيش اليسير والحياة المليئة بالأطايب. والرجل لم يتزوج، لكنه لم يترهب أيضاً.

عاصر ابن سينا كثيرين من أهل العلم والفلسفة واتصل بهم. ولعل أهم من اتصل بهم هو أبو الريحان البيروني (توفي ٤٤٠/ ١٠٥٨). وقد نقلنا قصة، لا ندري مدى صحتها، عن اجتماعهما مع الخمّار والمسيحي وابن العرّاق في البلاط الخوارزمي، لكن المهم هو أن الرجلين تراسلا، واختلفا. وهناك مجموعتان من رسائل ابن سينا فيها أجوبة عن ست وعشرين مسألة وجهها البيروني لابن سينا. وفي المسائل والأجوبة خصومات، وهي خصومات وخلافات فكرية. إلا أن هناك من يرى أن هذه الخصومة كانت سياسية. فالبيروني كان في بلاط الغزنويين الأتراك الطامعين في فتح غرب إيران، وكان ابن سينا في بلاطات أكثرها كان فارسياً، وكانت آراؤه الإسماعيلية، صحيحة كانت أو غير ذلك، تسبب له إزعاجاً وخصومات.

وكان مسكويه (توفي حوالى ٤٢١/ ١٠٢٩)، وهو من معاصري ابن سينا، يُعنى بالأخلاق ودراسته، فضلاً عن اهتمامه بالتاريخ واللغة. وكان ابن سينا «يستعلي على مسكويه ويعيّره بجهله في الرياضيات وعلومها». ويروى أن ابن سينا دخل على مسكويه مرة فوجده يقرأ في الأخلاق، فسأله أن يقيس سطح الجوزة، غامزاً من جهله بالرياضيات. فرماها مسكويه إليه وقال له: «إنك أحوج إلى إصلاح أخلاقك مني إلى معرفة مساحة هذه الجوزة».

ولم يكن ابن سينا متواضعاً قط. كما أنه لم يتمكن من ضبط لسانه عندما يتعرض لأهل الفكر، الأحياء منهم والأموات. فقد قال عن الرازي (الطبيب الفيلسوف) إنه كان لا يفقه شيئاً في الفلسفة، وكان الأحرى به أن يقتصر على فحص الخروج والبول.

وهناك ملاحظة من تلميذه الجوزجاني تستحق التدوين في هذا الموضع. قال: «وكان

من عجائب أمر الشيخ (ابن سينا) أني صحبته وخدمته خمساً وعشرين سنة، فما رأيته، إذا وقع له كتاب مجدّد ينظر فيه على الولاء، بل كان يقصد المواضع الصعبة منه والمسائل المشكلة فينظر ما قاله مصنفه فيها، فيتبين مرتبته في العلم ودرجته في الفهم».

٨ ـ مصنفات ابن سينا

في الكتاب الذي وضعه الأب جورج قنواتي عن «مؤلفات ابن سينا» (جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية، القاهرة ١٩٥٠) أورد «٢٧٦» بنداً أو اسماً. وهذه تختلف من الكتاب الواحد المكون من مجلدات عديدة، إلى رسائل قصيرة. وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أن بعضاً من هذه المؤلفات هي أجزاء من المصنفات الضخمة، وأن بعض الرسائل مكرر أصلاً، نقص العدد بعض النقص. وحتى الذين استكثروا هذا العدد من الباحثين أصروا على أن لابن سينا ما يزيد على مائة من المصنفات. وخير ما في الأمر هو أن أكثر هذه وصل إلينا؛ ومع أن قسماً كبيراً مهماً لا يزال مخطوطاً فإن ما نشر يضع بين أيدي الباحثين قدراً صالحاً للتدبر في الأمر.

وهناك أمور تتعلق بمؤلفات ابن سينا يصح أن نضعها الآن بين أيدينا، قبل أن نتحدث عن هذه المؤلفات:

أولاً: يقول ابن سينا إنه وضع كتابيه ـ كتاب الشفاء وكتاب اللواحق ـ وجعلهما أكثر بسطاً من غيرهما وأقرب إلى حاجة الشركاء. أما كتاب «الفلسفة المشرقية» فإنه يجمع فيه كلاماً اختلف فيه أهل البحث، وأورد فيه الفلسفة على ما عليه في الطبع، دون تقيد بحاجة الشركاء. والشركاء الذين يقصدهم ابن سينا هم الجمهور أو العامة الذين يريدون دراسة الفلسفة.

ثانياً: حملت هذه الأقوال، التي تتكرر في أكثر من كتاب من كتبه، بعض الباحثين على القول بأن ابن سينا كان ثنائي التفكير الفلسفي؛ حتى ذهب البعض إلى القول بأن ابن سينا كان كذلك، أي إنه كان له مذهبان في نظراته الفلسفية. إلا أن أكثر دارسيه اليوم لا يرون ذلك؛ لكنهم يدركون أن الرجل كتب على مستويين. وفي هذه الحالة فإن ابن سينا لم يخرج عن المألوف عند القدامى من أن الحكمة (الفلسفة) يجب أن تصان عن عامة الناس. فهذه مقولة قديمة تعود إلى الصين والهند واليونان. وابن سينا أراد منها أيضاً أن نصون كتبه التي يعرض فيها أسرار الحكمة المشرقية عن عامة الناس. ونحسب أن الدافع عند هؤلاء المفكرين إطلاقاً يعود إلى اعتقادهم أن مثل هذه الأسرار الحكمية هي أكبر من أن يدركها العامة.

ثالثاً: كتب ابن سينا الفلسفية، على ما وصلتنا، فيها الكثير من النقص. وهذا ينجر بشكل خاص على اثنين منها وهما كتاب «الإنصاف» وكتاب «حكمة المشرقيين»، إذ لم يصلنا منهما سوى قطع. وكتاب الانصاف مهم بشكل خاص لأن ابن سينا كتبه في أواخر حياته، بعد أن كان قد بلغ من النضج الفكري أقصاه.

وبعد هذه الملحوظات ننتقل الآن إلى وصف بعض ما كتب ابن سينا.

أ ـ «كتاب الشفاء» ـ موسوعة فلسفية كاملة. ويشتمل الكتاب على أربعة أقسام أو مباحث رئيسة هي المنطق والطبيعيات والرياضيات والإلهيات. [الإلهيات هنا تعني ما وراء الطبيعة عند اليونان وهي المسماة ميتافيزيك metaphisics]. والمنطق يدخل ابن سينا فيه الخطابة والشعر؛ والطبيعيات أو العلم الطبيعي يدخل في عداده الحركة والتغيير وعلم النفس وعلم الحيوان والنبات والجيولوجيا. وتشمل الرياضيات، فضلاً عن الهندسة والحساب، الموسيقى وعلم الهيئة. والإلهيات أو العلم الإلهي يشمل شيئاً من الأخلاق والسياسة.

ب ـ «كتاب النجاة» (أي النجاة من الجهل) هو موجز لكتاب الشفاء ولو أن الإيجاز لا يشمل جميع أجزائه، فثمة فصول مأخوذة من «الشفاء» بكاملها.

ج ـ كتاب «حكمة المشرقيين» ـ وصلتنا منه قطعة صغيرة نسبياً.

د ـ «كتاب الإنصاف» ـ لم يصلنا منه سوى نصوص ثلاثة لا تكفي للحكم عليه أو له. وقد سمى ابن سينا كتابه الإنصاف، لأنه يعرض فيه (كما نعرف عنه) العلماء المغربيين والمشرقيين ويعارض الفئة الواحدة بالأخرى، ثم يحكم بالإنصاف.

هـ ـ كتاب «الإشارات والتنبيهات». وهذا كتاب يتناول المنطق والطبيعيات والإلهيات، والإشارات والتنبيهات استعملها المصنف بدل الأقسام أو الأجزاء أو الأبواب والفصول. وعلى أساس ما ذكرنا من قبل فإن هذا الكتاب ـ مع أنه يتناول الموضوعات الواردة فيما سبق من الكتب ـ يتحدث عنها على مستوى أرفع، بحيث يدركه أصحاب الحكمة لا الشركاء من العامة.

و ـ «رسالة الطير» و«رسالة العشق» و«قصة حي بن يقظان» (وهي غير قصة ابن طفيل) ـ هذه كلها من نوع كتاب الإشارات والتنبيهات، ولكنها صور رمزية لآراء ابن سينا في الحكمة (الفلسفة) من حيث إنها نظرة شاملة للكون. وفيها فضلاً عن النظرات الفلسفية، التبرم بأشكال التعبير الفلسفي والرغبة في تجاوزه لا من حيث أنه تعبير أو تدليل فحسب، بل من حيث أنه توق إلى الأسمى. وهذه ـ مع قصيدة النفس ـ فيها رموز كثيرة، وأكثرها تتعلق بالنفس.

ز ـ «القانون في الطب» ـ وهذا الكتاب أدق تركيباً من كتبه الفلسفية، فهو بناء متكامل منتظم التخطيط والتنفيذ. ويمكن وصفه بأنه موسوعة طبية لما عرف من شؤون الصحة والمرض والتطبيب إلى أوائل القرن الخامس/ الحادي عشر.

ويقسم إلى خمسة كتب هي:

١ ـ في الأمور الكلية في الطب.

٢ ـ الأدوية (النباتية أصلاً) المقررة على حروف المعجم.

٣ ـ الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الإنسان (عضواً عضواً).

٤ ـ الأمراض الجزئية التي لا يختص وقوعها بعضو معين.

٥ ـ الأدوية المركبة أي أقراباذين.

ح ـ ومن الكتب الطبية «الأدوية القلبية» ـ وهي رسالة مختصرة تشمل على أحكام

الأدوية القلبية.

وابن سينا يرى أنه ثمة فلسفة عملية هي علم الأخلاق وتدبير المنزل والعلم السياسي والشريعة. وقد وضع ابن سينا كتباً في هذه الموضوعات منها:

ط ـ الأخلاق ـ لمعرفة الفضائل والرذائل وكيفية اتباع الأولى والتنكب عن الثانية.

ي ـ السياسة: ـ ١: في سياسة الرجل نفسه و٢: دخله وخرجه. و٣: أهله. و٤: ولده. و٥: خدمه.

هـ ـ «البرّ والإثم» ـ وهي في الأخلاق والتصرف.

و ـ «إثبات النبوة» ـ يرى ابن سينا أن جميع ما يحتاجه المرء (والمجتمع) في حياته من أخلاق وإدارة وسياسة إنما يحقق تفصيله بالشريعة الإلهية، التي هي سبيل تحقيق وجود الإنسان. وهذه الشريعة هي التي سُنّت بإذن من الله إلى نبيه (ص). ومن ثم فإن الكتاب يبحث هذين الأمرين ـ النبوة والشريعة ـ من حيث ضرورتهما للمجتمع.

ز ـ «دانشنامة علائية» ـ وضع ابن سينا هذا الكتاب باللغة الفارسية لعلاء الدولة لما كان بأصفهان. وهو لا يخرج عن كتب مثل الشفاء أو النجاة إلا من حيث الاختصار واللغة. فهو خلاصة فلسفية لمصلحة الأمير الذي لا يعرف العربية.

٩ ـ الدول الواردة ذكرها في ترجمة ابن سينا

أ ـ الدولة السامانية (٢٠٤ ـ ٣٩٥/ ٨١٩ ـ ١٠٠٥) في خراسان وما وراء النهر (خلف نهر سرداريا). أنشأها أحمد بن سامان، حاكم فرغانة أصلاً. عاصمتها بخارى.

عني حكامها بالعلماء والأدباء. كانت لهم في بخارى مكتبة ضخمة هي التي وصفها ابن سينا. وقد احترقت بعد استعماله لها بمدة وجيزة.

ب ـ دولة «خوارزم شاه» (٣٨٥ ـ ٤٠٨/ ٩٩٥ ـ ١٠١٧). تقع خوارزم في الحوض الأسفل لنهر أوكسُس (سرداريا) (وهي التي أصبحت فيما بعد دولة خان خيوه). والفترة الأولى منها كانت فترة بني مأمون في كوركانج العاصمة (الجرجانية) التي انتهت بالغزو الغزنوي. وهذه الفترة دامت من ٤٠٨ ـ ٤٢٣/ ١٠١٧ ـ ١٠٣٢.

[نقتصر على هاتين الفترتين لارتباطهما بحياة ابن سينا].

ج ـ الدولة الغزنوية (٣٦٦ ـ ٥٨٢/ ٩٧٧ ـ ١١٨٦). قامت هذه الدولة في خراسان وأفغانستان ثم توسعت نحو الهند وكانت العاصمة غزنة.

أشهر الملوك المرتبطة أخبارهم بابن سينا (١) محمود (٣٨٨ ـ ٤٢١/ ٩٩٨ ـ ١٠٣٠)، وهو الذي طلبه من الأمير المأمون، والذي كان ابن سينا يهرب منه. و(٢) مسعود (٤٢١ ـ ٤٣٢/ ١٠٣١ ـ ١٠٤١)، وهذا الذي احتل أصفهان بعد وفاة ابن سينا بقليل، ونهب المدينة وضاعت بذلك بضعة مخطوطات من تأليف فيلسوفنا.

د ـ الدولة الزيارية (٣١٥ ـ حوالى ٤٨٣/ ٩٢٧ ـ حوالى ١٠٩٠).

قامت هذه الدولة في طبرستان وجرجان، على سواحل بحر قزوين. وقد كانت العاصمة

في جرجان.

كان أميرها قابوس (٣٦٧ ـ ٤٠٢/ ٩٧٨ ـ ١٠١٢)، الأمير الذي قصده ابن سينا هرباً من وجه محمود الغزنوي. ويبدو أن إقامة ابن سينا في بلاط قابوس، إن كانت قد تمت فعلاً، كانت قصيرة. لكن ابن سينا ذهب إلى جورجان في عهد خليفته وكان هناك الشيرازي الذي عني به.

هـ ـ الدولة البويهية (٣٢٠ ـ ٥٥٤ / ٩٣٢ ـ ١٠٦٢). على أن الذي يهمنا من هذه الدولة، بالنسبة إلى ابن سينا، هو الفرع الذي حكم إقليم الجبال، وهو الإقليم الجبلي الذي يقع إلى الشرق من منطقة فارس المتاخمة للخليج العربي. وقد كان منه فرعان يهمنا منه فرع الري (٣٦٦ ـ ٤٢٠/ ٩٧٧ ـ ١٠٢٩) وبخاصة مجد الدولة (٣٨٧ ـ ٤٢٠/ ٩٩٧ ـ ١٠٢٩) وهو أخو شمس الدولة (٣٨٧ ـ ٤١٢/ ٩٩٧ ـ ١٠٢١)، من فرع همذان وأصفهان.

وقد أقام ابن سينا عند كل منهما، أولاً عند مجد الدولة ثم عند شمس الدولة.

و ـ الدولة الكاكوية (٣٩٨ ـ ٤٤٣/ ١٠٠٨ ـ ١٠٥١). مؤسسها علاء الدولة (٣٩٨ ـ ٤٣٣/ ١٠٠٨ ـ ١٠٥١). قامت هذه الدولة في غرب إيران ووسطها.

كانت عاصمتها الأولى أصفهان، ثم احتلت همذان.

ومن هنا كانت دولة البويهيين في همذان وأصفهان تحت حماية علاء الدين الكاكوي.

وفي بلاطه أقام ابن سينا السنوات الأخيرة من حياته.

١٠ ـ المدن والأماكن الوارد ذكرها في ترجمة ابن سينا

بَلْخ، هي مدينة بكترا اليونانية بنيت بعد الإسكندر. وكانت مركزاً من مراكز الحضارة الهلنستية في تلك المنطقة. ومع أنها لقيت إهمالاً فيما تلا من الأيام، فإنها استعادت الكثير من أهميتها التجارية والاستراتيجية في الأيام السامانية. وقد وصفها الجغرافيون العرب في القرن الرابع/ العاشر بأنها «أم البلاد». وقد اعتنى الغزنويون بمدينة بلخ أيضاً. وفي بلخ كان يقوم الدير البوذي المشهور النوبهار، والذي كان يتولى أمره برمك، جد البرامكة، وزراء هارون الرشيد.

بخارى، تشغل بخارى واحة واسعة في ما وراء النهر. وهي مدينة إيرانية قديمة كان التجار الصينيون يسمونها «بو ـ هو». وقد كانت على طريق الحرير البري. ومثل بلخ، كانت بخارى مركزاً بوذياً كبيراً. وبعد الفتح العربي أصبحت تدريجاً واحداً من المراكز العلمية الكبرى في المشرق الإسلامي. ومن علمائها الكبار البخاري أحد كبار جامعي الحديث (صحيح البخاري). وكانت بخارى عاصمة السامانيين. وقد عمل السامانيون (٢٠٤ ـ ٣٩٥/ ٨١٩ ـ ١٠٠٥) عل تزيين المدينة بالأبنية الجميلة وعلى تنشيط التجارة. وكان بلاطهم يرعى أهل العلم والأدب. وقد عرف فيه، فضلاً عن ابن سينا، أمثال دقيقي الشاعر الفارسي والفردوسي صاحب «الشاهنامه» (كتاب الملوك). وخزانة الكتب التي كانت عند السامانيين ضخمة وغنية.

خوارزم، هي المنطقة الخصبة التي تتكون من مجري نهر أوكْسُس (سرداريا) الأدنى، والتي أصبحت في أيام المغول إمارة خيوه، وقد احتلها قتيبة بن مسلم (٩٢/ ٧١٢). إلا أن

ملوك خوارزم لم يعتنقوا الإسلام إلا بعد ذلك بنحو قرن أو يزيد. العاصمة كوركانج.

كوركانج نمت وازدهرت هذه المدينة في القرن الرابع/ العاشر، بسبب أنها كانت محطة للقوافل القادمة من سيبيريا وجنوب روسيا. وفي ذلك الوقت لقب حكامها أنفسهم «خوارزمشاه». وقد كان من حكامها المأمونيون. ويطلق على كوركانج اسم الجرجانية أيضاً. أما اليوم فالمدينة الرئيسة هي خيوه.

طوس، مدينة في خراسان تبعد عن نيسابور نحو عشرة أميال. بها قبر الخليفة هارون الرشيد. ومن أهلها الإمام الغزالي (توفي ٥٠٥ ـ ١١١١) صاحب إحياء علوم الدين.

جرجان، هي مدينة هركانيا القديمة الواقعة على الزاوية الجنوبية الغربية لبحر قزوين. وكان لها دور هام في عصر الدولة الساسانية، إذ كانت تقف سداً دون غزوات البدو. وفي سنة ٩٨/ ٧١٦ قام سكان المنطقة بثورة ضد العرب، فلما أخمدت بنى الحاكم (يزيد بن المهلب) مدينة جورجان، التي أصبحت عاصمة الإقليم، وكانت غنية جداً في القرنين الثالث والرابع/ التاسع والعاشر، بسبب وقوعها على طريق القوافل الروسية. وقد قامت في جرجان (في منطقة جورجان وطبرستان) الدولة الزيارية. أقام ابن سينا فترة طويلة في جرجان.

الري، تقع الري، وهي راغه القديمة، على نحو ثمانية كيلومترات من طهران الحالية. على الطريق الموصل بين شرق إيران وغربها. وكانت مركزاً هاماً للزرادشتية. كانت مدينة مقدسة من صنع أهورا مزدا. وقد تقلبت عليها ظروف الحدثان؛ فقد حصّنها دارا الكبير، وهدمها الإسكندر لامتناعها عليه، وبناها سلوقس نيكاتور خليفة الإسكندر من جديد. كانت آخر معقل لآخر ملك ساساني وهو يزدجر، الذي تغلب العرب عليه. وفيها ولد هارون الرشيد. ولما أنشأ البويهيون دولتهم هنا كانت الري مفخرة من مفاخر الإسلام، وكانت فيها خزانة كتب ضخمة. جعلها فخر الدولة (٣٦٦ ـ ٣٨٧/ ٩٧٧ ـ ٩٩٧) مركزاً كبيراً للعلم. وإليها جاء ابن سينا أيام مجد الدولة (٣٨٧ ـ ٤٢٠/ ٩٩٧ ـ ١٠٢٩).

همذان، تقع في أواسط إيران، وتتوسط سهلاً خصباً. وهي مدينة قديمة ورد ذكرها في النقوش الآشورية، احتلها العرب بعد معركة نهاوند. وقد كانت في القرن الرابع/ العاشر على ما وصفها الجغرافيون العرب، مدينة كبيرة، حصينة. ولما استولى عليها مردويج بن زيار (٣١٥/ ٩٢٧) قتل الكثير من سكانها، كما تعرضت لزلزال كبير (٣٤٥/ ٩٥٦). كانت الخلافات الدينية والمذهبية عنيفة في همذان في القرن الرابع/ العاشر. ولم يعرف عن همذان أنها كانت مركزاً للثقافة، بل إنها كانت مدينة تجارية. وما يذكر من الصناعات بالنسبة لأسواقها إنما كانت أشياء مستوردة إليها، إذ لم يعرف عنها اشتهار بصناعة ما. وقد دهمها الغُزّ التركمان (٤٢٠/ ١٠٢٩)، وأخيراً احتلها السلاجقة (٤٩٤/ ١١٠٠).

أصفهان، كانت أصفهان، بعد الفتح العربي جزءاً من إقليم الجبال. والكلمة اسم للمدينة، كما هي للولاية التي اختلفت حدودها باختلاف أصحاب السلطان والنفوذ. وفي القرن الرابع العاشر أصبحت عاصمة للبويهيين (فرع إقليم الجبال) وتقلبت عليها الأيام فكانت

عاصمة لفخر الدولة، ثم لدولة الكاكويين. وقد وسعت المدينة وجمّلت في أيام بني بويه إذ كانت بيوتها الخاصة وقصورها العامة متعة للناظرين، وكانت حدائقها واسعة (ولا تزال إلى يوم الناس هذا على ما نعرف شخصياً). وحماماتها كثيرة وأسواقها عامرة. ولم يكن سواها وسوى الري مدينة مثلها بين العراق وخراسان، على ما يقول ابن حوقل. وكانت مركزاً للعلم والأدب؛ كما كانت تزدحم بالسكان.

إقليم الجبال، إقليم الجبال بالنسبة للجغرافيين العرب، هو المنطقة الجبلية المحاذية لفارس المتاخمة للخليج العربي. وكان إقليم الجبال يمتد من همذان إلى أصفهان ويزد، على اختلاف يسير بين حدوده الطبيعية. ويحد إقليم الجبال شرقاً كرمان، وإلى الشمال الغربي من إقليم الجبال يقع إقليم الديلم.

شيراز، تقع في الجنوب الغربي من إيران. وهي أول مدينة جبلية يصل إليها المصعد من شاطىء الخليج العربي والمتجه شرقاً. ولم يكن ثمة سوى قلاع أو حصون دفاعية، في أيام الدولة الفارسية (الساسانية). وقد ظل المكان على ما هو عليه بعد الفتح العربي إلى أن جاء الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥) الذي عين الحجاج حاكماً على العراق وما إليه. فأرسل هذا أخاه محمداً وكيلاً عنه إلى منطقة فارس. ومحمد هذا هو الذي خطط شيراز وأقام الأبنية الرئيسة الأولى. وفي أيام عضد الدولة البويهي (٣٣٨ ـ ٣٧٢/ ٩٤٩ ـ ٩٨٣) كانت شيراز مزدحمة بالسكان وغنية جداً. وقد بنى عضد الدولة ضاحية لشيراز خاصة بجنده، وأنشئت فيها الأسواق على جانبي الشوارع. لكن المدينة خربت بعد أن استوطنتها قبائل كردية، ثم تولت السلطة في إقليم فارس (٤٥٤/ ١٠٦٢) واقتتلت فيما بينها. وقد نزل الخراب في عدد من مدن المنطقة. وما فيها من آثار حتى الآن، على ما شاهدنا، يدل على عظمتها السابقة.

١١ ـ أسماء الرجال الواردة في ترجمة ابن سينا

نوح بن منصور، هو من ملوك الدولة السامانية (٢٠٤ ـ ٣٩٥/ ٨١٩ ـ ١٠٠٥)، حكم ٣٦٥ ـ ٣٨٧/ ٩٧٦ ـ ٩٩٧، وكان يلقب الأمير الرضا. كانت سنه، لما تولى الحكم، ثلاث عشرة سنة. وقد جاء وقت كانت فيه الدولة السامانية أقوى دولة في إيران وما وراء النهر. إلا أن عوامل الضعف بدأت تظهر في أواسط القرن الرابع/ العاشر، بسبب ثورات داخلية وخصومات بين رجال الحكم أنفسهم. وجاء عصر نوح بن منصور في هذه الفترة. قضى ابن سينا السنوات الثلاث والعشرين الأولى من حياته في بخارى، في أيام نوح بن منصور ومنصور وعبد الملك. لكنه خرج من المدينة قبل أن تقع في أيدي الغزنويين (٣٩٥/ ١٠٠٥).

أبو نصر الفارابي، فيلسوف إسلامي ولد في فاراب في بلاد ما وراء النهر. وبعد أن تلقى العلم في مدارس المشرق جاء بغداد وفر ورحل إلى مصر، وأخيراً استقر في بلاط الحمدانيين في حلب في أيام سيف الدولة (٣٣٣ ـ ٣٥٦/ ٩٤٥ ـ ٩٦٧). وتوفي فيها (سنة ٩٥٠).

والفارابي، من حيث انه من أهل الفكر الكبار في الإسلام كان من المشهورين بدراسة المنطق وتدريسه. وهو صاحب كتاب «المدينة الفاضلة» التي يعكس كثيراً من آراء أفلاطون. وابن سينا يروي أن كتاب الفارابي هو الذي فتح له ما استغلق من أرسطو.

علي بن مأمون، هو أمير من أمراء خورزمشاه وقد حكم من ٣٨٧ الى ٣٩٩/ من ٩٩٧ الى ١٠٠٩. كان شديد العطف على أهل العلم وادب.

السلطان محمود الغزنوي، قامت الدولة الغزنوية (٣٦٦ ـ ٥٨٢/ ٩٧٧ ـ ١١٨٦) أصلاً تحت نفوذ السامانيين. لكن في أيام السلطان محمود (الملقب يمين الدولة) أصبحت دولة مستقلة. وفي أيام محمود هذا (٣٨٨ ـ ٤٢١/ ٩٩٨ ـ ١٠٣٠) أصبحت الدولة الغزنوية تمتد من شرقي لاهور في الشرق إلى الري وهمدان في إيران غرباً، ومن بلخ ومرو وجرجان شمالاً إلى الخليج العربي وخليج عُمان جنوباً. وقد كانت أوسع دولة منذ قيام الدولة العباسية في المشرق الإسلامي. وكان لها جيش قوي هو الذي حفظها وقتاً طويلاً. ومع أن ابنه مسعود (٤٢١ ـ ٤٣٢/ ١٠٣١ ـ ١٠٤١) أضاف إقليم الجبال إلى الدولة، فإنها من حيث وحدتها أخذت تتجزأ بين الورثة. والذي يهمنا، بالنسبة لابن سينا، هو محمود بالذات لأنه كان يحب أن يضمه إلى بلاطه، لكن ابن سينا، كما رأينا ترك بخارى خشية الوقوع تحت نفوذ محمود، وهرب من خوارزم (٤٠٩/ ١٠١٢) مع المسيحي وتلميذه الجوزجاني إلى جرجان. وفي أيام مسعود احتل الغزنويون أصفهان ونهبوا المدينة بما فيها مكتبة ابن سينا.

الثعالبي، هو أبو منصور الثعالبي الذي كان معاصراً لابن سينا (٣٥٠ ـ ٤٢٨/ ٩٦١ ـ ١٠٣٨). قضى الثعالبي بعض الوقت في بلاط مأمون بن علي (٣٩٩ ـ ٤٠٧/ ١٠٠٩ ـ ١٠١٧) ولعله اجتمع هناك بابن سينا. يعتبر الثعالبي من كبار رجال «الأدب» بالمعنى العربي الواسع، ومؤلفه المشهور، «يتيمة الدهر»، يضعه في مقدمة هؤلاء.

المسيحي، هو أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني. وقد تلقى الطب في بغداد، وكان أحد أطباء البلاط الخوارزمشاهي في أيام مأمون، حيث اجتمع بابن سينا، ودامت صحبتهما. ولما هرب هو وابن سينا وتلميذ هذا الأخير، اجتازت الجماعة منطقة جافة، وهبت عليها ريح عاتية، فلم يتحملها المسيحي وتوفي هناك. ويقول ابن أبي أصيبعة إن المسيحي كان أحد الذين أخذ ابن سينا الطب عنهم. ومعنى هذا أن المسيحي كان في بلاط السامانيين قبل أن يذهب إلى بلاط الخوارزمشاهيين. وللمسيحي كتب في الطب عديدة يقال إن أشهرها هو كتاب «المائة في الطب»، وهو على حد تعبير أحد الأطباء المتأخرين عن المسيحي، «كتاب كثير التحقيق قليل التكرار واضح العبارة منتخب العلاج».

البيروني، هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٤٦٢ ـ ٤٤٠/ ٩٧٣ ـ ١٠٤٨) واحد من كبار العلماء الرياضيين والفلكيين في العالم. ولد في خوارزم وتلقى الفلك على أبي نصر منصور بن علي. كان أول أمره في بلاد خوارزم شاه، ثم انتقل إلى جرجان، ثم عاد إلى موطنه، وحمله محمود الغزنوي (٤٠٧/ ١٠١٧) إلى غزنة. لكن مسعود بن محمود (٤٢١ ـ ٤٣٢/

١٠٣١ ـ ١٠٤١) هو الذي عرف للبيروني فضله، فأغدق عليه. وهناك وضع هذا العالم كتابه الكبير في الفلك والأزياج وسماه «القانون المسعودي» نسبة للسلطان نفسه. وقد اجتمع البيروني مع ابن سينا في بلاط علي بن مأمون (٤٨٧ ـ ٣٩٩/ ٩٩٧ ـ ١٠٠٩)، كما تراسلا فيما بعد.

قابوس، أمير من أمراء الزياريين الذين أقاموا لهم دولة في طبرستان وجرجان في سواحل بحر قزوين (حوالى ٣١٥ ـ ٤٨٣/ حوالى ٩٢٧ ـ ١٠٩٠). وقد امتدت سلطة الزياريين، في عهد مؤسسها مَرْداويج بن زيار، بحيث شملت أصفهان وهمذان. إلا أنه قتل (٣٢٣/ ٩٣٥) على أيدي جنوده الأتراك، وتقسمت دولته، ولم يبق للأسرة إلا طبرستان وجرجان. وكان قابوس (٣٦٧ ـ ٤٠٢/ ٩٧٨ ـ ١٠١٢) من أمراء هذه الدولة الذين رعوا أهل العلم. وقد سعى ابن سينا إليه لما هرب من الجرجانية (كورجانج)، لكنه لم يلقه، لأن قابوس أسر وسجن وقتل بعد ذلك. ولو أن بعض المؤرخين يذكرون خطأ أن ابن سينا لقي قابوس الذي أكرم وفادته.

الجوزجاني، هو أبو عبيد عبد الواحد بن محمد الجوزجاني، الذي لقيه ابن سينا في جورجان (٤٠٢/ ١٠١٢)، والذي ظل ملازماً لابن سينا حتى وفاته. وهو الذي دوّن لنا ترجمة لابن سينا خلال هذه السنوات الخمس والعشرين. وحريّ بالذكر، أننا نحن مدينون للجوزجاني لا بالنسبة لهذه الأحداث فحسب، بل وفي إلحاحه على ابن سينا أن يأخذ نفسه بالكتابة وإتمام كتب كان قد بدأها وتركها جانباً مثل «الشفاء» و«القانون». فضلاً عن أن هذا التلميذ هو الذي كان يحرص على جمع الرسائل الصغيرة التي كان ابن سينا يكتبها ولا يعنى بالاحتفاظ بنسخ منها.

فخر الدولة ومجد الدولة والسيدة وشمس الدولة وتاج الملك ـ نورد هنا سنوات حكم كل من هؤلاء:

١ ـ فخر الدولة (علي) في الري ٣٦٦ ـ ٣٨٧/ ٩٧٧ ـ ٩٩٨، وفي أصفهان وهمذان ٣٧٣ ـ ٣٨٧/ ٩٨٣ ـ ٩٩٧.

٢ ـ مجد الدولة ابن فخر الدولة (علي) ـ في الري ٣٨٧ ـ ٤٢٠/ ٩٩٧ ـ ١٠٢٩، (احتلال الدولة الغزنوية للري).

٣ ـ السيدة ـ هي والدة مجد الدولة وقد استبدت بالأمر دونه لأنه كان قاصراً. وحتى بعد بلوغه أشده لم تتنازل عن السلطة. وكان هذا سبباً للخصومة بينها وبين ابن سينا، الذي ترك الري وذهب إلى همذان.

٤ ـ شمس الدولة ـ في أصفهان وهمذان. ابن فخر الدولة (علي) ٣٨٧ ـ ٤١٢/ ٩٩٧ ـ ١٠٢١ مستقلاً، وبعده وقعت همذان وأصفهان تحت سلطة الكاكويين. وتاج الملك هو ابن شمس الدولة ويسمى أيضاً سماء الدولة (وكانت مدة حكمه ٤١٢ ـ حوالى ٤١٩/ ١٠٢١ إلى حوالى ١٠٢٩).

علاء الدولة، هو مؤسس دولة الكاكويين (٣٩٨ ـ ٤٤٣/ ١٠٠٨ ـ ١٠٥٠) في أواسط

إيران وغربها.

وقد حكم علاء الدين، المسمى ابن كاكويا، من ٣٩٨ ـ ٤٣٣/ ١٠٠٨ ـ ١٠٤١. وفي عاصمته، أصفهان، اتخذ من بلاطه موئلاً لأهل العلم والأدب والشعراء. وقد قضى ابن سينا أربع عشرة سنة في بلاطه.

ابن عباد وابن العميد والصابي، هؤلاء ثلاثة ممن وَزَر وكتب في واحد من بلاطات البويهيين، وقد كان الثلاثة متعاصرين، لكن بلاطات البويهيين كانت عديدة. ابن عباد ولد في اصطخر (٣٢٦/ ٩٣٨) ومات في الري (٣٨٥/ ٩٩٥)؛ وابن العميد ولد في قم وتوفي وزيراً للبويهيين، والصابي الحرّاني ولد في حران (٣١٣/ ٩٢٥) وتوفي (٣٨٤/ ٩٩٤) وترد أسماء هؤلاء لمناسبة قصة ابن سينا مع الجبائي العالم اللغوي.

الخمّار، هو أبو الخير الخمّار المنطقي الطبيب. ولد في بغداد (٣٣١/ ٩٤٢) وقرأ علوم الفلسفة والمنطق على يحيى بن عدي. وبعد أن أنهى تلقي علومه ذهب إلى خوارزم واتصل بخدمة بني مأمون، وظل هناك إلى أن حمل إلى غزنة في أيام محمود الغزنوي وكان يلقى من محمود معاملة محترمة.

العرّاق، هو أبو نصر العرّاق كان من كبار الرياضيين في القرن الرابع/ العاشر. وله آثار علمية كثيرة. وكان يجيد النقش (التصوير). انتهى أمره إلى بلاط محمود الغزنوي.

١٢ ـ شفاء المرضى نفسياً (عند ابن سينا)

كان كثيرون من الأطباء العرب يلجأون إلى الطب النفساني لمعالجة الأمور التي استعصت على طب الأبدان. وكان ابن سينا شديد العناية بذلك. وقد وصلتنا، إما عن ابن سينا مباشرة، أو حوله مداورة، بضع قصص لتمرسه بالعلاج النفساني. وها نحن أولاً نورد نماذج ثلاثة منها:

أ ـ روى ابن سينا في كتابه «المبدأ والمعاد»، في فصل عقده في «إمكان وجود أمور نادرة عن النفس»، القصة التالية [وهي كما يرى القارىء قصة عن عمل قام هو به لكنه استعمل ضمير الغائب].

«سمعت أن طبيباً حضر مجلس ملك من السامانيين وبلغ من قبوله له أن أهّله لمؤاكلته على المائدة التي توضع له في دار الحرم، ولا يدخلها من الذكور داخل، وإنما يتولى الخدمة بعض الجواري. وكانت فيها جارية تقدم الخوان وتضعه إذ قوّسها ريح ومنعها الانتصاب. وكانت حظية عند الملك. فقال للطبيب «عالجها في الحال على كل حال». فلم يكن عند الطبيب تدبير طبيعي في ذلك الباب يشفي بلا مهلة، ففزع إلى التدبير النفساني. وأمر أن يكشف شعرها، فما أغنى. ثم أمر أن يكشف بطنها، فما أثّر. ثم أمر أن تكشف عورتها، فلما حاول سائر الجواري ذلك، نهضت فيها حرارة قوية أتت على الريح الحادثة تحليلاً فارتجفت مستقيمة سليمة».

وأضاف ابن سينا قوله: «فإن لو لم يكن الطبيب حكيماً قادراً لا يصل إلى هذا الاستنباط».

ب ـ لما خرج ابن سينا من خوارزم (خيوه)، فاراً من وجه محمود الغزنوي، نزل في رباط في جرجان. وكان يعالج المرضى، ويحصل من ذلك على رزق يومه (وكان متخفياً بطبيعة الحال).

«ومرض أحد أقرباء ملك جرجان، فقام الأطباء بعلاجه، وبذلوا الجهد وجدّوا كل الجد، فلم تشف علته. وكان الملك عظيم التفكير بذلك، فأخبره أحد خدمه أنه قد جاء إلى رباط كذا طبيب عظيم شاب له يد مباركة جداً، وقد شفي على يده أناس كثيرون. فأمر الملك بدعوته والمجيء به إلى المريض لمعالجته، فرب يد أكثر بركة من يد. فطلبوا ابن سينا وذهبوا به إلى المريض، فرآه شاباً في غاية الجمال متسق الأعضاء قد طرّ شاربه. ولكنه مُضنى. فجلس ابن سينا وحبس نبض الفتى وطلب البول وفحصه. ثم قال: أريد رجلاً يعرف عرصات جرجان ومحلاتها كلها. فأحضروا الرجل وقالوا هذا هو. فوضع ابن سينا يده على نبض المريض وأمر الرجل بأن يذكر أسماء محلات جرجان. فأخذ الرجل يذكرها، حتى إذا بلغ محلة معينة تحرك نبض المريض حركة عجيبة. فقال ابن سينا. أذكر أسماء شوارع هذه المحلة. فذكرها الرجل. ولما بلغ اسم شارع معين عادت حركة النبض العجيبة. فقال ابن سينا نريد رجلاً يعرف جميع بيوت هذا الشارع. فأُحضر الرجل وأخذ يذكر أسماء البيوت حتى إذا بلغ اسم بيت منها تحرك النبض الحركة نفسها، فقال ابن سينا والآن أريد رجلاً يعرف أسماء أهل البيوت ويستطيع أن يذكرها. فأحضروه فأخذ في سرد الأسماء حتى إذا بلغ اسماً منها حدثت الحركة نفسها من نبض المريض. حينئذٍ قال ابن سينا، تم الأمر. ثم التفت إلى معتمدي الملك وقال: «إن هذا الشاب عاشق لفلانة بنت فلان في محلة كذا وشارع كذا، وإن دواءه هو وصال تلك الشابة وعلاجه رؤيتها. وأرهف المريض السمع، فسمع كل ما قاله ابن سينا، فخجل وغطى وجهه بالوسادة. فلما حقق الأمر وجد كما قال ابن سينا».

«ولما بلغ الخبر الملك، استقبل ابن سينا واحتفى به وقال له في تلطف (وقد عرف من هو): «لا شك أن على الأجل الأفضل والفيسلوف الأكمل أن يشرح طريقة العلاج». فقال ابن سينا: «لما رأيت النبض والتفسرة (البول الذي يستدل به على المرض) أدركت أن العلة هي العشق. وقد بلغ كتمان الشاب لهذا السر أني لو سألته لما صدقني. فوضعت يدي على نبضه، وذكرت أسماء المحلات. فلما ذكر اسم محلة المعشوق تحرك عشقه، فتبدلت حركته. فعرفت اسم الشارع. فأمرت بذكر البيوت، فلما بلغ اسم بيت المعشوق ظهرت الحالة نفسها، فعرفت البيت أيضاً، فأمرت بذكر أسماء أهل البيوت كلها فلما سمع المعشوقة تغير تمام التغير، فعرفت اسمها أيضاً، فقلت له، فلم يستطع أن ينكر. ثم أقر. فتعجب الملك من هذه المعالجة كثيراً، ولبث حائراً. ثم إن الملك أمر بأن يعقد لهما، وتم الزواج، وبرىء الشاب مما كان فيه. وبعد ذلك أحسن الملك إلى ابن سينا كل الإحسان».

ج ـ «حكي أن أحد أعزة بني بويه أصيب بالماليخوليا. فخيِّل إليه مع هذه العلة أنه صار بقرة. فكان يصيح كل يوم ويقول لهذا وذاك إذبحوني فإن لكم من لحمي هريسة طيبة. وبلغ به

الأمر أنه امتنع عن الأكل كل الامتناع. ومرت الأيام وهو يذوي، وقد عجز الأطباء عن معالجته. وكان ابن سينا في ذلك الوقت وزيراً، وقد أقبل عليه علاء الدولة (٣٩٨ ـ ٤٣٣/ ١٠٠٨ ـ ١٠٤١).

«فلما عجز الأطباء عن معالجة هذا الشاب ذكروا قصته أمام علاء الدولة والتمسوا شفاعته لدى ابن سينا ليعالجه، فأشار عليه علاء الدولة، فقبل. ثم قال بشروا هذا الشاب بأن القصاب آتٍ ليذبحك. فقالوا له ذلك، ففرح. وركب ابن سينا وجاء في موكبه إلى قصر المريض. ثم دخل مع رجلين والسكين في يده، وقال أين هذه البقرة لأذبحها؟ فقلّد الشاب المريض خوار البقرة، يعني أنه هنا. فقال ابن سينا: «جروها إلى فناء القصر وأوثقوا يديها ورجليها وأضجعوها. فلما سمع المريض هذا جرى إلى وسط الفناء واضطجع على جنبه الأيمن، فأحكموا وثاق يديه ورجليه. ثم جاء ابن سينا وسنّ السكين على السكين ثم جلس ووضع يده على خصر المريض، على عادة القصابين وقال: «وه، يا لها من بقرة هزيلة، إنه لا يحل ذبحها، أعلفوها حتى تسمن». وقام فخرج، ثم قال للرجال: فكوا يديه ورجليه واحملوا إليه ما آمر به من طعام وقولوا له: «كل لتسمن سريعاً». وهكذا فعلوا ما أمر به ابن سينا، فكانوا يحملون إليه الطعام فيأكله، ثم كانوا يعطونه ما أمر به ابن سينا من الأشربة والأدوية ويقولون له: كل كثيراً فإن هذا نافع تسمن عليه البقرة. فكان يسمع ويأكل على أمل أن يسمن فيذبحوه. وبعد ذلك بدأ الأطباء في علاجه كما وصف ابن سينا. فكان ينقه شهراً بعد آخر حتى عوفي».

وقد علّق راوي القصة على ذلك بقوله: «والعقلاء جميعاً يدركون أن مثل هذا العلاج لا يستطاع إلا بالفضل الكامل والعلم التام والحدس الصادق».

١٣ ـ نماذج من القصص والكتابات الصوفية والرمزية

أ ـ رسالة الطير

ب ـ رسالة العشق

ج ـ قصة حي بن يقظان [هذه غير كتاب ابن طفيل الذي يحمل الاسم نفسه].

د ـ قصيدة في النفس

هـ ـ قصة سلامان وأبسال

رسالة الطير

يرسم ابن سينا في «رسالة الطير» الرمزية صورة حية لمصير النفس الساعية وراء الحق، المتخبطة في شرك الرغبات الحسية. ورموز هذه الحكاية تذكرنا، من بعض الوجوه، بأفلاطون في قصة الكهف، وفي سلم الحب السباعي الدرجات. لكن يتعذر الجزم ههنا بأن ابن سينا، تعمد أم لم يتعمد تقليد أفلاطون، مع أننا في أثر صوفي آخر، هو قصيدة النفس، نجد تأثيراً واضحاً لمحاورة «فيدون»، وذلك في ما يصفه ابن سينا من هبوط النفس إلى «الخراب البلقع» وتحررها أخيراً من أسار الجسد بالمعرفة.

يشبّه ابن سينا نفوس البشر بجماعة من الطير وقعت في شرك نصبه لها الصيادون، ثم

وضعوها في قفص أحكموا إقفاله. لكن هذه الطيور تأبى الاستسلام لهذا المصير وتحاول الإفلات. فينجح عدد قليل منها بالإفلات وفي أرجلها بقايا من الأصفاد التي قيدت بها. أما الطيور الباقية فتمكث زمناً في الأسر، لكنها تنجو آخر الأمر بمساعدة رفاق لها وتنشد جميعها الخلاص والأمن بالتوجه إلى قمة «جبل الله» ذي الطبقات الثماني. وعندما تبلغ الطبقة السابعة تحط في وسط مراع خضر وأنهار جارية، لتأخذ نصيباً من الراحة، لكنها لا تلبث أن يستحثها إحساس ملح بضرورة مواصلة السير، فتتجه نحو الطبقة الثامنة. وهناك تلتقي بنوع من الطيور لم يسبق لها أن شاهدت نظيره جمالاً وظرفاً وأنساً، فلا تزال أواصر الصداقة تتوثق بينها، حتى تقبل الطيور المضيفة باصطحاب ضيوفها بسرور إلى مدينة «الملك الأعظم» حيث تلقي بأحمالها الثقيلة. لكنها ما إن تقع أبصارها على وجه الملك المشرق حتى تفتن به، ويصغي الملك إلى سرد شكاويها بعطف، ويرد إليها حريتها بكاملها، ويطلب إليها أن تمضي بسلام، فتعود وفي نفوسها أثر حي من روعة ذلك الجمال الذي يبعث في نفس صاحبه الشعور بالسعادة القصوى، والاعتقاد بأنه لن يقوى مطلقاً على الإخلاد إلى العيش في «وادي الأحزان» الذي جاء منه أصلاً.

رسالة العشق

وعلى هذا الوتر الصوفي يضرب ابن سينا في رسالة أخرى تعالج، بصورة خاصة، موضوعاً محبباً عند المتصوفة هو العشق. وقد جعلها المؤلف في سبعة فصول مستأنساً على ما يبدو، بنظام الرمزية الأفلاطونية، فتوقف في الفصول الثلاثة الأولى عند طبيعة العشق العامة في الموجودات، باعتبار أن العشق هو الحافز إلى السعي وراء الخير والحفاظ عليه، وإلى نبذ العدم والوجود المادي بأي ثمن. فإننا حتى في أدنى درجات الوجود المادي نصادف حافزاً غريزياً لا يمكن تمييزه، هو السبب في بروزه إلى حيّز الوجود. وهذا الحافز يتجلى في المادة الأولى من خلال سعيها وراء الصورة وحرصها على اكتسابها. ولذلك نلاحظ أنه حالما تنفصل المادة عن صورة ما، تبدأ فوراً في اكتساب صورة أخرى، وذلك تفادياً لشقاء العدم الذي يهدد دوماً كيانها.

ونلاحظ في المراتب العليا من حياة النبات والحيوان، أن جميع القوى في الذات الحية تتجه بنشاطها نحو أداء عمل أو إتمام وظيفة تتحقق بدافع من هذا العشق الغريزي نفسه، لأن أمثال هذه المهام جميعها متجهة نحو حفظ نوع النبات والحيوان وتكاثر أفرادهما. ونزوة العشق هذه هي في الحيوان عمياء وقاهرة، بينما هي في الإنسان ذات قدرة على التمييز تجعلها تابعة لحافز أسمى، من الفضيلة أو الجاه أو الثروة. أما التجلي العقلي الحق للعشق الإنساني فيبرز في عشق الصور المجردة. وهذا النوع من العشق خاص «بالنفس الإلهية»، وكذلك بالعقول المفارقة، أو الملائكة. وأسمى موضوع لهذا العشق هو الله ـ الخير الأسمى، الذي سبقت تسميته «بالملك الأعظم». وهو الذي بحكم رحمته الفائقة يبادل عبده هذا العشق.

قصة حي بن يقظان

الحلقة الثالثة من سلسلة الرسائل الصوفية هي «قصة حي بن يقظان»، التي أصبحت في التراث الفلسفي الصوفي مثالاً «للمتوحد». هذه القصة تصف أغراض النفس في ما وراء الحياة الدنيا، بأسلوب مجازي رمزي. فحي، في هذه القصة، متصوف جوّال يضرب في أصقاع الأرض، تحقيقاً لوصية تلقاها من والده، خلاصتها دعوة إلى النفس المكبلة بقيود العالم، لأن تتحول عن لذات الجسد البالية، وتتجه بأنظارها نحو المصدر الأقصى للجمال والنور، الذي يحجبه فرط بريقه عن البصر، فكأن جماله حجاب يخفي جماله، كما يقول. فهو نظير الشمس التي تتجلى بتمامها فقط عند الغروب، فلا يمكن أن ترى إلا حينذاك، بما هي عليه من روعة الإشراق. ويغدق ذلك «الملك» على الرغم من تعاليه، جماله وجلاله على من دونه، ويمنحهم نعمة الاتصال به؛ إنه فائق الرحمة والصلاح، وكل من يتيسر له أن يرمق جماله، لا يقوى بعد ذلك على احتمال مفارقته.

والملاحظ في هذه القصة الرمزية، أن التشبيه بالنور، وهو المنهج المفضل في الأفلاطونية الجديدة وفي التصوف، قد استخدم للتمثيل على مذهب الانبثاق. فمقولة الخير كإحدى خواص الموجود الأسمى، والذي أسرف ابن سينا في تعظيمه في مؤلفاته الماورائية، تنحط ههنا بعض الشيء عن مقولة الجمال الذي هو المحور الأساسي في المحاولات الصوفية ـ النظرية لوصف الحقيقة التي تأبى الوصف وصفاً مجازياً، والتي إليها تتوق النفس أبداً. هذا النزوع الذي يدفع النفس لالتماس الاتحاد بهذه الحقيقة يشبّه هنا بالعشق البشري.

وإلى هذا التصور النوراني، في قصة حي، الذي يتحدر في الراجح من أصل هرمسي غنوصي، ينبغي أن يضاف الرمز إلى الشرق الذي لا يقل عنه غنى، والذي يعتبر الشرق مبعث النور والغرب موطن الظلام. فمرشد «حي» في القصة، يرسم بألوان زاهية مجد الشرق، حيث النفس ـ وهي ذلك «الغريب» في «بيداء» عالم الكون والفساد ـ تجد انعتاقها أو خلاصها، ويدعو حياً إلى أن ينبذ هذا العالم، وأن «يتبعه إذا شاء».

قصيدة في النفس

هبطت إليك من المحلّ الأرفع ... ورقاءُ ذاتُ تعزّزٍ وتمنّعِ
محجوبةٌ عن كل مقلةِ عارفٍ ... وهي التي سفرت، ولم تتبرقعِ
وصلت على كرهٍ إليك، وربما ... كرهت فراقك، وهي ذاتُ تفجّعِ
أنفت وما ألفت، فلما واصلت ... أنِست مجاورة الخراب البَلْقعِ
وأظنها نسيتْ عهوداً بالحمى ... ومنازلاً بفراقها لم تقنعِ
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطه ... عن ميم مركزها، بذات الأجرَعِ
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت، ... بين المعالم والطلول الخضَّعِ،
تبكي إذا ذكرت عهوداً بالحمى ... بمدامع تهمي، ولمّا تقلعِ
وتظل ساجعةً على الدّمن التي ... درست بتكرار الرياح الأربعِ

إذ عاقها الشركُ الكثيف وصدَّها ... قفصٌ عن الأوج الفسيح المربع
حتى إذا قرُب المسير إلى الحمى ... ودنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسع،
وغدت مفارقةً لكل مخلَّفٍ ... عنها، حليف، الترب، غير مشيّع
وهي التي قطع الزمانُ طريقَها ... حتى لقد غربت بغير المطلَع
فكأنها برقٌ تألقَ بالحمى ... ثم انطوى، فكأنه لم يلمع!
سجعت، وقد كُشف الغطاء فأبصرت ... ما ليس يدرَك بالعيون الهجَّع
وغدت تغرّد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كلّ من لم يرفع!
فلأيِّ شيءٍ أُهبطتْ من شامخٍ ... عالٍ إلى قعرِ الحضيض الأوضع؟
إن كان أهبطها الإلهُ لحكمةٍ ... طُويتْ عن الفطن اللبيب الأروع!
فهبوطها ـ إن كان ضربةَ لازب ... لتكون سامعةً بما لم تسمع،
وتعودَ عالمةً بكل حقيقةٍ ... في العالمين ـ فخرقُها لم يرقع!

قصة سلامان وأبسال

يقول ابن سينا في كتاب «الإشارات والتنبيهات»، القسم الرابع ص ٧٨٩ ـ ٧٩٣:

«إن للعارفين مقامات ودرجات يُحَصّون بها وهم في حياتهم الدنيا دون غيرهم، فكأنهم وهم في جلاليب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس. ولهم أمور خفية فيهم، وأمور ظاهرة عنهم يستنكرها من ينكرها، ويستكبرها من يعرفها، ونحن نقصها عليك: وإذا قرع سمعك فيما يقرعه وسرد عليك فيما تسمعه قصة لسلامان وأبسال فاعلم أن سلامان مَثل ضُرب لك، وأن أبسالاً مثلاً ضرب لدرجتك في العرفان إن كنت من أهله. ثم حل الرمز إن أطقت».

المهم هو ما ترمز إليه قصة سلامان وأبسال. وأصل هذه القصة أنه كان في الزمن القديم ملك اسمه هرمانوس بن هرقل السوفسطيقي، تمتد مملكته من بلاد الروم إلى ساحل البحر وتضم بلاد اليونان وأرض مصر. وقد رغب هذا الملك أن يكون له ولد من صلبه من غير أن يلامس النساء. فكان له ما أراد بفضل تدبير أحكم حكماء مملكته الذي كافأه الملك على حسن تدبيره بأن أمر ببناء هرمين، أحدهما يكون حصناً لبقاء النفس كرغبة الحكيم، والآخر حصناً لحفظ الجسد وخزائن الملك كرغبة الملك. وسمي هذا الولد سلامان، وجيء له بامرأة جميلة لترضعه وتقوم على تربيته اسمها أبسال. فلما انتهت مدة الرضاعة أراد الملك أن يفرّق بين سلامان وأبسال. فجزع سلامان لشدة شغفه وتعلقه بأبسال. فلما رأى الملك شغف ابنه وحبه لأبسال تركها معه إلى سن البلوغ. فلما بلغ سلامان اشتد تعلقه بأبسال وشغفه بها ووقع في حبها وعشقها، فانصرف عن خدمة أبيه ومعاونته في شؤون مملكته إلى العناية بأبسال. ونصح الملك ابنه وحذره من النساء قائلاً: «إعلم يا بني أن النسوان هن مكايد الشر ومصايده، وما أفلح من خالطهن إلا لاعتبار بهن، أو ليحصل لنفسه خيراً منهن، ولا خير

فيهن، فلا تجعل لامرأة في قلبك مقاماً، حتى يصير سلطان عقلك مقهوراً، ونور بصرك وحياتك مغموراً. فلا أحسب هذا إلا من شأن البله المغفلين. واعلم يا بني أن الطريق طريقان: طريق هو العروج من الأسفل إلى الأعلى، والثاني الانحدار من الأعلى إلى الأسفل. ولنمثل لك ذلك في عالم الحس حتى يتبين لك الصواب: إعلم أن كل أحد من جملة من هو على بابنا إذا لم يأخذ بطريق العدل والعقل هل يصير قريب المنزلة منا؟ كلا، بل إذا أخذ بطريق العدل والعقل يصير كل يوم قريب المنزلة منا. فكذا الإنسان إذا سلك طريق العقل وتصرف في قواه البدنية التي هي أعوانه على أن يقرب من عالم النور العالي الذي يبهر كل نور، فبعد مدة يصير قريباً منه منزلة. ومن علامة ذلك أن يصير نافذ الأمر في السفليات، وهذه أخس هذه المنازل، بل الوسطي منها هو أن يصير مشاهداً للأنوار القاهرة التي تتصل على سبيل الدوام بالعالم السفلي؛ والعليا منها أن يصير عالماً بحقائق الموجودات متصرفاً فيها على وفق العدل. والحق أقول لك إنك أردت أن تكون لك امرأة تقبل منك ما تريد، وتفعل لك ما تشتهيه، فهلم سعياً، فقد نفد الزاد، وبَعُد المزار. وإن كنت مالكاً سبيل الإيمان، طارقاً طريقة الإنسان فخذ نفسك عن هذه الفاجرة أبسال؛ إذ لا حاجة لك فيها، ولا مصلحة لك في مخالطتها، فاجعل نفسك رجلاً متحلياً بحلية التجرد، حتى أخطب لك جارية من العالم العلوي تزف إليك أبد الآبدين، ويرضى عنك رب العالمين».

ولكن سلامان لم يستمع إلى نصح أبيه من شدة تعلقه بأبسال وحبه لها. فلما رجع سلامان إليها وذكر لها ما كان من نصح أبيه له ردت عليه قائلة: «لا يقر في سمعك قول الرجل، فإنه يريد أن يفوت عليك اللذة بمواعيد أكثرها أباطيل، وأجلها مخاييل، والتقدم بالأمر عزمة. وإني امرأة مأمورة لك بكل ما تطيب به نفسك وتشتهي. فإن كنت ذا عقل وحزم فاكشف للملك عن سرك بأنك لست تاركي، ولست بتاركة لك».

فأذعن سلامان لمشورة أبسال. فلما بلغ الملك عزم ابنه على عدم التخلي عن أبسال دعاه إليه وقال له: «فإن كان ولا بد فاجعل حظك قسمين: أحد القسمين تشتغل بالاستفادة من الحكماء، والثاني تأخذ لنفسك منها ما تظنه لذة». فقبل سلامان من والده ذلك، فكان يشتغل بالعلم والحكمة، فإذا جاء وقت الرفاهية واللعب هرع إلى أبسال.

لكن الملك لم يرض عن انصراف ابنه عن ملازمته ومعاونته في تدبير شؤون الملك، ففكر في التخلص من أبسال. فلما علم سلامان وأبسال بالمكيدة التي يدبرها الملك هربا إلى وراء بحر المغرب. واستعان الملك بما يحفظه من تعاويذ لإبطال شهوة سلامان وشهوة أبسال، فبقي كل واحد منهما في أشد ألم ونحس وعذاب من رؤية صاحبه وشدة الشوق إليه مع عدم القدرة على الوصول إليه. وأدرك سلامان أن هذه اللعنة قد ألمت به في غربته من غضب والده عليه، فرجع إلى باب الملك معتذراً مستغفراً، فقال له الملك: «إعلم أيها الصبي إني وإن كنت أقبل عذرك لفرط شغفي بك لكني ما أحب أبسال الفاجرة؛ لأنك لا يمكنك أن تجلس على سرير الملك وأنت مصاحبها؛ لأن سرير الملك يريد التوجه التام والفراغ له، وأبسال أيضاً

تريد كذلك، وكلاهما لا يجتمعان. وطريق مثالهما أن تعلق يدك من السرير، وتعلق أبسال برجلك، فهناك تعلم أنه لا يمكنك أن تصعد السرير وأبسال معلقة برجلك. وكذلك أيضاً لا يمكنك أن تصعد سرير الأفلاك بمراقاة القلب وحب أبسال معلق برجلي فكرك». ثم أمر الملك أن تتعلق أبسال برجل سلامان يوماً كاملاً، فلما كان الليل قذفا بأنفسهما في البحر، فغرقت أبسال ونجا سلامان من الغرق. فحزن سلامان على غرق أبسال، لكنه شغف بحب زهرة جميلة شغلته عن حب أبسال. فلما شفي سلامان من حب أبسال جلس على سرير الملك، ونظر في الحكمة فانكشفت له أسرارها.

هذه هي قصة سلامان وأبسال. وتأويلها أن سلامان هو النفس الإنسانية التي فاضت من غير تعلق بالجسمانيات، وأبسال هي القوة البدنية الحيوانية، التي بها تستكمل النفس. وعشق سلامان لأبسال يرمز إلى ميل النفس إلى اللذات البدنية وحبها لهذه اللذات وشغفها بها. وهربهما إلى ما وراء بحر المغرب رمز لانغماسهما في الأمور الفانية البعيدة عن الحق. أما تعذيبهما بالشوق مع الحرمان من الوصال وهما متلاقيان فيعبر عن بقاء ميل النفس مع فتور القوى البدنية عن أفعالها في سن الشيخوخة والانحطاط. ورجوع سلامان إلى أبيه يرمز إلى التفطن للكمال، والندامة على الاشتغال بالباطل. وإلقاء نفسيهما في البحر يدل على تورطهما في الهلاك. كما يرمز خلاص سلامان ونجاته من الغرق إلى بقاء النفس بعد موت البدن وهو غرق أبسال. وشغف سلامان بالزهرة وصورتها يدل على لذته وابتهاجه بالكمالات العقلية، وجلوسه على سرير الملك يدل على وصول النفس إلى كمالها الحقيقي. أما الهرمان الباقيان فيرمزان إلى الصورة والمادة الجسمانيتان.

قصة سلامان وأبسال تعبر ــ كما تعبر القصيدة العينية ــ عن رحلة النفس الإنسانية من عالمها العلوي إلى هذا العالم وتعلقها بالبدن وحبها للذات ثم عودتها إلى موطنها الأصلي بعد أن تخلّصت من الجسم وغوائله.

١٤ ـ مختارات من «كتاب النجاة»

أ ـ في إثبات النبوة

ب ـ في معاد الأنفس الإنسانية

أ ـ في إثبات النبوة وكيفية دعوة النبي إلى الله والمعاد (لابن سينا)

ونقول الآن: من المعلوم أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات بأنه لا يحسن معيشته لو انفرد وحده شخصاً واحداً، يتولى تدبير أمره من غير شريك يعاونه على ضرورات حاجاته، وأنه لا بد أن يكون الإنسان مكفياً بآخر من نوعه، يكون ذلك الآخر أيضاً مكفياً به وبنظيره، فيكون مثلاً هذا ينقل إلى ذاك، وذاك يخبز لهذا وهذا يخيط للآخر، والآخر يتخذ الإبرة لهذا، حتى إذا اجتمعوا كان أمرهم مكفياً. ولهذا ما اضطروا إلى عقد المدن والاجتماعات. فمن كان منهم غير محتاط في عقد مدينته على شرائط المدينة، وقد وقع منه ومن شركائه الاقتصار على اجتماع فقط، فإنه يتخيّل على جنس بعيد الشبه من الناس عادم لكمالات الناس، ومع

ذلك فلا بد لأمثاله من اجتماع ومن تشبه بالمدنيين.

وإذا كان هذا ظاهراً، فلا بد في وجود الإنسان وبقائه من مشاركة، ولا تتم المشاركة إلا بمعاملة، كما لا بد في ذلك من سائر الأسباب التي تكون له، ولا بد في المعاملة من سنّة وعدل. ولا بد للسنّة والعدل من شأن ومعدّل، ولا بد أن يكون هذا بحيث يجوز أن يخاطب الناس ويلزمهم السنّة، ولا بد من أن يكون هذا إنساناً. ولا يجوز أن يترك الناس وآراءهم في ذلك، فيختلفون ويرى كل منهم ما له عدلاً، وما عليه ظلماً. فالحاجة إلى هذا الإنسان في أن يبقى نوع الناس، ويتحصّل وجوده أشد من الحاجة إلى اثبات الشعر على الأشفار وعلى الحاجبين، وتقعير الأخمص من القدمين، وأشياء أخرى من المنافع التي لا ضرورة إليها في البقاء، بل أكثر ما لها أنها تنفع في البقاء. ووجود الإنسان الصالح لأن يسنّ ويعدل ممكن، كما سلف منا ذكره. فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقتضي تلك المنافع ولا تقتضي هذه التي هي أسّها، ولا أن يكون المبدأ الأول والملائكة تعلم ذلك، ولا تعلم هذا. ولا أن يكون ما يعلمه في نظام الأمر الممكن وجوده الضروري حصراً، لتمهيد نظام الخير لا يوجد، بل كيف يجوز أن لا يوجد وما هو متعلق بوجوده ومبني على وجوده موجود؟ فواجب إذاً أن يوجد نبي وواجب أن يكون إنساناً، وواجب أن يكون له خصوصية ليست لسائر الناس، حتى يستشعر الناس فيه أمراً لا يوجد لهم، فيتميز به عنهم، فتكون له المعجزات التي أخبرنا بها.

فهذا الإنسان إذا وجد، وجب أن يسنّ للناس في أمورهم سنناً بأمر الله تعالى وإذنه، ووحيه وإنزاله الروح القدس عليه، فيكون الأصل فيما يسنه تعريفه إياهم أن لهم صانعاً واحداً قادراً، وأنه عالم بالسر والعلانية، وأن من حقه أن يطاع أمره، وأنه يجب أن يكون الأمر لمن له الخلق، وأنه قد أعدّ لمن أطاعه المعاد المسعد، ولمن عصاه المعاد المشقي، حتى يتلقى الجمهور رسمه المنزّل على لسانه من الإله والملائكة، بالسمع والطاعة. ولا ينبغي له أن يشغلهم بشيء من معرفة الله تعالى فوق معرفة أنه واحد حق لا شبيه له. فأما أن يتعدى بهم إلى تكليفهم أن يصدقوا بوجوده، وهو غير مشار إليه في مكان، فلا ينقسم بالقول، ولا هو خارج العالم ولا داخله، ولا شيء من هذا الجنس، فقد عظم عليهم الشغل، وشوّش ما بين أيديهم وأوقعهم فيما لا يخلص عنه إلا من كان الموفق الذي يشذّ وجوده، ويندر كونه. فإنه لا يمكنهم أن يتصوروا هذه الأحوال على وجهها إلا بكد. وإنما يمكن القليل منهم أن يتصوّر حقيقة هذا التوحيد والتنزيه، فلا يلبثون أن يكذبوا بمثل هذا الوجود، أو يقعوا في التنازع، وينصرفوا إلى المباحثات والمقايسات التي تصدهم عن أعمالهم المدنية.

وربما أوقعتهم في آراء مخالفة لصالح المدينة، ومنافية لواجب الحق فكثرت فيهم الشكوك والشبه، وصعب الأمر على إنسان في ضبطهم. فما كل بميسّر له في الحكمة الإلهية، ولا يصح بحال أن يظهر أن عنده حقيقة يكتمها عن العامة، بل لا يجب أن يرخص في التعريض بشي من ذلك. بل يجب أن يعرفهم جلالة الله تعالى وعظمته برموز وأمثلة. من الأشياء التي هي عندهم عظيمة وجليلة، ويلقي إليهم من هذا القدر. أعني أنه لا نظير له ولا شبه ولا شريك.

وكذلك يجب أن يقرر عندهم أمر المعاد على وجه يتصورون كيفيته. وتسكن إليه نفوسهم، ويضرب للسعادة والشقاوة مما يفهمونه ويتصوّرونه. وأما الحق في ذلك، فلا يلوّح لهم منه إلا أمراً محملاً، وهو أن ذلك شيء لا عين رأته ولا أذن سمعته. وأن هناك من اللذة ما هو ملك عظيم، ومن الألم ما هو عذاب مقيم. وأعلم أن الله تعالى يعلم وجه الخير في هذا، فيجب أن يؤخذ معلوم الله سبحانه على وجهه، على ما علمت ولا بأس أن يشتمل خطابه على رموز وإشارات، ليستدعي المستعدّين بالجبلة للنظر إلى البحث الحكمي.

ب ـ في معاد الأنفس الإنسانية

وبالحري أن نحقق ههنا أحوال الأنفس الإنسانية إذا فارقت أبدانها، وأنها إلى أي حالة تصير، فنقول: يجب أن تعلم أن المعاد منه مقبول من الشرع، ولا سبيل إلى إثباته إلا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة، وهو الذي للبدن عند البعث، وخيرات البدن وشروره معلومة لا تحتاج إلى أن تعلم. وقد بسطت الشريعة الحقة التي أتانا بها نبينا المصطفى محمد حال السعادة والشقاوة التي بحسب البدن. ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني، وقد صدّقته النبوة، وهو السعادة والشقاوة الثابتتان بالمقاييس، اللتان للأنفس، وإن كانت الأوهام منا تقصر عن تصوّرها الآن، لما نوضح من العلل. والحكماء الإلهيون رغبتهم في إصابة هذه السعادة أعظم من رغبتهم في إصابة السعادة البدنية، بل كأنهم لا يلتفتون إلى تلك، وإن أعطوها، فلا يستعظمونها في جنب هذه السعادة التي هي مقاربة الحق الأول، على ما نصفه عن قريب.

فلنعرّف حال هذه السعادة والشقاوة المضادة لها، فإن البدنية مفروغ منها في الشرع، فنقول: يجب أن تعلم أن لكل قوة نفسانية لذة وخيراً يخصّها وأذى وشراً يخصها. مثاله أن لذة الشهوة وخيرها أن يتأذى إليها كيفية محسوسة ملائمة من الخمسة، ولذة الغضب الظفر، ولذة الوهم الرجاء، ولذة الحفظ تذكر لأمور الموافقة الماضية. وأذى كل واحد منها ما يضاده، وتشترك كلها نوعاً من الشركة في أن الشعور بموافقها وملائمها هو الخير واللذة الخاصة بها، والموافق لكل واحد منها بالذات والحقيقة هو حصول الكمال الذي هو بالقياس إليه كمال بالفعل، فهذا أصل. وأيضاً فإن هذه القوى وإن اشتركت في هذه المعاني، فإن مراتبها في الحقيقة مختلفة. فالذي كماله أتم وأفضل، والذي كماله أكثر والذي كماله أدوم، والذي كماله أوصل إليه وأحصل له، والذي هو في نفسه أكمل فعلاً وأفضل، والذي هو في نفسه أشد إدراكاً، فاللذة أبلغ له وأوفى لا محالة، وهذا أصل. وأيضاً، فإنه قد يكون الخروج إلى الفعل في كمال ما، بحيث يعلم أنه كائن ولذيذ، ولا يتصوّر كيفيته، ولا يشعر باللذاذة، ما لم يحصل. وما لم يشعر به لم يشتق إليه، ولم ينزع نحوه، مثل العنين، فإنه متحقق أن للجماع لذة، ولكنه لا يشتهيه ولا يحن نحو الاشتهاء والحنين اللذين يكونان مخصوصين به، بل شهوة أخرى كما يشتهي من يجرب من حيث يحصل به إدراك وإن كان مؤذياً، وفي الجملة فإنه لا يتخيله. وكذلك حال الأكمه عند الصور الجميلة، والأصم عند الألحان المنتظمة. ولهذا يجب أن لا

يتوهم العاقل أن كل لذة فهي كما للحمار في بطنه وفرجه، وأن المبادىء الأولى المقربة عند رب العالمين عادمة للذة والغبطة، وأن رب العالمين عزّ وجلّ ليس له في سلطانه وخاصيته البهاء الذي له وقوته غير المتناهية أمر في غاية الفضيلة والشرف والطيب نجلّه عن أن يسمى لذة. ثم للحمار والبهائم حالة طيبة ولذيذة، كلاّ بل أي نسبة تكون لما للمبادىء العالية إلى هذه الخسيسة؟ ولكنا نتخيل هذا ونشاهده، ولم نعرف ذلك بالاستشعار، بل بالقياس، فحالنا عنده كحال الأصم الذي لم يسمع قط في عمره، ولا تخيل اللذّة اللحنية، وهو متيقّن لطيبها، وهذا أصل.

وأيضاً فإن الكمال والأمر الملائم قد يتيسر للقوة الداركة وهناك مانع أو شاغل للنفس، فتكرهه وتؤثر ضده عليه، مثل كراهية بعض المرضى الطعم الحلو وشهوتهم للطعوم الرديّة الكريهة بالذات. وربما لم تكن كراهية، ولكن كان عدم الاستلذاذ، كالخائف يجد الغلبة أو اللذة، فلا يشعر بهما ولا يستلذهما، وهذا أصل. وأيضاً فإنه قد تكون القوة الدرّاكة ممنوة بضدّ ما هو كمالها ولا تحس به ولا تنفر عنه، حتى إذا زال العائق تأذّت به ورجعت إلى غريزتها، مثل المرور، فربما لم يحس بمرارة فيه إلى أن يصلح مزاجه، وتشفى أعضاؤه، فحينئذٍ ينفر عن الحال العارضة له. وكذلك قد يكون الحيوان مشته (كذا).. للغذاء البتة كارهاً له، وهو أوفق شيء له، ويبقى عليه مدة طويلة، فإذا زال العائق عاد إلى واجبه في طبعه، فاشتد جوعه وشهوته للغذاء، حتى لا يصبر عنه ويهلك عند فقدانه. وقد يحصل بسبب الألم العظيم، مثل إحراق النار وتبريد الزمهرير إلاّ إن أحسّ بتؤرف، فلا ينادي البدن به حتى تزول الآفة، فيحسّ حينئذٍ بالألم العظيم.

فإذا تقررت هذه الأصول، فيجب أن ننصرف إلى الغرض الذي نؤمه، فنقول: إن النفس الناطقة كمالها الخاص بها أن تصير عالماً عقلياً مرتسماً فيها صورة الكل والنظام المعقول في الكل، والخير الفائض في الكل مبتدئاً من مبدأ الكل، سالكاً إلى الجواهر الشريفة، فالروحانية المطلقة ثم الروحانية المتعلقة نوعاً ما من التعلق بالأبدان، ثم الأجسام العلوية بهيئاتها وقواها، ثم تستمر كذلك حتى تستوفي في نفسها هيئة الوجود كله، فتنقلب عالماً معقولاً موازياً للعالم الموجود كله، مشاهداً لما هو الحق المطلق والخير المطلق والجمال الحق ومتحداً به ومنتقشاً بمثاله وهيئته، ومنخرطاً في سلكه وصائراً من جوهره. وإذا قيس هذا بالكمالات المعشوقة التي للقوى الأخرى، وجد في المرتبة التي بحيث يقبح معها أن يقال إنه أتم وأفضل منها، بل لا نسبة لها إليه بوجه من الوجوه فضيلة وتماماً وكثرة، وسائر ما تتفاوت به لذائذ المدركات مما ذكرناه. وأما الدوام فكيف يقاس الدوام الأبدي بالدوام المتغير الفاسد؟ وأما شدة الوصول فكيف يكون حال ما وصوله بملاقاة السطوح بالقياس إلى ما هو سار في جوهر قابله، حتى يكون كأنه هو هو بلا انفصال؟ إذ العقل والمعقول العاقل شيء واحد أو قريب من الواحد.

وأما أن المدرك في نفسه أكمل، فأمر لا يخفى، وأما أنه أشد إدراكاً، فأمر أيضاً تعرفه

بأدنى تذكُّر لما سلف بيانه. فإن النفس النطقية أكثر عدد مدركات، وأشد تقصياً للمدرك وتجريداً له عن الزوائد غير الداخلة في معناه إلا بالعرض، ولها الخوض في باطن المدرك وظاهره. بل كيف يقاس هذا الإدراك بذلك الإدراك، أو كيف تقاس هذه اللذة باللذة الحسية والبهيمية والغضبية؟ ولكننا في عالمنا وبدننا وانغماسنا في الرذائل لا نحسّ بتلك اللذة إذا حصل عندنا شيء من أسبابها، كما أومأنا إليه في بعض ما قدمناه من الأصول. ولذلك لا نطلبها ولا نحنُّ إليها، اللهم إلا أن نكون قد خلعنا ربقة الشهوة والغضب وأخواتهما من أعناقنا، وطالعنا شيئاً من تلك اللذة، فحينئذٍ ربما تخيّلنا منها خيالاً طفيفاً ضعيفاً، وخصوصاً عند انحلال المشكلات واستيضاح المطلوبات النفيسة. ونسبة التذاذنا هذا إلى التذاذنا ذلك نسبة الالتذاذ الحسي بتنشق روائح المذوقات اللذيذة إلى الالتذاذ بتطعّمها، بل أبعد من ذلك بعداً غير محدود.

وأنت تعلم إذا تأملت عويصاً يهمّك، وعرضت عليك شهوة وخيّرت بين الطرفين، استخففت بالشهوة، إن كنت كريم النفس. والأنفس العامية أيضاً كذا، فإنها تترك الشهوات المعترضة، وتؤثر الغرامات والآلام الفادحة، بسبب افتضاح أو خجل أو تغيير أو شوق لغلبة، وهذه كلها أحوال عقلية. فبعضها يؤثر على المؤثرات الطبيعية ويصبر لها على المكروهات الطبيعية. فيعلم من ذلك أن الغايات العقلية أكرم على الأنفس من محقّرات الأشياء، فكيف في الأمور البهيّة العالية؟ إلا أن الأنفس الخسيسة تحس بما يلحق المحقرات من الخير والشر، ولا تحس بما يلحق الأمور البهيّة لما قيل من المعاذير.

وأما إذا انفصلنا عن البدن، وكانت النفس منا قد تنبهت، وهي في البدن، لكمالها الذي هو معشوقها، ولم تحصّله وهي بالطبع نازعة إليه، إذ عقلت بالفعل أنه موجود، إلا أن اشتغالها بالبدن، كما قلنا، قد أنساها ذاتها ومعشوقها، كما ينسى المريض الحاجة إلى بدل ما يتحلّل، وكما ينسى المريض الاستلذاذ بالحلو واشتهاءه، وكما تميل الشهوة بالمريض إلى المكروهات في الحقيقة، عرض لها حينئذٍ من الألم بفقدانه كفء ما يعرف من اللذة التي أوجبنا وجودها، ودلّلنا على عظم منزلتها، فيكون ذلك هو الشقاوة والعقوبة التي لا يعادلها تفريق النار للاتصال وتبديدها وتبديل الزمهرير للمزاج. فيكون مثلنا حينئذٍ مثل الخدر الذي أومأنا إليه فيما سلف، أو الذي عمل فيه نار أو زمهرير، فمنعت المادة الملابسة وجه الحس من الشعور به فلم يتأذّ، ثم عرض أن زال العائق فشعر بالبلاء العظيم.

وأما إذا كانت القوة العقلية بلغت من النفس حداً من الكمال، يمكنها به إذا فارقت البدن أن تستكمل الاستكمال التام الذي لها أن تبلغه، كان مثلها مثل الخدر الذي أذيق المطعم الألذ وعرض للحال الأشهى، وكان لا يشعر به فزال عنه الخدر، فطالع اللذة العظيمة دفعة. وتكون تلك اللذة لا من جنس اللذة الحسية والحيوانية بوجه، بل لذة تشاكل الحال الطيبة التي للجواهر الحية المحضة، وهي أجل من كل لذة وأشرف. فهذه هي السعادة وتلك هي الشقاوة. وليست تلك الشقاوة تكون لكل واحد من الناقصين، بل للذين اكتسبوا للقوة العقلية الشوق إلى

كمالها. وذلك عندما تبرهن لهم أن من شأن النفس إدراك ماهية الكمال، بكسب المجهول من المعلوم والاستكمال بالفعل. فإن ذلك ليس فيها بالطبع الأول، ولا أيضاً في سائر القوى، بل شعور أكثر القوى بكمالاتها إنما يحدث بعد أسباب. وأما النفوس والقوى الساذجة الصرفة، فكأنها هيولي موضوعة، لم تكتسب البتة هذا الشوق، لأن هذا الشوق إنما يحدث حدوثاً. وينطبع في جوهر النفس، إذا تبرهن للقوى النفسانية أن ههنا أمور يكتسب العلم بها بالحدود الوسطى، على ما علمت. وأما قبل ذلك، فلا يكون، لأن الشوق يتبع رأياً وليس هذا الرأي للنفس أولياً، بل رأياً مكتسباً. فهؤلاء إذا اكتسبوا هذا الرأي، لزم النفس ضرورة هذا الشوق، فإذا فارقت ولم يحصل معها ما تبلغ به بعد الانفصال التام، وقعت في هذا النوع من الشقاء الأبدي، لأن أوائل الملكة العلمية، إنما كانت تكتسب بالبدن لا غير، وقد فات. وهؤلاء إما مقصّرون عن السعي في كسب الكمال الإنسي، وإما معاندون جاحدون متعصّبون لآراء فاسدة مضادة للآراء الخفية. والجاحدون أسوأ حالاً، لما كسبوا من هيئات مضادة للكمال.

وأما أنه كم ينبغي أن يحصل عند نفس الإنسان من تصور المعقولات حتى تجاوز به الحد الذي في مثله تقع هذه الشقاوة، وفي تعدّيه وجوازه ترجى هذه السعادة، فليس يمكنني أن أنص عليه نصاً، إلا بالتقريب. وأظن أن ذلك أن يتصور الإنسان المبادىء المفارقة تصوراً حقيقاً، ويصدق بها تصديقاً يقينياً، لوجودها عنده بالبرهان، ويعرف العلل الغائية للأمور الواقعة في الحركات الكلية دون الجزئية، التي لا تتناهى، ويتقرر عنده هيئة الكل ونسب أجزائه بعضها إلى بعض، والنظام الآخذ من المبدأ الأول إلى أقصى الموجودات الواقعة في ترتيبه، ويتصور العناية وكيفيتها، ويتحقق أن الذات المتقدمة للكل أي وجود يخصّها، وأية وحدة تخصّها، وأنه كيف تعرف، حتى لا يلحقها تكثّر ولا تغيّر بوجه من الوجوه، وكيف ترتّبت نسبة الموجودات إليها.

ثم كلما ازداد الناظر استبصاراً، ازداد للسعادة استعداداً. وكأنه ليس يتبرأ الإنسان عن هذا العالم وعلائقه، إلا أن يكون أكد العلاقة مع ذلك العالم، فصار له شوق إلى ما هناك، وعشق لما هناك يصدّه عن الالتفات إلى ماخلفه جملة.

ونقول أيضاً: إن هذه السعادة الحقيقية لا تتم إلا بإصلاح الجزء العملي من النفس، ونقدّم لذلك مقدمة، وكأنا قد ذكرناها فيما سلف. فنقول: إن الخلق هو ملكة يصدر بها عن النفس أفعال ما بسهولة، من غير تقديم رؤية، وقد أمر في كتب الأخلاق بأن يستعمل التوسط بين الخلقين الضدّين لا بأن يفعل أفعال التوسط بل بأن يحصل ملكة التوسط. وملكة التوسط كأنها موجودة للقوة الناطقة والقوى الحيوانية معاً. أما القوة الحيوانية، فبأن يحصل فيها هيئة الإذعان والانفعال، وأما القوة الناطقة فبأن يحصل فيها هيئة الاستعلاء، كما أن ملكة الإفراط والتفريط موجودة للقوة الناطقة وللقوى الحيوانية معاً، ولكن بعكس هذه النسبة. ومعلوم أن الإفراط والتفريط هما مقتضيا القوى الحيوانية. وإذا قويت القوة الحيوانية، وحصل لها ملكة استعلائية، حدثت في النفس الناطقة هيئة إذعانية وأثر انفعالي قد رسخ في النفس الناطقة،

من شأنه أن يجعلها قوية العلاقة مع البدن، شديدة الانصراف إليه. وأما ملكة التوسط، فالمراد منها التنزيه عن الهيئات الانقيادية وتبقية النفس الناطقة على جبلتها، مع إفادة هيئة الاستعلاء والتنزّه، وذلك غير مضاد لجوهرها، ولا مائل بها إلى جهة البدن، بل عن جهته. فإن التوسط يسلب عنها الطرفين دائماً. ثم جوهر النفس إنما كان البدن هو الذي يغمره ويلهيه، ويغفله عن الشوق الذي يخصّه وعن طلب الكمال الذي له، وعن الشعور بلذة الكمال إن حصل له، أو الشعور بألم النقصان إن قصر عنه، لا بأن النفس منطبعة في البدن ومنغمسة فيه، ولكن العلاقة التي كانت بينهما، وهو الشوق الجبلي إلى تدبيره والاشتغال بآثاره، وبما يورد عليه عن عوارضه، وبما يتقرر فيه من ملكات مبدؤها البدن. فإذا فارق وفيه الملكة الحاصلة بسبب الاتصال، كان قريب الشبه من حاله وهو فيه. فبما ينقص من ذلك، تزول غفلته عن حركة الشوق الذي له إلى كماله، وبما يبقى منه معه يكون محجوباً عن الاتصال الصرف بمحل سعادته، ويحدث هناك من الحركات المشوشة ما يعظم أذاه.

ثم إن تلك الهيئة البدنية مضادة لجوهرها مؤذية له. وإنما كان يلهيها عنها أيضاً البدن وتمام انغماسه فيه. فإذا فارقت النفس البدن، أحسّت بتلك المضادة العظيمة وتأذت بها أذى عظيماً، لكن هذا الأذى وهذا الألم ليس لأمر لازم، بل لأمر عارض غريب، والعارض الغريب لا يدوم ولا يبقى، فيزول ويبطل مع ترك الأفعال التي كانت تثبت تلك الهيئة بتكرارها. فيلزم إذاً أن تكون العقوبة التي بحسب ذلك غير خالدة، بل تزول وتتمحي قليلاً قليلاً، حتى تزكو النفس وتبلغ السعادة التي تخصّها. وأما النفوس البله التي لم تكتسب الشوق، فإنها إذا فارقت البدن وكانت غير مكتسبة الهيئات البدنية الردية، صارت إلى سعة من رحمة الله ونوع من الراحة، وإن كانت مكتسبة للهيئات البدنية الردية، وليس عندها هيئة غير ذلك، ولا معنى يضاده وينافيه، فتكون لا محالة ممنوة بشوقها إلى مقتضاها، فتعذّب عذاباً شديداً بفقد البدن ومقتضيات البدن، من غير أن يحصل المشتاق إليه، لأن آلة ذلك قد بطلت، وخلق التعلق بالبدن قد بقي. ويشبه أيضاً أن يكون ما قاله بعض العلماء حقاً، وهو أن هذه الأنفس، إن كانت زكية وفارقت البدن، وقد رسخ فيها نحو من الاعتقاد في العاقبة التي تكون لأمثالهم، على ما يمكن أن يخاطب به العامة وتصور في أنفسهم من ذلك، فإنه إذا فارقوا الأبدان ولم يكن لهم معنى جاذب إلى الجهة التي فوقهم، لإتمام كمال، فتسعد تلك السعادة، ولا شوق كمال، فتشقى تلك الشقاوة، بل جميع هيئاتهم النفسانية متوجّهة نحو الأسفل منجذبة إلى الأجسام. ولا منع في المواد السماوية عن أن تكون موضوعة لفعل نفس فيها، قالوا، فإنها تتخيّل جميع ما كان اعتقدته من الأحوال الأخروية، وتكون الآلة التي يمكنها بها التخيل شيئاً من الأجرام السماوية، فتشاهد جميع ما قيل لها في الدنيا من أحوال القبر والبعث والخيرات الأخروية، وتكون الأنفس الرديئة أيضاً تشاهد العقاب المصوّر لهم في الدنيا وتقاسيه. فإن الصورة الخيالية ليست تضعف عن الحسية، بل تزداد عليها تأثيراً وصفاء، كما تشاهد ذلك في المنام. فربما كان المحلوم به أعظم شأناً في بابه من المحسوس، على أن الأخروي أشد استقراراً من

الموجود في المنام بحسب قلة العوائق وتجرد النفس وصفاء القائل. وليست الصورة التي ترى في المنام والتي تحس في اليقظة، كما علمت، إلا المرتسمة في النفس إلا أن إحداهما تبتدىء من باطن وتنحدر إليها، والثانية تبتدىء من خارج وترتفع إليها، فإذا ارتسمت في النفس، تمّ هناك إدراك المشاهدة. وإنما يلذ ويؤذي بالحقيقة هذا المرتسم في النفس، لا الموجود من خارج، فكل ما ارتسم في النفس فعل فعله، وإن لم يكن سبب من خارج. فإن السبب الذاتي هو هذا المرتسم، والخارج سبب بالعرض، أو سبب السبب.

فهذه هي السعادة والشقاوة الخسيستان اللتان بالقياس إلى الأنفس الخسيسة. وأما الأنفس المقدسة فإنها تبعد عن مثل هذه الأحوال وتتصل بكمالها بالذات وتنغمس في اللذة الحقيقية، وتتبرأ عن النظر ما خلفها، وإلى المملكة التي كانت لها كل التبري. ولو كان بقي فيها أثر من ذلك، اعتقادي أو خلقي، تأذت وتخلفت لأجله عن درجة عليين إلى أن ينفسخ عنها.

الأهلية للنشر والتوزيع